الإمام جعفر الصادق

عليه السلام

إمام المسلمين

تأليف

الدكتور عبد الحليم الجندي

تقديم

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحیم

الامام جعفر الصادق (ع)امام المسلمين

كاتب:

المستشار عبدالحليم الجندى

نشرت فى الطباعة:

انصاريان

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الامام جعفر الصادق (ع)امام المسلمين

اشارة

المؤلف: المستشار عبدالحليم الجندی

تحقیق: کمال السید الطبعة:الاولی

طبع فی سنة: ۱۴۲۷ ق / ۲۰۰۶ م

الناشر : نشر انصاریان

مقدمة

عاش الامام الصادق فی زمن التحولات الکبری، و شهد زوال حکم دموی رهیب، و قیام حکم غاشم نهض علی جماجم الضحایا. و کان - علیه‌السلام - فی طلیعة الذین صنعوا تلک الحقبة الحساسة من التاریخ الاسلامی. و اذا عرفنا «ان الله لا یغیر ما بقوم حتی یغیروا ما بأنفسهم»، أدرکنا عمق الدور الهام الذی اضطلع به الامام الصادق فی ایقاف حالة التداعی الفکری التی عصفت بالأمة یومذاک. ففی عهده علیه‌السلام استکملت مدرسة أهل‌البیت ملامحها و بدأت تخرج العلماء و العباقرة الذین تصدوا لمنازلة زعماء العقائد المنحرفة و الضالة؛ و من ثم تجذیر الحالة الاسلامیة التی کانت تهتز بشدة. أدرک آلام امته، فانتهج طریقه اللاحب لا یحید عنه قید شعرة؛ و تماسک الأمة، و وحدتها تلزمه قاعدة فکریة صلبة، و الصراع الفکری فی ذروته، فانطلق الصادق علیه‌السلام یفجر ینابیع العلم تفجیرا، فسالت أودیة علی قدر کیف نجا الامام علیه‌السلام من براثن حکم قام علی أشلاء مذبحة عاشوراء؟! و کیف أمکنه ان یروض حکما قاسیا لا یعرف للرحمة معنی؟! ذلک هو السر فی شخصیة الامام الصادق علیه‌السلام. کانت الأرض تهتز تحت قدمیه بعنف... الجیوش القادمة من الشرق تحمل رایات سوداء و تبشر بدولة جدیدة... شعارها الرضا من آل محمد، و آلاف المؤامرات و الدسائس تحاک فی الظلام. و فی عصر قلق لا یعرف الثبات، ثبت الامام الصادق علیه‌السلام و ظل کما هو یشق طریقه بعیدا عن ألاعیب الساسة و مؤامرات ذوی الطموح. أحرق رسائل الذین دعوه للزعامة السیاسیة. کانت الوقائع مثیرة... مزلزلة، عاصفة... و کان [صفحه ۱۰] الصادق علیه‌السلام مطمئنا؛ لأنه کان یعیش فی عالم الحقائق لا الوقائع... کان ینظر الی ماوراء الحوادث، و کان همه الدائم الحفاظ علی کیان الأمة. فالأمة تحتاج الی فکر عمیق و قاعدة صلبة، فشمر عن ساعدیه وراح یرفع القواعد من البیت. هکذا عاش الصادق... معلما للانسان... حیاته حیاة الأنبیاء، و روحه العظیمة تنطوی علی ذات الأسرار التی انطوت علیها روح محمد و علی و الحسین. الکتاب الذی بین یدیک عزیزی القاری، یمثل - فی الحقیقة - رحلة فی عمق التاریخ و الانسان، ارتأت (مؤسسة أنصاریان) اعادة طبعه و بحلة جدیدة بعد اجراء بعض التصحیحات اللازمة فیما یتعلق ببعض الحوادث التاریخیة، اضافة الی التخفیف من حدة الاسلوب التبریری الذی یخدش الذوق المنطقی، خاصة فی الحقبة التی استوعبت وقائع صدر الاسلام... و من هنا جاء نشر الکتاب تحت عنوان: «طبعة جدیدة» کمال السید [صفحه ۱۱]

تمهید

لقد تتلمذ أبوحنیفة و مالک للإمام الصادق، و تأثرا به کثیرا، سواء فی الفقة أو فی التفکیر. و مالک شیخ الشافعی. و الشافعی یدلی إلی أبناء النبی (صلی الله علیه و آله و سلم) بأسباب من العلم و الدم. و قد تتلمذ له أحمد بن حنبل سنوات عشر. فهؤلاء أئمة أهل السنة الأربعة، تلامیذ مباشرون أو غیر مباشرین للإمام الصادق. غیر أن تعاقب الأئمة الأربعة لأهل السنة، و تقارب مذاهبهم فی تعبیرها

عن فقه «أهل السنة»، دفعا إلی وجه آخر. فظهرت کتبنا عنهم بین سنتی ۱۹۴۵، ۱۹۷۰ للمیلاد. و إلی ذلک فقد تأکد فی کتابنا «توحید الأمة العربیة» سنة (۱۹۶۵) أن «وحدة القاعدة القانونیة» هی الطریقة المثلی لربط المسلمین، فی شتی أقطارهم، بتشریع إسلامی شامل تتضاءل أمامه التشریعات المعاصرة فی الغرب و الشرق. و الفقه «الشیعی» واحد من النهرین اللذین تسقی منهما حضارة الإسلام، و إلیه لجأ الشارع المصری فی هذا القرن لإجراء إصلاحات ذات بال فی نظام الأسرة المصریة. و الإمام جعفر الصادق یقف شامخا فی قمة فقه أهل‌بیت النبی علیه الصلاة و السلام هو فی الفقه امام. و المسلمون الیوم یلتمسون فی کنوزهم الذاتیة مصادر أصیلة للنهضة؛ غیر خلیطة و لا ـ مستوردة. هو الإمام الوحید من «أهل البیت» الذی أتیحت له امامة دامت أکثر من ثلث قرن، تمحض فیها مجلسه للعلم، دون أن یمد عینیه الی السلطة فی أیدی الملوک. و بهذا التخصص سلم الأمة مفاتح العلم النبوی. و منه یبدأ التأصیل الواضح لمنهج علمی عام للفکر الإسلامی، نقلته أمم الغرب و وصلت الی ما وصلت الیه. و عمل به بین یدیه، ثم [صفحه ۱۲] أعلنه، تلمیذه جابر بن حیان أول کیمیائی کما تابع له «أوربا الحدیثة»، و هو «منهج التجربة و الاستخلاص»، أی الاعتبار بالواقع و تحکیم العقل، مع النزاهة العلمیة. فالإمام الصادق هو فاتح العالم الفکری الجدید، بالمنهج العقلانی و التجریبی، کأصحاب الکشوف الذین فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنین. و الإمام الصادق هو الإمام الوحید فی التاریخ الإسلامی، و العالم الوحید فی التاریخ العالمی، الذی قامت علی أسس مبادئه «الدینیة و الفقهیة و الاجتماعیة و الاقتصادیة» دول عظمی. و مصر تذکر منها أکبر دولة عرفها التاریخ فیها منذ عهد الفراعنة - الدولة الفاطمیة - التی امتد سلطانها من المحیط الأطلسی الی قناة السویس. ولو لا هزیمة جیوشها أمام الأتراک لخفقت أعلامها علی جبال الهملایا فی وسط آسیا. و العالم کله مدین لها بمدینة القاهرة. و المسلمون یدینون لها بالجامع الأزهر، الذی حفظ القرآن و السنة و اللغة العربیة، و علومها کافة. و یدینون لتعالیم الإمام بقیام دولة کبیرة فی ایران. و مجتمع عظیم بالعراق. و معاهد علمیة یتصدرها النجف الأشرف، و شعوب قویة فی الهند و باکستان و الیمن و أفغانستان و وسط آسیا و لبنان و سوریة و کثیر سواها. و هو الإمام الذی علم بالمواقف التی وقفها، قدر ما علم بالمبادی التی أرساها. فالمواقف أعمال. و هی أعلی صوتا من الأقوال. و لقد یعدل الموقف الواحد جهاد عمر کامل، أو مهمة حیاة رجل. و هو، بمکانه من «أهل البیت»، و حقه فی الخلافة، و امامته للفقهاء بلا استثناء، کان غرضا یطلبه اعظم خلفاء بنی‌العباس لیضیفه الی قوائم القتلی من صنادید القادة، أو الشهداء من «أهل البیت». و کان درسا من السماء أن یسیطر الإمام علی المیزان اذ یلتقیان، فیضعف الطالب عن المطلوب، و یرتفع الإمام الصادق بالخلیفة القاتل الی مستوی الحاکم العادل. و المستقبلیون الذین یتکلمون الیوم عن الأخذ بأسباب النهضة العلمیة، [صفحه ۱۳] کالسیاسیین الذین لا یرون النهضة بالغة شأوها الا أن تکون شاملة لأمور الدین و الدنیا - هؤلاء و أولاء، بحاجة الی الاطلاع علی حیاة الإمام الصادق، لیروا مقدار ما تفلح الدعوة الصادقة بالمبادئ الصحیحة، و الخطط الرشیدة، فی اقامة دول، و مجتمعات، قوامها الدین و العلم و العدل و الاقتصاد. و الله نحمد: لقد غیرت مصر فی سنة ۱۹۷۱ دستورها، و نصت علی أن «الشریعة الإسلامیة مصدر رئیسی للتشریع» و هی دعوة صادقة لتقوم القوانین المطبقة جمیعا علی أساس الشریعة. و بعد: فالکتاب الحالی یبلغ غرضه اذا کان صوتا یدعو الی الوحدة. و المسلمون تجمعهم أصول فکریة واحدة، و ان اختلفت الفروع أو تعددت الآراء. و فی تعدد الآراء ثراء. و لما عرض تلمیذ لأحمد بن حنبل تسمیة کتاب له «کتاب الاختلاف» قال له «سمه کتاب السعة». ألا: و انه لا صلاح للمسلمین و العرب الیوم فی مواجهة التحدی العالمی الا بالوحدة. و العالم الغربی الذی تهز الأفکار المادیة و الإلحادیة عقائده، و یزعزع الرعب النووی استقراره، بحاجة الی مبادئ الإسلام، و عرض شریعته علمیا، کهیئة ما عرضها الإمام الصادق علی ملحدی عصره فکانوا یسلمون، و کمثل ما علم تلامیذه و معاصریه قواعد العلم و الفقه و الاقتصاد التی تکفل للمسلمین النماء الفکری و الاجتماعی و الاقتصادی. و العالم الغربی، الذی یحسب للعالم الإسلامی حساب الطاقة التی خزنتها السماء فی الأرض الإسلامیة، التی جعلها الله مقرا لبیته العتیق، و حساب المعادن التی تعکس الأقمار الصناعیة لمعانها و اشراقها کلما صورت أرض المسلمین، العالم الغربی الذی جمعته الحروب الصلیبیة فی مواجهة العالم الإسلامی، و الذی خططت حدوده الحالیة حروب و معاهدات دینیة، و ازدهت قاراته الجدیدة بعد هجرات تجری فی جذورها [صفحه ۱۴] النوازع

الدينيـة، هـذا العـالم الغربى جـدير بـأن يواجهه المسـلمون كالبنيـان المرصوص. حياة الإمام تنقسم فى ترجمتها الى قسـمين: الأول عن الرجل، و الثانى عن علمه. و على ذلك وردت الصورة التى صورنا فيها هذه الحياة فى قسمين. كل منهما فى ثلاثة أبواب. يدور القسم الأول حول ظهور الإسـلام و تألق «على» و أولاده من «فاطمـة الزهراء» فى الصـدارة من الاشـخاص و الأحـداث، و البيئـة التى نتـج فيها الإمام الصادق؛ فتعاونت على اعداده ظروف الوفاء، أو العداء، لأهل البيت، لتهيئ منه إماما خصيصـته تعليم العلم الذى تلقاه عن جديه، و طريقته الأسوة الحسنة فى أعمال حياته، و تحمل التبعات حيث تزوغ الأبصار. و يعرض القسم الثانى من الكتاب تصور المؤلف للعلم الـذى علمه الإمـام، و المدرسـة التى أنتجته، و المنهـج العلمى، العـالمى، الـذى أخـذ به العلماء و الفقهاء ، و الرياضـيون و الفلكيون و الكيمائيون و علماء الطبيعـة الإسـلاميون، و نقله عنهم رياضـيو الوسـيطة فى اوربا، ليصـير «منهج التجربة و الاسـتخلاص» الذى يعمل به الفكر المعاصـر، بعد إذ ترجم من العربية فى جنوب فرنسا و اسـبانيا و صـقلية و سواها من جامعات أوربا، و سـبق إلى التنويه به «روجير بيكون» ثم نسب إلى «فرنسـيس بيكون» بعـد ثلاثـة قرون - و كـذلك المنهـج السياسـى و الاجتماعى و الاقتصادى الـذى نهضت عليه الدول العظمى و المجتمعات الإسـلامية التى يباهى بها المسـلمون فى العصر الوسيط و فى العصور الحديثة. و فى هذا القسم باب أخير تبـدو فبه عدالة التاريخ مصـححة لانحراف الأعداء و افتياتهم على أبناء على، كما يظهر فيه نصـر الله للمسـلمين إذ يتحدون. و الله نسأل أن يقينا الزلل. [صفحه ۱۷]

پاورقى

[۱] العرب تسمى ابن‌العم الشقيق أخا.

[۲] روى جميع بن عمير التيمى قـال «دخلت مع عمى على عائشـة فسـألت: أى النـاس كان أحب إلى رسول الله؟ قالت فاطمـة. قيل من الرجال؟ قالت زوجها. أن كان ما علمت صواما قواما» و فى مسـند الإمام أحمد عن على أنه قال: دخل على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سـلم)، و أنا نائم، فاستسـقى الحسن أو الحسـين فقام النبى إلى شاة لنا بكىء (قليلـة اللبن) فحلبها قدرت فجاء الحسن فنحاه النبى فقالت فاطمـة: يا رسول الله. كأنه أحبهما قال: لا ولكنه استسـقى قبله، ثم قال «أنا و اياك و هـذين، و هـذا الراقـد، فى مكان واحد يوم القيامـة». توفيت بعـد رسول الله (صـلى الله عليه و آله و سـلم) بسـتة أشـهر و قيل ثلاثة. و قيل بسـبعين يوما عن تسع و عشـرين سـنة أو ثلاثين.

[۳] لا ـ يتسع المقـام فى هـذا الباب إلا لبعض أمثال: - قاضاه خصم إلى عمر و ناداه عمر: قم يا أباالحسن. و لا حظ عمر أنه تألم فسأله. فقال «تألمت إذ كنيتنى و لم تكن خصـمى فلم تسو بيننا». - و قاضاه يهودى - و هو خليفة - فى درع - و لم تكن للخليفة بينة. فقضـى القاضـى ضده، فأسـلم اليهودى لما رأى من العدل. - و أودع قرشـيان مائة دينار - لدى قرشـية على ألا تدفعها لأحدهما دون الآخر. و لبثا حولا ثم جاء أحدهما وادعى أن الآخر مات. فدفعت إليه المال. ثم جاءها الآخر فأخبرته. فترافعا إلى على. و عرف على أن الرجلين مكرا بها. فقال للرجل: أليس قلتما لها لا تـدفعى لواحـد دون صاحبه؟ قال بلى. قال اذهب فجئ بصاحبك. فـذهب و لم يرجع. و هـذه اللفتـات المرتجلـة تصـدر عن وحـدة فكريـة فى أمور الإثبات و الإجراءات و إدارة الجلسات و هى دلائل متضافرة على اقتـدار مقطوع القرين «لعقل قضائى» أجمع الصحابة العظماء على أنه أقضاهم.

[۴] الأـشتر أول من قـال العبـارة الشـهيرة فى شـأن معاويـة حين سـئل: أشـهد معاويـة بـدرا؟ فأجاب: نعم من الجانب الآخر (أى جانب المشركين).

[۵] روى الأنبارى فى تاريـخ الأدباء أن سـبب وضع على كرم الله وجهه لهـذا العلم ما روى أبوالأسود الـدؤلى (۶۷) حيث قال: دخلت على أميرالمؤمنين على فوجـدت فى يـده رقعـة فقلت ما هـذه يا أميرالمؤمنين فقال: إنى تأملت كلام العرب فوجـدته قـد فسد بمخالطة هـذه الحمراء (يعنى الاعـاجم) فـأردت أن أضع شـيئا يرجعون إليه ثم ألقى إلى الرقعـة و مكتوب فيها (الكلام كله اسم و فعل و حرف

فالاسم ما أنبأ عن المسمى و الفعل ما أنبى به و الحرف ما أفاد معنى) و قال لى انح هذا النحو و أضف إليه ما وقع عليك و اعلم يا أباالأسود أن الأسماء ثلاثة... ظاهر و مضمر و اسم لا ظاهر و لا مضمر. و إنما يتفاضل الناس يا أباالأسود فيما ليس بظاهر و لا مضمر (أراد بذلك الاسم المبهم) قال وضعت بابى العطف و النعت ثم بابى التعجب و الاستفهام إلى أن وصلت إلى باب ان و أخواتها فكتبتها ماخلا «لكن» فلما عرضتها على أميرالمؤمنين (عليه‌السلام) أمرنى بضم (لكن) اليها. و كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية. فقال ما أحسن هذا النحو الذى نحوت فلذا سمى النحو. و ان المرء ليلاحظ أن هذا الفتح العظيم فى العلم كان من اهتماماته و هو أمير للمؤمنين، ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداده لمعركة. و ان أباالأسود هو واضع علامات الإعراب فى المصحف فى أواخر الكلمات بصبغ يخالف لون المداد الذى كتب به المصحف. فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف. و الضم نقطة إلى جانبه و الكسر نقطة فى أسفله و التنوين مع الحركة نقطتين ثم وضع نصر بن عاصم (۸۹) تلميذ أبى‌الأسود النقط و الشكل لأوائل الكلمات و أواسطها ثم جاء الخليل بن أحمد (۱۷۵) فشارك فى إتمام بقية الإعجام... و الخليل شيعى كأبى الأسود. و هو واضع علم العروض و صاحب المعجم الأول و واضح النحو على أساس القياس. فاللغة العربية مدينة لعلى و تلاميذ على. و كمثلها البلاغة العربية. و يعد على من ابرز خطباء التاريخ العالمى بخطبه و المناسبات التى دعت إليها.

[۶] لم يورث الخليفة الزهراء من أبيها. و قصد إليها مع عمر يذكران لها حديث الرسول فى حرمانها من ميراثها. قال أبوبكر: إنى سمعته (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) ثم قال: و الله إن قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى. و إنك أحب الى من عائشة (بنته). قالت: ارايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه و تعملان به؟. قالا: نعم. قالت: ألم تسمعا قول الرسول «رضا فاطمة من رضاى و سخط فاطمة من سخطى». قالا: سمعنا. قالت: إنى أشهد الله أنكما استخطتمانى. و ما أرضيتمانى. و لئن لقيت رسول الله لاشكونكما إليه... و خرجا يبكيان. فلقد كانت تبكى.

[۷] و منذئذ كانت لعلى شيعته. قال أبان بن تغلب «قلت لجعفر بن محمد (الصادق) جعلت فداك. هل كان أحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أنكر على أبى‌بكر فعله؟ قال: نعم اثناعشر رجلا من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص و سلمان الفارسى و أبوذر الغفارى، و المقداد بن الأسود و عمار بن ياسر و بريدة الأسلمى. و من الأنصار: أبوالهيثم بن التيهان. و سهل و عثمان ابنا حنيف. و خزيمة بن ثابت و أبى بن كعب. و أبوأيوب الأنصارى.

[۸] قرية على مبعدة ثلاثة ايام من المدينة.

[۹] كان أبوسفيان إحدى تبعات معاوية، أرسل معه من دمشق أموالا و أغلالا إلى عمر ليظهره على الأغلال التى كان أسارى المسلمين مقيدين بها فى حصون الروم. فلما رجع أبوسفيان إلى المدينة ذهب إلى عمر بالأغلال و لم يذهب بالمال. فسأله عمر: أين المال؟ قال: كان علينا دين و مؤنة، و لنا فى بيت المال حق. فإذا أخرجت لنا شيئا؟ قال عمر: اطرحوه فى القيود حتى يأتى بالمال... فأرسل أبوسفيان من جاء بالمال.]

[۱۰] عبد شمس أخوهاشم جد النبى و هما ابنا عبد مناف. و لعبد شمس بنون منهم: حبيب جد عبدالله بن عامر. و منهم أمية أبوحرب والد أبى‌سفيان، والد معاوية. و منهم أبوالعاص و له أبناء منهم عفان أبوعثمان. و الحكم أبومروان. و مروان كاتب عثمان. و منهم أبوعمر و له أبناء منهم أبومعيط جد الوليد بن عقبة الذى حده عثمان للخمر، و هو وال له. و منهم العاص أبوسعيد أحد ولاة عثمان. و منهم أبوالعيص جد عتاب بن أسيد عامل النبى على مكة. حيث ولى النبى أعداءه السابقين و لم يول أهله.

[۱۱] شهد صفين مع على ألفان و ثمانمائة من الصحابة... منهم سبعة و ثمانون من أهل بدر و تسعمائة من الأنصار و من بايعوا بيعة الرضوان.

[۱۲] و جاءه يوما جماعة فأكثروا القول و أطالوا فى خلافة على فرفع إليهم رأسه و قال: إن الخلافة لم تزين عليا ولكن عليا زينها. و مثل الشافعى رأى المسلمين عندما قال رجل «ما نفر الناس على إلا لأنه كان لا يبالى بأحد» فبهته الشافعى بقوله «كان له أربع خصال لا

تكون واحـدة منها لإنسان إلا و يحق له ألا يبالى بأحـد: انه كان زاهدا، و الزاهد لا يبالى بالدنيا و أهلها. و كان عالما، و العالم لا يبالى بأحد. و كان شـجاعا، و الشـجاع لا يبالى بأحد. و كان شريفا، و الشريف لا يبالى بأحد». و أما الخوارج على جيشه فكانوا ثمانية آلاف دعـاهم ليزيـل شـبهتهم. فـأبوا أن يجيئـوه إلاـ أن يقر بـالكفر على نفسه ثم يتـوب. فحـاربهم و نصـره الله عليهم. ثم حـاربوا الأـمويين و العباسـيين. و مع تكفيرهـم الكـثيرين من جمهـور المسـلمين بـدعوى التهـاون فى الـدين فالمسـلمون لاـ يكفرونهم لاـنهم متأولون. و أميرالمؤمنين على يعلم المسلمين ذلك بقوله عنهم: «إخواننا بغوا علينا». وفقه على فى معاملة العدو و فى الحرب عنوان على علم الإمام و حلمه. فهما من علم النبى و حلمه. إذا كانت هند بنت عتبة (أم‌معاوية) مثلت بجثة أسد الإسلام حمزة يوم أحد، و قال النبى يومذاك «ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هـذا» فلما جاءه يوم فتـح مكة «وحشـى» قاتل حمزة اكتفى بقوله «ويحك غيب عنى وجهك». و عفا عن هنـد و قـال للأعـداء «أنتم الطلقاء»، فلقـد صـنع على صـنيعه (يوم الجمل) عنـدما ظفر بابن الزبير فاكتفى بأن قال له «لا أرينك بعد اليوم» و ظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه. و ظفر بأهل البصرة فصفح الصفح الجميل.

[۱۳] بنو أمية: معاويه (۶۰ – ۴۱) يزيد (۶۴ – ۶۰) معاوية بن يزيد (ثلاثة اشهر فى سنة ۶۴). مروان بن الحكم ۶۵ – ۶۴، عبدالملك بن مروان ۸۶ – ۶۴. الوليد بن عبدالملك ۹۶ – ۸۶، سليمان بن عبدالملك ۹۹ – ۹۶. عمر بن عبدالعزيز ۱۰۱ – ۹۹، يزيد بن عبدالملك ۱۰۵ – ۱۰۱. هشام بن عبـدالملك ۱۲۵ – ۱۰۵، الوليـد بن يزيد ۱۲۶ – ۱۲۵. يزيـد بن الوليد ۱۲۶، ابراهيم بن الوليـد ۱۲۶. مروان بن محمد بن مروان ۱۳۲ – ۱۲۷ ه.

[۱۴] كان المحرض على قتل الحسين و أهل‌البيت شمر بن ذى الجوشن رقيب ابن‌زياد على قائد الجيش. و هو القائل أوقر ركابى فضة و ذهبا فقد قتلت السيد المحجبا قتلت خيرالناس أما و أبا و خيرهم إذ ينسبون نسبا.

[۱۵] اشتركت السيدة زينب أخت الحسين من ابيه و أمه معه فى المعركـة. و كان أثرها فى مصير أهل‌البيت عظيما. كانت زوجا لابن عمها عبدالله بن جعفر و كان قد أذن لها فى الخروج مع الحسـين فكانت تمرض المصابين فى الصفوف أثناء القتال. و لقد هم شمر بن ذى الجوشن بقتل زين‌العابدين، فاحتضـنته لتقتل معه، فانصرف المجرم مذموما مدحورا. و لما انتهت المعركة اقتيدت بين الأسرى إلى ابن‌زياد فى الكوفـة و إلى يزيـد فى دمشق و معها زين‌العابـدين تكلؤه بعنايـة الله على يديها لينجب، فيتسـلسل منه أئمة أهل‌البيت الاثنا عشـر، بل كل نسل الحسـين من الرجال. و كانت مثال الشـجاعة و البلاغـة العلويتين فى وجه ابن‌زياد و يزيـد. و لما أعيـد الأسـرى إلى المدينة أمر يزيد بإبعادها إلى مصـر فسارت إليها، فاسـتقبلها أهل مصر فى بلدة بلبيس على مبعدة عشرات الأميال من الفسطاط، و على رأس مستقبليها أمير مصر «مسلمة بن مخلد» فعاشت فى مصر عاما. ثم ماتت سنة ۶۲. و قبرها فى الحى المعروف باسمها و هو من أقدم أحياء القاهرة. و على مقربة منها حى السـيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن. جاءت إلى مصر مع زوجها فى المائة الثانية للهجرة و لقيها الامام الشافعى و لما مات حملت جنازته إليها فصلـت عليها و قالت (رحم الله الشافعى) و يحمل اسم السيدة نفيسة حى معروف بالقاهرة، كما يحمل اسم «الحسين» المسجد الأشهر بالقاهرة و الحى الذى يمجد عاصمة مصر و تتعالى فيه معاهد الجامع الأزهر و غيره من آثار الدولة الفاطمية و الدولة الأيوبية و دولتى المماليك.

[۱۶] الشاعر محمد إقبال شاعر الهند و باكستان.

[۱۷] و تعلم عليهما صلاح الدين فى حربه مع الصليبين يوم أرسل طبيبه إلى الملك رتشارد قلب الأسد قائد الصليبين. و أين من قواعد الحرب الإسلامية قواعدها عند الأوروبيين. إن ابقراط أباالطب اليونانى الذى ورثت اوربا قسمه الشهير كل طبيب قل اداء واجبه بالنزاهة و الأمانـة، عـدم التعصب – لكن أبقراط علم الأوربيين درسا آخر حين رفض أن يعالـج مرضـى الطاعون فى الجيش الفارسـى قائلا إن شرفه يمنعه من معالجة عدو لبلاده!.

[۱۸] قادها سليمان بن صرد الخزاعى احد صحابة الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم).

[۱۹] لم تمض أعوام حتى انهارت الدولـة الأموية، و نبش العباسـيون قبور معاوية و ابنه يزيد و عبدالملك بن مروان فلم يجدوا فيها ما

یصنعون فیه مثلة. أما قبر هشام فوجدوا فیه جثة هشام لم تبل بعد، فصنعوا فیها أکثر مما صنع برأس زید. إذ أمر السفاح بضربها بالسیاط و صلبها و حرقها و تذریتها فی الهواء.

[۲۰] خرج عبدالله بن معاویة بن عبدالله بن جعفر بن أبی‌طالب علی بنی مروان سنة ۱۲۷ فی الری بخراسان ثم استسلم لأبی مسلم بعد إذ ظفر الأخیر بجیوش بین مروان. و کتب إلیه یستعطفه بقوله «من الأسیر یدیه بلا ذنب إلیه و لا خلاف علیه. فان الناس من حوضک رواء و نحن منه ظماء رزقنا الله منک التحنن... فإنک أمین مستودع ورائد مصطنع. و السلام علیکم و رحمة الله» و لم یطلقه أبومسلم، بل أورده حتفه. و قیل سمه.

[۲۱] مالک بن أنس – عبدالحلیم الجندی – طبعة دار المعارف ص ۲۳۸ حیث تفصیل الواقعة.

[۲۲] کان صاحب فقه و أدب. سأل عن صاحب له فقیل ترکناه یرید أن یموت فضحک قوم، فقال: لقد ضحکتم منها عربیة! قال عزوجل «فوجدا فیها جدارا یرید أن ینقض فأقامه» یعنی یکاد أن ینقض. فوثب أبوعمرو بن العلاء فقبل رأسه و قال «لا نزال و الله بخیر مادام مثلک فینا» و أبوعمرو من أئمة اللغة الأولین.

[۲۳] فی ضواحی مدینة الحلة العراقیة.

[۲۴] یروی مالک أنه استدعاه فدخل فوجد عنده ابن أبی‌ذؤیب (۱۵۹) و القاضی ابن‌سمعان، فسأل مالکا عن حکمه (حکم المنصور) هو عدل أمجور فاستعفاه مالک من الجواب. فسأل ابن‌سمعان عن حکمه فأثنی علیه. فسأل ابن أبی‌ذؤیب فأجاب: أنت والله عندی شر الرجال... استأثرت بمال الله و رسوله و سهم ذوی القربی و الیتامی و المساکین و أهلکت الضعیف و أتعبت القوی و أمسکت أموالهم. فما حجتک غدا بین یدی الله؟. قال المنصور: ویحک! ما تقول؟. قال: رأیت أسیافا و إنما هو الموت و لابد منه. عاجله خیر من آجله. قال مالک: ثم خرجا و جلست. فقال المنصور: أجد رائحة الحنوط علیک؟ قلت: أجل، لما نمی إلیک عنی مانمی و جاءنی رسولک ظننت أنه القتل. قال: أو ماترانی اسعی فی أود الإسلام و إعزاز الدین عائذا بالله... یا أبا عبدالله انصرف إلی مصرک راشدا مهدیا... و إن احببت ما عندنا فنحن ممن لا- یؤثر علیک أحدا. قلت: إن یجبرنی علی ذلک أمیرالمؤمنین فسمعا و طاعة، و إن یخیرنی اخترت العافیة... قال: انصرف إلی أهلک معافی مکلوءا. فلما أصبحنا أمر بصرر دنانیر فی کل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطته فقال له: تدفع إلی کل رجل منهم صرة. أما مالک إن أخذها فبسبیله، و إن ردها علیک فلا جناح علیه. و إن کان ابن‌سمعان ردها. فأتنی برأسه و ان أخذها فهی عافیته. و إن أخذها ابن أبی‌ذؤیب فأتنی برأسه و إن ردها علیک فسبیله. قال مالک: أما ابن‌سمعان فأخذها و سلم. و أما ابن أبی‌ذؤیب فردها و سلم. و أما أنا فکنت و الله محتاجا إلیها فأخذتها. ثم رحل أبوجعفر متوجها إلی العراق. و روی مالک أنه استدعاه یوما و عبیدالله بن طاووس بن کیسان، و کان طاووس فقیه الیمن حتی مات فی سنة ۱۰۶ (طاووس بن کیسان تلمیذ ابن‌عباس جد أبی‌جعفر). قال أبوجعفر: حدثنی حدیث أبیک. قال عبیدالله: حدثنی أبی أن أشد الناس عذابا یوم القیامة رجل أشرکه الله فی سلطانه فأدخل علیه الجور فی حکمه. قال مالک: فضممت ثیابی خوفا من أن یصیبنی دمه. فقال المنصور ناولنی هذه الدواة... ثلاث مرات. فلم یفعل. قال أبوجعفر: لم لا تناولنی؟ قال: أخاف أن تکتب بها معصیة فأکون قد شارکتک فیها. قال: قوما عنی، ذلک ما کنا نبغی. قال مالک: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلک الیوم. و یروی الإمام الشافعی حول أساطین جامع عمرو عن عمه محمد بن علی بن شافع مثل ذلک. عندما قال له ابن أبی‌ذؤیب أخذت المال من غیر حله و جعلته فی غیر أهله و أن المنصور رد علیه بقوله: و الله لولا- أنا لأخذت أبناء الفرس و الروم و الدیلم هذا المکان منک. فوالله لولا- أنی أعلم أنک صادق لقتلتک. أما عمرو بن عبید فکان أبوجعفر المنصور یستقبله بالترحاب و ینشد فی نزاهته الشعر (کلکم یمشی روید. کلکم طالب صید. غیر عمرو بن عبید) و هو زعیم المعتزلة الذین یطلقون ألسنتهم فی الملوک و الصحابة. دخل علیه فقال له «إن الله أعطاک الدنیا بأسرها فاشتر نفسک ببعضها و اذکر لیلة تتمخض عن یوم لا- لیلة بعده» قال الربیع بن یونس حاجب المنصور: یا عمرو غممت أمیرالمؤمنین. قال عمرو للمنصور «إن هذا صحبک عشرین سنة لم یرلک علیه أن ینصحک یوما واحدا. و ما عمل وراء بابک بشیء

من كتاب الله و لا سنة نبيه» قال أبوجعفر المنصور: فما أصنع، قلت لك خاتمى فى يدك فتعال و أصحابك فاكفنى. قال عمرو: لا. أدعنا بعدلك، تتسخ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق. و لما مات عمرو كان أول واحد من الرعية، و آخر واحد، ينظم فى رثائه الخليفة شعرا. و من أبياته: و إذا الرجال تنازعوا فى شبهة وصل الحديث بحجة و بيان و لو ان هذا الدهر أبقى صالحا أبقى لنا عمرا أباعثمان و الجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه «إن عبادته تفى بعبادة عامة الفقهاء و المحدثين». و ستبقى صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلا بعد وفاة عمرو و أبى‌عمرو و أبى‌جعفر لأن المعتزلة يمدون إلى بنى العباس سببا علميا و سببا سياسيا. قالوا: إن واصلا (و هو زعيمهم مع أخى زوجته عمرو ابن‌عبيد) أخذ أصوله عن أبى‌هاشم (۹۸) عبدالله بن محمد الحنفية – ابن‌على بن أبى‌طالب و كان أبوهاشم قدريا مثلهم – ينفى القدر – و يضيفون أن محمد بن على بن عبدالله بن عباس: ۱ – تعلم على أبى‌هاشم، ۲ – و تلقى منه الوصية بالإمامة بعده – دون بنى على بن أبى‌طالب – عندما أحس أبوهاشم بدنو أجله إذ دس السم إليه سليمان بن عبدالملك.

[۲۵] لما استخلف أبوجعفر قصد إليه عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى قادما من القيروان و كان زميلا له فى عهد الطلب، فعرض عليه المقام ببغداد. و قال له كيف رأيت ما وراء بابنا؟ فأجابه: رأيت ظلما فاشيا و أمرا قبيحا. قال: لعله فيما بعد من بابى. فأجابه: بل كلما قربت استفحل الأمر و غلظ. قال: ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا و قولك مقبول عندنا؟ فأجابه: رأيت السلطان سوقا... و إنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها. قال: كأنك كرهت صحبتنا؟ فأجابه: ما يدرك المال و الشرف إلا من صحبتكم. و لكنى تركت عجوزا، و إنى أحب مطالعتها.

[۲۶] يفضل أحمد بن حنبل ابن أبى‌ذؤيب على مالك لمجاهرته بالحق فى وجه أبى‌جعفر. و تقدير الشافعى لابن أبى‌ذؤيب يتراءى فى رأى تلميذه أحمد. و فى رواية الشافعى عن عمه فى صدده. أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة.

[۲۷] الدانق سدس درهم.

[۲۸] عبدالعزيز بن مروان بن الحكم، عينه عبدالملك على مصر و أفريقية. و هو الذى بنى مدينة حلوان ضاحية الفسطاط – القاهرة. و فيها عاش عمر بن عبدالعزيز زمانا. و جيوش أفريقية هى التى فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد و موسى بن نصير.

[۲۹] أطلق الخليفة سليمان بن عبدالملك من سجون الحجاج فى يوم واحد ثمانين ألفا. منهم ثلاثون ألفا بغير ذنب. و منهم ثلاثون ألف أمرأة.

[۳۰] و تستمر عجلة الطغيان فى الدوران. و تتوالى مقاتل الطالبيين توالى الخلفاء العباسيين – ففى بدء عهد المأمون يقتل بالعراق: الحسن و الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع ابى‌السرايا، و الحسن بن اسحق بن على فى وقعة السوس مع أبى‌السرايا. و محمد بن الحسن بن الحسين يقتل باليمن فى أيام أبى‌السرايا. و على بن عبدالله بن محمد يقتل باليمن فى أيام أبى‌السرايا و محمد بن إبراهيم بن اسماعيل (و هو ابن‌طباطبا) الخارج مع أبى‌السرايا سنة ۱۹۹ مطالبين بالبيعة (للرضا من آل محمد). و قد انهزموا بجيش هزثمة بن أعين قائد المأمون سنة ۲۰۰. و قتلى العلويين على يد هذا الجيش كثيرون.

[۳۱] و فى عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم... بن على بالطالقان فقبض عليه عبدالله بن طاهر و بعث به الى الخليفة. و حبس المعتصم عبدالله بن الحسن... بن جعفر حتى مات فى مخبئه. فلما جاء الواثق أمن العلويون بضع سنين، إذ جمعوا ثم حبسوا، عن الانطلاق خارج العاصمة سامرا، فتطامنوا و أطمأنت السلطة. ثم هبت عليهم فى أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفزع. فلقد أزال قبر الحسين (عليه‌السلام) و حرثه حتى لا يزار، و شتت شمل شيعته و فرقهم فى النواحى. فمنهم من حبسوا و منهم من تواروا حتى ماتوا فى مهربهم – و تناقل الناس أشعارا منسوبة الى ابن‌السكيت عالم النحو الكبير، و كان يعلم ولدى المتوكل. و فى هذه الأشعار: تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن‌بنت نبيها مظلوما فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوما أسفوا على ألا يكونوا شاركوا فى قتله فتتبعوه رميما! و ربما أراد المتوكل أن يتيقن من صدور هذا الشعر أو من ولاء العالم حين سأله: أيهما أحسن: ولداى (المؤيد و المعتز)

أم‌الحسن و الحسین؟... و لم یرضه جوابه. فأمر بقتله فقتلوه. و لم یلبث المتوکل إلا قلیلا حتی قتله ابنه (المنتصر) فی مؤامرة! و إنما کانت فظاعة الجریمة الأخیرة قصاصا عجلت به السماء لمقتل عالم آثر الصدق. و لم یصلح للعلویین بال إلا أشهرا بعد مصرع المتوکل، لیعود البطش بهم الی عنفوانه فی أیام المستعین. فمنهم من خرج و خرج الناس معه، کیحیی بن عمر خرج فقتل. و منهم من خرج و لم یخرج الناس معه، فحبس لیموت سنة ۲۷۱. و هو الحسن بن محمد المعروف بالحرون. و منهم محمد بن محمد جعفر خرج و حبس حتی مات فی سامراء لیتتابع سجل الشهداء....

[۳۲] نقف عن السرد، عند أبیات لابن الرومی (۳۸۴ – ۳۲۱) من جیمیته فی رثاء یحیی بن عمر بعد مقتله إذ خرج علی بنی‌العباس فی القرن الرابع من جراء ظلمهم: أمامک فانظر أی نهجیک تنهج طریقان شتی؛ مستقیم و أعوج أکل أوان للنبی محمد قتیل زکی بالدماء مضرج؟ بنی‌المصطفی کم یأکل الناس شلوکم لبلواکمو عما قلیل مفرج أبعد المسمی بالحسین شهیدکم تضاء مصابیح السماء فتسرج؟ أیحیی العلا لهفی لذکراک لهفة بیاشر مکواها الفؤاد فینضج لمن تستجد الأرض بعدک زینة فتصبح فی أثوابها تتبرج؟ سلام و ریحان و روح و رحمة علیک و محدود من الظل سجسج ألا أیها المستبشرون بیومه أظلت علیکم غمة لا تفرج نظار لکم ان یرجع الحق راجع الی أهله یوما فتشجوا کما شجوا غررتم إذا صدقتمو أن حالة تدوم لکم. الدهر لونان. أخرج أبی‌الله إلا ان یطیبوا و تخبثوا و ان یسبقوا بالصالحات و یفلحوا لعل قلوبا قد أطلتم غلیلها ستظفر منک بالشفاء فتثلج.

[۳۳] ادعی خالد بن عبدالله القسری مالا قبل زید و أبناء الصحابة. فدعاهم الخلیفة هشام بن عبدالملک الی العاصمة و سألهم فأنکروا مزاعمه. فأعادهم الی والیه علی العراق یوسف بن عمر لیستحلفهم. و قیل ان هشاما لم یرد السلام علی زید فأغلظ له زید فی الکلام. و کان زید فی الذروة من فقهاء العصر – و لما رجعوا الی الکوفة استحلفهم یوسف فحلفوا، لکنه أبقاهم محبوسین فی انتظار رأی هشام. فأمره بإخلاء سبیلهم فخرج زید من الحبس قاصدا القادسیة. و اجتمع الیه شیعة الکوفة و طلبوا الیه الخروج علی الخلیفة و تعهدوا بنصره. فخرج الیهم. فجمعوا له أربعة آلاف رجل ثم انفضوا من حوله. فحارب حرب الأبطال حتی استشهد. فکان منهم معه ما کان من آبائهم مع جده أی (فعلوها حسینیة) کما قال. ثم خرج ابنه یحیی فقتل سنة ۱۲۵.

[۳۴] و لما جیء بزین‌العابدین (علیه‌السلام) فی أسری کربلاء أقیم علی درج دمشق، فقال له رجل من أهل الشام: الحمد لله الذی قتلکم و استأصلکم و قطع قرن الفتنة. قال زین‌العابدین: قرأت القرآن؟ قال الرجل: نعم. قال: قرأت ال.حم؟ قال الرجل: نعم. قال: أما قرأت (قل لا اسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی) قال الرجل: فإنکم إیاهم؟ قال نعم. و یقصد الامام الآیة ۲۳ من سورة الشوری (ذلک الذی یبشر الله عباده الذین آمنوا و عملوا الصالحات. قل لا أسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی و من یقترف حسنة نزد له فیها حسنا إن الله غفور شکور) و أول آیات سورة الشوری (حم).

[۳۵] حج هشام بن عبدالملک فی خلافة أبیه، فرأی رجلا ینجفل الناس الیه، و یفسحون فی الطواف له، فی حین لا یحفل الناس بابن الخلیفة، فسأل من هذا؟ و سمع الفرزدق السؤال؛ فأنشد میمیته الطویلة المشهورة فی الأدب العربی؛ و مما جاء فیها: هذا ابن‌خیر عباد الله کلهم هذا التقی الطاهر العلم هذا الذی تعرف البطحاء وطأته و البیت یعرفه و الحل و الحرم إذا رأته قریش قال قائلها الی مکارم هذا ینتهی الکرم ینمی الی ذروة العز التی قصرت عین نیلها عرب الاسلام و العجم یغضی حیاء و یغضی من مهابته فلا یکلم إلا حین یبتسم هذا ابن‌فاطمة إن کنت جاهله بجده انبیاء الله قد ختموا الله شرفه قدرا و عظمه جری بذلک له فی لوحه القلم و لیس قولک من هذا بضائره العرب تعرف من أنکرت و العجم ما قال «لا» قط إلا فی تشهده لولا التشهد کانت لاؤه نعم من معشر حبهم دین. و بغضهم کفر. و قربهم منجی و معتصم من یعرف الله یعرف أولیة ذا فالدین من بیت هذا ناله الأمم و غضب هشام و أرسل زین‌العابدین (علیه‌السلام) للفرزدق أربعة آلاف درهم، ردها الفرزدق قائلا: إنما مدحتک بما أنت أهله، وردها الامام قائلا: إنا أهل‌بیت اذا وهبنا شیئا لا نستعیده.

[۳۶] یقال عن أمها «هند» أکرم الناس أحماء: أما أسماء فزوج جعفر و لها منه عبدالله. و زوج أبی‌بکر و لها منه محمد. و زوج علی و

لها منه يحيى. أما أخواتها فميمونة أم‌المؤمنين و لبابة زوج العباس عم النبى وجدة خلفاء الدولة العباسية. و سلمى زوج حمزة بطل أحد و شهيدها و عم النبى. و أم‌الفضل الكبرى (أخت أسماء لأمها) أم‌خالد بن الوليد.

[۳۷] حجت أم‌فروة متنكرة فاستلمت الحجر بيدها اليسرى فقال لها رجل لا يعرفها: يا أمة الله أخطأت السنة! فأجابت: يا هذا إنا عن علمك لأغنياء.

[۳۸] و للقاسم و أبيه أكبر الصلات بأم المؤمنين عائشة، إذ ضمته اليها بعد مقتل أبيه محمد، على أيدى جند معاوية، و محمد ربيب على... سيره معها بعد وقعة الجمل الى المدينة فى كوكبة من النساء فى ملابس الرجال. و كان تسيير أخيها معها كرامة يحفظ بها أخو الرسول أم‌المؤمنين. و فى بيت عائشة سقى القاسم علمها الذى أراد عمر بن عبدالعزيز تدوينه عن طريقه، و عمر خليفة، حتى لا يضيع علم المدينة، فكتب بذلك الى قاضيه و واليه على المدينة أبى‌بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

[۳۹] يقول فيه يحيى بن سعيد (۱۴۳) تلميذ فقهاء المدينة السبعة (ما أدركنا بالمدينة أحدا نفضله على القاسم) و ابن‌حنبل يقول فى يحيى (أثبت الناس).

[۴۰] محمد بن المنكدر (۱۳۰) من معادن الصدق بالمدينة و أشياخ مالك، من بنى تيم قبيلة أبى‌بكر، و هم مشهورون بالرقة و الورع. و هم أجداد الامام جعفر عليه‌السلام – كان لا يسأل ابن‌المنكدر أحد عن حديث إلا بكى. و مالك يقول: «كنت إذا وجدت من نفسى قسوة آتى ابن‌المنكدر فأنظر اليه نظرة فأبغض نفسى أياما». و ابن‌المنكدر يقول: «كابدت نفسى فى ذلك أربعين عاما حتى استقامت». و كان من بنى‌المنكدر إخوة ثلاثة فقهاء: محمد و أبوبكر و عمر أبناء المنكدر.

[۴۱] استعصى على المسلمين حصن من حصون الروم، فتصدى له فارس ملثم فاقتحمه و تتابع وراءه المسلمون و اختفى الفارس فى الجند. و لما سئل ابن‌المبارك فيما بعد، عن إخفاء نفسه، قال «لأن من صنعت ذلك لأجله – سبحانه – مطلع عليه». و خرج الى الحج فمر بامرأة رآها تخرج غرابا ميتا من حيث ألقى به. فسألها فقالت: انها و زوجها لا يجدان ما يطعمانه. فقال لوكيله: كم معك من نفقة الحج؟ قال: ألف دينار. قال «عد منها عشرين تكفى للعودة الى مرو (عاصمة خراسان) و أعطها الباقى. فهذا أفضل من حجنا هذا العام». و رجع و لم يحج. و كان الرشيد بالرقة يوما و أقبل عليه ابن‌المبارك. فانجفل الناس خلفه و رأته أمولد الرشيد فقالت: هذا و الله الملك. لا ملك هارون الذى يجمع الناس بشرطة و أعوان. و لما مات ابن‌المبارك جلس الرشيد فتقبل العزاء فيه.

[۴۲] عبدالكريم بن أبى‌العوجاء هو خال معن بن زائدة الشيبانى أحد قواد بنى‌مروان، و كبير من كبار الولاة لأبى‌جعفر المنصور. و هو الذى أنقذ أباجعفر من الموت يوم الراوندية و أبلى – و أهله بنو شيبان – أعظم البلاء فى الدفاع عن بنى‌العباس. و لما قدم ابن أبى‌العوجاء للقتل للزندقة سنة ۱۶۱ قال: «لن يقتلونى. لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام و حرمت الحلال» لكن علماء الجرح و التعديل فطنوا اليها جميعا و استبعدوها.

[۴۳] فى القرآن مجاز كثير مثل عرض الأمانة على السموات و الأرض، يفسرها بعض العلماء أنها الطاعة. و مثل يد الله فوق أيديهم يفسرها البعض بأنها القدرة – و هؤلاء المخرجون يبدأون من أن (الله ليس كمثله شىء) و الآخذون بالتأويل يبدأون من ذلك المبدأ ثم يؤولون الآيات المتشابهة على اساس الآيات المحكمة، كقوله تعالى (الى ربها ناظرة) يفسرونها على أساس قوله (لا تدركه الأبصار) فيكون المقصود الرضى عنها. و للمؤولين تفاسير كثيرة منها فى غياهب الاهمال و بخاصة تفاسير المعتزلة ، بقى منها الكشاف للزمخشرى الفقيه الحنفى؛ و للبلاغة العربية فيه أعظم مكان .

[۴۴] يحدد الصادق عليه‌السلام الامامة بتشبيه قرآنى يفسر وجوبها، إذ يسأل عن حديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «من مات و ليس له امام فميتته ميتة جاهلية» هل هى ميتة كفر؟ فيجب: «ميتة ضلال» – و كذلك يحدد جده زين‌العابدين عليه‌السلام معنى العصمة بحد قرآنى إذ يسأل عن معنى المعصوم فيقول: «هو من اعتصم بحبل الله المتين أى القرآن. فلا يفترق الامام عن القرآن الى يوم القيامة. فالإمام يهدى الناس الى القرآن، و القرآن يهدى الناس الى الامام بقوله تعالى «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم...». و

يلاحظ أن الـذى فتق الكلام فى الامامـة و فصل و أصل فيها هم تلاميـذ الامام. و ربما بدأ الكلام فيها فى عهده كما يقول المستشـرق رونالـدسن. أمـا التعريفات الوافيـة فتنسب الى الامام الرضا (۲۰۲) حفيـد الامام الصادق. يقول الامام الرضا عليه‌السـلام: «الامامـة منزلة الأنبياء، و وراثة الأوصياء. الإمامة خلافة الله و خلافة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الامامة زمام الدين و نظام المسلمين و صلاح الدنيا و عز المؤمنين» و الماوردى من فقهاء أهل السـنة يحدد غرضـها فيقول: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين و سياسة الدنيا».

[۴۵] الجبر ان الانسان مجبر على اعماله. و التفويض ان الانسان مخير فيها. و هما نظريتان لمفكرين كانوا أحياء فى بـدايات حياة الامام عليه‌السـلام – قـال بالجبر الجعـد بن درهم متأثرا بقول بيان بن سـمعان. و قال بالتفويض غيلان الدمشـقى و معبـد الجهنى – و قـد قتل الأربعة: الأولان قتلهما خالد بن عبدالله القسرى والى بنى‌أمية. و الأخيران قتل الأول منهما هشام بن عبدالملك. أما معبد فقتله الحجاج لاشتراكه عليه فى حركـة ابن‌الأشـعث. و تابع جهم بن صـفوان الجعد. و قد قتله سالم بن أحوز المازنى بمرو فى أواخر أيام بنى‌أمية. و فى حيـاة الامام الصادق عليه‌السـلام ازدهرت نظريـة الإرجاء الى الله، حتى يكون يوم الحساب، فيحاسب الناس على عملهم مع وجوب قيامهم بالعمل الصالح. قال بها سـعيد بن جبير و حماد بن أبى‌سـليمان شـيخ أبى‌حنيفة و مقاتل بن سليمان – و هو من السابقين الأولين فى التفسـير – و هؤلاء مرجئـة السـنة. أما مرجئـة البدعـة فيرجئون الحساب و لا يوجبون العمل الصالح. و الأولون يقولون ان الله يعاقب مرتكب الكبيرة لكنه قد يغفرها و لا يكفره الناس فى الحياة الدنيا لذلك الامل.

[۴۶] يلاحظ أن مدرسـة المحـدثين ضائقـة الصدر بالقياس. و مدرسة المدينة، و على رأسـها مالك، تقدح فى أهل العراق لكثرة ابداء الآراء باسـتعمال القياس. و لئن كان لنا ان نلاحظ تأثر أبى‌حنيفـة الكامل بمنهـج الامام الصادق عليه‌السـلام فى الاعتبار بالآيات الـدالة على الحقائق (أبوحنيفـة – بطل الحريـة و التسامح فى الاسـلام للمؤلف صـفحة ۱۷۸ طبعـة المجلس الأعلى للشؤون الاسـلامية) أو تأثر مالك بمنهـج الامام الصادق فى عدم المجازفة بالرأى (مالك بن أنس للمؤلف صـفحة ۷۶ و ما بعـدها طبعة دار المعارف)، اننا نقطع كذلك بأثره فى النهى عن القياس. فلقد نفع النهى القياسـيين أنفسـهم فضـبطوا القياس و تحروا كل الدقة فيه ليتفادوا المجازفة ثم جاء الشافعى فأصـله و قعـده. و هو القائل «و الاجتهاد القياس». يقول الفخر الرازى «العجيب ان أباحنيفـة كان تعويله على القياس و خصومه يـذمونه بسبب كثرة القياسـات، و لم ينقـل عنه و لا عن أحـد من أصـحابه انه صـنف فى إثبات القياس ورقـة، و لا انه ذكر فى تقريره شبهـة؛ فضـلا عن حجـة، و لا أنه أجاب عن دلائل خصومه فى إنكار القياس بل أول من قال فى هـذه المسألـة و أورد فيها الدلائل هو الشافعى». فأبوحنيفة استعمل القياس و الشافعى استعمله و أصله و قعد القواعد للعاملين به. و لقد أفاد الشيعة كثرة ما آل اليهم من السنة و نصوص الحديث فلم يلجأوا للقياس، كما كانت قواعدهم الاخرى كافية لبلوغ غرضـهم. و من أسـباب الإقبال على القياس فى العراق قلة ما سلموه من نصوص السنة. و انما اتسع فقه أحمد بن حنبل بكثرة السنن التى جمعها و اعتمد أصحابه عليها – مع تعويله على أصل الصـحابة فزاد مصادر الفقه أصـلا بتمامه. و القياس الـذى يلجأ اليه المجتهدون من أهل السـنة هو إلحاق أمر لم يرد فى حكمه نص أو إجمـاع بأمر ورد فى حكمه نص أو اجماع لاشتراكهما فى المعنى الـذى شـرع هـذا الحكم من أجله؛ فثمـة أركان أربعـة: الأصل و هو النص ، و الفرع و هو الأمر الذى لم يرد فى حكمه نص. و المعنى: الذى من أجله شرع الحكم. و المطلوب و هو الحكم، و هم يضعون للقياس شروطا: ۱ – أن يكون حكم الأصل ثابتا بنص فى الكتاب أو السنة أو الاجماع. ۲ – أن يكون لحكم الأصل علة يدركها العقل. فمن الأحكام ما هو تنفيذى لا يجوز القياس فيه، كتحديد عدد الركعات، و مقدار الأنصباء فى الأموال التى تجب فيها الزكاة، و تحديد عـدد الطواف حول الكعبـة. فهـذه مقـدرات لا يقاس عليها لأن العقل لا يـدرك عليـة مقاديرها. و جميع الأحكام إلا قليلا منها، كالتى سبق، يمكن للعقل إدراك المعانى التى شـرعت الأحكام لأجلها. ۳ – أن يتساوى الفرع و الأصل فى المعنى الذى شـرع حكم الأصـل من أجله، و إلاـ كـان القياس فيه مع الفارق. و ان يكون المعنى ظاهرا؛ لأنه معرف للحكم الخفى، و الخفى لا يعرف الخفى. ۴ – أن لا يكون فى الفرع نص أو اجماع يدل على حكم يخالف القياس. ۵ – أن لا يكون حكم الأصل خصوصية من الخصوصيات كاختصاص

الرسول بزواج من زدن على الأربع. و اختصاص خزيمة بأن تعدل شهادته رجلين. و أن لا تكون العلة قاصرة على الأصل لا يمكن تعدية حكمها الى الفرع. و بالقياس أمكن أهل السنة البناء على النصوص و استعمال العلل فى تحقيق مقاصد الشارع.

[۴۷] دخل الكميت على زين‌العابدين عليه‌السلام فأنشده قصيدته التى مطلعها: من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة و لا أحلام و قال الامام: ثوابك نعجز عنه لكن الله لا يعجز عن مكأفأتك. اللهم اغفر للكميت. ثم قسط على نفسه و على أهله أربعمائة ألف درهم؛ أعطاه القسط الأول قائلا: خذ يا أبا المستهل. قال الكميت: لو وصلتنى بدانق كان شرفا لى ولكن ان أحببت ان تحسن الى فادفع لى بعض ثيابك، التى تلى جسمك أتبرك بها. فنزع ثيابه و دفعها اليه كلها ثم قال: اللهم ان الكميت جاد فى آل رسولك و ذرية نبيك بنفسه حين ضن الناس، و أظهر ما كتمه غيره من الحق فأحيه سعيدا، و أمته شهيدا، و أره الجزاء عاجلا و أجزل له المثوبة آجلا، فإنا قد عجزنا عن مكافأته - قال الكميت فيما بعد: فما زلت أعرف بركات دعائه. و لئن كان عطاء الشعراء جوائز تشجيع لهم، ان تقسيط العطاء آية سخاء فى التشجيع، و ارتباط طويل بالمودة بين من قرض الشعر و بين من أجازه. و تعجيل العطاء بالاستدانة درس تعلمه زين‌العابدين على جده (صلى الله عليه و آله و سلم) كان يمكث شهرا ما يستوقد نارا، إن هو إلا التمر و اللبن، و مع ذلك لا يرد أحدا يسأله، بل يعطيه اذا كان عنده و إلا وعده. و ذات يوم جاءه رجل. فقال عليه الصلاة و السلام «ما عندى شيء. ابتع على فإذا جاء شيء قضيناه». قال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فكره ما قال عمر. و قال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق و لا تخش من ذى العرش إقلالا. فتبسم صلى الله عليه و آله و سلم. و قال «بهذا أمرت».

[۴۸] و فى العصر ذاته كان سعيد بن المسيب أول فقهاء المدينة السبعة يخاف أن يكتب عن العلم. جاءه رجل فسأله عن شيء فأملاه عليه، ثم سأله عن رأيه فأجابه. و كانوا من كثرة افتائه يسمونه سعيد بن المسيب الجرىء. فكتب الرجل. فقال جلساء سعيد: أتكتب يا أبامحمد؟ فقال سعيد للرجل: ناولنيها، فناوله الصحيفة فخرقها.

[۴۹] لفظ مولد من وجد، غير مسموع من العرب.

[۵۰] الطبعة الأولى - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة - ص ۲۶۱.

[۵۱] يذكر ابن‌النديم فى الفهرست: «و كان الشافعى شديدا فى التشيع. ذكر له رجل يوما مسألة فأجاب فيها. فقال له خالفت على بن أبى‌طالب. فقال له: أثبت لى هذا عن على بن أبى‌طالب حتى أضع خدى على التراب و أقول قد أخطأت و أرجع عن قولى الى قوله». و حضر الشافعى ذات يوم مجلسا لأحد الطالبيين فقال: «لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم. هم أحق بالكلام و لهم الرياسة و الفضل».

[۵۲] يقول فيه أحمد بن حنبل: «كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث» و هو من آباء علوم الحديث، و مؤلفاته مراجع فيها - و هى علوم أوصلها الحاكم النيسابورى الى اثنين و خمسين علما، و أوصلها النووى الى خمسة و ستين.

[۵۳] يقول ابن‌قتيبة عن الجفر فى «أدب الكاتب» ان الامام الصادق عليه‌السلام كتبه، و ان فيه كل ما يحتاجونه الى يوم القيامة. والى هذا الجفر، و احتوائه على كل شىء، يشير أبوالعلاء المعرى فى شعره: لقد عجبوا لآل البيت لما أتاهم علمهم فى جلد جفر فمرآة المنجم و هى صغرى تريه كل عامرة وقفر و ربما نسبوا من أجل ذلك الى الامام علوم كشف الغيب أو التنجيم.

[۵۴] نسبة الى مدينة قم فى ايران، و هى أقدم المدن التى بدأ فيها الشيعة الإمامية فى ايران. و قد نشأت على أيدى جماعة من الناجين من جيش ابن‌الأشعث (۸۳).

[۵۵] سعيد بن جبير هو الشهيد الوحيد الذى قتل من الرعب قاتله! سأله الحجاج و هو يقدمه للقتل: أى قتلة تشاء؟ فأجابه: «اختر أنت فالقصاص أمامك». ذلك أن القصاص قتل بقتل. فكان الحجاج بعد استشهاد سعيد يهب من نومه فزعا و هو يقول: مالى و لسعيد بن جبير!! ثم مات بعده بشهر. مات فى رمضان و سعيد فى شعبان سنة ۹۵. و رفض ابن‌المسيب أن يبايع لولدى عبدالملك بن مروان - الوليد و سليمان - و تمسك برأيه فأخذوه ليقتلوه، ثم اكتفوا بضربه بالسياط و جردوه من ثيابه و طافوا به. و رفض أن يزوج بنته للوليد

بن عبدالملک، و هو ولی عهد عبدالملک، و آثر أن یزوجها تلمیذا فقیرا من تلامیذه.

[۵۶] من الطبیعی أن یکون کثرة الشعراء شیعة . فالشعر ضمیر الشعوب و صوتها الصداح. و الضمیر الاسلامی کله یثقله أو یعذبه أو یهیج قرائحه ما أصاب أهل‌البیت من ظلم الحکومات، و یخفف عنه ما یعقده حول أهل‌البیت من أمل... لهم و له. و کلما أحسن الشعب ظلما طلب الرجاء و الاقتداء بابناء النبی علیهم‌السلام - و بهذا انضاف الی الثبت الحافل السابق ذکره: ابن‌هانئ الأندلسی؛ و مهیار الدیلمی؛ و أبوفراس الحمدانی؛ و الناشئ الصغیر؛ و الناشئ الکبیر؛ و کشاجم؛ و أبوبکر الخوارزمی؛ و البدیع الهمدانی؛ و الطغرائی؛ و السری الرفاء؛ و عمارة الیمنی. بل أصبح ثناء علی الشاعر أن یقال (یترفض فی شعره) أی یتشیع. و للمتنبی و أبی‌العلاء شعر شیعی. و أما أشراف العلویین فمنهم الشریف الرضی و الشریف المرتضی. و کان الشریف علی الجمانی یقول: «أنا شاعر و أبی‌شاعر و جدی شاعر» و منهم الشریف الشجری. بل کان من الأمویین متشیعون: ابان بن سعید بن العاص؛ و خالد بن سعید بن العاص؛ و عمر بن عبدالعزیز؛ و عبدالرحمن أخو مروان بن الحکم؛ و مروان بن محمد السروجی الذی یقول: یا بنی‌هاشم بن عبد مناف أنا منکمو بکل مکان و لئن کنت من أمیة إنی لبریء منهمو الی الرحمن و أبوالفرج الاصفهانی (۳۵۶ - ۲۸۴) جده السابع مروان بن محمد آخر خلفاء بنی‌مروان؛ و أبوالفرج صاحب «الأغانی» و «مقاتل الطالبیین». و من العباسیین شیعة: المأمون؛ و المعتضد؛ و أحمد بن الموفق. و من الأیوبیین کان: الأفضل بن صلاح‌الدین. و من الفلاسفة متشیعون: الکندی فیلسوف العرب (۲۴۶)؛ و الفارابی (۳۳۹)؛ و ابن‌سینا (۴۲۸). و من الوزراء المشهورین: أبوسلمة الخلال - قتله السفاح - و یعقوب بن داود - حبسه المهدی و أفرج عنه الرشید - و الفضل و الحسن ابنا سهل - قتل المأمون الأول و أصهر الی الثانی لیستل سخیمته؛ و بنو طاهر الخزاعی؛ و وزراء المأمون؛ و أبودلف العجلی؛ و الصاحب بن عباد... الخ.

[۵۷] سأل الترمذی أحمد بن حنبل عن عائشة و الزبیر و طلحة فأجاب: «من أنا حتی أقول فی أصحاب رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم! کان بینهم شیء الله أعلم به». فأحمد لا یسیغ قدحا فی الصحابة لورعه. و هم بأعمالهم و آرائهم أصل من أصوله... حتی انه لیبعث الی یحیی بن معین یقول له: هو ذا تکثر الحدیث عن عبدالله بن موسی العبسی و قد سمعته تناول معاویة. و قد أکثر الحدیث عنه. فقال یحیی للرسول «اقرأ علی أبی عبدالله أحمد بن حنبل السلام و قل له: أنا و أنت سمعنا عبدالرزاق (بن همام) یتناول عثمان بن عفان. فاترک الحدیث عنه، فإن عثمان أفضل من معاویة». و لم یترک أحمد حدیث عبدالرزاق.

[۵۸] ربما کان فی هذه الفترة الحرجة ما قیل من أنه دخل یوما علی المهدی، فقال المهدی: علی بالسیف و النطع. قال شریک: و لم یا أمیرالمؤمنین؟ قال المهدی: رأیتک فی منامی کأنک تطأ بساطی و انت معرض عنی، فقصصت رؤیای علی من عبرها فقال لی: یظهر لک طاعته و یضمر معصیته. قال شریک: و الله ما رؤیاک برؤیا ابراهیم الخلیل، و لا معبرک بیوسف علیه السلام. أفبالأحلام الکاذبة تضرب أعناق المؤمنین؟ فاستحی المهدی و قال: اخرج عنی، و أبعده. و کان الحقد علی أمیرالمؤمنین علی علیه‌السلام غذاء یومیا علی موائد بنی‌العباس لا تخلو منه واحدة حتی ولو کانت مائدة لخلیفة یتشیع هو المأمون. أنبأه عمه ابراهیم بن المهدی - و کان شدید الحقد علی علی علیه‌السلام - أنه رأی فی المقام علیا فمشیا حتی جاءا قنطرة فتقدم لعبورها فأمسکه ابراهیم و قال: أنت تدعی هذا الأمر بامرأة (یقصد أمر الخلافة و فاطمة الزهرا علیهاالسلام و ان علیا یتقدم بزواجه منها). فما رأیت له بلاغة فی الجواب... مازادنی علی أن قال: سلاما سلاما. فنهره المأمون علی ما افتضح من عقله الباطن فی صورة حلم. قال: لقد أجابک أبلغ الجواب. عرفک أنک جاهل لا یجاب مثلک. قال الله تعالی: «و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما». و لقد نهره أحمد بن أبی‌دؤاد مرة أخری إذ لم یتوقر فی مجلس القضاء، فقال له: «یا ابراهیم اذا نازعت فی مجلس الحکم بحضرتنا امرءا فلا أعلمن أنک رفعت علیه صوتا و لا أشرت بید. و لیکن قصدک أمما. و ریحک ساکنة. و کلامک معتدلا. ووف مجالس الخلیفة حقها من التوقیر و التعظیم». و کان مغنیا یعربد. نصبه أهله خلیفة لمدة عامین فی ثورة علی المأمون. ثم عفا عنه المأمون بعد أن ضبطوه یحاول الفرار فی ثیاب امرأة.

[۵۹] یقصد ابلیس، اشارة الی الایة الکریمة - حکایة عن قول ابلیس -: «فانظرنی الی یوم یبعثون».

[۶۰] كفروا عليا (عليه‌السلام) لقبوله التحكيم، و رأوا أن الخلافة لابد لها من بيعة الجمهور. و أنها لا تنحصر فى بيت معين و برئوا من على و عثمان و معاوية؛ الأول لقبوله التحكيم، و الثانى لمخالفة سياسة الشيخين أبى‌بكر و عمر، و الثالث لاستيلائه على الأمر بالقوة... يأخذون بظاهر العبارة من القرآن، و لا يأخذون من السنة إلا ما يرويه من يتولونهم. و عمدتهم فى الأحاديث المروية على عهد الشيخين. و كل من تعدى حدود الله عندهم فاسق. و لذلك عدوا أشياع معاوية و الذين لم يتبرأوا من على و عثمان – و هؤلاء جمهور الأمة – خارجين على الإسلام و استحلوا مالهم و قتلهم، و بهذا نفر الناس منهم.

[۶۱] من أدلة وحدة العلم أو التقارب فيه حديث، من هذه القلة، هو حديث اليمين مع الشاهد؛ و هى مسألة أريق فيها مداد كثير لفقهاء أهل السنة. جاء فى الموطأ رواية محمد بن الحسن: «أخبرنا مالك، أخبرنا جعفر بن محمد، عن أبيه ان النبى صلى الله عليه و آله و سلم قضى باليمين مع الشاهد». قال محمد بن الحسن – ذكر ذلك ابن أبى‌ذئب عن ابن‌شهاب قال سألته عن اليمين مع الشاهد فقال بدعة. و أول من قضى فيها معاوية. – و ابن‌شهاب أعلم عند أهل المدينة بالحديث من غيره. و كذلك ذكر ابن‌جريح عطاء بن رباح قال: «كان القضاء الأول: لا يقبل إلا شاهدان. و أول من قضى باليمين مع الشاهد عبدالملك بن مروان...». و هذا الحديث وارد فى سنن الترمذى و ابن‌ماجه، و رواه عن ابن‌عباس مسلم و أبوداود و النسائى و مسند أحمد، و الصحاح الخمسة تذكره موصولا – و تعمل به المدينة و مكة، و قد ذكر ابن‌جوزى أن رواة الحديث يزيدون عن عشرين صحابيا. و المذاهب الثلاثة تعمل به. و أبوحنيفة لا يعمل به.

[۶۲] و الشافعى الذى يرى زين‌العابدين (عليه‌السلام) أعلم أهل المدينة، يقول فى دفاعه العلمى المجيد عن حجية خبر الواحد فى الرسالة – «و فى تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفى بعض هذا منها... و لم يزل سبيل سلفنا و القرون بعدهم الى من شاهدنا هذا السبيل... و وجدنا على بن الحسين (يقصد زين‌العابدين عليه‌السلام) يقول: أخبرنا عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «لا يرث المسلم الكافر» فثبتها سنة و يثبتها الناس بخبره سنة. و وجدنا كذلك محمد بن على بن الحسين (الباقر عليه‌السلام) يخبر عن جابر عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) و عن عبدالله بن أبى‌رافع عن أبى‌هريرة فيثبت كل ذلك سنة. و وجدنا محمد بن جبير بن مطعم، و نافع بن جبير بن مطعم، و يزيد بن طلحة بن ركانة، و محمد بن طلحة بن ركانة، و نافع بن هجير بن عبد يزيد، و أباسلمة بن عبدالرحمن، و حميد بن عبدالرحمن، و طلحة بن عبدالله بن عوف، و ابراهيم بن عبدالرحمن بن عوف و خارجة بن زيد بن ثابت، و عبدالرحمن بن كعب بن مالك، و عبدالله بن أبى‌قتادة، و سليمان ابن‌يسار، و عطاء بن يسار، و غيرهم من محدثى أهل المدينة، كلهم يقول: حدثنى فلان لرجل من أصحاب النبى عن النبى أو من التابعين عن رجل من أصحاب النبى، فيثبت ذلك سنة». و إنك لتلاحظ ان الشافعى يستند الى رواية زين‌العابدين و الباقر (عليهماالسلام) فيضع زين‌العابدين فى مقام خاص به، هو الأول، و يضع ابنه الباقر فى المقام التالى لأبيه، ثم يجىء بالأبناء العلماء، للصحابة العظماء، وراء هذين المقامين، و يجىء بهم مجموعين، ثم يجىء بفضلاء التابعين بعد هؤلاء جماعات.

[۶۳] روى أحمد بن حنبل أحاديث أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فى مسنده الأعظم. و روى كذلك مسلم بن الحجاج (۲۶۱) و سليمان بن الأشعث السجستانى (أبوداود – ۲۷۵) و محمد بن عيسى الترمذى (۲۷۹) و محمد بن يزيد بن ماجه (۲۷۹) و النسائى أحمد بن على بن شعيب (۳۰۳) بقية أصحاب الصحاح كما يسميها أهل السنة. و النسائى من شهداء الوفاء لعلى (عليه‌السلام): خرج من مصر الى الشام فسألوه عن فضائل معاوية – إذ كان قد ألف فى فضائل على – و قيل إنه أجاب: ألا ترضى رأسا برأس حتى تفضل؟ أو قال: لا أعلم له فضيلة. فما زالوا يدفعونه فى خصيته حتى أخرجوه من المسجد و قد أشرف على الموت فقال: احملونى الى مكة فحمل اليها و توفى هناك.

[۶۴] كان وجود غلاة فى الشيعة فرصة للمغرضين، إذ نسبوا عمل الغلاة الى الشيعة كلهم، فأحدثوا بذلك أثرا كاذبا فى إفهام الآخرين بدعاوى هم منها براء، مثل ان الامام هو الله ظهورا و اتحادا؛ و هو غلو يبلغ مرتبة الكفر. و لقد أحرق على (عليه‌السلام) من ألهوه – بالنار – و تبرأ الصادق من أبى‌الخطاب الأسدى، و قتله جند أبى‌جعفر.

[۶۵] الزيدية: أتباع زيد بن على زين‌العابدين - أخى الباقر (عليهماالسلام) - قالوا إنه فوض فى الامامة قبل ان يستشهد الى محمد بن عبدالله بن الحسن (النفس الزكية). و كان زيد يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون؛ و لهذا أجاز خلافة أبى‌بكر و عمر، فرفضه شيعة العراق فسموا رافضة. و منذئذ أطلق على الشيعة الامامية اسم الرافضة. و قيل سموا الرافضة لرفضهم إمامة أبى‌بكر و عمر. و الأول رأى الشهرستانى، و الأخير رأى أبى‌الحسن الأشعرى. و الشهرستانى من الشيعة و الأشعرى من أهل السنة. و زيد يقول ان الأدلة اقتضت تعيين على (عليه‌السلام) اماما «بالوصف» لا بالشخص، و يقول ان الشيوخ يختارون «الأفضل» من أولاد على من فاطمة، عموما، «بالاجتهاد». و من شروط الزيدية أن يجتهد أئمتهم؛ و لذلک كثر فيهم الأئمة المجتهدون. و من شروطهم أن يخرج الامام داعيا لنفسه. و على هذا الشرط جادل الباقر أخاه زيدا بقوله «على قضية مذهبك والدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط و لا تعرض للخروج». و من الزيدية اليعقوبية يقولون بولاية أبى‌بكر و عمر و لا- يتبرأون منهما و ينكرون رجعة الأموات. و بقية الزيدية تتوقف فى أمر الرجعة... لا يقولون بها و لا ينكرونها. و ظهرت فى المذهب الزيدى مذاهب منها الهادوى و القاسمى و الناصرى و الهارونى التى تخالف الأصل فى فروع يسيرة و تسير عليه فى جملة الفروع و تلتقى بمذاهب أهل السنة، و بخاصة المذهب الهادوى الذى أسسه امام اليمن الإمام الهادى (يحيى بن الحسن بن ابراهيم بن القاسم) صاحب صعدة (۲۸۹ - ۲۸۰) و كان أئمة المذهب الهادوى من عظم اتفاقهم مع المذهب الحنفى يرون الأخذ بالمذهب الحنفى إذا لم يجدوا عن الإمام الهادى نصا فى المسألة. بل يذهبون الى أبعد من ذلك فيأخذون بأرجح ما فى المذاهب الأخرى. و الزيدية ترى ان كل من دعا لنفسه من أولاد على و فاطمة (عليهماالسلام)، و كان مستكمل الصفات، وجب اتباعه. و قد كتب لهم النجاح فى اليمن و طبرستان الى الجنوب من بحر قزوين. و العرب تسمى بحر قزوين بحر طبرستان. و قد ملك طبرستان الحسن بن زيد... بن الحسن بن على سنة ۲۵۰ حتى سنة ۲۷۰. و كانت ثورة ابن‌طباطبا فى بغداد فى أيام المأمون زيدية.

[۶۶] الكيسانية يقولون بإمامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه، و ان الحسن و الحسين انم خرجا بإذنه. و من الكيسانية أشياع المختار بن عبيدالله الثقفى. (۶۷). و منهم الهاشمية الذين يقولون إن محمدا أفضى الى ابنه أبى‌هاشم بالأسرار التى افضى إليه بها أبوه. و لما مات أبوهاشم انقسمت فرقته فرقا؛ واحدة تقول: انه اوصى لأخيه على، و ان الوصية لا تخرج عنهم حتى «يرجع» محمد بن الحنفية، و واحدة تنقسم الى فرق؛ منها: فرقة تقول: انه اوصى الى معاوية بن عبدالله بن جعفر بى أبى‌طالب (و قد قتله ابو مسلم الخراسانى)، و فرقة تقول: انه اوصى الى محمد بن على بن عبدالله بن العباس. و هاتان فرقتان تخرجان الإمامة الى غير ابناء على، و تفسر اهل‌البيت تفسيرا يسع غير أبناء على.

[۶۷] و يقول ابن أبى‌الحديد فى شرح نهج‌البلاغة: «و كل من عاداه أو حاربه و أبعضه فإنه عدو لله سبحانه و تعالى و خالد فى النار مع الكفار و المنافقين، إلا من ثبتت توبته و مات على توليه و حبه. فأما الأفاضل من المهاجرين و الأنصار الذين ولوا الإمامة قبله... رأينا رضى إمامتهم و بايعهم و صلى خلفهم و أنكحهم و أكل فيئهم... ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه. و لما لعنه لعناه. و لما حكم بضلال أهل الشام و من كان بينهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص و عبدالله ابنه، حكمنا أيضا بضلالهم... و الحاصل أننا لم نجعل بينه و بين النبى إلا- رتبة النبوة، و أعطيناه كل ماعدا ذلك من الفضل المشترک بينه و بينه. و لم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يحص عندنا أنه طعن فيهم».

[۶۸] و الشيعة تنفى قول القائلين بالصرفة و هو ما يزعمه بعض المعتزلة (النظام) من أن الله صرف المشركين عن أن يحاولوا الإتيان بمثل القرآن. فهذا القول مصيره نفى الإعجاز. و الإعجاز آية الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم).

[۶۹] اما الرواة عموما فيشترط أن يكونوا من الإمامية الاثنا عشرية يروون عن «إمام» عن النبى. وثمة من يقبل رواية غير الإمامى مادام موثقا أى أمينا عند الإمامية. قالوا: «لو كان بعض رجال السند غير امامى مصرحا بالتوثيق أو مصرحا بالمدح لابد من كون الباقى إماميا موثقا».

[۷۰] و الإرسال لا يمنع قبول الحديث عند أهل السنة. كان إبراهيم النخعى يروى الحديث مرسلا، فيقول له الأعمش: إذا رويت لى حديثا فأسنده. فيجيب: إذا قلت حدثنى فلان عن ابن‌مسعود فهو الذى رواه. و إذا قلت قال عبدالله فغير واحد. و الحسن البصرى يقول: «إذا قلت لكم حدثنى فلان فهو حديثه، و متى قلت: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فعن سبعين».

[۷۱] الخبر الذى يحصل العلم بصدوره من قرائن داخلية أو بغيرها مطابقة لظاهر القرآن أو معانيه أو لأدلة العقل، حجة معتبرة، لا للشهرة أو الاستفاضة أو التواتر أو أى شىء آخر، بل للعلم بصدوره الذى هو حجة بنفسه - فالخبر المتواتر أو المعلوم بصدوره لا حاجة لشروط فى روايته. و إنما الشروط فى خبر الواحد. و قد يعملون بالضعيف إذا اشتهر العمل به بين الأقدمين. أما علامات وضع الحديث فهى كمثلها عند أهل السنة تقريبا. و ليس عجيبا أن تكون السنة التى يتمسك بها الشيعة فى مجموعها هى السنة التى يتمسك بها أهل السنة. فاختلاف الروايات و اسنادها او إضافة مصدر الأئمة، لم تدخل فى التراث النبوى العظيم ما يغيره. و مشايخ الامامية يوثقون المخطئين فى الاعتقاد، و الإمام الصادق (عليه‌السلام) إذ يقول: «خذوا ماررووا. و ذروا مارأوا» يقصد آراءهم. و لقد طالما رفض مجتهدوهم أحاديث ذكرت فى كتبهم، و أخذوا بما جاء فى صحيحى البخارى و مسلم لتفحصهم أحوال رجالهما.

[۷۲] يشترط الشيعة فى المجتهد (۱)- العلم باللغة. (۲) - بالكلام. (۳) - بكتاب الله و السنة. (۴) - بطرق الإستنباط. (۵) - المسائل المجمع عليها حتى لا يخالفها اجتهاد. (۶) - الفطنة و إدراك الحقائق. (۷) - العلم بمواطن الخلاف. كل ذلك (۸) - و هو إمامى.

[۷۳] آيات الكتاب (۶۲۳۶) آية على طريقة عد الكوفيين، كما ورد فى التعليق على المصحف المتداول بمصر من سنة ۱۳۳۷ هجرية ، أحصى بعض فقهاء أهل السنة نحو (۱۴۰) فى العبادات، و (۷۰) فى المعاملات، و (۷۰) فى الاحوال الشخصية و المواريث، و (۲۰) فى الجنايات، و (۱۳) فى المرافعات، و (۲۰) فى القضاء و الشهادة، و (۱۰) فى الاقتصاديات و (۱۰) فى المسائل الدستورية، و (۲۵) فى المسائل الدولية - و أحاديث أصول الأحكام عندهم نحو (۴۵۰) بين آلاف الأحاديث أكثرها بيان مجمل أو تفصيل موجز أو تشريع ما سكت عنه.

[۷۴] راجع نحو تقنين جديد للمعاملات و العقوبات من الفقه الإسلامى «من مطبوعات لجنة تجلية مبادئ الشريعة الاسلامية» - عبدالحليم الجندى - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الفقرات ۴۲ الى ۴۸.

[۷۵] يذكر الراغب الاصفهانى فى المحاضرات من قرون مضت: سئل رجل كان يشهد بالكفر على آخر عند جعفر بن سليمان فقال: إنه رجل معتزلى، ناصبى . حرورى. جبرى. رافضى. يشتم على بن الخطاب، و عمر بن أبى‌قحافة، و عثمان بن أبى‌طالب، و أبابكر بن عثمان، و يشتم الحجاج الذى هدم الكوفة على أبى‌سفيان، و حارب الحسين بن معاوية يوم القطائف، فقال جعفر: «قاتلك الله ما أدرى على أى شىء أحسدك؟ أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقالات».

[۷۶] أخرجه الترمذى و النسائى عن جابر.

[۷۷] أخرجه الترمذى عن زيد بن أرقم.

[۷۸] أخرجه أحمد بن حنبل بطريقين صحيحين و أخرجه الطبرانى.

[۷۹] أخرجه أحمد بن حنبل و آخرون.

[۸۰] أخرجه الحاكم فى المستدرك و آخرون ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

[۸۱] أخرجه الحاكم من طريقين عن زيد بن أرقم. و أخرجه مسلم فى صحيحه حتى كلمة الحوض مع خلاف فى بعض الكلمات.

[۸۲] مسند أحمد بن حنبل - ابن‌حجر - كنز العمال - و بهذا المعنى فى المستدرك.

[۸۳] الصواعق لابن حجر.

[۸۴] أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن‌عباس.

[۸۵] و من نصوص وصية النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) الصريحة بالإمامة لعلى: عن محمد بن حميد الرازى - و قد وثقه الأئمة:

أحمد، و يحيى، و ابن‌جرير الطبرى، و البغوى - عن أبى‌بريدة «لكل نبى وصى و وارث و ان وصيى و وارثى على بن أبى‌طالب» و مثله - بالمعنى مروى عن سلمان الفارسى. و قال عليه الصلاة و السلام لفاطمة: «يا فاطمة. أما ترضين أن الله عزوجل أطلع الى أهل الأرض فاختار اثنين أحدهما أبوك و الآخر بعلك». و عن ابن‌عباس ان الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) قال لها؟: «أما ترضين أنى زوجتك أول المسلمين اسلاما و أعلمهم علما و انك سيدة نساء أمتى كما سادت مريم نساء قومها. أن ترضين يا فاطمة ان الله اطلع الى أهل الأرض فاختار رجلين فجعل أحدهما أباك و الآخر بعلك؟». و منها ان النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول عن الحسين (عليه‌السلام): «ابنى هذا إمام ابن أمام أخو إمام أبوأئمة تاسعهم قائمهم».

[۸۶] يقول الشريف المرتضى فى كتابه (تنزيه الأنبياء): «قالت الشيعة الامامية: لا يجوز عليهم (الأنبياء) شيء من المعاصى و الذنوب، كبيرا كان أو صغيرا، لا قبل النبوة و لا بعدها. و يقولون فى الأئمة مثل ذلك».

[۸۷] دخل ابراهيم بن هرثمة على المنصور فتهدده لأنه يمدح أهل‌البيت. و لما خرج ابراهيم لقى علويا سلم عليه فصاح به: لا تشط بدمى. و فى سنة ۲۵۰ استعانت الجماهير بالجند ضد الشيعة. و فى سنة ۳۶۳ قتل الكثيرون من أجل اقامة الشيعة لشعائرهم. و فى سنة ۴۰۳ صدر مرسوم بلعن العلويين خلفاء مصر و إنكار نسبهم. و كانت موقعة الكرخ فتكا بأموال الشيعة و أرواحهم و أطفالهم. و فى سنة ۴۳۹ كبست دار الطوسى ببغداد. و فى سنة ۴۴۸ و ۴۴۹ أحرقت مكتبة الطوسى فترك بغداد الى النجف. و عدوان المالكية على الشافعى فى جامع عمرو مشهور. و طرد المالكية و الحنفية من أجل الشغب فى جامع عمرو بعد ذلك بأمر القاضى الحارث بن مسكين معروف. و كذلك فتنة الحنابلة فى مجلس الطبرى (۳۱۰) و فى عهد البر بهارى و فيما بعده و قد طالما أرهجت بغداد. و من الإزراء بالتعصب المذهبى تتردد على الألسن سخرية الزمخشرى، و هو حنفى اذا سألوا عن مذهبى لم أبح به و أكتمه.. كتمانه لى أسلم فإن حنفيا قلت، قالوا بأننى أبيح الطلى و هو الشراب المحرم و ان شافعيا قلت، قالوا بأننى أبيح نكاح البنت؛ و البنت تحرم و ان مالكيا قلت، قالوا بأننى أبيح لهم أكل الكلاب و هم هم و لقد طالما كفرت جماعة جماعة اخرى، بغيا عليها أو تحاملا منها فى التعبير عن الخلاف معها. كان نظام‌الملك (۳۸۵) وزيرا عظيما، ينشر العلم و ينشئ المدارس، و يعمل للوحدة، و يحاول أن يجمع الخلافتين العباسية و الفاطمية، أى أهل السنة و الشيعة الإسماعيلية، و كان يجتمع لديه علماء الفرق، فدخل عليه عبدالسلام بن محمد القزوينى شيخ المعتزلة و عنده أبومحمد التميمى و رجل آخر أشعرى، فقال له: أيها الصدر، لقد اجتمع عندك رؤوس أهل الناس. أنا معتزلى و ذلك أشعرى و هذا مشبه، و بعضنا يكفر بعضا!! و فى سنة ۴۱۲ صدر مرسوم فى بغداد كفر به الخليفة القادر المعتزلة و أمر باستتابتهم، و قد سبق منهم العمل عند الخلفاء لقهر المحدثين و الفقهاء فى عصر المأمون و المعتصم و الواثق. و فى حياة الفيروزآبادى الشافعى قامت الفتنة على الشافعية سنة ۴۷۹. و فى سنة ۵۰۷ قال قاضى الحنفية بدمشق: لو كان لى من الأمر شيء لوضعت الجزية على الشافعية. و فى سنة ۵۶۷ قال أبوحامد الطوسى المقال نفسه فى الحنابلة! و فى سنة ۵۵۴ حرقت الأسواق فى أصفهان لنزاع الحنفية و الشافعية. و فى سنة ۴۶۹ هاج الحنابلة فى بغداد إذ ولى القشيرى الوعظ بالمدرسة النظامية. و من قبل ذلك بعام سنة ۴۶۸ انتقل السمعانى من مذهب أبى‌حنيفة الى مذهب الشافعى فثار الحنفية بمدينة مرو فى خراسان فنفاه سلطانها حقنا لدمه. و فى العصر ذاته أمر ابن‌تاشفين بإحراق كتب الغزالى فى احتفال رسمى بمسجد قرطبة! و ذات يوم رأى الوالى الحنفى فى بلاد ما وراء النهر فى مخرجه للصلاة فى الصباح مسجدا للشافعية فقال: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ و فى جيلان كان القوم حنابلة إذا قدم عليهم حنفى قتلوه! و جعلوا ماله فيئا للمسلمين! و أما أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفى أو الشافعى أو الحنبلى إذا وفد عليها. فإن كان معتزليا فربما قتلوه... و من سد الذريعة أفتى البعض بتعزير من يترك مذهبا لمذهب. و فى القرن الثامن من الهجرة فصل من التدريس بمصر أبوالعباس الحنبلى (۷۱۶) لأنه ذكر أن عمر منع تدوين الحديث، و ان ذلك كان سبب تعارض النصوص فى الحديث و خلاف العلماء. و فى القرن العاشر علقت على باب زويلة رأس المولى ظهير المدين الأردبيلى لأنه قال ان مدح الصحابة ليس بفرض! و فى تركيا قتل فى عهد السلطان سليم الأول (۹۲۶) نحو أربعين ألفا من الشيعة. و هكذا تدور رحى البطش فى كل اتجاه، لكن لها قانونا لا

يتخلف هو ان الباطشين اليوم مبطوش بهم غدا.

[۸۸] أهل السنة لا يكفرون إلا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل. يقول الغزالى: «اعلم ان شرح ما يكفر به و لا يكفر به يستدعى تفصيلا طويلا. فاقنع الآن بوصية و قانون. أما الوصية فان تكف لسانك عن أهل القبلة، ما أمكنك، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله. و أما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان. قسم يتعلق بأصول القواعد و قسم يتعلق بالفروع. و أصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله و برسوله و باليوم الآخر و ما عداه فروع. و اعلم انه لا تكفير فى الفروع اصلا، إلا فى مسألة واحدة، و هى أن ينكر اصلا دينيا من رسول الله صلى الله عليه و سلم بالتواتر. لكن فى بعضها تخطئة ما فى الفقهيات...».

[۸۹] فى النصف الأول من القرن الحالى جرت «المراجعات» بين شيخ الأزهر و هو الشيخ سليم البشرى و بين الامام عبدالحسين شرف الدين الموسوى (۱۳۷۷ – ۱۲۹۰) مدة إقامة الاخير بمصر، و هى مراجعات أطراها الطرفان و ثبت منها التزام المسلمين جميعا أصول الاسلام، وسعة الفقه للخلاف حول الفروع. و من اتساع الفقه للخلاف وجدنا المأمون، المعتزلى الفكر، السنى الفقه، يولى عهده عليا الرضا عليه‌السلام إمام الشيعة. و وجدنا الصاحب بن عباد الذى وزر للدولة البويهية ثمانية عشر عاما من ۳۶۷ الى ۳۸۵ وزيرا معتزلى الفكر لدولة زيدية العقيدة، تحكم دولة الخلافة السنية. و وجدنا الشريف الرضى نائبا للخليفة العباسى. كما وجدنا الدولة الأدريسية دولة سنية يحكمها الأدارسة و هم شيعة من نسل الحسن بن على عليهما‌السلام لكنهم لا يظهرون التشيع. و ابن‌تومرت يقول إنه – كالأدراسة – من نسل الحسن بن على عليه‌السلام و مع ذلك لا يقسر الدولة على التشيع. و كذلك بنى حمود من نسل الحسن بن على يحكمون دولة سنية و لا يقسرونها على التشيع... بل سنجد فقهاء عظماء – كالطوسى – حجة فى المذهب الامامى و فى مذاهب أهل السنة. و فى سنة ۵۲۵ عين الخليفة الفاطمى بمصر قضاة أربعة: ثلاثة من مذاهب السنة و رابعا شيعيا لأن الشعب كان سنيا و الدولة شيعية. و كان الحافظ السلفى (۵۷۶ – ۴۷۸) يلقى دروس الشافعية فى مدرسة بناها له ابن السلام الوزير الفاطمى. و فى النصف الأخير من القرن الحالى أفتى المرحوم الشيخ محمود شلتوت: «ان مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة. فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك. و أن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله و ما كانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر و الاجتهاد تقليدهم و العمل بما يقرونه فى فقههم. و لا فرق فى ذلك بين العبادات و المعاملات». و قال الشيخ شلتوت عن فتواه بعد... «ثم تهيأ لى بعد ذلك – و قد عهد الى بمنصب مشيخة الأزهر – أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر المتبعة لسبيل المؤمنين و منها مذهب الشيعة الامامية (الاثنا عشرية)... و ها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ؛ مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة هذه المذاهب الاسلامية سنيها و شيعيها دراسة تعتمد على الدليل و البرهان و تخلو من التعصب لفلان و فلان كما انه اهتم فى تكوين مجمع البحوث الاسلامية بأن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الاسلامية»... و الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ أسبق للأزهر يقول تحت عنوان (القطعيات و الظنيات): «قد علمنا من استقراء المذاهب الفقهية و آراء الفرق الكلامية ان فى كل منها خطأ و صوابا، و لم نعلم مذهبا من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأ كله أو صوابا كله. و اذا كان الأمر كذلك فلا ينبغى ان تطغى العصبية المذهبية على المسلمين. و لا ينبغى ان يكون هم الحنفى مثلا هو الانتصار لكل ما جاء فى مذهب الحنفية. و لا ان يكون هم الإمامى أو الزيدى هو الانتصار و التعصب لكل ما جاء به الإمامية و الزيدية... و هكذا. بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه و ان يكون قصاراهم الرغبة الصادقة فى الوصول الى الحق دون ان يقيموا و زنا لما سوى الحق... بذلك يصبحون فعلا أمة واحدة».

[۹۰] الشيعة يستدلون على أن الأذان كان فيه عبارة (حى على خير العمل) بما هو ثابت بالسند الصحيح عن الامام جعفر عليه‌السلام «لما هبط جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالأذان أذن جبرائيل و أقام و عندها أمر رسول الله عليا أن يدعو بلالا فدعاه فعلمه رسول الله الأذان و أمره به» و كان أذان الإمام جعفر عليه‌السلام هكذا: الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله

الا ـ الله. أشـهد ان لا إله إلا الله أشـهد أن محمـدا رسول الله. أشـهد ان محمـدا رسول الله حى على الصـلاة. حى على الصـلاة حى على الفلاح. حى على الفلاح حى على خير العمل. حى على خير العمل الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله. لا إله إله الله.

[۹۱] و قـد تعـاقبت التصـرفات فى صـدد الأـذان من المسـلمين. كـان عليه الصـلاة و السـلام يأمر فى فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ الغافلين ليتسـحروا، و الثانى للصـلاة. و كان أذان الجمعـة فى عهـده يبدأ عندما يجلس على المنبر. و هو الأذان الوحيد الذى يؤدى من مكان مرتفع بالمسـجد أو القريـة كسـقفه و منارته. فلما كثر الناس فى عهد عثمان اسـتحدث نداء آخر على الزوراء و بقى النداء الأول كما كان - و فى عهـد هشام بن عبدالملك (۱۲۵ - ۱۰۵) اكتفى باذان المنارة. و نقل الأذان الثانى و جعله بين يـدى الخطيب. هـذا و ليس الكلام القليل بين يدى الخطيب، و لا عند الأذان، ليبطله.

[۹۲] ولى يحيى القضاء فى البصـرة و عمره نحو عشـرين سنة، فاستصغره أهل البصرة، فقال لهم: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذى وجه به النبى قاضيا على مكة يوم الفتح، و أنا أكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى قاضيا على اليمن، و انا أكبر من كعب بن أبى الذى وجه به عمر قاضـيا على البصـرة. و كـان يحيى حسن التـأتى للأـمور و منهـا سـياسة القضاء و الخلفاء؛ دخل على المأمون رجل يشـكو وكيلا للمأمون انه اشترى منه جواهر بثلاثين ألف دينار، فقال المأمون: لعل الوكيل اشترى لنفسه أو سـلم الشاكى المال... قال الشاكى: فـإذن أدعوك الى القاضـى الـذى نصـبته لرعيتك. وجىء بيحيى بن أكثم، فقال للمأمون: إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء. قال: قد فعلت. قال: فإنى أبـدأ بالعامـة أولا يصـلح المجلس للقضاء... ففتـح الباب - وقعـد فى ناحيـة من الباب و أذن للعامة، ثم دعى بالرجل، فقـال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول ان تـدعو بخصـمى أميرالمؤمنين. فنادى المنادى، فإذا المأمون قـد خرج و معه غلام يحمل مصـلى حـتى وقـف على يحيى و هـو جـالس، فطرح المصـلى ليقعـد عليهـا، فقـال له يحيى: يـا أميرالمؤمنين، لا ـ تأخـذ على صاحبـك شـرف المجلس... فطرح للرجـل مصـلى آخر، ثم نظر فى دعوى الرجـل. و طـالب الرجـل المـأمون باليمين فحلفها المأمون. و وثب يحيى بعد فراغ المـأمون من يمينه فقام على رجليه. قال المأمون: ما أقامك؟ قال: إنى كنت فى حق الله جل و عز حتى أخـذته منك، و ليس الآن من حقى أن أتصـدر عليك... فأمر المأمون أن يحضـر ما ادعى الرجل من المال، فقال له: خـذه اليك، و الله يعلم ما دفعت اليك هـذا المال إلا خوفا من هذه الرعية لعلها ترى انى تناولتك من وجه القدرة، و انها لتعلم الآن انى ما كنت أسمح لك باليمين و بالمال.

[۹۳] الشيخ زين‌الدين الجبعى العاملى.

[۹۴] يؤول المعتزلة الألفاظ ليفسـروا معانى الآيات طبقا لأصولهم. و على ذلك أولوا الآيات التى قد تنم عن التشبيه و الجهة الجسـمية. و التفسـير بـالرأى يقوم على قاعـدة كصـمام الامـان للـذين ينهجونه. فبالكتاب آيات محكمات و أخر متشابهات و المحكمـة آيات لا يتمارى فى معناها أحد. فإذا وردت آية متشابهة فسرت على اساس الآية المحكمة؛ مثل قوله تعالى (الى ربها ناظرة) تفسـر على اساس قوله تعـالى (لا ـ تـدركه الأبصار) فيكون معناها الرضـى عنها و توقع النعمـة من الله. و مثل قوله (أمرنا متر فيها ففسـقوا فيها) تفسـر على اسـاس قوله (ان الله لا ـ يـأمر بالفحشـاء). و أكثر المؤولين يلجأون للمجاز. و فى القرآن كثير منه مثل قوله تعالى (يـد الله فوق أيـديهم) فمعناهـا القـدرة - و هم ككـل المفسـرين - يبـدأون من أن الله تعالى ليس كمثله شـىء. أما التفسير بالمأثور فتتصـدره مدرسـة الامام الطبرى: يجمع الأقوال و الآثار و يختار بها.

[۹۵] اليـک مثلا ـ تفسير «الامـام العسـكرى عليه‌السـلام» للحروف المقطعـة مثـل (ا. ل. م....) فى فواتـح السور يراها تنبيها على ان هـذا الكتاب الذى أنزله الله هو هذه الحروف المقطعة. و انه بلغتكم و هجائكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين. و ما يزال هذا التفسـير فى طليعة تفسير الحروف المقطعة فى أوائل السور.

[۹۶] أصول المعتزلة الخمسة - ۱ - التوحيد الذى ينفى عن الذات صفات الاجسام و المكان. و أهل السنة يرون صفات الله خاصة به و أنه تعالى «كما وصف نفسه». فليس فى ذلك تشبيه لله بخلقه - ۲ - العدل؛ و فحواه ان الله لا يأمر إلا بالحسن و لا ينهى إلا عن القبيح. و ما يفعله الناس عمل من أعمالهم؛ و لذلك يثابون و يعاقبون. و أهل السنة يقولون ان الله خالق العمل؛ و العبد كاسب له - ۳ - الوعد

و الوعيـد (أو الثواب و العقاب) ملازمان للفعل. و أهل السـنة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة – ۴ – المنزلة بين المنزلتين. فمرتكب الكبيرة لاـ مؤمن و لاـ كافر بل فاسق و ان كان عقابه أقل من الكافر – ۵ – الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مع اشـتدادهم فى ذلك عندما كانت السلطة فى أيديهم.

[۹۷] (المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن) للمؤلف مطبعة دار الاتحاد العربى صفحات ۱۱ الى ۵۴.

[۹۸] و الارتباط بين فروع المعرفـة أحـد «الأساسـيات» العلميـة، و هى جميعها تسـتعمل الطريقة التجريبية و تلتزم حقائق الحياة الواقعة و قوانين الكون التى لاـ تتخلف و لاـ تـدع مجالاـ للفراغ أو المجازفـة أو الصدفـة؛ كـل شـىء بمقـدار. و كل أمر موزون – فى الانسان و الحيوان و النبـات و الجمـاد، و فيمـا بينها، و فى العلوم الطبيعيـة و الرياضيـة و فى العلوم الاجتماعيـة و الانسانيـة. و العلميون يسـتعملون مقولاـت: الوحـدة و التفاضـل و التكامـل... و اطراد العلـل و النتائـج. و الآـخرون يسـتعملون مقولاـت الوحـدة، و التناسب و التناسق، و التزاوج و الانسجام، و فى الاشياء و الأشكال و الألوان و الأحجام. و يستوى فى ذلك الذين يلتزمون بالدين أو الذين يلتزمون بإنكاره. و من الموضوعيـة «سـلطان الإرادة» الإنسانيـة فى التعاقـد، أى حريتها، مع تقيـدها بالقانون الذى يجتمع عليه الناس. و هذا مظهر الحرية الشخصـية و الفكريـة التى أتاحها الله لعباده و أمرهم أن يسـتعملوها لأنها وسـيلة للحياة الكريمـة و للتقـدم. و هو معلم من معالم السـبق التشريعى الاسلامى.

[۹۹] بهذا كان على عليه‌السـلام إمام المفسرين. قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمنا متعمدا توبة؟ قال: لا. فتلوت عليه الآيـة التى فى «الفرقان» قال: هـذه مكية نسـختها آية مدنية «و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا». ورووا ان ابن‌عباس ناظر عليا فى الآيـة، فقال على: من أين لك أنها محكمـة؟ قال: «تكاثف الوعيد». قال على: ان الله نسـخها بآيتين آية قبلها و آية بعدها فى النظم. الأـولى قوله تعـالى «ان الله لاـ يغفر ان يشـرك به و يغفر مـادون ذلك لمن يشاء. و من يشـرك بالله فقـد افترى إثما عظيما» و أما التى بعدها فى النظم فهى قوله تعالى «ان الله لا يغفر أن يشرك به و من يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا» و المفسرون يضيفون الى الآيات قوله تعالى «و الذين لا يدعون مع الله الها آخر و لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق» الى قوله تعالى «و يخلد فيها مهانا» ثم استثنى بقوله «إلا من تاب و آمن و عمل صالحا». لكم صدق ابن‌عباس حينما سئل عن علمه و علم ابن‌عمه على عليه‌السلام فقال: كالقطرة الى جوار البحر المحيط. [

[۱۰۰] كتـاب نحو تقنين جديـد للمعاملاـت و العقوبـات من الفقه الاسـلامى: للمؤلف (طبعـة المجلس الأعلى للشؤون الاسـلامية سـنة ۱۹۴۷ الفقرات ۳ الى ۷۳ و الفقرات ۹۳ الى ۱۲۷).

[۱۰۱] يقول: «فليست العلوم النبويـة مقصورة على مجرد الخبر، كمـا يظن ذلـك من يظنه من أهـل الكلاـم، و يجعلون مـا يعلم بـالعقل قسـيما للعلوم النبويـة، و هـذا خطأ، ان العلم هو علم محمد صـلى الله عليه و آله و سـلم، و علم فى ميراث محمد صـلى الله عليه و آله و سلم. و غير هـذا العلم لا يكون علما. لقـد بين صـلى الله عليه و اله و سـلم – مختتما دورة الرسالـة العظمى – العلوم العقليـة التى يتم بها دين الناس علما و عملا، و ضـرب الأمثال، فكانت الفطرة بما ينبهها عليه... و لـذلك أتى الخبر من السـماء – القرآن و الحديث – بهذا يبين الحقائق لا بطريقـة خبريـة فقط بل (بالمقاييس العقليـة)، فبين التسويـة بين المتماثلين و التفرقة بين المختلفين». و يضـرب ان تيمية أمثالاـ من الآيـات للتسويـة بين متمـاثلين و التفرقـة بين مختلفين، و يقول: «و كـذلك أنزل الله سـبحانه الميزان فى القلوب... لمـا بينت الرسـل العـدل و مـا يوزن به عرفت القلوب ذلـك. فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل و الاختلاف و تضع من الآلات الحسية ما يحتاج له فى ذلك. كما وضعت موازين النقد و غير ذلك... قال الله تعالى (و السماء رفعها و وضع الميزان، ألا تطغوا فى الميزان، و أقيموا الوزن بالقسط و لا تخسـروا الميزان) فالميزان هو العـدل و هو ما يعرف به العـدل. و هو القياس القرآنى المنزل، ليتعرف به صحيح الفكر من باطله... بالإضافة الى أن نزن الأمور عامة حسية أو عقلية».

[۱۰۲] كان داود بن خلف الأصـفهانى صاحب المـذهب الظاهرى شافعيا ثم صار ظاهريا ينكر القياس و يعتمـد على النص وحده. قالوا

انه سئل لم تركت مذهب الشافعی قال: قرأت کتاب إبطال الاستحسان للشافعی فوجدت کل الأدلة التی یبطل بها الاستحسان یبطل بها القیاس.

[۱۰۳] أوغست کومت ۱۸۵۷ - ۱۷۹۸ Auguste Comte صاحب الفلسفة الواقعیة فی القرن الماضی. انتفع بمؤلفات لبنتز و دیکارت و فرنسیس بیکون و القدیس توماس الأکوینی و روجیر بیکون؛ و الأخیران من أکبر من نشروا العلم الاسلامی و تأثروا به... و کثیر من کتاباتهما تستعمل تعبیرات اسلامیة.

[۱۰۴] جون ستیوارت مل ۱۸۷۳ - ۱۸۰۶.

[۱۰۵] دیکارت ۱۶۵۰ - ۱۵۹۶.

[۱۰۶] یقول جابر: «و کذلک ینبغی إذا ذهب الدهری (القائلون: انما یخلقنا و یهلکنا الدهر - لا-الله) یمنع أن یکون العالم مکونا مصنوعا، لأنه لم یشاهد، و لا واحد من الناس، بدء تکوینه، أن یقال له: ما ینکر أن یکون وجود الناس بعد وجود العالم بوقت طویل... و تذکر کون مدینة أو قصر و لا یذکر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه؟ فسلم أن یثبت قدم ذلک بالعلة التی أثبت بها قدم العالم. و اذا قال: انما علمت ان المدینة و القصر التی لم نشاهد، و لا من توفی، ابتداء بنائها، أنها مبنیة من قبل، انی رأیت مثلها بنی، و لم أر مثل العالم مبنیا - قیل له: ان هذا بعینه ما نقول. و ندفع کونه فی طریق الاستدلال - فمن أین قلت: إن کل عالم تشاهده، و لیس له شبیه و لا مثیل، موجود. و ان کل ما لم تشاهده و لیس له شبیه و لا مثیل فلیس بموجود! إذ قد بان تقصیرک و تقصیر أمثالک عن مشاهدة جمیع الموجودات، فأمکن أن یکون أکثر الموجودات مما لم نشاهده».

[۱۰۷] راجع مقدمة کتاب الدکتور مصطفی نظیف... مدیر جامعة (عین شمس) - بالقاهرة - عن الحسن بن الحسن الهیثم البصری أکبر عالم فی الریاضیات و الطبیعة فی العصور الوسطی. وفد الحسن من العراق الی القاهرة لیعمل مهندسا فی خدمة الدولة الفاطمیة فی عصر الحاکم بأمر الله. و کان من رأیه جواز إقامة آلات علی النیل یحرکها تیار میاهه. و الدکتور نظیف یقول: انه ینبغی لنا أن نستبدل بأسماء روجیر بیکون و مور لیکوس و دافنشی و کبلر و دلابورتا، اسم الحسن بن الهیثم. فعلی ید الحسن أخذ علم الضوء وجهة جدیدة بمنهجه الاسلامی و هو (استقراء الموجودات و تصفح أحوال المبصرات و تمییز خواص الجزئیات و ما یخص البصر فی حال الإبصار. و ما هو مطرد لا یتغیر و ظاهر لا یشتبه من کیفیة الاحساس. ثم نترقی فی البحث و المقاییس علی التدرج و الترتیب، مع انتقاد المقدمات و التحفظ فی النتائج. و نجعل غرضنا فی جمیع ما نستقرئه و نتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوی. و نتحری فی سائر ما نمیزه و ننقده طلب الحق لا المیل مع الآراء، فلعلنا ننتهی بهذا الطریق الی الحق الذی یثلج الصدور، و نصل بالتدریج و التلطف الی الغایة التی عندها یقع الیقین. و نظفر مع النقد و التحفظ بالحقیقة التی یزول معها الخلاف و تنحسم بها مواد الشبهات. فهذا جمع للاستقراء و القیاس... و ما هو إلا منهج علماء الریاضیات و الطبیعة المسلمین تابعهم فیه ابن‌الهیثم و نقله علماء أوربا، ابتداء من الکندی (۲۵۲) عالم الطبیعة و الفیلسوف، و الرازی (۳۲۰) جالینوس العرب أو الطبیب الفیلسوف الذی یتخذ الإحساسات بالجزئیات أساسا لکل عمله و یدلل بالکائنات الحیة علی وجود الخالق. و ابن‌سینا (۴۲۸) الرئیس... أو الفیلسوف الطبیب الذی یمثل فکرة المثل الأعلی فی العصور الوسطی کما یقول سارتون. و للأخیر صورتان معلقتان علی جدران جامعة باریس، الآن، مع جراح العظام ابن‌زهر... راجع (الامام الشافعی) للمؤلف - ص ۱۷۵ - ۱۷۴، الطبعة الثانیة، طبعة المجلس الاعلی للشؤون الاسلامیة. یراجع کذلک (المنهج العلمی المعاصر مستمد من القرآن) - للمؤلف - مطبعة دار الاتحاد العربی للطباعة سنة ۱۹۷۶ م حیث تفصیل الأدلة علی أخذ أوربا المنهج العلمی المعاصر عن علماء المسلمین.

[۱۰۸] یقول أحمد بن حنبل: «أنا أذهب الی کل حدیث جاء و لا أقیس علیه» و «سألت الشافعی عن القیاس فقال: انما یصار الیه عند الضرورة». و فی حالة الضرورة هذه أباح أحمد: «أن یقاس الشیء اذا کان مثله فی کل أحواله. فأما إذا أشبهه فی حال و خالفه فی حال فأردت أن تقیس علیه فهذا خطأ. فإذا کان مثله فی کل أحواله فما أقبلت به و أدبرت به فلیس فی نفسی شیء منه».

[۱۰۹] الشيخ محمدرضا المظفر.

[۱۱۰] الحسن و القبيح قضية يمسک بطرفيها الأشاعرة فيقولون ان الشرع وحده هو الذی يعطی الفعل وصفه. و الشيعة، و يتبعهم فی ذلک المعتزلة، يقررون انهما و صفان ذاتيان يستقل العقل بإدراکهما. فالصدق و المروءة أمران حسنان. و الکذب و انعدام المروءة أمران قبيحان.

[۱۱۱] فی کتابه إعادة تکوين الفکر الدينی فی الاسلام: The Reconstruction of Religious Thinking.

[۱۱۲] فی کتاب صنع الإنسانية Making of Humanity.

[۱۱۳] مات روجير بيکون سنة ۱۲۹۴ و استمرت الجامعات العربية و العرب فی الأندلس قرنين بعد ذلک، الی جوار المعاهد التی أنشئت لترجمة علومهم فی فرنسا و الأندلس و إيطاليا و ألمانيا. و کان يجيد اللغة العربية و العبرية، و يمارس التجارب العلمية فی الطبيعة و الکيمياء، و قاومه معاصروه لکن البابا شد أزره. و کان جزاؤه السجن فی باريس من أجل کتاباته. و هی تعتبر طلائع لکشوف علمية حديثة (کالعدسات و السيارات ذات المحرک البدائی و الطائرات) و هو القائل: «الفلسفة مستمدة من العربية. فاللاتينی – علی هذا – لا يستطيع فهم الکتب المقدسة و الفلسفة إلا اذا عرف اللغة التی نقلت عنها». و من قبل ذلک بقرون – و علی التحديد فی سنة ۹۲۰، طلب ملک الصقالبة الی الخليفة أن يبعث اليه معلمين و فقهاء فصنع. و کان الجغرافيون العرب فی أرمينية منذ القرن التاسع للميلاد. کذلک تلقی البابا سلفستر (۱۰۰۳ – ۹۹۹) علومه بجامع قرطبة، و کان اسمه الراهب جلبير، قبل أن يصير رئيسا لدير رافنا. و هو ناقل العلوم و العربية و الأرقام العربية الی أوربا. و قد أنشأ مدرسة فی ايطاليا و أخری فی ريمس بالمانيا لنقل العلوم العربية. و ثابت ان مدرسة الوعاظ فی طليطلة نشأت مدرسة لتدريس اللغة العربية سنة ۱۲۵۰ م ثم أمر مجلس فينا سنة ۱۳۱۱ م بتدريس العلوم العربية فی باريس و سلامنکا و غيرها. و فی سنة ۱۲۰۷ أنشأت جنوه جامعة لنقل الکتب العربية، و فی سنة ۱۲۰۹، ۱۲۱۵ قرر المجمع المقدس منع تدريس کتب ابن‌رشد و ابن‌سينا لما فيها من حرية فکرية. و فی سنة ۱۲۹۶ قرر المجمع اللاهوتی تحريم تدريس الفلسفة العربية و حرمان (کل من يعتقد ان العقل الانسانی واحد فی کل الناس)... و کان الامبراطور فردريک الثانی قد أنشأ جامعة نابولی لنقل العلوم العربية فوق ما تنقله مدرسة سالرنو المجاورة. و أنشأ العرب المطرودون من اسبانيا مدرسة مونيليه فی بروفانس بجنوب فرنسا. و الشريف الأدريسی هو معلم روجار ملک صقلية. صنع له کرة ارضية من فضة، سنة ۱۱۵۳، قبل أن تعرف أوربا ان الأرض کروية. و من الثابت أن فيبر و ناتشی Fibronacci أول عالم اشتغل بعلم الجبر قد رحل الی مصر و سويا فی عصر الملک فردريک الثانی ملک صقلية، و ان أدلارد الباثی Adilard of bath درس علی العرب علمی الفلک و الهندسة. و ما هؤلاء إلا طلائع للعصر الذی عاشوا فيه. و فی العصر ذاته کانت مدرسة صقلية، و کمثلها مدرسة سالرنو فی جنوب ايطاليا و جامعة نابولی التی أنشأها الامبراطور فردريک الثانی تذيع العلوم العربية، و احتل العرب جزر البحر الأبيض ابتداء من کريت سنة ۲۱۲ الی صقلية سنة ۲۱۶، أی فی النصف الأول من القرن التاسع للميلاد، کما استولوا علی باری و برنديزی فی وسط ايطاليا، و توطدت سيطرتهم علی مقاطعتی کامبينا و أبروزی و أقاموا فيهما امارات عربية. و امتد سلطان عرب الأندلس الی جنوب فرنسا فی مقاطعة بروفانس. و حاصروا روما. و کانت ملابس البابا موشاة بالأحروف العربية. و تأثر دانتی بالثقافة العربية واضح فی الکوميديا الإلهية. و هو يذکر صلاح الدين الأيوبی و الدوق جود فری (الملک جود فری ملک بيت المقدس فی حرب الصلبيين) فی کتابه. و کانت السفارات بين الملوک و الأمراء الفرنجة و السلاطين تمد الی اوربا اسباب الحضارة. و کانت کتب ابن‌رشد و الغزالی أيامئذ تقدم الغذاء العلمی للفکر الأوروبی. و کتابات القديس توماس الأکوينی (القديس توما) ناطقة بالتاثر الظاهر أو بالنقل الکامل. و فی سنة ۱۲۵۰ أنشأت جماعة الوعاظ فی طليطلة – مدرسة لتدريس اللغة العربية و العبرية بقصد تنصير المسلمين کما ألفت الکتب للدفاع عن المسيحية ضد المسلمين. و کان الأسقف ستيفن فی باريس يناقش کتب ابن‌رشد. و فی آخر أيام المسلمين بالأندلس أنشئت محاکم التفتيش لمقاومة العلم و الفلسفة اللذين خيف انتشارهما من کتب المسلمين. و فی بحر ثمانية عشر عاما من (۱۴۹۹ – ۱۴۸۱) أحرقت هذه المحاکم ۲۲۰، ۱۰ رجلا

أحياء، و شنقت ۶۸۶۰. و عاقبت سبعة و تسعين ألفا. و فى سنة ۱۵۰۲ قرر مجمع لاترانا لعن من ينظر فى فلسفة ابن‌رشد، لأنه يقول بحرية العقل . يراجع الفصل الثانى؛ و عنوانه (قوة الحضارة العلمية) من الباب الأول فى كتابنا (توحيد الأمة العربية. فقرات ۴ الى ۱۸). و أول مرصد فلكى أقيم فى أوربا أقامه العرب بأشبيلية و أول مدرسة طبية فى أوربا هى التى أقاموها فى ساليرت. و منذ سنة ۹۷۰ كان فى غرناطة بأسبانيا ۱۲۰ مدرسة منها ۱۷ مدرسة كبيرة و ۲۷ مدرسة مجانية يتعلم فيها نبلاء أوربا علوما عربية. و لما سقطت طليطلة فى سنة ۱۰۸۵ فى أيدى الأسبان أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربية فيها و لم يتوقف النقل بل أتيحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ۱۲۳۶ ثم بسقوط غرناطة سنة ۱۴۹۲. و كان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغا بالثقافة العربية. بل هو أعلن نفسه أمبراطور العقيدتين: المسلمة و المسيحية. و كان الفونسو الخامس الملقب بالحكيم ملك قشتالة من سنة ۱۲۵۲ الى ۱۲۸۴ أكبر دعاة الثقافة العربية. و قد جمع له اليهود كل كتب العرب.

[۱۱۴] If it had my way, I should burn all books of Aristotle , for the study ofthem can lead to a loss of time , produce eror, increase ignorance.

[۱۱۵] كان بنوأمية يجعلون للعرب درجة على الموالى – و سمى العرب الموالى بالعلوج. بل قال جرير: قالوا نبيعكه بيعا فقلت لهم بيعوا الموالى و استغنوا عن العرب و المبرد يقول: «و تزعم الرواة ان الذى أنفت منه جلة الموالى هذا البيت لأنه حطهم و وضعهم». و تزوج أعجمى من عربية من بنى‌سليم فشكاهما محتسب الى والى المدينة (ابراهيم بن هشام صهر الخليفة عبدالملك بن مروان) ففرق بينهما لعدم الكفاءة، و عزر الزوج لأنه ارتكب جريمة! بأن ضربه مائتى جلدة ثم حلق لحيته و شاربه. فقالوا عن الوالى: قضيت بسنة و حكمت عدلا و لم ترث الحكومة من بعيد و ابراهيم بن هشام خال الخليفة هشام بن عبدالملك. و سأل هشام جليسه فى فاتحة القرن الثانى للهجرة عن فقهاء الأمصار. قال: من فقيه المدينة؟ قال: نافع مولى ابن‌عمر. قال: فمن فقيه أهل مكة؟ قال: عطاء بن أبى‌رباح. قال: مولى أم‌عربى؟ قال: مولى. قال فمن فقيه اليمن؟ قال: طاووس بن كيسان. قال: مولى أم‌عربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟ قال: يحيى بن أبى‌كثير. قال: مولى أم‌عربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل الشام؟ قال: مكحول. قال: مولى أم‌عربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قال: ميمون بن مهران. قال: مولى أم‌عربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قال: الضحاك بن مزاحم. قال: مولى أم‌عربى؟ قال: مولى. قال: فمن فقيه أهل البصرة؟ قال: الحسن و ابن‌سيرين. قال: موليان أم‌عربيان؟ قال: موليان. قال: قال فمن فقيه أهل الكوفة؟ قال: ابراهيم النخعى. قال: مولى أم‌عربى؟ قال: عربى. قال: كادت نفسى تزهق و لا تقول واحد عربى! و من هذا التعصب للعرق و تمييز العرب ثار من عدا العرب فى خراسان (ماوراء العراق حتى وسط آسيا) و أجاء أهل خراسان ببنى‌العباس الى الخلافة بشعارين يكمل كل منهما الآخر: ۱) إعادة حكم‌الدين و تولية أهل‌البيت. ۲) مساواة الموالى و العرب. و انطبعت الدولة العباسية فى أغلب أمرها. بطابع غير عربى. يقول الجاحظ عن المائة الأولى من عمرها: «دولتهم أعجمية خراسانية، و دولة بنى‌أمية عربية أعرابية». و كان مؤسسو الدولة العباسية يشيرون الى خراسان على انها (باب الدولة). و فى خواتيم المائة الأولى، حاول الرشيد ان يستعيد مقاليد الامور من الفرس فكانت مصارع البرامكة. فلم يلبث الفرس إلا سنين حتى قتلت جيوشهم الأمين – العربى الأب و الأم – و جاءوا بالمأمون الى عرش الخلافة و أمه خراسانية. و شهدت المائة الثانية من عمر الدولة دولا قادمة من خراسان تستقل بممالكها أو تحكم الدولة العباسية كلها: بنى‌سامان (۳۸۹ – ۲۶۱) يحكمون فى الشرق من خراسان فى (۲۴۸) و الدولة الصفارية فى عهد المعتز (۲۵۲) ثم بنى‌بويه (۴۲۳ – ۳۲۴) يحكمون فارس و الرى و اصفهان و الجبل. و لم تنشأ دولة عربية إلا فى الموصل و دياربكر و ربيعة، و هى دولة بنى‌حمدان (۳۵۸ – ۳۱۷).

[۱۱۶] يراجع شرح القسم القضائى من هذا العهد فى كتابنا (المنهج العلمى المعاصر مستمد من القرآن (۱۶۰ – ۱۴۵).

[۱۱۷] و لما عهد لمحمد بن أبى‌بكر كان مما جاء فى عهده له قوله: «اعلم يا محمد بن أبى‌بكر أنى قد وليتك أعظم أجنادى فى نفسى، أهل مصر، و أنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم و سركم علانيتكم، و لا تخالف ألسنتكم قلوبكم».

[۱۱۸] فأما حق الله الأكبر عليك فأن تعبده و لا تشرك به شيئا. فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا و الآخرة... و أما حق نفسك عليك... و أما حق اللسان و أما حق السمع... و أما حق بصرك... و أما حق رجليك... و أما حق يدك... و أما حق بطنك... و أما حق فرجك... ثم حقوق الأفعال: و حق الصلاة... و حق الحج... و أما حق الصوم... و أما حق الصدقة... و أما حق الهدى - ثم حق الأئمة... فأما حق سائسك بالسلطان... و أما حق سائسك بالعلم... و أما حق سائسك بالملك. ثم حقوق الرعية... فأما حقوق رعيتك بالسلطان... و العلم... بملك النكاح... بملك اليمين. و أما حق الرحم... و أما حق أمتك... و أما حق ولدك... و أما حق أخيك... و أما حق المنعم عليك... و أما حق مولاك الجارية نعمته عليك... و أما حق ذى المعروف عليك... و أما حق المؤذن... و أما حق إمامك فى الصلواتك... و أما حق الجليس... و أما حق الجار... و أما حق الصاحب... و أما حق الشريك... و أما حق المال... و أما حق الغريم المطالب لك... و أما حق الخليط و أما حق الخصم المدعى عليك... و أما حق المستنصح... و أما حق الناصح... و أما حق الكبير... و أما حق الصغير... و أما حق السائل... و أما حق المسؤول... و أما حق من سرك الله به و على يديه... و أما حق من ساءك القضاء عليه... و أما حق أهل ملتك عامة و أما حق... و أما حق...

[۱۱۹] لما فتح هولاكو بغداد استفتى العلماء؛ أيهما أفضل: السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر؟ فجمعوا لذلك بالمدرسة المستنصرية. و كان على بن طاوس حاضرا، و هو المقدم المحترم. فتناول الفتيا و وضع خطه عليها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر. و وضع العلماء خطوطهم على ذلك.

[۱۲۰] اضافه النبى إلى أهل‌البيت فصلا من النبى فى تنازع المهاجرين و الأنصار عليه إذ كان كل من الفريقين يريده واحدا منهم. و كان سلمان فى انتسابه لأهل‌البيت حيث أراد صاحبه صلى الله عليه و آله و سلم. فهو صاحب الرأى بحفر الخندق فى يوم غزوة (الأحزاب) و على هو الذى قتل عمرو بن عبدود فارس العرب يوم ذاك - فلآل البيت فى هذه المعركة القدح المعلى. و كان حكيما. إذا خلا به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لم يبغ أحدا غيره. عينه عمر أميرا على المدائن عاصمة فارس، فكان يوزع عطاءه على الناس (خمسة آلاف درهم)، و يعمل الخوص بيده، و يبيعه بثلاثة دراهم، ينفق واحدا و يتصدق بواحد، و يشترى خوصا جديدا بواحد. و ذات يوم دخلوا عليه دار الإمارة فوجدوه يعجن بيده. قال: بعثنا الخادم فى عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين. رآه رجل قادما من الشام فحسبه من ضخامة جسمه حمالا، فأعطاه حملا و قال اتبعنى. فحمله و تبعه. و رآه الناس فتسارعوا يحملون حمل الأمير قال: لا... فرجا الرجل، إذ أدرك مقامه، فأبى و قال: لا حتى أبلغ منزلك. وثمة وضع الحمل فى مكانه و قال: «انى احتسبت بما صنعت خصالا ثلاثة: انى نفيت عنى الكبر، و أعنت رجلا من المسلمين على حاجته، و إن لم تسخرنى سخرت من هو أضعف منى فوقيته بنفسى». فهو يحمل الحمل عن رجل ضعيف. و لا يخزى صاحب الحمل بتعريف نفسه. و ينفى عنهما الكبر و هو أمير فارس! لكنه يحفظ وصية صاحبه صلى الله عليه و آله و سلم فيقول: «أوصانى خليلى ألا يكون متاعى من الدنيا إلاكزاد الركب». و حسبه قول أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) عنه: «من لكم بمثل لقمان الحكيم».

[۱۲۱] أطلقت الأوصاف من كثير من الحرف على عظماء الفقهاء الذين يحترفونها (الخصاف - القدورى - الكرابيس - القفال - الصابونى - الحلوانى - النعالى - البقالى - الصفار - الجصاص - التبان... الخ) - و قد عمل أئمة أهل السنة الأربعة، و عمل الصحابة التابعون. و من علماء الشيعة؛ نصر بن مزاحم (مؤلف كتاب صفين)، و داود بن أبى‌يزيد، و داود بن سرحان: كانوا عطارين. و ميثم التمار يبيع التمر، و مؤمن الطاق، و خالد بن سعيد، و محمد بن خالد، و صبيح بن أبى‌الصباح كانوا صيارفة. و الشيخ آدم كان يبيع اللؤلؤ، و رفاعة بن موسى كان نحاسا، و ابن‌حدير كان طحانا، و عبدالله بن ميمون كان قداحا (يبرى القداح).

[۱۲۲] قتله داود بن على - أمير المدينة لأبى جعفر المنصور - و صادر ما تحت يديه، من أموال كانت أموال الإمام الصادق، فى نوبة من نوبات البطش التى اجتاحت المدينة و أهل‌البيت، بتهمة أنه لم يدل (داود) على اثنين من العلويين كان يبحث عنهما - و قصد الإمام إلى دار الإمارة يصيح فى وجه داود بل يتهدده «قتلت مولاى و أخذت مالى. أما علمت أن الرجل لا ينام على الحرب»؟ فتنصل

داود من المسؤولیة و أمر بقتل القاتل فصاح هذا الأخیر «یأمروننی بقتل الناس فإذا أمرت بقتلهم قتلونی!».

[۱۲۳] قارن هذا المجتمع الإسلامی الذی یقول فقهاؤه: «ما المعطی عن سعة بأفضل من الآخذ لو کان محتاجا» بالمجتمع الإنجلیزی الذی جاء بعد ذلک بقرون سبعة فی عصر الملکة الیزابیث (۱۶۰۳ – ۱۵۵۸) و فیه صدرت قوانین بإعدام المتسولین و أعدم بها المئات.

[۱۲۴] روی المسعودی فی مروج الذهب حادث أبیذر و کعب الأحبار فی مجلس الخلیفة عثمان بن عفان. قال: إن أباذر کان فی مجلس الخلیفة حین (أتی بترکة عبدالرحمن ابنعوف فنضت البدر حتی حالت بین عثمان و الرجل القائم. فقال عثمان إنی لأرجو لعبدالرحمن خیرا لأنه کان یتصدق و یقری الضیف و ترک ما ترون. و قال کعب الأحبار: صدقت یا أمیرالمؤمنین... فشال أبوذر العصا و ضرب بها رأس کعب. و قال: یابن الیهودی تقول لرجل مات و ترک هذا المال ان الله أعطاه خیر الدنیا و خیر الآخرة، و تقطع علی الله عهدا بذلک! و أنا سمعت رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) یقول: «ما یسرنی و أدع ما یزن قیراطا»... و قال عثمان لأبیذر: وار عنی وجهک.

[۱۲۵] الأئمة الإثنا عشر ۱ – علی (امیرالمؤمنین) ۲ – الحسن المجتبی، ۵۰ ۳ – الحسین الشهید، ۶۱ ۴ – علی زینالعابدین، ۹۴ ۵ – محمد الباقر، ۱۱۴ ۶ – جعفر الصادق، ۱۴۸ ۷ – موسی الکاظم ، ۱۸۳ ۸ – علی الرضا، ۲۰۲ ۹ – محمد الجواد، ۲۲۰ ۱۰ – علی الهادی، ۲۵۴ ۱۱ – الحسن العسکری، ۲۶۰ ۱۲ – محمد المنتظر المهدی. ولد بسامر سنة ۲۵۶ و اختفی بعد سنة، ۲۶۰.

[۱۲۶] من الفرق المغالیة – العمیریة (أصحاب عمیر بن بیان العجلی) عبدوا جعفر الصادق، فتبرأ منهم. وصلبه یزید بن هبیرة والی بنیأمیة سنة ۱۲۸. و منها أتباع أبیالخطاب الأسدی (محمد ابن أبیزینب) – زعیم الخطابیة – زعم أن جعفرا إله فتبرأ منه الإمام، فادعی الألوهیة لنفسه. و حاربه المنصور و أسره و صلبه فی الکوفة – و منها البزیغیة (أصحاب بزیغ بن موسی) عبدوا جعفر الصادق، (و المعمریة) أصحاب (معمر بن الخیثم) – الخیاط بالکوفة، و هم فرقة من الخطابیة یقولون إن النور خرج من جعفر و دخل فی ابیالخطاب فصار جعفر ملاکا و أبوالخطاب إلها. و (المفضلیة) أصحاب المفضل بن عمر الصیرفی (۱۷۰) یقولون بإمامة معمر و ألوهیة جعفر. (و السریة) أصحاب السری بن منصور (۲۰۰) یقولون إن السری رسول جعفر، و جعفر هو الله، و السلام و الإسلام. و کانوا فی الحج یقولون: لبیک یا جعفر لبیک. و یقول ابنالندیم فی الفهرست إن أتباع أبیالخطاب أظهرتهم الفرقة المیمونیة – أی الاسماعیلیة – و یقول النوبختی (۳۱۰) عن أتباع أبیالخطاب: «خرج من قال بمقالته من أهل الکوفة و غیرهم إلی محمد بن اسماعیل بن جعفر فدخلوا فی فرقته و سمی أتباع محمد بن اسماعیل (اسماعیلیة)».

[۱۲۷] أتی «العمری» مالکا فقال له: یا أباعبدالله. بایعنی أهل الحرمین، و أنت تری سیرة أبیجعفر فما تری؟ فقال له مالک: أتدری ما الذی منع عمر بن عبدالعزیز أن یولی رجلا صالحا؟ قال: لا أدری. قال مالک: لکنی أنا أدری؛ إنما کانت البیعة لیزید (بن عبدالملک) بعده، فخاف عمر إن ولی رجلا صالحا أن لا یکون لیزید بد من القیام، فتقوم هجمة و یفسد ما لا یصلح....

[۱۲۸] و فی سنة ۲۱۱ أمر المأمون فنودی «برئت الذمة ممن ذکر معاویة بخیر و فضله علی أحد من الصحابة» کما أمر بتفضیل الإمام علی علیهالسلام، و أنه أفضل الناس بعد رسول الله، و أوصی أخاه المعتصم بقوله «و هؤلاء بنو عمک من ولد أمیرالمؤمنین علی... فأحسن صحبتهم، و تجاوز عن مسیئهم، و أقبل من محسنهم... و صلاتهم فلا تغفلها فی کل سنة عند محلها: فإن حقوقهم تجب من وجوه شتی».

[۱۲۹] خلفاء الدولة الفاطمیة: عبیدالله المهدی – مؤسس الدولة – ۳۲۲ – المنصور ۳۴۱ – المعز لدین الله ۳۶۵ – العزیز بالله ۳۸۶ – الحاکم بأمر الله ۴۱۲ – الظاهر ۴۲۷ – المستنصر (۴۸۷ – ۴۲۷) ثم تعاقب: الآمر، و الحافظ، فالظاهر، و الفائز، و العاضد؛ و هو الذی أنهی صلاح الدین الدولة الفاطمیة بخلعه سنة ۵۶۷. و بسط الفاطمیون سلطانهم علی افریقیة من المحیط الأطلسی حتی قناة السویس و الشام. و کانت لهم السلطة فی الیمن. ولو لا هزیمة جیوشهم أمام الأتراک بقیادة طغرل بک سنة ۴۵۱ لبلغوا جبال الهمالایا. و إنما أبقی الأتراک الخلفاء العباسیین لمقاومة الفاطمیین. ففی ذی القعدة سنة ۴۵۰، دخل البساسیری علی رأس إمدادات عسکریة من مصر

و خطب فی جامع المنصور للخليفة الفاطمی (المستنصر) أربعين جمعة – و أرسلت عمامة الخليفة العباسی (القائم) إلى القاهرة فبقيت بها أكثر من قرن. و كسر الفاتحون منبر المسجد الجامع، و هم يقولون: «هذا منبر نحس أعلن عليه بغض آل محمد». و لما وردت إلى مصر الأخبار بذلك غنى المغنون أمام المستنصر غناء هو فی صميمه اعلان «بعدالة التاريخ»: يا بنی‌العباس ردوا ملك الأمر معد (اسم المستنصر) ملككم ملك معار و العواری تسترد و بالنفوذ الفاطمی تقوی الشيعة الإمامية فی العراق و فارس، و تقوی الاسماعيلية فی فارس.

[۱۳۰] و كان الخليفتان (المعز و العزيز) يعقدان مجالس للمناظرة بين المسيحين و المسلمين. و من التسامح أذنت الدولة بأعياد الغطاس و رأس السنة و النيروز و سائر أعياد النصارى.

[۱۳۱] من تلاميذ المدرسة النظامية: السعدی شاعر الفرس الكبير، و عماد الدين الأصفهانی، و بهاءالدين بن شداد – عاملا صلاح‌الدين – و ابن‌تومرت مؤسس دولة الموحدين فی أفريقية، و أبواسحق الشيرازی أول أشياخها. و من أشياخ المدرسة و تلاميذها الغزالی صاحب الكتاب الشهير فی فضائح «الباطنية».

[۱۳۲] أصهر الخليفة المستنصر (۴۸۷ – ۴۲۷) إلى قائده الأرمنی الأصل بدر الجمالی. و لما مات المستنصر كان ولی عهده ابنه «نزار» فولی بدر مكانه ابن‌أخته «المستعلی» و حبس نزارا ثم قتله، فأصبحت الشيعة فی مصر مستعلية. و منها اسماعيلية اليمن و بعض بلاد الشام. و من اسماعيلية اليمن ذهب الدعاة إلى الهند فقامت الاسماعيلية البهرة (و البهرة معناها تاجر) – و أصبح الاسماعيلية فی الهند و إيران و الشام نزارية. و للاسماعيلية مركز عظيم فی بومبای – و هم يدافعون عن الإسلام حيثما يكونون... يرون الإمامة سبعية تتم بالإمام السابع، و هو إسماعيل. ثم تبدأ دورة جديدة أئمتها مستورون. و من الاستتار لم يعرف بالضبط كثير من أمورهم. و اتسمت دعايتهم بالسرية مع دقة تنظيمها.

[۱۳۳] و هم يجعلون للأئمة صفات «باطنية» غير بشرية لا يعرفها الشيعة الآخرون، و تؤخذ عليهم أشعار الشعراء المشهورين منهم مثل ابن‌هانی الأندلسی الذی يقول للخليفة الفاطمی: ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار! و الأخفش يقول للخليفة الآمر: بشر فی العين إلا أنه عن طريق العقل نور و هدى جل أن تدركه أعيننا و تعالى أن تراه جسدا و قول شاعر آخر: هذا أميرالمؤمنين بمجلس أبصرت فيه العقل و التنزيلا و إذا تمثل راكبا فی مجلس عاينت تحت ركابه جبريلا! و الأمير تميم بن معد يمدح أخاه الخليفة العزيز بالله فيقول: مضى من العلة الأولى التی سبقت خلق الهيلوی و بسط الأرض و المطر.

[۱۳۴] سبق الفاطميين بمصر (۵۶۷ – ۳۵۸) الإخشيديون. و كانوا ينشرون التسامح الدينی فيها. و قد خصص المقريزی فصلين للكنائس و الأديرة و حسن التفاهم بين المسلمين و المسيحيين، و بخاصة فی الدولة الفاطمية. و لم يعكر صفو هذا التفاهم إلا أيام الحاكم بأمر الله. ثم جاء الظاهر – (۴۲۷ – ۴۱۱) فالمستنصر (۴۶۷ – ۴۲۷) يعاقب قائده بالقتل لقيامه باضطهاد المسيحيين. و كان أسقف الأشمونين ساويرس يجادل الفقهاء، المسلمين، فی أمور الدين. و تولى الخليفة الآمر (من سنة ۴۸۵ حتى سنة ۵۲۵) و كان يزور الأديرة و يصادق الرهبان. و من خواص كتابه (أبونجاح) و هو مسيحی. و فی هذا الجو، ظهر نوابغ المسيحيين ابتداء من ساويرس بن المقفع (۳۲۸) و هو مؤلف كتاب الرد على اليهود و المعتزلة. و رسالة عن التثليث. و أخرى فی الرد على النساطرة. و شرح الإنجيل و تاريخ المجامع الكنسية. و فی القرن السادس ظهر أولاد العسال الثلاثة: أبوالفرج و الصفی و أبواسحق. و ظهر المكين جرجس المتوفی سنة ۶۷۲. و قديما اصطنع عمر بن الخطاب الكتاب من سبی قيسارية. و استعمل أبوموسى الأشعری كاتبا نصرانيا. و كان بنوأمية يستعملون ابن أثال الطبيب النصرانی و يضعون عنه الجزية.

[۱۳۵] يراجع كتاب (المنهج العلمی المعاصر مستمد من القرآن) للمؤلف طبعة دار الاتحاد العربی بالقاهرة ۱۹۷۶.

[۱۳۶] كان فرسان المعبد Templars: Knights of the Temple جنودا محاربين على ميمنة الجيوش الصليبية فی كل الحروب. و كان على ميسرتها الفرسان الإسبتالية Hospitalars و كلا التنظيمين تنظيم رهبان متقشفين لا يتزوجون. و الأولون

عملهم حربی محض ضـد المسـلمین. و ما تزال كنیسـة المعبـد فی لنـدن Temple Church شاهـدة بعمل فرسان المعبـد. و فیالق التبشـیر، منذئـذ، تفـد علینا من دول أوربا و امریكا، مسـتعملة كل الأسـلحة، مالیـة أو علمیـة أو طبیة أو اجتماعیة أو سیاسـیة. و كثیرا ما عملت فی خدمة الجیوش المحاربة أو عملت الجیوش فی خدمتها. أما العالم الشیوعی فیصدر إلی الشرق و الغرب أفكار الملحدین. [۱۳۷] للبحث عن الحریة الدینیة، وصـلت السفینة زهرة الربیع Mayflower براكبیها فی ۲۱ دیسمبر سنة ۱۶۲۰ إلی شواطئ أمریكا لینشـئوا مسـتعمرة (انجلترا الجدیدة) و یطلق علیهم (الآباء الحجاج). و أعقبهم طلاب «حریة دینیة» آخرون بلغوا فی السـنوات العشر من سنة ۱۶۳۰ إلی ۱۶۴۰ عشـرین ألفا. و هؤلاء نواة الولایات المتحدة الأمریكیة. أما دول أمریكا الجنوبیة فنواتها الاسـبان و البر تغالیون... الذین صنعوا بالمسلمین ما صنعوا فی القرنین الخامس عشر و السادس عشر للمیلاد.

ظهور الاسلام

اشاره

«لأعطین الرایة غدا رجلا یحب الله و رسوله و یحبه الله و رسوله لیس بفرار. یفتح الله عزوجل علی یدیه» «حدیث شریف» [صفحه ۱۹] الإمـام جعفر الصـادق نتـاج قرن كامـل من العظائم یحنی لها الوجود البشـری هاماته، ویـدین بحضاراته. علی رأسـها نبی الإسـلام علیه الصـلاة و السـلام. و فیهـا بطولاـت الإمـام علی إلی جوار النبی، و أثرها فی انتصار الإسـلام، و مشاركته إبان خلافـة الخلفاء الراشـدین الثلاثة الذین سـبقوه. و آیات نبوغه تفوقه فی السـیاسة و الإدراة و القضاء و الفقه و التشریع و البیان العربی و العلم بوجه عام، و إجلال جمیع المسـلمین لمكانته و التفاف شـیعته حوله و تفضـیلهم له علی سائر الخلفاء الراشـدین. ثم قیام الفتنـة فی أخریات خلافة عثمان و مصـرعه و بیعة المسلمین لعلی (علیهالسلام)، و تمرد معاویة فی الشام، و اشتعال الحرب بین أمیرالمؤمنین و بین جیش معاویة، و حركة الخوارج و اغتیال علی (علیهالسـلام)، و البیعة لابنه الحسن. ثم اضـطرار الحسن للصلح مع معاویة حقنا للدماء، و استتباب الأمور للأخیر نحو عشـرین عامـا. و لمـا آلت الأمور إلی ابنه یزیـد اسـتفتح حكمه بمذبحـة كربلاء، حیث استشـهد الحسـین بن علی (علیهماالسـلام) أبوالشـهداء. و أعقبتهـا مذبحـة الحرة، و مقتـل المئـات من الصـحابة و التابعین، ثم ضـربت جیوشه الكعبـة بالمنجنیق و مات و جیوشـه تقصف الكعبـة. فتولی بعـده ابنه معاویـة، فتنازل عن الخلافة. فانتهز مروان بن الحكم الفرصة للسـیطرة علی مقالید الخلافة و تتابع بعده بنوه. أما أبناء الحسین فانصرفوا الی حمل هموم المسلمین و إعلاء كلمة الدین و القیام فی الامة مقام جدهم الإمام «علی بن أبیطالب» و النهوض بتبعات الإمامة بتوفیق الله سـبحانه من: علی بن الحسـین (زینالعابدین) إلی ابنه الإمام (الباقر) إلی حفیده الإمام (الصادق). و الإشارات السـریعة إلی كل أولئك، ولو باختصار، هو موضوع الفصـلین الأول و الثانی فی هذا الباب، و فیهما مدخل الكتاب. [صفحه ۲۳]

اخو النبی

اشاره

«أنت أخی و صاحبی» «حدیث شـریف» أول من آمن بالله و رسوله أمالمؤمنین خدیجة بنت خویلد، و علی بن أبیطالب. و اختلفوا فی سن علی یومئذ. قال ابنإسـحق إن علیا أول من آمن بالله و صدق رسول الله، و هو ابنعشـر سـنین یومئذ. و روی ابنإسحق كیف اسلم علی بن أبیطالب (علیهالسـلام)، بعد إسـلام خدیجة و صـلاتها مع النبی بیوم واحد. إذ جاء فوجدهما یصـلیان. فقال علی: یا محمد ما هذا؟ فقال رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم): «دین الله الذی اصطفی لنفسه و بعث به رسله. فأدعوك الی عبادة الله و كفر باللات و العزی». فقال علی: هذا أمر لم أسـمع به قبل الیوم. فلست بقاض أمرا حتی أحدث أباطالب. فكره رسول (صلی الله علیه و آله و سلم)

أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يا على إن لم تسلم فاكتم». فمكث على تلك الليلة. ثم إن الله أوقع في قلبه الإسلام. فأصبح غاديا إلى رسول الله حتى جاءه فقال: ماذا عرضت على يا محمد؟ فقال «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. و تكفر باللات و العزى، و تبرأ من الأنداد». ففعل على و أسلم. و كان مما أنعم الله به على على أنه ربى في حجر رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قبل الإسلام. و من رسول الله و خديجة - أول مسلمين - ولدت فاطمة الزهراء. و من أبنائها و من أبناء على و أبى‌بكر، أى من أبناء نبى الإسلام، و المسلمين الثلاثة الأولين، ولد جعفر بن محمد (الإمام الصادق). فعلى بن أبى‌طالب يجىء دائما في صدارة أهل الإسلام. [صفحه ۲۴] و أبوه و أمه في الصدارة كذلك: لقد كفل أبوه محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو ابن‌ثماني سنين. و خرج به إلى الشام و هو ابن‌اثنتى عشرة. و هو الذى مثله في الزواج من أم‌المؤمنين خديجة. و لما ماتت فاطمة بنت أسد (أم‌على) نزل النبى في لحدها و ألبسها قميصه - صلى الله عليه و آله و سلم - و قال «لم يكن أحد أبربى بعد أبى‌طالب منها». و جزى النبى صنيعهما في على، إذ كفله و هو ابن ست سنين، ثم جعله سابقا في الإسلام. فلما كان النبى يعبد الله في غار حراء كان على يعبد الله و هو صبى مميز. ثم بسق الفرع و سمق في جوار أخيه [۱] و مربيه و على عين أبيه. و في سنة سبع من البعثة تآمرت قريش على قتل الرسول. و أبى‌قومه بنو هاشم. و ظاهرهم بنو عمهم «المطلب بن عبد مناف». فأجمع المشركون من قريش على إخراجهم من مكة إلى «الشعب». فخرجوا؛ مؤمنهم و كافرهم. فلما عرفت قريش أن رسول الله قد منعه قومه اجمعت ألا تدخل إليهم شيئا، و فرضت عليهم حصارا اقتصاديا قاسيا مدة ثلاث سنين. و كان «أبوطالب» يأمر رسول الله أن يأتى فراشه كل ليلة، حتى يراه من أراد به شرا، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى‌عمه، فاضطجع على فراش الرسول، و أمره أن يرقد على بعض فرشهم فيرقد عليها. حتى إذا أكملوا ثلاث سنين أخبر الله رسوله أن العهد الذى تعاهدته قريش في صحيفة علقوها بالكعبة قد أكلته الأرضة. فخرجوا من الشعب إلى قريش. و أنبأ أبوطالب قريشا أن الصحيفة قد أكلت، كما أخبره ابن‌أخيه، و أنبأهم أنه و أهله سيحمونه عن آخرهم. و ذات يوم سأل النبى قومه: أيكم يوالينى في الدنيا و الآخرة؟ - و على جالس - فسكتوا. و قال على: أنا أو اليك في الدنيا و الآخرة. فكانت هذه أول موالاة من النبى لعلى. [صفحه ۲۵] و لما حضرت الوفاة أباطالب في السنة العاشرة من المبعث عن بضع و ثمانين، جمع إليه وجوه قريش فقال بين ما قال «... و إنى أوصيكم بمحمد فإنه الأمين في قريش، و الصديق للعرب. و هو الجامع لكل ما وصيتكم به... يا معشر قريش كونوا له ولاة...». و النبى يقول «ما زالت قريش كاعة حتى مات عمى أبوطالب». و ماتت خديجة بعد أبى‌طالب بأيام أو أشهر أو أكثر. و أذن الله للرسول في الهجرة إلى المدينة. و كان قد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة. و لم يبق فيها إلى جواره إلا أبابكر و عليا. و الأول هو الصاحب و الثانى هو «الفدائى الأول». فلقد رأت قريش ذلك فأجمعت على قتل النبى فبيتوه و رصدوه طول ليلهم ليقتلوه إذا خرج. فأمر عليا أن ينام في فراشه. و دعا ربه أن يعمى على قريش أثره، و خرج و قد غشى المتآمرين النوم. و كان «الفدائى الأول» قد شارف العشرين من العمر. استبقاه الرسول لأمر يتعلق بحياة الرسول، ليضحى من أجله بحياته. وسلمت الحياتان، لأن الأولى حياة الإسلام، و لأن الثانية سوف تفديها و تحرسها مرة إثر أخرى.

اخو النبى

أقام على بمكة أياما ليرد فيها ودائع كانت عند الرسول، ثم لحق به في المدينة. فنزل معه بقباء، حيث أقام رسول الله مسجدها، ثم خرج إلى دور أخواله من بنى النجار فأقام بها أشهرا بنى فيها مسجده، و آخى بين تسعين من المهاجرين و الأنصار على الحق و المساواة و التوارث ، حتى نزل قوله تعالى «و أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض». أما «أبوبكر» فآخى بينه و بين خارجة بن زيد. و أما «عمر» فآخى بينه و بين عتبان بن مالك. و أما «عثمان» فآخى بينه و بين أوس بن ثابت (أخى حسان). أما «على» فآخى بينه و بين نفسه (صلى الله عليه و آله و سلم). و خاطبه ذات مرة قائلا: «أنت أخى و صاحبى». و في ذلك رواية ابن‌عباس أن عليا كان يقول «و الله إنى لأخو رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و وليه». و هذه هى المؤاخاة الثانية. فالأولى كانت بمكة. [صفحه ۲۶] ثم خرج المسلمون ليوم

«بدر»، فدفع رسول الله الراية إلى على، و راية أخرى لرجل من الأنصار. فهذه أولى معارك الإسلام و كبراها. و كان لعلى دور البطولة فى هذه المعركة الحاسمة. ثم قدم الرسول فلذة كبده «لبطل بدر»، فبنى بفاطمة الزهراء و هى فى الثامنة عشرة [۲] . روى ابن الأثير فى أسد الغابة «أخبرنا... عن الحارث عن على فقال: خطب أبوبكر و عمر – يعنى فاطمة – إلى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). فأبى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عليهما. فقال عمر: أنت لها يا على. فقلت: مالى من شىء إلا درعى أرهنها. فزوجه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فاطمة. فلما بلغ ذلك فاطمة بكت. قال: فدخل عليها رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: «ما لك تبكين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما و أفضلهم خلقا و أولهم سلما». أما العلم و الحلم و السلم فهى التى احتاج فيها على – و هو فى فتاء السن – إلى الشهادة بها من النبى لدى زهراء النبى. و أما ميادين الوغى فقد شهدت له فيها رايات «بدر»، و ستشهد له فيها الرايات الأخر: فى يوم أحد – أخطر معارك الإسلام – كان على فى الحرس، إلى جوار النبى، حين أصيب النبى فى المعركة. و كان طبيعيا أن يصاب على بستة عشر ضربة، كل ضربة تلزمه الأرض. و كما يقول سعيد بن المسيب سيد التابعين «فما كان يرفعه إلا جبريل (عليه‌السلام)» فلما اشتد الخطب، و قتل حامل الراية – مصعب بن عمير – دفع الرسول الراية لعلى.... [صفحه ۲۷] و فى يوم الخندق أزفت الآزفة عندما تمكن المشركون من اقتحام الخندق. فاعترضهم على بن أبى‌طالب فى نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها. و كان عمرو بن عبدود – فارس العرب – يريد أن يعرف مكانه يوم الخندق، فنادى من فوق الخيل: هل من مبارز؟ فبرز له على. قال له عمرو: ما أحب أن أقتلك لما بينى و بين أبيك. و أصر على و نزل عمرو عن فرسه. و ما أسرع ان قتله على. وفر الآخرون مذعورين. و فى غزوة بنى قريظة كانت له راية المسلمين. و فى صلح الحديبية كان «محرر» صحيفة الصلح على بن أبى‌طالب، يملى عليه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)! فذلك كان أيمن صلح عرفه التاريخ البشرى. فلقد اصبح الذين أسلموا بعده و قبل فتح مكة، اكثر ممن أسلموا قبله. و به حفظت دماء الذين بايعوا تحت الشجرة، ليظهر الإسلام على أعدائه و ييسر فتح مكة. و فى غزوة خيبر، قال عليه الصلاة والسلام: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله. ليس بفرار. يفتح الله عزوجل على يديه». و لما اصبح دعا عليا و قال: «خذ الراية و امض حتى يفتح الله عليك». و حمى الوطيس. و سقط ترس على. فتناول بابا و تترس به. و لم يزل يقاتل حتى فتح الله عليه. و حمى الله فضائل الإسلام على يد على. فلم يره أحد فى موقف المنكسر. و لما استشهد فى دفاعه عن هذه الفضائل، كان الإسلام ينتصر. و فى يوم حنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فكادوا ينهزمون. و ثبت الرسول. و قتل على صاحب راية المشركين و انتزعها منه، و كر المسلمون عليهم فهزموهم بإذن الله. و لما قتل خالد بنى خزيمة خطأ و سباهم – و هم مسلمون – بعث الرسول عليا فوداهم و رد إليهم أموالهم و قال لهم: انظروا إن فقدتم عقالا لأدينه. فبهذا أمرنى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). و فى السنة التاسعة خرج رسول الله إلى تبوك. و استعمل عليا على المدينة. فسأل [صفحه ۲۸] على النبى فى ذلك. فأجابه «إنما خلفتك لما تركت ورائى. فارجع فاخلفنى فى أهلى، و أهلك، فأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى...» فكان تخليفه عن هذه الغزوة تقديما له، إذ وضعه موضع هارون من «موسى» (عليه‌السلام). أى فى منزلة أخ الرسول من الرسول. و تتابع التقديم، إذ نزلت عشر آيات من صدر سورة «براءة» من عهد كل مشرك لم يسلم أن يدخل المسجد الحرام بعد هذا العام. فقالوا للرسول: ابعث بها إلى ابى‌بكر. – و كان على الناس فى حج البيت الحرام – فقال عليه الصلاة و السلام «لا يؤديها عنى إلا رجل من أهل بيتى» و بعث عليا على ناقته (صلى الله عليه و آله و سلم) فأدرك أبابكر فى الطريق. و فى كتب السنن أن النبى بعد عودته من حجة الوداع نزل بغدير خم و أعلن أنه يترك القرآن و «عترته» للمسلمين ثم أخذ بيد على و دعا ربه «اللهم وال من والاه و عاد من عاداه». و لما بعث النبى عليه الصلاة و السلام عليا إلى اليمن قال على «يا رسول الله تبعثنى إلى اليمن و يسألوننى عن القضاء و لا علم لى به». فضرب النبى بيده على صدره ثم قال «اللهم ثبت لسانه و اهد قلبه» قال على «فو الذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت فى قضاء بين اثنين بعد». و هى خصيصة يدرك جلال اليقين فيها من ولى القضاء.

بين الخلفاء الراشدين

صعدت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى و على بطل جيوشه غير منازع. و كان قد دربه على القضاء و الإفتاء. فهاتان الوظيفتان هما أسمى عمل فى الدول. و بخاصة فى الدولة المسلمة، حيث الحفاظ على الشريعة و إدارة الدول و سياسة الأمم و استقرار النظم و اطمئنان الجماعة واجبات دينية. و الإفتاء يعدل التشريع فى أيامنا هذه. و القضاء هو توزيع العدالة، و العدل صفة الله سبحانه. لقد بعثه إلى اليمن. فقضى. و له قضاء مشهور عرض على النبى فاستحسنه. و له [صفحه ۲۹] السؤال المشهور يومذاك إذ سأل: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يراه الغائب؟ فأجابه عليه الصلاة و السلام «بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب». فدل بذلك على تفويضه فى أن يجتهد، و أن يعمل بمقاصد الشريعة... و كان أيامئذ فى عنفوان شبابه. فلم يفارقه الاجتهاد العظيم للأمة فى كل مناسبة تقتضى الاجتهاد. و بالتربية النبوية فى القضاء و الإفتاء نفذ على إلى صميم الفكر التشريعى فى الأمة، أى صميم شريعة الإسلام. فاحتاج أبوبكر و عمر إليه فى جوارهما ليشير عليهما، و يقضى، و يفتى. أما فتاواه التشريعية فستبقى مثلا أعلى للفكر الإسلامى فى سياسة الدولة و سياسة الناس. إذا اشتهر عمر بأنه المجتهد الأكبر من كثرة ما واجه من ظروف طارئة على الدولة المنتصرة فى الشرق و الغرب، و من طول ما حكم و هو خليفة، و اتساع ما فتح من الفتوح، و اختلاف من أسلم من أهل البلاد المفتوحة، فعلى كان يصحح الكثير من اجتهاداته. - منع عمر تدوين الحديث - مخافة أن يخلط القرآن بشىء - و بهذا أبطأ التدوين عند أهل السنة قرنا بتمامه. و انفتحت أبواب للجرح و التعديل و للوضع، و للضياع. أما على فدون من أول يوم مات فيه الرسول. و لعله إذ دون صار مرجع الصحابة بما فيهم عمر. و هذا الاتجاه العلمى للتدوين، يؤازره اتجاه دينى، و فقهى، و سياسى، و اقتصادى، لتوزيع الحقوق. - قال عمر للناس يوما: ما ترون فى فضل فضل عندنا من هذا المال (مال الصدقة)؟ قالوا: يا أميرالمؤمنين قد شغلناك عن أهلك و ضيعتك فهو لك. فالتفت إلى على و قال: ما تقول؟ قال: قد أشاروا عليك. قال عمر: قل. [صفحه ۳۰] قال على: لم تجعل يقينك ظنا؟. أتذكر حين بعثك رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ساعيا فأتيت العباس بن المطلب، فمنعك صدقته. فقلت لى: انطلق إلى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فوجدناه خاثرا. فرجعنا ثم غدونا عليه، فوجدناه طيب النفس فأخبرناه بالذى صنع. فقال لك: أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه؟ و ذكرنا الذى كان من طيب نفسه فى اليوم التالى فقال: اما انكما أتيتمانى اليوم و كان عندى من الصدقة ديناران. فكان الذى رأيتماه من خثورى له. و أتيتمانى اليوم و قد وجهتهما غدا (صباح اليوم) فذاك الذى رأيتما من طيب نفسى. - و دعا عمر امرأة فأجهضت ما فى بطنها بفزعها فاستشار فى الدية. فقال له عثمان و عبدالرحمن: لا عليك. إنما أنت مؤدب. و قال على: إن كانا قد اجتهدا فقد أخطآ. و إن لم يجتهدا فقد غشاك. أرى عليك الدية. فقال عمر: عزمت عليك ألا تبرح حتى تفرضها على بنى عدى... و هذه الفتوى تعتبر تقدما تحاول أن تبلغه الحضارة المعاصرة، و لا تكاد. - و رأى عمر ذات يوم رجلا مع امرأة على معصية، فاستشار فى أن يقضى بعلمه أم لابد من شهادة غيره؟ قال على «يأتى بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين». - و لما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون لأنفسهم أربعة أخماس الأراضى المفتوحة أخذا بظاهر الآية. فاستشار عمر الصحابة. فاختلفوا. لكن عليا اشار على عمر بإبقاء الأرض فى أيدى أصحابها و تكليفهم الخراج تسد من حصيلته حاجات الدفاع عن الأمة و الإنفاق على المحتاجين. و فى بقاء الأرض فى أيدى أصحابها بقاء لهم أو لمن يجيئون بعدهم، و أثر هذه الفتوى فى نشر الإسلام يذكر و يشكر. - و على صاحب الرأى الشهير بتضمين الصناع ما يتلفونه إلا أن يثبتوا أنه من عمل [صفحه ۳۱] غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون لأن يدهم يد الأمين. لكن الزمان تغير فاقتضى تغير الناس التضمين. و فى ذلك قول على: لا يصلح الناس إلا ذاك. و هذا مضرب المثل على العمل بقصد الشارع من حفظ مصالح المسلمين و توخى المصلحة الإسلامية حيث تكون. - و رفعت إلى عمر قضية رجل قتلته امرأة و خليلها. فتردد هل يقتل الكثيرين بالواحد؟ قال على أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جزور هذا عضوا و هذا عضوا، أكنت قاطعهم؟ قال: نعم. قال على: فكذلك. فكتب عمر إلى عامله أن: اقتلهما فوالله لو اشترك أهل صنعاء كلهم لقتلتهم. - وجىء عمر يوما بأمراة زنت و أقرت فأمر برجمها. لكن عليا قال: لعل بها عذرا. ثم سألها: ما حملك على ما فعلت؟ قالت: كان لى

خليط و فى إبله ماء و لبن. و لم يك فى إبلى ماء و لا لبن. و ظمئت و استسقيته فأبى ان يسقينى حتى أعطيه نفسى. فأبيت عليه ثلاثا. فلما ظمئت و ظننت نفسى ستخرج أعطيته الذى أراد فسقانى. قال على: «الله أكبر. فمن اضطر غير باغ و لا عاد فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم ». - لقد أمر عمر ألا يفتى أحد بالمسجد و على حاضر. فجعل القضاء وقفا عليه فى ساحة القضاء. - و كان يقول: اللهم لا تنزل بى شديدة إلا و أبوالحسن إلى جنبى [۳] . [صفحه ۳۲] بل يحيل سائليه على على (عليه‌السلام). و يجيب أذينة العبدى إذ يسأله: من اين أعتمر؟ إيت على بن أبى‌طالب فاسأله. بل يقول: لولا على لهلك عمر. - و لعلى عهده المشهور إلى الأشتر النخعى [۴] إذ ولاه مصر. فهو دستور سياسى و دينى و عالمى تتضاءل دونه كل العهود، بما فيه من شمول و تفصيل لقواعد الحكم الصالح. و إليه يرجع كل من أراد نجاحا للحكم بصلاح الدنيا و الدين. و المصريون - مسلمين و مسيحيين - يحفظون قوله فيه لواليه «و اشعر قلبك الرحمة بهم و المحبة لهم. و اللطف بهم. و لا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق». - و على هو الذى يضبط فحوى الشرع و يرفعه إلى مقامه الحق فى تعريفه للفقيه فيقول للمسلمين «الا أنبئكم بالفقيه، حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله. و لم يرخص لهم فى معاصى الله. و لم يؤمنهم من مكر الله». كان منذ شبابه الذى أنضجته أحداث النزال و الطعان فى الميدان - أعبد الناس [صفحه ۳۳] و أكثرهم فى عبادته جمعا مع الله. لا يقطع صلاته و السهام تقع بين يديه يمينا و شمالا. يربط على بطنه من الجوع فى حين يتصدق بأربعة آلاف درهم، و عليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم. أما قوته فمن دقيق الشعير، يأخذ قبضة فيضعها فى الماء فيصب عليها قدحا فيشربه... و فى يده كل مال المسلمين! و لما أصهر عمر إليه فى «أم‌كلثوم» كان يتوسل إلى الآخرة بلحمة النسب. فلقد كان يقول: «لقد أعطى على بن ابى‌طالب ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلى من حمر النعم: تزويجه فاطمة بنت رسول الله، (صلى الله عليه و آله و سلم). و سكناه المسجد مع رسول الله يحل فيه ما يحل له». و على «باب مدينة العلم». يقول الرسول عليه الصلاة و السلام و «أنا مدينة العلم و على بابها فمن أراد العلم فليأت بابه». و هو «إمام البلاغة». يجىء معاوية رجل من الكذبة فيقول له: جئتك من عند أعيا الناس - يقصد عليا - فيجيب معاوية، و هو أعدى الناس لعلى، «ويحك فوالله ما سن الفصاحة للناس غيره». كيف لا؟ و بلاغته من بلاغة النبى... مذ كان فكره من فكره، و كان قد رباه فأحسن تأديبه، حتى ليعيا بلغاء العرب عن فهم المعنى النبوى و يراه على بادى الرأى. شكا العباس بن مرداس للنبى قسمه من الفىء بقوله: أتجعل نهبى و نهب العبيد كنهب عيينة و الأقرع (و العبيد فرس الشاعر. و عيينة بن حصن و الأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم). قال عليه الصلاة و السلام: «يا على اقطع لسانه». فأخذه على و مضى. قال العباس: أقاطع أنت لسانى يا أباالحسن؟ قال على: إنى لممض فيك ما أمر... [صفحه ۳۴] ثم مضى به إلى إبل الصدقة و قال له: خذ ما أحببت. و من «نهج‌البلاغة» يسقى بلغاء العربية و حكماء الإسلام. و من تعليمه وضع النحو العربى. [۵] و وضع النحو بتعليم على يذكر بالمكانة الخاصة لعلى فى علوم الإسلام. فالنحو العربى هو الذى حفظ العربية لغة القرآن. و هو امر أصولى للغه، كأصول الفقه. و سنرى موقفه المبدع فيها. و كذلك كانت مواقف على بعد ظهور الإسلام، و فى خلافة سابقيه، تتصدى للأساسيات فى الإسلام. لقد كان أطول الراشدين حياة فى الإسلام مما يظهر أثره عميقا، عمق الحوادث و العلوم و أثرها فى الإسلام، و طويلا لطول المدة التى حييها فى المراكز الأولى منذ [صفحه ۳۵] ظهور الإسلام. و ربما اجمل القول فى مكان على بين المسلمين قول ابن‌عباس: «لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربى أو أعجمى صلى مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو الذى كان لواؤه معه يوم الزحف. و هو الذى صبر معه يوم فر غيره. و هو الذى غسله فأدخله قبره». أما عن العلم فيقول ابن‌عباس «إذا ثبت لنا الشىء عن على لم نعدل إلى غيره» و اما عن العدل فيقول ابن‌مسعود معلم الكوفة و سادس المسلمين «كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة على». من أجل هذا و كثير غيره، صح عند الشيعة أن النبى أفضى إليه بظاهر الشريعة و خافيها. و أنه أفضى بها إلى من خلفه. و على فى كثير من الأمور هو الأوحد: فالنبى هو الذى رباه و آخاه و أعده للعظائم فصنعها. و عهد إليه فى تبليغ آى القرآن... و هى جميعا «خصوصيات» لا يرقى رقيه فيها أحد. أما ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة و شاركها فيه كثيرون من علماء أهل السنة منذ القرون الأولى - كالمسعودى و الحاكم و الكنجى - حتى القرون الحديثة - كالالوسى،

و هو أن عليا ولـد بالكعبة. لقد كان الحسن و الحسين يسميان الرسول أباهما. كما كان الرسول يسميهما ابنيه طول حياته. و لم يناديا عليا بأنه أبوهما إلا بعد أن انتقل رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إلى الرفيق الأعلى.

الشيعة

لعلى – على ما رأينا – من فضل الله ما سلمه الجميع له و تؤثره من جرائه الشيعة، منذ القرن الأول، أى جيل الصحابة، ثم تلاحق عليه الجيلان التاليان. و هى الأجيال الثلاثة المفضلة بقوله (صلى الله عليه و آله و سلم) «خير القرون قرنى – جيلى – ثم الـذين يلونهم ثم الذين [صفحه ۳۶] يلونهم»، و توالت على تكريمه به جماعة المسلمين إلا من ظلم. و هو موقعه الخاص من النبى و من علوم الإسلام: إذ تتفرع عنه فروع النسب من أهل البيت. و تنبع منه بحار شتى للمعرفة تسقى منها المذاهب كافة، و فيها المتصوفة و المعتزلة، و تفيد منهـا العلوم كافة، و منهـا العبادات و المعاملات و الحرب و السلم و السياسة و الاقتصاد و الإدارة. فتطبع بطابعه العلوم الإسلامية عند الشيعة، و تظهر آثاره فى علوم أهل السنة. «و الشيعة» كلمة قرآنية: «و إن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم». و التشيع لعلى مكانة للفوز تقررت بالسنة روى السيوطى عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبى فأقبل على فقال النبى «و الذى نفسى بيده إن هذا و شيعته لهم الفائزون يوم القيامة». و عن ابن‌عباس قال: لما نزلت «إن الـذين آمنوا و عملوا الصالحات» قال رسول الله لعلى: «هو أنت و شيعتک يـوم القيامة راضين مرضيين». و عـن أم‌سلمة (رض) أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قـال لعلى عليه‌السلام: «أنت و اصحابک فى الجنة». و فى نهاية ابن‌الأثير ما نصه فى مادة (لواقح): و فى حديث على قال له النبى «ستقدم على الله أنت و شيعتک راضين مرضيين و يقدم عليک عدوک غضابا مقمحين». و الزمخشرى يروى فى ربيع الأبرار حديث النبى عن (شيعة ولدک) و هو يتحدث إلى على. و فى مسند ابن‌حنبل و خصائص النسائى كثير فى الدلالة على شيعة على. و يخصص المسلمون «الشيعة» بأنهم هم التابعون و المقتدون و المتميزون باتباعهم و اقتدائهم الكامل بالامام على و الأئمة من بنيه. و ربما كان تعريف ابن‌حزم للشيعة جامعا مانعا، فهو يقول «من وافق الشيعة فى أن عليا (أفضل) الخلق بعد رسول الله و (أحقهم) بالإمامة و ولده من بعده، فهو شيعى، و إن خالفهم فيما عدا ذلک فيما اختلف فيه المسلمون. فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا». ظهر تفضيل الشيعة لعلى على جميع الصحابة بمجرد وفاة النبى عليه الصلاة و السلام، إذ دعت إلى ذلک دواع سياسية. فقد اجتمع المهاجرون و الأنصار – و على [صفحه ۳۷] مشغول بتجهيز رسول الله لقبره – فبايعوا أبابكر باشارة من عمر. و ثقل على بطل الإسلام على أن يمضى الصحابة الأمور دونه، و ثقل على الزهراء [۶] و على «شيعة على» من صحابة الرسول. كما رأى البعض أحقية على بالخلافة [۷] . و لكن عليا لم يلبث أن كمل اجماع المسلمين بالبيعة، و جمل خلافة الأول بالمشاركة و المشورة، و تحمل فى خلافة الثانى أعباء فى أخطر شؤون الدولة و الدين و الناس و الخلافة. و لقد كان كله شجاعة فكر، و براعة فقه، يوم استشاره عمر فى غزو الفرس بنفسه و كرر «أخو النبى» نصحه فى بلاغة معلمة و أسانيد تترى. قال لعمر بين ما قال: «إن هذا الأمر لم يكن نصره و لا خذلانه بكثرة و لا قلة. و هو دين الله الذى أظهره... و مكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه و يضمه. فإذا انقطع النظام تفرق الخرز و ذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا. و العرب اليوم و إن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع. فكن قطبا و استدر الرحى بالعرب. و أصلهم دونک نار الحرب. إنک إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليک العرب [صفحه ۳۸] من أطرافها و أقطارها حتى يكون ما تدع من الفورات أهم إليک مما بين يديک. إن الأعاجم إن ينظروا إليک غدا يقولون هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلک أشد لكلبهم عليک و مطمعهم فيک...». فلنلاحظ هذه الخطة المتعددة الغايات بالحركة الواحدة: أن يبقى قطبا للرحى، و ان يستديرها بالعرب، و أن يجعلهم يحاربون العدو بدلا من الخليفة. و لنلاحظ ذلک الاحتياط فى الحرب حتى لا يجد العدو الخليفة غرضا قريبا فى متناوله يستميت فى إصابته. و لنلاحظ تشبيه الخليفة بنظام العقد الذى يمسكه أن ينتثر. و لنلاحظ الوجازة، و النصاعة، و البلاغة «العلوية»، و مستواها فى لسان العرب. و لا ينال من هذه العبقرية فى وضع الخطط، ما سيصيبه و المسلمين معه، يوم يستحبون الدعة، بعد ربع قرن عندما آلت

إليه المقاليد، و جاء إلى الوجود جيل جديد، فعلت الفتن فيه أفاعيلها. فأتاحت لعلى بدلا من إنفاذ خططه، أن يلقى خطبه الخالدة التى تعتبر مصادر للبلاغة العربية و الحكمة السياسية و الفلسفية على مر الزمان. فتخص الامام بمقام الصدارة بين خطباء التاريخ لا يرقى إليه أحد. عهد ابوبكر بالخلافة لعمر. و دعا عمر يوم دون الديوان الأخ الأكبر لعلى، عقيل بن أبى‌طالب، و مخرمة بن نوفل و جبيرين مطعم، و قال لهم: «أكتبوا الناس على قدر منازلهم» فكتبوهم مبتدئين ببنى هاشم ثم ببنى تيم - قبيلة أبى‌بكر - ثم بنى عدى - قبيلة عمر - فقال «وددت أنه هكذا. و لكن ابدأوا بقرابة النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.» و يوم فضل بعض الناس فى العطاء جزاء ما قدموا للإسلام. فلما ذكر له صنيع أبى‌بكر يوم رفض التفضيل و قال «إنما أسلموا الله. و وجب أجرهم عليه. يوفيهم ذلك فى [صفحه ۳۹] الآخرة. و إنما هذه الدنيا بلاغ» أجاب عمر «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه..». و يوم فضل أهل بدر على من عداهم. ثم جعل الباقين درجات. و مع ذلك قدم الأدنين من رسول الله دون نظر إلى جهاد أو سابقة إسلام. ففرض للعباس - عم النبى - اثنى عشر ألف درهم. و لأخته صفية عمة النبى و على - ستة آلاف... و لكل واحدة من زوجات النبى عشرة آلاف. و ميز عائشة فجعل لها اثنى عشر ألفا. و يوم فضل الحسن و الحسين إذ فرض لكل واحد شهد بدرا خمسة آلاف، و لأبنائهم ألفين ألفين، الا الحسن و الحسين ابنى على من فاطمة الزهراء ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله. ففرض لكل منهما خمسة آلاف... حتى أسامة بن زيد بن حارثة - مولى الرسول - فرض له اربعة آلاف. و أجاب ابنه عبدالله إذ راجعه قائلا «فرضت لى ثلاثة و لأسامة اربعة. و قد شهدت ما لم يشهد أسامة» فقال لابنه «زدته لأنه كان احب إلى رسول الله منك. و لأن اباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك». و عبدالله أخ شقيق لحفصة أم‌المؤمنين. و لما فرض لعمر بن أم‌سلمة - أم‌المؤمنين - أربعة آلاف، و كان من شيعة على، استعتب البعض الخليفة لحداثته فأجاب «فليأتنى الذى استعتب بأم مثل أم‌سلمة أعتبه». و أم‌المؤمنين أم‌سلمة أعلى الأصوات فى الدفاع عن على. و لقد كان عمر نادما يوم عدل إلى رأى أبى‌بكر و قال «لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم و لأجعلنهم رجلا واجدا». و أوصى عمر أن تكون الخلافة لواحد من الستة الذين رشحهم للخلافة. و اجتمع أصحاب الشورى و أدار المداولات عبدالرحمن بن عوف، مذ أعلن أنه لن يكون له فى الخلافة أرب. و استجوب الناس حتى استيقن من تحقيقاته ان لكل من على و عثمان مؤيدين فى جماعة المسلمين - فرقى المنبر و جلس مجلس النبى و أخذ بيد على و قال: هل أنت مبايعى على كتاب الله و سنة رسوله و فعل أبى‌بكر و عمر؟ [صفحه ۴۰] قال على: اللهم لا. و لكن على كتاب الله و سنة نبيه و على جهدى و طاقتى. فأرسل عبدالرحمن يده و قال: هلم إلى يا عثمان. فأخذ بيده و قال: هل أنت مبايعى على كتاب الله و سنة رسوله و فعل أبى‌بكر و عمر. قال عثمان: اللهم نعم... قال عبدالرحمن: اللهم اشهد... اللهم اشهد... و بايع عبدالرحمن عثمان. و قام الناس فبايعوا... و بايع على. و كان فى المسلمين يومئذ شبه إجماع على أن الخلافة آيلة إلى على (عليه‌السلام). [صفحه ۴۱]

ابوالشهداء

اشاره

«هذان ابناى و ابنا بنتى» «اللهم إنى أحبهما. فأحبهما. و أحب من أحبهما». (حديث شريف) هما ريحانتاى من الدنيا (حديث شريف) [صفحه ۴۳] مضت سنوات ست على عثمان فى الخلافة و هو يحدر إلى الثمانين أو منها، أعقبتها ست أخرى. منها اربعة تتناهى إلى سمعه فيها و شوشة الشكوى من كل صوب، و منها اثنتان فيهما مراجعة الذين يتحملون المسؤولية معه: غاضبه عبدالرحمن بن عوف الذى اختاره للمسلمين. و غضب هو على عبدالله بن مسعود و على أبى‌ذر - أصدق الناس لهجة - و على عمار بن ياسر، الذى واعده الرسول و أباه و أمه على الجنة. و هذان الأخيران، منذ انفجر فجر الإسلام، شيعة لعلى. و نفى عثمان أباذر من المدينة إلى الربذة، [۸] لاحتجاجه على ما صار إليه أمر معاوية و عثمان. فى هذه الفترة الأخيرة اجتمع الناس فتذاكروا الأحداث، و كلفوا عليا أن يكلم عثمان

كما روى الطبرى فى أحداث سنة ۳۴. و نصح على عثمان أغلى النصيحة، و أجابه عثمان بمبرارته فى تعيين الولاة من أهله، و مما قال: «إن معاوية عينه عمر». قال على: «لكنه كان أخوف له من خادمه يرفأ». و استمر الناس فى ضيقهم بالأمور، حتى إذا كان الموسم حج الولاة فجمعهم عثمان للمشورة فكانوا – معاوية بن أبى‌سفيان (الشام) و سعيد بن العاص (الكوفة) و كلاهما ابن‌عم لعثمان. [۹] و عبدالله بن سعد ابن أبى‌سرح (مصر) و هو أخو عثمان من الرضاع. [صفحه ۴۴] و عبدالله بن عامر (البصرة) و هو ابن‌خال عثمان. [۱۰] فلما انصرفوا إلى أقاليمهم رد أهل الكوفة سعيد بن العاص، و طلبوا أن يتولى عليهم أبوموسى الأشعرى، فولاه عثمان. و أرسل المصريون فى سنة ۳۵ وفدا للعمرة يناظرون عثمان فى سياسة ولاته. و كان على رسول السلام بين الخليفة و بين الناس. و انضم بعض أهل المدينة إلى الناقدين، و عنفوا على عثمان بالمسجد. فقنع بالبقاء فى داره، و أحاط القوم بالدار. و أقبل بعض بنى‌أمية يحرسونها، لكن الحراسة الحق كانت حراسة أبناء الصحابة: الحسن بن على، و الحسين بن على. و عبدالله بن عمر و محمد ابن‌طلحة و على إمرتهم عبدالله بن الزبير إذ عينه الخليفة. و أمر الرجال ألا يحاربوا أحدا. و لم يخرج الخليفة للحج و أمر عليه عبدالله بن العباس. و لم يقدم للحج أحد من ولاة عثمان هذا العام، فلم يكن ذلك مفهوما لأحد، الا أن يكون تقصيرا من الولاة... و ليس فى المدينة جند. فهى كما يقول الرسول (حرم آمن). و إنما الجند فى الأقاليم و بخاصة فى الشام حيث معاوية. و لما تلا ابن‌عباس خطاب الخليفة على الحجيج لم يخفوا لنصرته... و أصبح عثمان صائما غداة ليلة. بقى يحدث الحرس ألا يقاتلوا، حتى أقبل الثوار وقتلوه. اجتمع أصحاب الرسول بعد مقتل عثمان يشتورون، و فيهم طلحة بن عبدالله و الزبير بن العوام، فأتوا عليا و قالوا: لابد للناس من إمام. فقال لهم و الضيق يغلب على [صفحه ۴۵] نفسه «لا حاجة لى فى إمرتكم. فمن اخترتم رضيت به» قالوا ما نختار غيرك. و ألحوا، و هو يرفض و يقول: «لأن أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا». قالوا: والله ما نحن منصرفين عنك حتى نبايعك. و لما رأى إلحاح القوم خرج إلى المسجد و بايعه الناس. فصعد المنبر و قال «أيها الناس. عن ملأ و أذن. إن هذا أمركم ليس لاحد فيه حق الا من امرتم. و قد افترقنا امس على امر و كنت كارها لامركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم. ألا و إنه ليس لى دونكم إلا مفاتيح أموالكم معى. و ليس لى ان آخذ درهما دونكم.» و عين أميرالمؤمنين عماله فى الأمصار، و توقف بعض الناس فى بعض الأمصار، فجمع رجلى شوراه (طلحة و الزبير)، فقال: «إن الأمر الذى كنت أحذركم قد وقع، و افترق المسلمون و سأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى». و كتب إلى الأمصار فأجمعت الطاعة إلا معاوية بن أبى‌سفيان بالشام، حبس رسول أميرالمؤمنين إليه ثلاثة أشهر، ثم بعث برده يصدره بقوله: من معاوية إلى على. كأنه ند له! بل طالبه فيه بدم عثمان، كأنما على هو الذى قتله! و كأنما معاوية صاحب دمه! و هو واحد من تاركيه بالمدينة، للثوار، بلا نجدة! و عبأ معاوية جيشه لقتال الامام. و فيما كان على (عليه‌السلام) يتجهز لقتال معاوية أتاه الخبر أن طلحة و الزبير قد نقضا البيعة و انهما، و معهما عائشة و أهل مكة، خالفوه و خرجوا عليه، قاصدين البصرة. فنهد للحرب. و كانت وقعة الجمل حيث انتصر، و ذكر يومذاك الزبير بقول النبى للزبير «لتقاتلنه و أنت ظالم له» فترك الزبير حربه. و ندم طلحة قبل أن يلقى مصرعه. ثم رجع أميرالمؤمنين يسوى حسابه مع جيش الشام بقيادة معاوية، و تلاقى الجيشان فى صفين [۱۱] و فيها استشهد عمار بن ياسر، و هو فى التسعين من العمر. و فيه قول الرسول «تقتلك الفئة الباغية». و هو ادانة واضحة لمعاوية و جيشه. [صفحه ۴۶] أما أميرالمؤمنين يومئذ ففيه يقول ابن‌عباس جوابا لرجل سأله: أكان على يباشر القتال فى صفين؟ «و الله ما رأيت رجلا أطرح لنفسه فى متلفة مثل على، رضى الله تعالى عنه. و لقد كنت أراه يخرج حاسرا عن رأسه بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله». تراءت بشائر النصر للبطل الذى تعود النصر. فرفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله بينهم، و عرف الامام انها خدعة واراد استمرار القتال فيما اصر قطاع كبير من جيشه على وقف العمليات الحربية. و تمت خدعة التحكيم باختيار معاوية عمرو بن العاص حكما يمثله، و اختار الذين اوقفوا القتال أباموسى الاشعرى، وراود عمرو ابامورسى؛ على أن يخلع كل منهما صاحبه و يتركا الأمر للمسلمين يختارون من يشاءون. فقبل – ثم قدم عمرو أباموسى فخلع صاحبه. فلما جاء دور عمرو ثبت صاحبه...! و انشق من جيش على الذين فرضوا التحكيم. فحاربهم و انتصر عليهم فى «النهروان» و أطلق عليهم المسلمون اسم «الخوارج». و أخذ يعبئ جنده لمنازلة جيش الشام، و بدا

علی جنده آثار التعب من القتال، و علی جیش معاویة آثار شرائه للرجال. و انقسم المسلمون فهذا حزب علی، و هذا حزب معاویة! و الذین عاصروا الإسلام منذ ظهوره، کالذین درسوه و الذین صدقوا فیه، یفهمون المرارة فی قول أمیرالمؤمنین (انزلنی الدهر حتی قیل علی و معاویة!). رضی الله عن أمیرالمؤمنین و أرضاه. فما کان ذلک لیقع إلا فی آخر الزمان الذی قدره الله للخلفاء الراشدین، [۱۲] و فی آخر الأیام التی قدرها الله لحیاته. [صفحه ۴۷] لقد طعنه عبدالرحمن بن ملجم فی التاسع عشر من رمضان سنة ۴۰، باتفاق بینه و بین زمیلین من «الخوارج» أن یقتلوا علیا و معاویة و عمرا. فأصیب معاویة فی عجزه. و لم یصب عمرو إذ لم یخرج للصلاة و أناب نائبا عنه فقتل. أمر معاویة بالرجل فقتل. و أمر عمرو برجله فقتل. لکن أمیرالمؤمنین أمر باستبقاء قاتله قائلا – و هو الطعین المشرف – إنه إذا عاش فهو ولی دمه. و إذا مات فإنه ینهی عن المثلة؛ لیعلم الناس الدین، کمثل ما علم العالم جمیعه «قوانین الحرب و السلام» فی حروبه فی «الجمل» سنة ۳۶، و «صفین» سنة ۳۷، و «النهروان» سنة ۳۸. فتداولتها المذاهب الأربعة لتقدمها هدیة من فقه الإسلام للقوانین المعاصرة. [صفحه ۴۸] و انتقل أمیرالمؤمنین الی جوار ربه بعد یومین عن ۶۳ عاما، و أربعة أعوام و تسعة أشهر و یوم واحد فی خلافة کلها معارک. و لم یوجد بخزائنه إلا ستمائة درهم استبقاها لیشتری بها خادما. بل – و کما لخص حیاته سفیان الثوری – «ما بنی لبنة علی لبنة و لا قصبة علی قصبة و إن کان لیؤتی بحبوته فی جراب». الحبوة الخراج. و کما یقول محمد بن کعب القرظی «سمعت علی بن أبی‌طالب یقول: لقد رأیتنی و أنا أربط الحجر علی بطنی من الجوع و إن صدقتی لتبلغ الیوم أربعة آلاف دینار». و لما قال معاویة لضرار بن ضمرة: صف لی علیا، قال فیما قال: کان – و الله – بعید المدی. شدید القوی. یقول فصلا. و یحکم عدلا. یتفجر العلم من جوانبه. و تنطق الحکمة من لسانه. یستوحش من الدنیا و زهرتها. و یستأنس باللیل و وحدته. کان – و الله – غزیر الدمعة، طویل الفکرة، یعجبه من اللباس ما قصر، و من الطعام ما خشن. و کان فینا کأحدنا، یجیبنا إذا سألناه، و یبتدئنا إذا أتیناه... و نحن – و الله – مع تقریبه لنا و دنوه منا لا نکلمه هیبة له. لا یطمع القوی فی باطله و لا ییأس الضعیف من عدله... یبکی بکاء الحزین و یقول: یا دنیا إلی تعرضت أم إلی تشوفت. فهیهات، هیهات. غری غیری. بایع المسلمون الحسن بن علی أمیرا للمؤمنین، فخرج بجیش قوامه أربعون ألفا للقاء جیش معاویة. و تخاذل جنده کهیئة تخاذل الجند بین یدی أبیه. و تبودلت بینهما الرسائل و کانت النتیجة صلحا بعد خلافة دامت ستة أشهر و خمسة أیام (لعل الله أن یصلح به بین فئتین من المسلمین). فذلک قول جده علیه الصلاة و السلام. و دخل المتصالحان الکوفة. فسمی البعض عامهما هذا عام الجماعة. و أسماه الجاحظ (عام فرقة و قهر و جبریة و غلبة). حدث الشعبی قال: شهدت خطبة الحسن (رضی الله عنه) حین صالح معاویة فحمد الله و أثنی علیه ثم قال «أما بعد فإن أکیس الکیس التقی. و إن هذا الأمر الذی اختلفت أنا [صفحه ۴۹] و معاویة فیه، إن کان له فهو أحق به منی، و إن کان لی فقد ترکته إرادة لإصلاح الأمة و حقن دماء المسلمین. و إن أدری لعله فتنة لکم و متاع إلی حین». و عاد الحسن إلی المدینة. و عوتب علی صلحه فقال «اخترت ثلاثا علی ثلاث. الجماعة علی الفرقة. و حقن الدماء علی سفکها. و العار علی النار». و لیس بغیر هذا یتکلم الحسن. فلقد کان رجل عبادة و سلام للناس. خرج من ماله مرتین. و قاسم الله ماله ثلاث مرات. و حج عشرین حجة ماشیا من المدینة إلی مکة. و فی ربیع الأول سنة ۴۹ ه. شعر بالسم یسری فی جسده لتبدأ به سلسلة أئمة أهل البیت الذین یموتون مسمومین علی أیدی بنی‌أمیة و بنی‌العباس. فأوصی للحسین. و قال: «إذا مت فادفنی مع جدی ما وجدت لذلک سبیلا». لکن مروان بن الحکم والی معاویة علی المدینة منع من تنفیذ الوصیة، فدفن الحسن بالبقیع. و سیدفن معه فی قبره أئمة أهل‌البیت الرابع و الخامس و السادس. فأکرم بها بقعة فیها أمیرالمؤمنین الحسن، و علی زین‌العابدین – ابن‌الحسین – و ابنه محمد الباقر، و ابن‌الباقر: «جعفر الصادق». لما توفی الحسن کبر أهل الشام، فقالت فاختة بنت قریظة لمعاویة: أعلی موت ابن‌فاطمة تکبر؟ قال: ما کبرت شماتة بموته و لکن استراح قلبی. و قاله له ابن‌عباس: و الله یا معاویة لا تسد حفرته حفرتک و لا یزید عمره فی عمرک. و طلب معاویة البیعة لنفسه من محمد بن مسلمة فقال له «لعمری یا معاویة ما طلبت إلا الدنیا و لا اتبعت الا الهوی. و لئن کنت نصرت عثمان میتا لقد خذلته حیا. و نحن و من قبلنا من المهاجرین و الأنصار أولی بالصواب». و لما دخل سعد بن أبی‌وقاص علی معاویة قال: السلام علیک ایها الملک. قال معاویة: ما کان علیک یا أباإسحق ان

قلت أميرالمؤمنين؟ كتب معاويـة إلى عماله بنسخة واحـدة «انظروا من قامت عليه البينـة أنه يحب عليا و أهل‌بيته فامحوه من الديوان و أسـقطوا عطاءه» و أمر من يأتمرون بأمره ألا يرووا [صفحه ۵۰] أحاديث فضائل على وشيعته، ثم تمادى، فكلف ولاته أن يلعنوا عليا و من أحبه على المنـابر. فكتبت إليه أمالمؤمنين أمسـلمة تقول «إنكم تلعنون الله و رسوله على منـابركم لأنـكم تلعنون عليـا و من أحبه و أشهد أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أحبه». و لما دانت الدنيا لمعاوية قيل له: قد بلغت ما بلغت. فلو كففت عن الرجل؟ فقال «لا و الله حتى يربو عليها الصغير و يهرم الكبير». و لو عاش بضع سنين بعد عام موته لشهد انهيار دولته و انتهاء أسرته - أما الذين جاءوا بعـده فسيشـهدون صـعود الشـمس فى السـماء معلنـة حق على، مؤذنة بظهور أهل‌بيت النبى - صـلوات الله عليهم اجمعين. جعل معاوية الخلافـة ميراثا لابنه يزيد، بالسـيف على رؤوس أبناء الصـحابة جهرة، و بالرعب فى قلوب المستضـعفين، و بالمال فى جيوب الطامعين! أما الحسـين بن على فلم يستدرج و لم يستضـعف و أبى أن يبايع ليزيـد. و أما عبدالرحمن بن ابى‌بكر فقال لمعاوية كلمته الخالدة فى خلافته و خلافـة ابنه و من جاءوا بعـده: إنهم جعلوها (هر قليـة كلمات مات هرقل قام هرقل). و عبـدالرحمن بن أبى‌بكر هو جد «جعفر الصادق» من ناحيـة أمه و أمها. كان رأى محمد بن مسـلمة و سـعد بن أبى‌وقاص أن معاوية، صاحب ملك... ولكن ملك معاوية كان بصلح مشـروط. فلمـا خرج على الشـروط، أمسـى حقا لكل مجتهـد أن يقول فيه باجتهاده، فى المرة الأولى و المرة الآخرة. و لقـد قال أميرالمؤمنين على قوله فيه. و كشف الله لحكمة الإمام وجه الحق فيما صار إليه أمر معاوية و أمور المسـلمين. فحسبنا و حسبه قول على فيه - و قـد اسـلفناه - بل قول النبى لعمار عن جيش معاويـة «تقتلك الفئـة الباغيـة». أما عمرو فلأئمة السـنة فيه ما يكفيه، و حسبه قول الشافعى فيه، حول أساطين جامعه، حيث راح الشافعى يروى بعـد قرن و نصف قرن فى (جامع عمرو) بفسـطاط مصـر، دخول ابن‌عباس على عمرو، و هو ابن‌بضع و ثمـانين، و قول عمرو: أصـبحت و قـد ضـيعت من دينى كثيرا و أصـلحت من دنيـاى قليلا، فلو كان الـذى أصـلحت هو الـذى [صـفحه ۵۱] أفسـدت و الـذى أفسـدت هو الـذى أصـلحت لقـد فزت... فعظنى بعظـة انتفع بهـا يـا ابن‌عباس. قال ابن‌عبـاس: هيهات. قال عمرو: ابن‌بضع و ثمانين و تقنطنى من رحمـة الله! ثم رفع يـديه و قال: اللهم إن ابن‌عباس يقنطنى من رحمتك. فخـذ منى حتى ترضـى. قال ابن‌عباس: هيهات يا أبا عبـدالله. تأخذ جديدا و تعطى خلقا. قال: من لى منك يا ابن‌عباس. ما أرسل كلمة إلا أرسـلت نقيضـها! و المسـلمون يتناقلون قول الشافعى فى جامع عمرو عن عمرو: قدم ابن‌عمامة على عمرو فألفاه صائما و قد أحضـر اخوانه طعاما. و صـلى صلاة فأتقنها. ثم اتى بمال فأمر بتفريقه. قال ابن‌عمامة: يا أبا عبدالله و أتاك مال أنت به أحق من غيرك ففرقته. بم ذاك يـا أبـا عبـدالله؟ قال: ويحك يا ابن‌عمامـة فلو كانت الـدنيا مع الـدين أخـذناها و إياه. ولو كانت تنحاز عن الباطل أخـذناها و تركناه. فلما رأينا ذلك كذلك خلطنا عملا صالحا و آخر سـيئا عسى أن يرحمنا الله. و سمع العالم الشافعى فى جامع عمرو يهتز تحتانا إلى أبنـاء على فى الحجـاز فينشـد: يـا راكبـا قف بـالمحصب من منى واهتف بقاعـد خيفهـا و النـاهض إن كـان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ريحانة النبى فى كربلاء

انتهى عصـر معاوية بعد ملك طال تسـعة عشـر عاما و ثلاثة اشـهر و خمسة أيام [۱۳] ليبدأ [صـفحه ۵۲] عصر يزيد (۶۴ - ۶۱) فكان أفسد حكم. وقع فيه أفظع ظلم، و أعمق جرح فى قلوب أهل الإسلام. أنهاه الله بإنهاء عمره و انقطاع عقبه و عقب أبيه من سجل الدولة التى سـعيا لها كل ذلك المسـعى! و سـيخلفه ابنه معاوية بن يزيد. فيعلن أنه و أهله لا يسـتحقون الخلافة. و يعتزل بعد نحو أشهر ثلاثة. فكـان اعتزاله من تلقـاء نفسه و عبـاراته و هو يعتزل، شـهادتين بالفعل و بالقول، من نفس بنى‌أميـة، بأنهم جائرون. أنهى يزيـد سـنوات حكمه بتجريد جيش على المدينة يسـفك دماء اهلها و ينتهك حرمها، فى وقعة الحرة سـنة ۶۳. ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول. فلم يبق بعدهم على ظهر الأرض بدرى واحد! و قتل من قريش و الأنصار ثمانمائة! و من الموالى و التابعين و سائر الناس عشرة آلاف، ثم لفظ آخر أنفاسه و جيشه يحاصـر الكعبـة بعـد أن أحرقها! و أى نهاية لبشـر افظع من هذه النهاية! بل أى نهاية لدولة ابلغ فى الدلالة

على غضب السماء! فما كان حرق الكعبة و لا قتل الصحابة و ذبح الآلاف إلا تتابعا للأحداث التى بدأ بها السنوات الثلاث، و ختاما طبيعيا للبداية الفظيعة لحكمه، و جزاء له و لدولته. ينزله بها و بنفسه. لقد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء فى يوم عاشورا! فى العاشر من المحرم سنة ۶۱. فوقع فيها ما لا عين رأت و لا اذن سمعت، مثله أو قريبا منه، من استشهاد أبى‌الشهداء: الحسين بن على الذى دعا له النبى «اللهم إنى أحبه. فأحب من يحبه»، و الذى عظمه الخلفاء الراشدون و الناس جميعا على مدار العصور. و هو القدوة فى عطائه و عبادته و تواضعه و شجاعته فى كل موقف: فى «الجمل» و «صفين» و «النهروان» إلى جوار أميرالمؤمنين على و فى فتح أفريقية. و خراسان. و جرجان. و القسطنطينية. متصدرا جيوش المسلمين. كان بقية الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم). و كانت آمال الأمة فيه آمالها فى بقية الرسول. و كان أبعد الناس عن أن يستخلف على المسلمين يزيد... يزيد الصقور، و يزيد [صفحه ۵۳] الخمور، كما لقبه معاصروه. فلم يكن أحد ليأمل شيئا من عهد يزيد، إلا دنيا يصيبها أو أموالا يجمعها. و لذلك رفض الحسين أن يبايعه. و دعا أهل الكوفة الحسين إليهم فبعث اليهم ابن‌عمه مسلم بن عقيل. و خرج فى أثره. فقتل عبيدالله بن زياد والى الكوفة مسلما. و تخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين. فمضى حتى بلغ (كربلاء) على مبعدة خمسة و عشرين ميلا من الكوفة و فى ركبه ثمانية عشر رجلا من أهل بيته و ستون من شيعته. هنالك لقيهم جيش عبيدالله بن زياد، على رأسه عمر بن سعد بن ابى‌وقاص، فأعلن لهم الحسين أنه لا يريد الحرب، و خيرهم بين العودة الى الحجاز أو اللحاق ببعض الثغور. و رفض ابن‌زياد إلا أن ينزل فيه ما صنعاه بأهل المدينة، بعد عامين، من استرقاق الرجال و النساء. و حاول ابن‌بنت رسول الله أن يسير بأهله فى أرض الله الواسعة، فسدت الجيوش أمامه كل الطرق، و انقضت عليه سهام الآلاف و سيوفهم، و هو يحارب كالأسد. و تسيل جراحات جسمه و هو فى السابعة و الخمسين حتى استشهد [۱۴] . و استشهد رجال أهل‌البيت جميعا و الرجال الستون الذين يتألف منهم ركبه، إلا غلاما مريضا عاجزا عن الحركة هو ابنه زين‌العابدين (على بن الحسين) و ساق المجرمون الحريم. و جهز عبيدالله بن زياد، زينب بنت على [۱۵] و هذا الابن الوحيد الباقى من ذرية النبى، و من معهما [صفحه ۵۴] من الحريم مع الرأس التى طالما مسح عليها و قبل فاها رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، إلى يزيد بن معاوية فى دمشق. و أعاد يزيد الوفد إلى المدينة. إن فى إنسانية البشر قابلية للفساد كهيئة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية . و الإسلام لذلك يرفع الناس إلى أعلى، إذ يدفع الأنفس إلى ما هو أقوم، بالعبادة اليومية على مدار الليل و النهار، و تطهير النفس على مدار العمر. و من الفساد ما يستغلظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء مثل كسوف الشمس و خسوف القمر. و فى استشهاد أبى‌الشهداء آية من الآيات. كانت كربلاء قارعة رجت الأرض رجا يعيد الإسلام غضا فى الأنفس، بما كان فيها من التصميم و الإجماع على الاستشهاد فى سبيله. لقد انقضى بين يوم وفاة النبى و بين كربلاء خمسون عاما، كانت كافية لتدهور إحساس بعض الرجال فى أجيال، تدهورا يدفعهم لقتل ابن‌نبيهم! و هم يصلون عليه! و على آله الذين يقتلونهم! و لقد كرروا يوم «الحرة» ما فعلوه منذ عامين فى كربلاء، كما صنعوه مرة ثالثة إذ قصفوا الكعبة بالمنجنيق من اعلى جبل أبى‌قبيس. فالجريمة الأولى تدفع إلى الثانية، فالثالثة و غيرها. و الجرائم يصنعها المجرمون، و تصنع المجرمين. [صفحه ۵۵] باعوا أنفسهم للشيطان لقاء متاع قليل، لا يلبث أن يزول. قالوا: كان الحسين يستطيع بالمداورة أو المناورة أن يكسب الزمن، أو يستطيع بالاستسلام أن يكسب الحياة، لكنه الذى قال فيه و فى أمه و أبيه و جده، إقبال: [۱۶] . هى بنت من! هى زوج من! هى أم من! من ذا يدانى فى الفخار أباها! و من قبله رفض أبوه رأى المغيرة بن شعبة أن يكسب الزمن بترك معاوية على الشام حتى يبايع. فلم يقبل على أن يناور على حساب المبادئ. و ناور المغيرة فصار عاملا لمعاوية! الحق أن الحسين قدم للمسلمين الذين تعاقبوا فى آثاره على مدار الزمان حجة بالغة من أهل‌بيت الرسول، إذ ينفردون فى التاريخ بهذه الخصيصة التى لم يماثلهم، أو يقاربهم، فيها أهل‌بيت آخر فى تاريخ الإنسانية: الاستشهاد فى سبيل هداية البشر لما هو أقوم. و هى بعض خصائص الرسل. منح الاستشهاد اسما لكربلاء و خلد الأسماء التى تساقط أصحابها كالكواكب المنتثرة من السماء فوق رمال الصحراء، لا ـ لتنطفئ، و لكن لتقدم للبشر دروسا فى الدفاع عن الحق. من فئة قليلة، و اثقة فى الحق سبحانه، لا ـ تهمها أرواحها، و إنما يهمها العمل الصالح فى ذاته. و لا تنظر إلى الساعة التى هى فيها، و إنما تمد ابصارها إلى مستقبل الإنسانية كله،

لترتفع بالدنيا إلى مستوى أفكار الأئمة. و لقد صدق الحسين و المسلمين فى كل موقف وقفه. و كان عند وصية أبيه له و لأخيه الحسن و هو يجود بأنفاسه الأخيرة (أو صيكما بتقوى الله. و لا تبغيا الدنيا و ان بغتكما) فلم يبتغ الدنيا و اشترى بها الآخرة... فأمسى يقول «إنى لا أرى الموت إلا سعادة و الحياة مع الظالمين إلا برما». و شملت السماء ابن‌النبى فى كربلاء بمزيد من التأييد بمعان جليلة من جلال الإسلام، تختار منها هنا واقعة منه و واقعة من عدوه: فى الأولى أخذ إخذ أبيه فسقى [صفحه ۵۶] جيش العدو من العين التى نزل عندها و لم يحرم الماء قاتليه. [۱۷] و فى الأخرى ترك قائدان من قادة جيش ابن‌زياد، فى وطيس المعركة، إلى الجماعة العزلاء حول الحسين، ليستشهدوا فى الدفاع عن سيدالشهداء بين رجاله الذين ماتوا عن آخرهم، و هم يدركون أنهم يخوضون معركة خاسرة بكل المقاييس التى يتقايس بها المتحاربون، مظفرة بمقاييس المؤمنين. ولو عاش هؤلاء الشهداء العظماء، سنوات أو أشهرا أخرى، لماتوا كما يموت الآخرون. لكنهم ماتوا شهداء «كربلاء»،ليحيوا فى ضمير الزمان كله امثلة للحق، و عناوين على عظمة الإسلام. كانت كربلاء رسالة من ابن‌النبى للمسلمين: هى الأولى من نوعها بما تحتويه من دروس لا تحصى، فحسبنا أن نشير إلى البعض منها، و فى الدرس الواحد جماع دروس: و أول الدروس يتعلق بالحق ذاته، و فى الحق أعظم الدروس: أن لا يقر أحد الباطل. و أن يقدم فى سبيل ذلك نفسه، و أن يكون قدوة، و ألا يهاب المكثورون كثرة الظلمة. فالأمم تبقى بالمقاومة و لا تصيبها الهزيمة ان خسرت معركة، ما دامت فيها إرادة النصر، يسعى إيمانها بين يديها لتبلغ غرضها كله، إن لم يكن من فورها، فمرحلة بعد مرحلة. و أول من تعلم على الحسين بن على درس سنة ۶۱ كان عبدالله بن الزبير فى مقاومته بمكة بعد أعوام عشرة، و هو مكثور بجند عبدالملك بن مروان بعد إذ حرقوا الكعبة، كما حرقها جند يزيد بن معاوية. [صفحه ۵۷] و تعلم عمر بن عبدالعزيز و علم المسلمين - فى مدة خلافته - أن الكلام أو الصياح، ليس الأداة المثلى للإصلاح، و إنما المواقف هى التى تهز وجدان الشعوب، فكان له أعظم المواقف إذ بدأ بنفسه و أهله فضحى. فكانت فيه الأسوة الحسنة. و كلل الله سعيه فى أقصر مدة: ثلاثين شهرا كانت كافية لإصلاح دولة أدماها نحو قرن من الفساد، و لإسعاد أمة تنتظر القدوة من حكامها فلا تجدها. و الدرس الثانى: يتعلق بجزاء السماء و مصير الطغاة و طرائقهم: إنهم يحسبون الدنيا تدوم و لا تدور، و لا يدركون أن (الدهر بالإنسان دوار). كما يقول الشاعر العربى. تركبهم شياطين الشهوة فيخالون أنهم يمسكون كرة الأرض فى قبضتهم. يصطنعون اسباب الوثوب على أعدائهم من حين لآخر، و يتحينون الفرص المواتية، و يختلقون الأعذار الزائفة، ليقطعوا دابر العدو. و كلما جد جيل جدت لهم الأعذار و لم تغنهم النذر... فالذى حاوله فريق معاوية مع على فى صفين و لم يظفر به - من إفناء شيعة على أو من الإطاحة بخصومه بالسم من الوجود - قد أتاحته ليزيد فرصة فى كربلاء. و للطغيان طبيعة و منهج. و من طبيعته أن يعمى و يصم. فلا ينظر و لا يسمع إلا ذاته و أصواته. و أما المنهج فهو الغيلة. مرة واحدة إن أمكنه، و إلا فوثبة. و لكن واحدة ما بعدها. و الذى اقترفه يزيد ليس مجرد سقطة و إنما كانت أم‌السقطات. فمن بعد كربلاء كانت وقعة الحرة، ثم كان حريق الكعبة... فى سنوات ثلاث متعاقبة. فحق عليه جزاء السماء فأوردته حتفه... و السماء تملى للظالم، حتى إذا أخذته لم تفلته. و الدرس الثالث: يتعلق بأهل البيت أنفسهم. ۱ - فهم العترة الطاهرة. يدخلون الجنة مع جدهم، بعملهم، فلا يعملون إلا العمل الأصلح. والذى صنعوه فى كربلاء هو الذى كان يصنعه جدهم. و الذى صنعه أصحابهم معهم هو الذى كان يصنعه الصحابة - و أعظم به و بهم صنيعا و صناعا. فما هو إلا صفحات جديدة يضيفونها إلى السيرة العطرة. ۲ - و هم مثل جميع المسلمين، إن لم يكن قبل جميع المسلمين، مطالبون بالجهاد [صفحه ۵۸] و التضحية و ليس فضلهم ليسقط التكليف عنهم، كما يزعم بعض المتصوفة عن رجال من المتصوفين. و هذا درس للمتواكلين الذين لا يقبل الإسلام تواكلهم. ۳ - و هم يبلغون الذروة فيما يعملون: إذا حاربوا ماتوا شهداء، و لم يعطوا الدنية أو يستسلموا؛ لأن للمسلمين فيهم، كما كان لهم فى جدهم، الأسوة الحسنة. و فى بيتهم سمقت المبادئ الكبرى. فمنهم يطلب الشهادة. و من هذا كان صغارهم - كالكبار منهم - أبطالا يستشهدون و لا يتراجعون. لقد أذن الحسين لصحبه فى أن يفروا تحت جنح الليل و يدعوه وحيدا يواجه مصيره، فلم يقبل ذلك واحد منهم، و لم يرجف المرجفون من خصومهم، حتى اليوم، بأن واحدا منهم قد تردد. بل قال له ابنه على الأكبر و هو فى طريقه الى الكوفة «ألسنا على الحق» قال «بلى والذى إليه مرجع العباد». قال الفتى «فإذن لانبالى». و

الدرس الرابع: يدور حول وحدة العمل الصالح. و فيه يجتمع الحق و الحقيقة في المبدأ و المنتهى و ما بينهما. فإذا كانت الحقيقة أن أبناء الرسول رجال سلم و علم و قيادة، فهم لا يدارءون وراء هذه الحقيقة، فيقعدون عن الجهاد - جنودا - للحق، أو يكتفون دونه بالعلم إذا دعا الداعى إلى الجهاد، أو يوصون بالسلم حيث الحرب واجبة لإعلاء كلمة الله، بل يستمسكون بالحق و يضعون الحقيقة كلها فى خدمته. و الحق و الحقيقة و العمل الصالح كل لا ينقسم. و الأهداف العظيمة لا يبلغها الناس إلا باعمال عظيمة و وسائل سليمة. و الدرس الخامس درس فى الواجب و أدائه فى كل الظروف. و إن وهم المطالب به أنه غير مجد عليه أو على غيره، فهو لم يصبح واجبا إلا لأن التكليف به يحقق المصلحة العامة أو الخاصة، إن حالة و إن مؤجلة، منظورة أو غير منظورة. و هو قد اصبح واجبا لأنه فضيلة و إذا لم يكن مجديا فى لحظة، أو لرجل، ففى القيام به خير للناس، و للدنيا، فى الظرف ذاته أو فى ظروف أخرى. [صفحه ۵۹] و الظروف غير المواتية لا تجعل الفضائل غير مواتية. فالفضائل مواتية أبدا، مطلوبة دائما. و إذا كانت القدرة شرط التكليف و الرخص متروكا تقديرها للرجال، فبالمعاناة او التضحية ينسلخ الأقوياء من حالة الضعف و يخلع الناس على العظماء وصف العظمة. و ما المعاناة و التضحية إلا محاولات للثبات فى وجه الخطر، أو لاقتحامه، فهى درجات فضل و أدوات تقدم فى معترك الوجود الإنسانى، تضيف إلى تياره المتدفق أسباب طهر و نقاء، و أساليب بقاء، منظورة للكثيرين، و إن عمى عنها آخرون. و الدرس السادس: يتعلق بوظيفة التاريخ. فهو يصحح العوج و يصوب الانحراف، بالاستقامة على الجادة، خضوعا للعدل. و هو قانون السماء. إن الغلام المريض الذى بقى فى خيمة ابيه يوم كربلاء (زين‌العابدين) سيحيا ثلاثة و ثلاثين عاما حتى عام ۹۴، لتتسلسل منه ذرية ترفع أعلام الإسلام عالية فى ضمائر البشر. فى حين أن الطاغية الذى يرسل كتل النار و الدمار على البيت العتيق بالحجاز و على أهل‌البيت، فى صحراء العراق، سيزول ملكه - و ينقطع دابره - بعد ثلاثة سنين بتنازل ابنه عن ذلك الملك، ليزول اسم معاوية بن أبی‌سفيان، و يزيد بن معاوية من سجل الحوادث، و تخلد آثار أهل‌البيت ما تعاقب الجديدان، آية من السماء على أن دول القتلة لن تدوم، و أن هيمنة القتلى ستظل أبدا. و أن دولة الظلم لا تبقى بمقاييس الزمن إلا ساعة - أما دولة العدل فتبقى إلى قيام الساعة. و أنه تعالى صادق الوعد: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين». و ما أكثر ما كانت الغلبة ببقاء أسباب الانتصار، يتحقق بها النصر فى مكان آخر أو زمان آخر، بقوم يحبهم الله فينصرهم مهما كان عددهم، و يحبونه فيجودون بأرواحهم. و الدرس السابع: درس فى مبلغ ما تنجح الاستقامة و يفلح الإخلاص: فإذا كان أقرب الخطوط إلى الهدف هو الخط المستقيم و إن كان ترسمه أشد رهقا، فإن استشهاد أبی‌الشهداء كان الأساس السليم لقيام الصرح العظيم الذى جمع بين عمله و بين اسمه [صفحه ۶۰] فصيرهما مبدأ يحدث أثره فى عمارة الدنيا و إصلاح الجماعة، فى شكل قيام دولة، أو غلبة مذهب، أو وجود قدوة، أو ازدهار أمل، فى بعث منتظر. بهذا دارت الأفكار الدينية و المذاهب الفقهية للشيعة، سواء الإمامى منها، أو الاسماعيلى، أو الزيدى، فى آفاق الحسين العالية، و بلغت أوجها فى الفقه العملى القدير على التطور وفق حاجات البشر، فى العبادات و المعاملات و الأخلاق و النهج العلمى. و استمسك المسلمون عموما و الشيعة خصوصا، بالحسين و آله و أبنائه، و اقتدوا ببطولاتهم، و مقولاتهم، فاستخرجوا منها أصولا زخارة، و بنوا عليها فروعا فى الدين و الاقتصاد و السياسة و الاجتماع، لتقيم نظما سياسية و علمية و فكرية و اقتصادية متكاملة، هى كالنهر العظيم يجرى إلى جوار النهر الذى يسبح فى تياره أهل السنة. و النهران يتجاريان، كأنهما البحران يلتقيان، على أصول الإسلام، و يعملان - كل على شاكلته - فى تدعيم مبادئه. و فى استشهاد على بطعنة خارجى ركبته الشياطين، و فى ظلم معاوية و قومه له، حيا و ميتا، و فى استشهاد الحسين و بنيه، و بنی‌أخيه، و من كانوا معه من الشهداء الذين ذكرناهم، و الذين سنذكر البعض منهم، على ايدى الكثيرين ممن سنرى فظائعهم بعد، نمت و ترعرعت عقيدة أهل الإسلام. ۱ - أن عليا قبل التضحية دائما، فى جوار النبى، و بعده، هو و بنوه. و أنهم ضربوا الأمثال من أنفسهم، لا بمجرد النصيحة أو الفصاحة أو السياسة، و لكن بالدم الذى يتكلم، فتكون له بلاغة الشهادة بين يدى الله سبحانه. فأصبحوا عنوانا على العدل المفقود، و الأمل المنتظر، و بابا للرجاء فى عدل السماء، لتتدارك المسلمين برحمتها و مغفرتها. ۲ - أن المسلمين يضيفون إلى حساب الحسين، من حساب بنی‌أمية و عمالهم و سفاحيهم، إذ أرادوا السلطة و المال و شفاء صدور قوم

مبطلین. فقطعوا صلتهم بالله [صفحه ۶۱] یوم قطعوا رأس ابن‌بنت رسول الله. و فی حین یتراءی قتلهٔ أمیرالمؤمنین علی «خوارج» - کما تضافرت الأمهٔ علی وصفهم - أو «بغاهٔ» - کما سماهم أمیرالمؤمنین نفسه - یتدلی قتلهٔ الحسین إلی أدنی درک فی جهنم، سفاحین أجراء. و تتعالی بطولات الحسین قدر ما تتعمق الحسرهٔ من أجل استشهاده. فتبرز فی إجماع المسلمین علیه بطلا، و فی الفکر الشیعی، حیث یضاف جهاده إلی الوصیهٔ له بالإمامهٔ. فهذا یوم للحسین وحده. ناله بحقه. و فیه سند لإمامهٔ الأئمهٔ من أبنائه: علی زین‌العابدین. فمحمد الباقر. فجعفر الصادق. فالباقین من الأئمهٔ. ظلت شجرهٔ العدل، و العلم، و الأمل، تسقی بدماء الشهداء کلما رأت السماء مصلحهٔ للأمهٔ. فلم تلبث الکوفهٔ بعد نحو عام واحد من وقعهٔ الحرهٔ أو ثلاثهٔ أعوام من یوم کربلاء أن هز ضمیرها تقصیرها. فقامت من الفور حرکهٔ التوابین سنهٔ ۶۴ [۱۸] بین أهل الکوفهٔ الندامی علی ما فرط منهم من تقصیر. و لم تنته حالهٔ الندم بمصرع سلیمان بن صرد زعیم التوابین، بل توالت الثورات علی دولهٔ بنی‌امیهٔ، بقیام المختار الثقفی ثم عبدالله بن الزبیر، و تحرک الخوارج، و قیام الفتن، و منها فتنهٔ ابن‌الأشعث و قد انضم إلیها العلماء. و ثورهٔ زید بن علی زین‌العابدین، و خذلان أهل الکوفهٔ له سنهٔ ۱۲۱ ه. کما خذلوا جده سنهٔ ۶۱ ه. فاستشهد زید و مثل برأسه [۱۹] الخلیفهٔ هشام بن عبدالملک، ثم استشهد ابنه یحیی سنهٔ ۱۲۵. و کان جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زین‌العابدین شجرهٔ باسقهٔ تترعرع فی کل [صفحه ۶۲] ورقهٔ من أوراقها خصیصهٔ من خصائص أهل‌البیت فی عصر جدید للعلم. تعاونت فیه أجیال ثلاثهٔ متتابعهٔ منه و من أبیه وجده. و لما استمسک بإمامته و انصرف الی نهجه التعلیمی، أمن جانبه طلاب السلطهٔ، و اتخذوا من زهده فیها شهادهٔ لهم ضد من ینازعونهم. لکنه کان الغرض الذی تنجذب إلیه الأنظار: فهو یمثل العقیدهٔ الدینیهٔ التی یقاس بفضائلها عمل الحکام فی الإسلام، و ما یتبعه من رضی العامهٔ عنهم، أو سخطها علیهم. و هو - بوجه خاص - حجر الزاویهٔ من صرح «أهل والبیت» ترنو إلیه أبصار الذین یدعون الخلافهٔ بدعوی أنهم من «أهل‌البیت». و هو مقیم فی المدینهٔ، العاصمهٔ الأولی، و الدائمهٔ، للإسلام، یتحلق فیها المتفقههٔ، حول علماء الإسلام فی مسجد الرسول، یحملون بأیدیهم مصابیح السنهٔ، أو یعلنون شرعیهٔ الحکومهٔ أو عدمها، و حسن السیرهٔ أو فسادها، و إقرار أهل العلم أو إنکارهم. و هی أمور أساسیهٔ، تحرص علیها الدولهٔ العادلهٔ، و تتجنب الاتهام بمخالفتها أی دولهٔ. و إذا کانت دمشق قد أدارت ظهرها لمدینهٔ الرسول، أو کانت بغداد قد فتحت أبوابها علی العالم، و أوصدتها دون أهل المدینهٔ، فالمسلمون یأتون إلی مدینهٔ الرسول کل عام، رجالا و علی کل ضامر، إذ یحجون إلی البیت العتیق بمکهٔ، ویزورون قبر الرسول و یشهدون آثاره فی المدینهٔ. و إذا کان الخلیفهٔ المنصور یقول عن نفسه: «إنما أنا سلطان الله فی الأرض» فهو یحس وطأهٔ «سلطان الدین و العلم» فی المدینهٔ، حیث إمام المسلمین غیر منازع «جعفر بن محمد» الذی یصفه الناس - و أبوجعفر المنصور فی طلیعتهم - «بالصادق». و من أوصافه کذلک: «الطاهر» و «الفاضل» و «الصابر» [صفحه ۶۳]

بین السلطان و الإمام

اشاره

«السلطان کراکب الأسد» «یهابه الناس، و هو لمرکوبه أهیب» أفلاطون [صفحه ۶۵] آلت الخلافهٔ إلی بنی العباس سنهٔ ۱۳۲ و کان «السفاح» أول خلفائهم. ثم مات فخلفه أبوجعفر المنصور، لیبقی فی الخلافهٔ اثنین و عشرین عاما (۱۵۸ - ۱۳۶)، وطد فیها أرکان الدولهٔ العباسیهٔ، و أخضع الخارجین علیها فی کل أرجاء «الإمبراطوریهٔ». فهی لم تعد دولهٔ دینیهٔ کما دعوا لها منذ بثوا دعاتهم من فاتحهٔ القرن. و لم تصر «للرضا من آل محمد» کما کانوا یدعون، بل غصبوا حق أبناء علی، کما کان بنو علی عند قیامها عاجزین عن تولی السلطهٔ، و کان أحقهم بها - و هو جعفر بن محمد - عازفا عنها، عارفا أن مهمته الأولی هی تعلیم المسلمین. و جرت الأمور مجراها الطبیعی للحاکمین الجدد، یطوون أضالعهم علی الخوف و الحقد و الحذر، و یشرعون أسلحتهم فی کل مکان للدفاع عن دولتهم. و کان ذو و القربی فی طلیعهٔ الأعداء. فاستعرت الشحناء بین الأقرباء، ثم سالت الدماء. و جعفر الاصادق، بعزوفه و استعلائه،

بعيد عن المذابح. لكن بعده عنها، لا يقيه بطش خليفة حذر، متنمر، تدعوه إلى المواجهة الشرسة ماتوسوس له هواجسه مخافة أهل‌البيت و شيعتهم. و كان توفيق السماء حليف الإمام فی مواجهاته، و إن بقيت الدولة على حذرها، تنزل بأهل البيت ألوان العذاب و الارهاب و الحبس و القتل لابادتهم. [صفحه ۶۷]

اهل‌البيت

اشاره

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل‌البيت و يطهركم تطهيرا». (الأحزاب / ۳۳) [صفحه ۶۹] اختلف أهل التأويل فی صدد «أهل‌البيت»، و هم يفسرون قوله تعالی فی سورة الأحزاب «يا أيها النبی قل لأزواجک إن كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فتعالين أمتعكن و أسرحكن سراحا جميلا. و إن كنتن تردن الله و رسوله و الدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما» ثم يوجه الخطاب فی الآيات ۳۱، ۳۲، ۳۳، ۳۴ - و فی الأخيرتين يقول - لنساء النبی - «و قرن فی بيوتكن و لا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى و أقمن الصلاة و آتين الزكاة و أطعن الله و رسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل‌البيت و يطهركم تطهيرا. و اذكرن ما يتلى فی بيوتكن من آيات الله و الحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا». و إذ كان التطهير هو الدرجة العليا للبشر، و الاختصاص به بين المسلمين يجعل لأهل البيت حقوقا و امتيازات تؤهل لإمامة الدين، و إمامة الدنيا، أی خلافة الدين و الدنيا، و كان ثمة سنن مروية فی تفضيل علی و بنيه و جعلهم من الأمة مجعل الأوصياء أو الأئمة - و هذا شأن لا يسلمه بنوأمية، و لا بنوالعباس، و لا كثير من قريش - فقد ذهب الفقهاء عموما، و المفسرون خصوصا، مذاهب شتی فی تعريف أهل‌البيت، يمكن تحصيلها فيما يلی: ۱ - قال الشيعة: إن أهل‌البيت هم رسول الله (صلی الله عليه و آله و سلم) و علی و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم‌السلام. يؤيدهم فی ذلک حديث أم‌سلمة أم‌المؤمنين أن النبی أجلس الأربعة حوله علی كساء له وضعه فوق رؤوسهم و أومأ بيده اليمنی إلی ربه ثم قال «اللهم هؤلاء أهل‌البيت. فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا». و عن أم‌سلمة أن الآية نزلت و الرسول (صلی الله عليه و آله و سلم) فی بيتها و إنما عندئذ كانت علی [صفحه ۷۰] باب البيت فقالت: أنا يا رسول الله من أهل‌البيت؟ و أنه قال «و إنک إلی خير و أنت من أزواج النبی» و عنها أنها قالت: يا رسول الله أدخلنی معهم. و أنه قال «إنک من أهلی». ۲ - و قال البعض: بل عنی الله بذلک أزواج النبی. و الحجة فی ذلک توجيه الخطاب إليهن. و نقلوا ذلک عن ابن‌عباس - تلميذ علی، و شيعته، و عامله - و ذهبوا إلی أن «البيت» أريد به مساكن النبی (صلی الله عليه و آله و سلم). ۳ - و قال فريق: بل إن (أهل النبی) هم أهل بيته. ولو كان أهل‌البيت هم زوجاته فقط لكان النص (ليذهب عنكن الرجس) لا (عنكم) كما هو النص فی الآية. فدخل فی ذلک رجال. و أهل النبی - بدلالة السنن التی أشرنا إلی بعضها - هم فاطمة و علی و الحسن و الحسين عليهم‌السلام؛ و يؤيد ذلک قول الآية (و يطهركم). و هذا يوافق الرأی الأول. ۴ - و إذا دخل الرجال فهم - كما قال فريق آخر - بنوهاشم. و البيت يراد به بيت النسب. فيدخل فی ذلک أعمام النبی، و فيهم بنوالعباس و بنو أبی‌طالب. ۵ - و يتوسع محيی الدين بن عربی (۵۶۰) - فی الفتوحات المكية - فيدخل «سلمان الفارسی» فی أهل‌البيت. إذ الرسول يقول «سلمان منا أهل‌البيت» و يضيف ابن‌عربی أن جميع ما يصدر عن أهل‌البيت (عليهم‌السلام) معفو عنهم فيه، فهم مطهرون بالنص، معصومون، و إن توجهت عليهم الأحكام الشرعية. و يذكر البعض قول الرسول «سألت ربی أن لا يدخل النار أحدا من أهل بيتی فأعطانا ذلک» و قوله: يا فاطمة أتدرين لم سميت فاطمة؟ فقال علی: لم سميت؟ قال عليه الصلاة و السلام «إن الله عزوجل قد فطمها و ذريتها من النار يوم القيامة». ۶ - و فريق يری أن أبناء علی من الزهراء هم الذرية المقصودة فی سورة الطور حيث قوله - جل ثناؤه «و الذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم و ما ألتناهم من عملهم من شیء» و رووا عن ابن‌عباس أن رسول الله (صلی الله عليه و آله و سلم) قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه فی درجته». و بهذا ترتفع ذرية النبی - و هی ذرية علی من الزهراء - فتلتحق

بالنبی (صلی الله علیه و آله و سلم). و هذا المعنی تفیده الآیة ۲۳ من سورة الرعد «جنات عدن یدخلونها و من صلح من [صفحه ۷۱] آبائهم و أزواجهم و ذریاتهم» فأهل‌البیت ذریة داخلة الجنة مع جدها علیه الصلاة و السلام. ۷ - و هذا فریق یوسع فیشمل ذوی القربی، و تشمل آل محمد (صلی الله علیه و آله و سلم)، بقوله تعالی فی سورة الشوری: «قل لا أسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی». و قال قوم إن للنبی قرابة فی کل بطن من بطون قریش، و إن کان أخص القرابة هم الذریة. و ظاهر هذه الافراق علی ان ذریة علی من فاطمة من اهل‌البیت، و ان الخلاف فیما عدا ذلک، و الحقیقة إن الذریة وحدها و علیا و فاطمة هم أهل‌البیت، بدلالات شتی من الحدیث... ثابت منها أن النبی طفق ستة أشهر - بعد نزول آیة التطهیر - یمر وقت صلاة الفجر علی بیت فاطمة فینادی «الصلاة یا أهل‌البیت، إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل‌البیت و یطهرکم تطهیرا». فهذا نص، و أنص منه حدیث أم‌سلمة، إذا أفصح عنهم، و استبعد سواهم. و فی بعض الروایات أن النبی (صلی الله علیه و آله و سلم) أدخل علیا و فاطمة وابنیهما تحت الکساء ثم جعل یقول «اللهم إلیک لا ـ إلی النار و أنا و أهل‌بیتی. اللهم هؤلاء أهل‌بیتی و خاصیتی - و فی روایة و حامتی - اللهم أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا». و سیظل وصف أهل‌البیت قضیة بین بنی‌العباس و بنی علی؛ فهو من مسوغات الخلافة و استمرار الرضی عنها. سأل الرشید یوما الإمام موسی الکاظم بن جعفر الصادق علیهماالسلام: بم قلتم نحن ذریة رسول الله و أنتم بنو علی؟ قال: قال تعالی: «و من ذریته داود و سلیمان و أیوب و یوسف و موسی و هرون و کذلک نجزی المحسنین و زکریا و یحیی و عیسی». و لیس لعیسی أب، و إنما ألحق بذریة الأنبیاء من قبل أمه. و کذلک ألحقنا بالنبی من أمنا فاطمة. و زیادة علی ذلک قال عزوجل: «فمن حاجک فیه من بعد ما جاءک من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءکم [صفحه ۷۲] و نساءنا و نساءکم و أنفسنا و أنفسکم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله علی الکاذبین» و لم یدع رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) عند مباهلة النصاری غیر علی و فاطمة و الحسن و الحسین. و لم یکن لوصف أهل‌البیت کبیر خطر، فی دنیا الملوک من بنی أمیة، فلقد قهروا أهل‌البیت جهارا نهارا، برماحهم، و استقرار الأمور لهم - لکن الدولة فی عهد بنی‌العباس قامت علی شعار الدعوة «للرضا من آل محمد» دون تسمیة أحد بذاته. و لما أقبلت جیوش خراسان یقودها أبومسلم الخراسانی، بالدولة الجدیدة، بعد ربع قرن من الإعداد السری، کان مقدمها و انتصارها استجابة لهذا الشعار. کتب أبومسلم الخراسانی أیامئذ إلی الإمام جعفر الصادق «إنی قد أظهرت الکلمة و دعوت الناس عن بنی‌أمیة إلی موالاة (أهل‌البیت) فإن رغبت فلا مزید علیک» و أجاب جعفر الصادق معلنا فلسفته «ما أنت من رجالی. و لا الزمان زمانی». [۲۰] . و فی الوقت ذاته بعث أبوسلمة الخلال - الملقب بوزیر آل محمد، و الذی سیصبح وزیرا للسفاح أول خلفاء بنی‌العباس - إلی جعفر الصادق (علیه‌السلام)، و عبدالله بن... «الحسن»، و عمرو الأشرف، من أبناء علی، مع رجل من موالی أبی‌سلمة قائلا له: إن أجاب جعفر فلا تذهب إلی غیره، و إن لم یجب فاقصد إلی عبدالله، فإن أجاب فأبطل کتاب عمرو. و ذهب الرسول إلی جعفر فقال: مالی و لأبی سلمة، و هو شیعة لغیری. و وضع الکتاب فی النار حتی احترق - و أبی أن یقرأه. قال الرسول: ألا تجیبه؟ قال: قد رأیت الجواب. [صفحه ۷۳] ثم مضی الرسول إلی عبدالله. فقرأ الکتاب. و قصد إلی جعفر الصادق ینبئه بورود الکتاب إلیه من شیعته بخراسان. قال الصادق له: و متی کان لک شیعة بخراسان؟ أأنت وجهت أبامسلم إلیهم؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه؟ فکیف یکونون شیعتک و هم لا یعرفونک و أنت لا تعرفهم. قال عبدالله: کأن هذا الکلام منک لشیء؟ قال الصادق: قد علم الله أنی أوجب النصح علی نفسی لکل مسلم. فکیف ادخره عنک؟ فلا تمن نفسک فإن الدولة ستتم لهؤلاء. و ذات یوم دخل علی جعفر الصادق سدیر الصیرفی قال: یا أبا عبدالله! ما یسعک القعود. قال لم؟ قال لکثرة أنصارک... مائة ألف. مائتی ألف. فتساءل الإمام عن عدد المخلصین منهم. و أبدی زهدا و بصرا بالعواقب. و إبراهیم الإمام یکتب إلی واحد من دعاته فی خراسان (... و إن استطعت ألا تبقی فی خراسان من یتکلم العربیة فافعل) و هو تعطش للدم فی سبیل السلطة، وسفک لدماء العرب خاصة، لا ـ یقول به واحد من ائمة أهل‌البیت (علیهم‌السلام). و کان بنوهاشم قد اجتمعوا قبل ذلک بالأبواء - شمال المدینة - و الأوضاع تغلی فی خراسان، و الجو یزخر بالنذر، فعلی الذین یرسلون الدعاة إلی خراسان، و الذین تجری الدعوة لهم، أن یتدارسوا أمورهم، لیعرفوا لمن تؤول الأمور. فمثل فرع العباس بن عبدالمطلب عم النبی إبراهیم الإمام (ابن‌محمد بن

على بن عبدالله بن عباس)، و أخوه أبوجعفر (المنصور). و عمهما صالح بن على. و مثل فرع بنى على بن أبى‌طالب، عبدالله بن الحسين (بن الحسن بن على) و ابناه محمد و إبراهيم. و محمد بن عبدالله بن... عثمان بن عفان (لأن أمه من بنى‌الحسن بن على) و هو أخو عبدالله لأمه. و أجمع الفرعان على «محمد بن عبدالله بن الحسن» الملقب بالنفس الزكية لورعه الكامل و علمه المشهود به. بل قد تحمس له أبوجعفر، و كان يومئذ يلبس قباء [صفحه ۷۴] اصفر. و لما حج محمد لقى أباجعفر فبايعه مرة أخرى بالمسجد الحرام ذاته، و أمسك أبوجعفر بركابه يومذاك و راح يقول للناس: هذا مهدينا أهل‌البيت. و إذ لم يكن لبيت الحسين ممثل فى اجتماع يوم الأبواء، بعث عبدالله بن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد فحضر و اعترض على بيعة محمد بن عبدالله. قال: لا تفعلوا. فإن هذا الأمر لم يأت بعد. فغضب عبدالله و قال: لقد علمت خلاف ما تقول. و لكن يحملك على هذا الحسد لابنى. قال جعفر: و الله ماذاك يحملنى. و لكن هذا و أخوته و أبناؤهم دونكم... إنها والله ما هى إليك و لكن لهم. و إن ابنيك لمقتولان. ثم نهض و توكأ على يد عبدالعزيز بن عمران الزهرى فقال: «أرأيت صاحب القباء الأصفر» – «أباجعفر» – قال نعم: قال: فإنا والله نجده يقتله. قال عبدالعزيز: أيقتل محمدا؟ قال: نعم. قال عبدالعزيز – فيما بعد – فقلت فى نفسى (حسده و رب الكعبة). ثم قال عبدالعزيز: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما (محمدا و أباه). قال: فلما قال جعفر (عليه‌السلام) ذلك، انفض القوم فافترقوا و لم يجتمعوا بعدها . و تبعه أبوجعفر (المنصور) و عبد الصمد (من أعمام أبى‌جعفر) فقالا: يا أبا عبدالله أتقول هذا؟ قال: نعم. أقول و الله و أعلمه... قالوا: كان أبوجعفر يسميه الصادق لصدق نبوءته. و قالوا: دعا محمد عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة لمبايعته فاعتل عليه و قال: لا أبايع أحدا حتى أختبر عدله. و لقد ظل أبوجعفر المنصور يذكر هذا لعمرو. و كان جعفر الصادق (عليه‌السلام) إذا رأى محمد بن عبدالله بعد ذلك اغرورقت عيناه و قال: بنفسى هو... ان الناس ليقولون إنه المهدى. و إنه لمقتول. ليس فى «كتاب على» من خلفاء هذه الأمة... [صفحه ۷۵] بايع أبوسلمة الخلال للسفاح. و لم يبايع لأبى جعفر، الأخ الأكبر، لأن أمه كانت أمولد بربرية تدعى سلامة. وبدأ حكم بنى‌العباس فى سنة ۱۳۲. و أذيع فى الملأ أن محمد بن على – أباالسفاح – موصى له بوصية من «أبى‌هاشم» عبدالله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى‌طالب، إذ أحس عبدالله أثر السم الذى سقاه دسيس من الخليفة سليمان بن عبدالملك بن مروان (۹۸) فمال فى الطريق إلى حيث مات عند محمد «بالحميمة». وثمة من يعتقد أن الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلى أخيه محمد بن الحنفية (امه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة). و هذه الوصية تغنى بنى‌العباس عن الخلاف مع أبناء على، فى أن يكون العباسيون من أهل‌البيت أو لا يكونون. بهذا صير بنوالعباس محمد بن على بن عبدالله بن العباس إماما. فلما مات آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم فنودى بأنه «ابراهيم الإمام». فلما قتل ابراهيم بايعوا للسفاح سنة ۱۳۲.

بين ابناء على و بنى‌العباس

قضى «السفاح» على الأحياء من بنى‌أمية و بنى‌مروان، فاستحق فى التاريخ لقبه. و أدار وجهه للآخرين. فسأل عبدالله بن الحسن عن ابنه محمد (النفس الزكية) و أخيه إبراهيم، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب حينا، ثم عاجله أجله. و ولى أبوجعفر سنة ۱۳۶، و ألح فى طلبهما، فأعجزاه هربا. و للأقرباء، أو الأصدقاء، أولوية فى سورة السلطة إذا عريت من خشية الله. و أولى الناس بالفتكة البكر منها: الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء، و الأصدقاء الذين يحتمل أن يقدروا على الإيذاء... فالأولون يغرى السلطان بهم الحسد أو الحقد أو الخوف من جانبه، لما يعرفون من دخائل يخشاها، أو لما يتضح لهم من عورات، أو فيهم من مطامع، أو استخفاف بالسلطان، الذى رأوه و هو سوقة، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه، أو أكثر من حقه. و الآخرون أحرى بالخوف و الحذر، سدا لذريعة [صفحه ۷۶] الوثوب وانتهاز الفرص. أو شغلا لهم بأنفسهم، أو معالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفزع من جراء الحكم، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق. و كالسلطان أعوانه. و لا يتوازن فى سدة السلطة الا القليلون. و قل ما يتوازنون. و للإمام الصادق (عليه‌السلام) فى ذلك مقولة دالة «إذا كان لك صديق فولى ولاية فأصبته على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته فليس بصديق

سوء». قیل لأبی جعفر «لقد هجمت بالعقوبهٔ حتی کأنت لم تسمع بالعفو»! فقال: (لأن بنیمروان لم تبل رممهم بعد. و نحن بین قوم قد رأونا بالأمس سوقهٔ و نحن الیوم خلفاء، فلیس تتمهد هیبتنا فی نفوسهم إلا بنسیان العفو و استعمال العقوبهٔ). و صاحب السلطهٔ کراکب الأسد (علی ما قال افلاطون) یهابه الناس و هو لمرکوبه أهیب. لهذا أخذ بنوالعباس أبناء علی، أخذ ظلوم غشوم، و بطشوا، و غدروا بمن حذروهم من أنصارهم و ذویهم، کعبد الله بن علی عم المنصور، و أبیمسلم الخراسانی قائدهم، و أبیسلمهٔ الخلال وزیرهم، بمثل ماغدروا باعدائهم بعد أن أمنوهم. و لما أعطی أبوجعفر المنصور محمد بن عبدالله أمانا کتب إلیه محمد ساخرا (أی أماناتک هو؟ أأمان ابنهبیرهٔ، أو أمان عمک عبدالله أو أمان أبیمسلم)... فقد أعطی أبوجعفر عهودا للکل، و قتل الأول و الثالث و لم یکن قد قتل الثانی بعد. لکنه کان قد حبسه من سبع سنین لیقتله بعد أن یقتل محمد بن عبدالله بن الحسن ذاته. فصیر خلافته، کالمسبعهٔ، لا یأمن فیها الصدیق، و العدو، و الصیاد، و الفریسهٔ! و زاد ضراوهٔ أبیجعفر علی أقربائه أن لواحد منهم فی عنقه بیعهٔ، علی ملأ منهم. کانت حریهٔ أن تمنعهم و تمنعه، لولا ما للشهوهٔ من خدر یطیح بالتوازن، فسولت له نفسه أن یتخلص من البیعهٔ بالخلاص ممن بایعه، و ان کان من قبل یمسک برکابه. بل طوعت له شهوته أن یتخلص ممن قد یشهد ضده حتی لایراه الناس أو یسمعوه [صفحه ۷۷] یحکی لهم ما قد رأی و قد سمع: قال یعقوب بن عربی: (سمعت أباجعفر یقول فی ایام بنیأمیهٔ ما فی آل محمد أعلم بدین الله و لا أحق بولایهٔ الأمر من محمد بن عبدالله... و بایع له... و کان یعرفنی بصحبته، و الخروج معه... فلما قتل (محمد) حبسنی عشرین سنهٔ). طلب أبوجعفر من عبدالله بن الحسن ابنیه محمدا و إبراهیم؛ فأنکر علمه بمکانهما، فجرت بینهما مشادهٔ، و أغلظ کل لصاحبه، و انصرف المنصور من المدینهٔ، فبث الجواسیس یأتونه من کل مکان بأخبار بنی الحسن. و فی سنهٔ ۱۴۰ قصد أبوجعفر للحج فنزل بالمدینهٔ، و دعا عبدالله بن الحسن و طالبه بولدیه. و کانا یأتیان أباهما معتمین فی هیئهٔ الأعراب فیستأذنانه فی الخروج فیقول «لا تعجلا حتی تملکا. إن منعکما أن تعیشا کریمین فلا یمنعکما أن تموتا کریمین». و لما لم ینل أبوجعفر منالا انصرف من المدینهٔ و أمر بحبس عبدالله و أهلبیته، فبقوا فی السجن ثلاث سنین فی دار مروان - دار الإمارهٔ فی حکم بنیأمیهٔ - حتی إذا کانت سنهٔ ۱۴۴ ولی أبوجعفر المنصور رباح بن عثمان عاملا علی المدینهٔ. و حج فی العام ذاته فتلقاه عامله بالربذهٔ فرده إلی المدینهٔ لإشخاص عبدالله بن الحسن و أهلبیته - بما فیهم محمد بن عبدالله... بن عثمان - شاهد البیعهٔ یوم الأبواء - فکانوا خمسهٔ عشر أخذوا فی محامل إلی الربذهٔ. و نظر الإمام الصادق (علیهالسلام) إلیهم و عیناه تهملان حتی جرت دموعه علی لحیته. و اقتیدوا إلی الربذهٔ فی الاغلال، و مزقت السیاط جسد (محمد بن عبدالله... ابنعثمان) حتی إذا خرج أبوجعفر فی محمل، ناداه عبدالله بن الحسن قائلا: یا أباجعفر! و الله ما هکذا فعلنا بأسراکم یوم بدر... فلوی أبوجعفر رأسه کبرا و لم یعرج. و حمل أهلالبیت تلقاء النجف. حتی إذا دخلوا الکوفهٔ حبسوا فی قصر کان لابن هبیرهٔ فی شرقی الکوفهٔ... و هدم علیهم البیت بعد ستین یوما، فمات الذین لم یموتوا [صفحه ۷۸] فی أثنائها، و دفن الجمیع تحت الأنقاض... و شیخهم عبدالله فی الخامسهٔ و السبعین! و اعلن محمد بن عبدالله الثورهٔ للیلتین بقیتا من جمادی سنهٔ ۱۴۵ فاستولی علی المدینهٔ. و خرجت المدینهٔ بأسرها مع محمد. فکان فی جیشه علماؤها الفحول. فیهم ابنهرمز شیخ مالک، و ابنعجلان، و ابن أبیسبرهٔ، و عبدالله بن عمر العمری، و مصعب بن ثابت الزبیری. اما مالک فاکتفی فی الحرب بفتیاه أن بیعهٔ المنصور کانت مکرههٔ، و من أجلها أصابه ما أصابه [۲۱] من والی أبیجعفر و ابنعمه سنهٔ ۱۴۶. و خرج مع محمد موسی و عبدالله ابناء الإمام جعفر الصادق (علیهالسلام). و قصد جعفر الصادق (علیهالسلام) إلی محمد فی مجلس حربه قال: أتحب أن یصطلم أهل بیتک (یستأصل)؟. قال: ما أحب ذلک. قال: فإن رأیت أن تأذن لی، فإنک تعرف علتی. قال محمد: قد أذنت لک. و مضی جعفرالصادق (علیهالسلام)، فالتفت محمد إلی ابنی جعفر و قال لهما: الحقا بأبیکما فقد أذنت لکما. و التفت الامام فقال: ارجعا فما کنت لأبخل بنفسی و بکما. و وجه المنصور إلی المدینهٔ جیشا بقیادهٔ ابنعمه، و ولی عهده، عیسی بن موسی. و فی غرهٔ رمضان ثار إبراهیم أخومحمد و استولی علی أکثر من مکان فی إقلیم البصرهٔ - ثم استشهد محمد فی ۱۴ من رمضان سنهٔ ۱۴۵ ه. و استشهد إبراهیم [۲۲] عند باخمری [۲۳] لخمس بقین من ذی القعدهٔ، و أرسل رأسه إلی أبیجعفر المنصور. و استولی عیسی بن موسی علی «عین أبیزیاد»، و هی ضیعهٔ لجعفر

الصادق عليه‌السلام التى يقتات منها، و يشرك فى ثمرها أهل المدينة. [صفحه ۷۹] و سنرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية العهد، و يولى ابنه المهدى سنة ۱۴۷. و كان قد حبس عمه عبدالله بن على من سنة ۱۳۸ فى دار تهدم عليه فيموت سنة ۱۴۷! و عبدالله عمه و قائده المنتصر على آخر ملوك بنى‌أمية فى معركة الزاب. لكنه تمرد عليه، فأرسل إليه جيشا بقيادة أبى‌مسلم الخراسانى، و لجأ عبدالله إلى أخويه سليمان و عيسى فأخذا له عهدا على المنصور كتبه «ابن‌المقفع» و فيه (و متى غدر أميرالمؤمنين بعمه فنساؤه طوالق، و دوابه حبس، و عبيده أحرار، و المسلمون فى حل من بيعته) فأما «أبومسلم» فسيدعوه أبوجعفر إلى قصره بعد أمان يعطيه إياه ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونه أمامه. و أما عبدالله بن المقفع فسيقتله و الى أبى‌جعفر سنة ۱۴۲. فيشفى صدر أبى‌جعفر. روى الإمام الصادق ما كان بعد أن كان بعد أن هدأت الأحوال... قال: (لما قتل إبراهيم بن عبدالله بباخمرى حسرنا عن المدينة - و لم يترك فينا محتلم حتى قدمنا الكوفة. فمكثنا فيها شهرا نتوقع القتل. ثم خرج إلينا الربيع الحاجب فقال: أين هؤلاء العلوية؟ أدخلوا على أميرالمؤمنين رجلين منكم من ذوى الحجى. فدخلنا إليه أنا و الحسن بن زيد، فلما دخلنا عليه قال: أأنت الذى تعلم الغيب؟. قلت: لا يعلم الغيب إلا الله. قال: أنت الذى يجبى إليه هذا الخراج؟ قلت: إليك يجبى - يا أميرالمؤمنين - الخراج . قال: أتدرون لم دعوتكم؟ قلت: لا. قال: أردت أن أهدم رباعكم، و أروع قلوبكم، و أعقر نخلكم، و أترككم بالسراة... لا يقربكم أحد من أهل الحجاز و أهل العراق. فإنهم لكم مفسدة. [صفحه ۸۰] قلت له: يا أميرالمؤمنين إن سليمان أعطى فشكر. و ان أيوب ابتلى فصبر. و ان يوسف ظلم فغفر. و أنت من ذلك النسل. فتبسم و قال: أعد على ما قلت. فأعدت، فقال: مثلك فليكن زعيم القوم. و قد عفوت عنكم و وهبت لكم جرم أهل البصرة. حدثنى الحديث الذى حدثتنى عن أبيك عن آبائه عن رسوله الله (صلى الله عليه و آله و سلم). قلت: حدثنى أبى عن آبائه عن على عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «صلة الرحم تعمر الديار و تطيل الأعمار و ان كانوا كفارا». قال: ليس هذا. قلت: حدثنى أبى... عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «الأرحام معلقة بالعرش تنادى: اللهم صل من وصلنى و اقطع من قطعنى». قال: ليس هذا. قلت: حدثنى أبى، أن الله عزوجل يقول: «أنا الرحمن خلقت الرحم و شققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته و من بتها بتته». قال ليس هذا الحديث. قلت: حدثنى أبى... «أن ملكا من الملوك كان بقى من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه، فجعلها الله ثلاثين سنة». قال: هذا الحديث أردت. أى البلاد أحب إليك؟ فوالله لأصلن رحمى إليكم. قلنا المدينة. فسرحنا إلى المدينة. و كفى الله مؤنته). فى هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بنى على، و من الصادق (عليه‌السلام) بالذات. فما يخشاه من بنى على هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم. أما ما ينعاه على الصادق و هو الوحيد الباقى ممن يمكن أن يجتمع بنو على، و الناس، حولهم - فلقد كان خليقا أن تطيب به نفسه لما فيه من مصلحة له... و هو الادعاء على الصادق بأنه يعلم الغيب. فإنه لم يبايع لأحد يوم الأبواء. بل ذكر أنها (الخلافة) ستكون لصاحب القباء الأصفر و هو أبوجعفر. [صفحه ۸۱] لكن الصادق (عليه‌السلام) كان حاسما فى رده عليه بأنه لا يعلم الغيب إلا الله. و كان مما يخشاه أن يجبى إلى الصادق خراج بعض الرعية، مما يعطى للإمام، و كان الصادق فى ذلك حاسما أيضا، إذ أعلن أن الخراج لا يجبى إلا لأبى جعفر، لانه أميرالمؤمنين. قال: إليك يجبى - يا أميرالمؤمنين - الخراج. و جعل التسليم بإمارة المؤمنين يسبق كلمة الخراج، فهذه العبارة بيعة بتمامها. و الخراج حق من بويع له. و كان انتقال أبى‌جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم، نقلة من الغضب إلى غيره... و من الاستجواب إلى الوعيد، و إلى الاستعلاء. لكن الصادق نقله من عالم الكبرياء المظلم، إلى آيات الله التى تطمئن لها القلوب فجعله - دون أن يشعر - مقارنا فى موقفه بمواقف الأنبياء لعله يهتدى بهم، و ذكره كلام ربه جل و علا، و ذكره الشكر و الصبر و المغفرة، و ذيل ذلك كله بأنه من نسل الذين يغفرون و يشكرون و يصبرون. بهذا أمكن الرجل الذى قد قلبه من الصخر أن يبتسم. بل أقبل يسأل أن يتعلم. فحدثه الإمام الأحاديث، واحدا بعد واحد، حتى وقف منها عند حديث طول العمر. فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته، التى يخسر من أجلها فى كل يوم آخرته، فظن أنه بهذا الحديث يجد أمانا لنفسه أو تخفيفا لما تكابده. و عندئذ ظهر ضعف نفسه، و جلال شأن المعلم الذى يتعلم عليه. و لم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتى راح يعلمه درسا من الدروس فى البداء؛ و هو: أن القضاء الذى يتوقف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط.

فهذا ملک وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلی ثلاثین، - و کان أبوجعفر ملکا - و لکم طالت العمر علی ملک بنیه و حفدته. فلقد کان کل خلفاء بنی‌العباس بعده منه، ملکوا خمسهٔ قرون، حتی دمر الظلم دولتهم. إنما کان أبوجعفر یتداول الإمام الصادق بحذر خلیق بما للصادق من کرامهٔ عند الله و الناس. و هو صاحب أکبر مدرسهٔ شهدتها حواضر الإسلام فی ذلک الزمان: المدینهٔ، و مکهٔ و الکوفهٔ و بغداد و الفسطاط. و کان فی الستین من العمر، یروی عنه [صفحه ۸۲] الآلاف حدیث النبی وفقه الصادق و أبیه و أجداده. و الذین یحسنون الظن بالمنصور لا یتصورون حلمه یطیش فیفقد الأمهٔ الإمام الذی لا ینازعه ملکه. و ربما جاز للذین لا یحسنون الظن، أن یخالفوه یحسب حسابا للأعداد التی لا تحصی من تابعی الإمام. و قد کان أبوجعفر یحسب حساب العلماء. و من بطش الحکام بالعلماء ما یدمر الدول. و من فداء الأتباع ما یستهان فیه بعرین الأسد. لقد اقتحم الفدائیون من أتباع سنان (شیخ الجبل) خیمهٔ صلاح‌الدین و هو فی عسکره لیصیبوه بخناجرهم فی وجهه. ظاهر من حدیث الإمام أنه حدثه فی صلهٔ ذوی الأرحام، و إن کانوا کفارا، فما أحراهم بالصلهٔ إن کانوا غیر ذلک. و یظهر مما یرویه الطبری أن أباجعفر کان یود أیامئذ لو نسی الناس ما کان من أهل‌البیت فی حقه، و ما کان منه فی حقهم. روی الطبری: لما أتی المنصور برأس إبراهیم بن عبدالله وضعه بین یدیه و جلس مجلسا عاما و أذن للناس. فکان الداخل یدخل فیسلم و یتناول إبراهیم فیسیء القول فیه، و یذکر منه القبیح التماسا لرضی أبی‌جعفر، و ابوجعفر ممسک متغیر لونه... حتی دخل جعفر بن حنظلهٔ البهرانی فسلم ثم قال «عظم الله أجرک یا أمیرالمؤمنین فی ابن‌عمک و غفر له ما فرط فیه من حقک» فاصفر لون أبی‌جعفر و أقبل علیه فقال: أباخالد! مرحبا و أهلا. فعلم الناس أن ذلک قد وقع منه... فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلهٔ. و ربما دل علی ذلک المیل ما یرویه عیسی به رؤبهٔ: لما جیء براس ابراهیم فوضع بین یدی ابی‌جعفر بکی حتی رایت دموعه علی خدی إبراهیم... ثم قال: أما والله إن کنت لهذا لکارها، لکنک ابتلیت بی وابتلیت بک. و لقد ترک أبوجعفر الذین تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد و إبراهیم، و منهم الحسین بن زید. و کان الحسین قد تربی فی بیت جعفر الصادق بعد قتل زید. و کان [صفحه ۸۳] یسمی «ذا الدمعهٔ الکبیرهٔ» لکثرهٔ بکائه علی أبیه و أخیه یحیی. و لم یستجوب المنصور ولدی جعفر الصادق عبدالله و موسی.. و قد خرجا مع محمد، و ترک علماء المدینهٔ، و ترک عیسی بن زید إذ تواری عنه. و لما قیل له من حرسه أو من المنافقین: ألا تطلبه؟ قال لا - و الله لا أطلب منهم رجلا بعد محمد و إبراهیم: أنا أجعل لهم ذکرا؟ و من ناحیهٔ أخری ففقه الإمام الصادق یعلم الناس طاعهٔ الإمام العادل. و الصادق هو القائل: (لا یستغنی أهل بلدهٔ عن ثلاثهٔ یفزع إلیهم فی أمر دنیاهم و آخرتهم. فقیه عالم ورع، و أمیر خیر مطاع، و طبیب بصیر ثقهٔ، فإن عدموا ذلک کانوا همجا). و هو فقه فی طاعهٔ الخلیفهٔ العادل أو الأمیر الخیر. و أبوجعفر یتمنی أن یظهر فی الناس کذلک. و الصادق یقول - و لا نحسبه یقصد إلا أباجعفر و أبناء عمه - (ما تثبت الدنیا إلا علی بنی‌العم و المتعاطفین بالبر المتعلقین بالأدب المجتمعین علی التناصر). فهذه ید ممدودهٔ بالسلام من الإمام، و درس للرعیهٔ لتسلم العنان لامیر خیر. و فی سنهٔ ۱۴۷ عزم المنصور و هو راجع من موسم الحج أن یسیر الإمام الصادق من المدینهٔ إلی العراق فاستعفاه الإمام فلم یعفه و حمله معه. و لکن الصادق کان یقبل علیه بمقدار فلیست دنیا أبی‌جعفر لتجدر بالمقاربهٔ. و فی ذات یوم أرسل إلی الصادق: لماذا لا تغشانا کما یغشانا سائر الناس فأجابه «ما عندنا ما نخافک علیه و لا عندک من الآخرهٔ ما نرجوک له. و لا أنت فی نعمهٔ فنهنیک علیها. و لا نعدها نقمهٔ فنعزیک علیها. فلم نغشاک»؟ و یجیب أبوجعفر: تصحبنا لتنصحنا. و یجیب الإمام: «من أراد الدنیا فلا ینصحک و من أراد الآخرهٔ فلا یصحبک» فالذی یرید الدنیا یسیر فی رکب صاحبها فلا یقول کلمهٔ لله. و الذی یرید الآخرهٔ یعتزل مجالس رجل یعجزه عمله و یعمیه أمله عن طریق الآخرهٔ. و صدق «جعفر الصادق». [صفحه ۸۴] دخل علیه سفیان الثوری یوما فقال له: اتق الله فقد ملأت الارض ظلما و جورا فطأطأ رأسه و قال: ارفع حاجتک... قال سفیان: حج عمر فقال للخازن: کم أنفقنا من بیت المال. قال: بضعهٔ عشر درهما. و أری هنا أموالا لا تطیق الجمال حملها... و خرج سفیان. و لما راجع المنصور کاتبه لیقتل سفیان قال له «اسکت یا أنوک (أحمق). فما بقی علی الأرض من یستحی منه غیر (مالک) و سفیان». [۲۴] . [صفحه ۸۵] و إذا کان هذان الإمامان اللذان لیس فی الأرض غیرهما، تلمیذین فی مجلس الإمام الصادق... یلتمسان علمه و یترسمان هدیه، فما أحوج

الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعوه إلى مجلسه. الحق أن أباجعفر كان من فزعه من الآخرة و حاجته إلى رضى الرعية صادق [صفحه ۸۶] الرغبة فى التقرب إلى العلماء، و من أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامعه من النقد و إن كان لا يستجيب له. (!) طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد، و المعافرى، [۲۵] فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابه كما قالا له. وهز ضميره ابى أبى‌ذؤيب و توعده بجهنم. و كمثله صنع ابن‌طاووس فقبل استعفاء الصديقين، و أقر صدق ابن أبى‌ذؤيب [۲۶] فقال له: لو لا أننى أعلم أنك صادق لقطعت عنقك، كما ارتاح لابن طاووس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدى طاعته إلى المشاركة فى معصية. و لقد رفض أبوحنيفة أن يجلس للقضاء فى دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاء لحاشية يحب أبوجعفر أن يكرمها. و ما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم، لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه. و هذا رد فقهى من إمام أهل الرأى يتضمن التنديد بأبى جعفر و صحبته. و صحبة الظالم وجه مشاركة فى الحكم، و ربما فى الظلم، بتوطيد الأمور للظالم أو بتمكينه أن يبلغ غرضه، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين. و فيها شهادة له فى الناس. فهى شركة خاسرة فى الدنيا و الآخرة. و الإمام الصادق هو القائل «أيما مؤمن قدم مؤمنا إلى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم الله، فقد شركه فى الإثم». [صفحه ۸۷] و ذات يوم دخل زياد الفندى على الامام الصادق (عليه‌السلام) فقال له: وليت لهؤلاء؟ يقصد أصحاب السلطان - قال زياد: نعم... لى مروة و ليس وراء ظهرى مال. و إنما أواسى إخوانى من عمل السلطان. فقال: «يا زياد. أما إذ كنت فاعلا، فإذا دعتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك فاذكر قدرة الله عزوجل على عقوبتك و ذهاب ما أتيت إليهم عنهم، و بقاء ما أتيت إلى نفسك عليك». و فى واحد من اللقاءات يقول الصادق (عليه‌السلام) مخاطبا المنصور «لقد بلغت ثلاثة و ستين، و فيها مات أبى و جدى» ليعلن له الاستخفاف بالموت الذى يتهدد الناس به، و أن الإمامين اللذين قضيا - زين‌العابدين و الباقر عليهماالسلام - لم يعمرا أكثر مما عمر، و لكل أجل كتاب... فماذا يهاب؟ إنه يطلق إعلانه بلغة عالية، و فى هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجل خصم، و فى توكل على الله يبلغه مأمنه. فهو إذا واجهه واجهه و الله معه. أرسل إليه المنصور ذات يوم رزام بن قيس يدعوه للقائه، ففصلا عن المدينة، حتى بلغا النجف فنزل الامام عن راحلته فأسبغ الوضوء و صلى ركعتين ثم رفع يديه و هو يقول: «اللهم بك أستفتح، و بك أستنجح، و بمحمد عبدك و رسولك أتوسل. اللهم سهل حزونته و ذلل لى صعوبته و أعطنى من الخير أكثر مما أرجو و اصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف». ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور، أعلم المنصور بمكانه. فلم يحجبه قليلا ـ أو كثيرا، بل تفتحت الأبواب و رفعت الستر. فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه، و أخذ بيده و ماشاه... حتى انتهى به إلى مجلسه... ثم أقبل عليه يسأله عن حاله. و ذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس أن يدعوه، و كانت تبرق فى أساريره بوارق الخطر. فلما خرج من اللقاء بسلام، سأل الربيع الإمام الصادق عليه‌السلام عن الدعاء الذى دعا به ربه، فأكرمه الله فى لقاء المنصور. فأخبره به. فالصادق يستحضر رضى بارئ السماء فى كل آونة، و تعينه السماء. و مع ذلك السلام الذى نشده الصادق و علمه، يروى الطبرى أن المنصور لما عزم [صفحه ۸۸] الحج - فى آخر أيامه - دعا ريطة بنت أبى‌العباس زوج المهدى، و كان زوجها بالرى، فأوصاها بما شاء و دفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته، و أمرها ألا تسلمها إلى المهدى إلا عندما يجيء نبأ موت المنصور. فلما مات ذهبت ريطة و المهدى ففتحا الغرفة فإذا بقتلى من بنى على (عليه‌السلام) فى آذانهم رقاع... فيها أنسابهم... و هم بين شيوخ و شباب و أطفال. فلما رأى المهدى ذلك ارتاع. فحفرت لهم مقبرة دفنوا فيها ثم بنى عليها دكانا. لم يكن المنصور يكتفى بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر بعد ثمانية قرون «أنا الدولة»... ذلك المقال الذى نبذه و استهجنه الساسة و المؤرخون فى الشرق و الغرب، بل كان المنصور يدعى دعوى أبعد و أشد. كان يخطب فيقول: «إنما أنا سلطان الله فى الأرض» فيجمع فى يده ما عجز عنه الأباطرة و البابوات جميعا! فإنما تقاسم الإمبراطور و الكنيسة الأشياء، فى القرن التاسع للميلاد، فصار لقيصر ملك الأرض و للكنيسة مملكة السماء. أما أبوجعفر المنصور فادعى فى الأرض سلطان السماء. و أى شيء يستبعد على صاحب هذه الدعوى!! و المنصور - مع ذلك - ليس إلا واحد من المستبدين الذين يزخر التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم. إليك مثلا واحدا من تاريخ الدولة التى تلقى إليها الديمقراطية الغربية مقاليدها: لقد أرسل (هنرى الأول) ملك انجلترا

فرسانه یقتلون (توماس) بیکت رئیس أساقفهٔ لنـدن من أجل خلافه معه فی ولایهٔ العهد لابنه فی الثلث الأخیر من القرن الثانی عشـر. و فی الثلث الأول من القرن السادس عشر القی (هنری الثامن) ملک إنجلترا (توماس) ولزی رئیس أساقفهٔ یورک فی السجن ریثما یصدر علیه حکم الإعدام فمات قبل أن یعدم. ثم أرسل إلی المقصلهٔ (توماس) مور کبیر قضاته من أجل خلافهما له فی زواجه و طلاقه. [صفحه ۸۹] و لقد کان فزع المنصور من أجل دولته حریا أن یخرجه عن الاتزان فیستحوذ علیه الشیطان، لولا دور الإمام الصادق (علیه‌السلام) فی کبح جماحه فی بعض الاحیان. و الذین یهابون لقاء الملوک ضعفاء عن إخفاء دخائلهم، من البغض أو الحسد أو الخوف. و الذین لیس فی قلوبهم من ذلک شیء یشجعون. أما الأمهٔ فالله معهم. و هو حسبهم... و أین من هذا الذی معه مالک الأرض و السماء، ملوک دولهٔ أو إقلیم! من أجل ذلک یشجع الرجال الصدق إذ یستشهدون . و من أجله نظر الصادق إلی المنصور فی شجاعهٔ و صدق... فکان یلزمه القصد و النصفهٔ. و المنصور علیم بما یجری فی ملکه، و هو یبث جواسیسه فی کل مکان... فلم یلبث سنین حتی أصبح یعلم بکاء بنت (مالک بن أنس) من الجوع فی داخل الدار، و هی و أبوها یکتمانه إلا علی الله سبحانه! و المنصور هو القائل عن أوتاد حکمه: ما أحوجنی إلی أن یکون علی بابی أربعهٔ نفر لا یکون علی بابی أعف منهم. و هم أرکان الدولهٔ لا یصلح الملک إلا بهم. أما أحدهم فقاض لا تأخذه فی الله لومهٔ لائم. و الآخر صاحب شرطهٔ ینصف الضعیف من القوی. و الثالث صاحب خراج یستقصی و لا یظلم الرعیهٔ. ثم عض علی إصبعه السبابهٔ ثلاث مرات یقول: آه آه. قیل ما هو یا أمیرالمؤمنین؟ قال: صاحب برید یکتب خبر هؤلاء علی الصحهٔ. و بقی عاضا علی اصبعه و سیعض علی یده یوم القیامهٔ. [صفحه ۹۱]

الرجلان

«یا بنی: إن الذین حولنا لو یعلمون عن علی ما نعلم تفرقوا عنا إلی أولاده». عبدالعزیز بن مروان [صفحه ۹۳] الحق ان الاختلاف کان شدیدا بین الإمام الصادق (علیه‌السلام) و بین الخلیفهٔ أبی‌جعفر المنصور: فی طبیعتهما و طریقتهما و غایاتهما. هذا صاحب سلطان... فیه شرکاء متشاکسون، ترکبه هموم الدنیا، و تلبس جلده شیاطینها... یترافع لینحنی الناس له، و یجمع دنیاهم فی قبضته. شحیح النفس منقبض الید، «دوانیقی»، یحسب بالدرهم و الدانق [۲۷] تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع... و تحوله مطامعه من الدماثهٔ الی الشراسهٔ، فلا یطمئن له أحد... أقام دولته علی أشلاء الأعداء و فزع الأقرباء؛ و جماجم أهل‌البیت فی خزائنه! أما الإمام فرجل سلم لکل رجل: یتواضع لیرفع الناس کلهم، و لا تستعبده الدنیا قید أنملهٔ... یعطی و لا یأخذ... و یحیی أنفس الناس بالعطاء السمح من العلم، و الجاه، و المال «ما قال لا قط إلا فی تشهده»؛ فهکذا کان أبوه وجده. و الحق کذلک أن المنصور - بنجاحه فی إقامهٔ أکبر دولهٔ فی التاریخ الوسیط - یعتبر واحدا من ثلاثهٔ لا یعرف لهم التاریخ الاسلامی رابعا، و لا ینزل بهم التاریخ العالمی عن أعظم المؤسسین للدول. أولهم معاویهٔ بن أبی‌سفیان، وثانیهم عبدالملک بن مروان. مصایرهم متشاکلهٔ. و وسائلهم متشابههٔ. و خصامهم لأهل البیت أساس دولتهم. و نجاحهم فی دنیا السلطهٔ مقطوع القرین: بدأوا علماء، و انتهوا ملوکا طغاهٔ! و الإسلام فضل من الله، یسخر لخدمته من یشاء. [صفحه ۹۴] ولو مال عن الجادهٔ رجل، فإنما یخذل نفسه و لا یصیب الإسلام بسوء. لقد أخطأ معاویهٔ فی إقامهٔ دولته و فی حربه. و کان لزاما أن یقوده خطؤه الی أن یجعل الدولهٔ «هرقلیهٔ کلما مات هرقل قام هرقل» فیکون ابنه یزید أشأم و ألأم خلف لسلف. لکن أحدا لا یتنازع فی أن دولته - و إن لم تمثل دولهٔ الدین - قد انتشرت فی البر و البحر و نشرت الإسلام و جاهد فی غزواتها الصحابهٔ و بنوهم و العلماء و الفقهاء، بل غزا و جاهد فیها بین جیوش المسلمین أبوالشهداء (الحسین بن علی) فی فتح أفریقیهٔ و غزو جرجان و طبرستان و القسطنطینیهٔ. و معاویهٔ هو الذی مهد لدولهٔ ابن‌عمه مروان بن الحکم. و عبدالملک بن مروان هو المؤسس الحقیقی للدولهٔ المروانیهٔ التی أینعت فروعها بالأندلس و أبقت الإسلام فی أوربا ثمانمائهٔ عام، لتهییٔ للحضارهٔ الحدیثهٔ أن تنطلق من جامعات الأندلس و جوامعها. و هو عم عمر بن عبدالعزیز و صهره. و عمر بن عبدالعزیز الذی کتب لعامله علی المدینهٔ یوم ولی الخلافهٔ: أقسم فی ولد فاطمهٔ رضوان الله علیهم عشرهٔ آلاف دینار فقد طالما تخطتهم حقوقهم. و قال معلنا حق علی و باطل بنی‌أمیهٔ و مروان «کان أبی [۲۸]

إذا خطب فنال من على تلجلج. فقلت يا أبت إنك تمضـى فى خطبتك فاذا أتيت على ذكر على عرفت منك تقصيرا؟ قال: أو فطنت الى ذلك؟ يا بنى ان الـذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا الى أولاده...». لكن أباجعفر كان أثقل الثلاثـة حملا. إذا كان معاوية و عبدالملك قد سبقاه ففصلا بين الدين و الدولة و جزءا نظرية الدولة الاسلامية، و كان هو قد سار على الدرب الذى اختطاه، ان المعارك التى خاضـها من أجل دولته كانت أوسع مـدى و أشد قسوة. [صـفحه ۹۵] ففزعه من أبى‌مسـلم و جنده لم يكن إلا رجع الصـدى لصوت يتصايح فى آفاق حياته و أعماق ذاته: أنهم سرقوا الدولـة من ابنـاء على. و من هنا خوفه المستمر من انتفاض أهل خراسان الـذين جاءوا لمبايعـة «الرضا من آل محمـد». و أهل‌البيت أولى منه فى أنظار الذين جاءوا به و بأخيه الى السلطة. و خوفه من أعضاء بيته أشـد؛ فلقـد كـان عمه عبـدالله بن على قائـد جيش الشـام، لكنه خرج عليه، و أخمـد فتنته أبومسـلم الخراسانى، و حتى إذا استسلم - بشروط - حبسه أبوجعفر ليقتله بعـد زمن من قتله أبامسـلم ذاته. و كان غـدر بعيسـى بن موسـى الذى انتصر على محمد و ابراهيم فسلبه حقه فى ولاية العهد، و ولى ابنه المهدى عهده. فكان غدره كهيئة ما غدر عبدالملك بعمرو بن سـعيد الأشدق فى ولاية العهد، قائلا: «ما اجتمع فحلان فى شول إلا أخرج أحدهما صاحبه». و ما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن على (عليه‌السـلام)، إلا درس المعلم الأول للرجلين: أن يستعملا الزمن، ينتهزا الفرص، و ان يحركا الحوادث بدهاء، و أن يقطفا الثمار؛ ثمرة فثمرة. و المنصور لا- يتردد فى إعلان التشابه بينهم و فى تعطشه للـدم... فيعلن فى الناس أن «الملوك ثلاثـة: معاويه و كفاه زياده. و عبـدالملك و كفاه حجاجه. و أنا... و لا كفاة لى». كأنما لم يكن فى ما سـفكه كفاية، فكان يريد أن يسفك له دما أكثر سفاحون أصغر! الواقع ان أزمات المنصـور الـدوانيقى كـانت آخـذة بخنـاقه من كـل صـوب. فهى فى نفسه، و فى بيته، و فى دولته، و فى صـلته بالأمـة؛ ان كـانت القوة العسكرية التى أجاءته الى الحكم، قـد تخلت عنه بل حملت السـلاح ضـده، و كانت القوة الفكريـة التى قامت عليها الدولـة قـد صار أصـحابها فرائس له، و كانت القوة العصبيـة (قوة أسـرته) تترنـح بخروج عمه عبـدالله و قتله... و بمغامراته للاستئثار لبنيه بالخلافـة دون سائر أهله. فإذا كان ثمة من أحبه، فإن حبهم كان أقبح من البغض، مذ كانوا يؤلهونه، فيكفرون أنفسهم و يفضحونه، بل كادوا يقتلونه، يوم أحاط الراوندية بقصـره فلم يمكنه الله [صـفحه ۹۶] منهم إلا بمساعـدة عـدو كان يطلب رأسه، هو معن بن زائدة الشـيبانى. و كان معن حريـا أن يقتله فى وطيس المعركـة. حتى الـذى أنجاه كـان عـدوا له! و فى سـنة ۱۴۵ انتفضت خراسـان فقتلت جيـوشه من أهلها سبعين ألفا و أسرت بضعة عشر ألفا. و لم يكن شغله بالجيوش المحاربة فى المشرق أو فى جزيرة العرب همه الأول. ففى أفريقية خرج عليه محمـد بن الأشـعث والى أفريقيـة، فجرد عليه جيشـا بقيـادة الأغلب بن سالم، و سيقتل الأغلب بعـد سـنين سـنة ۱۵۰. و لـم ينهزم الخوارج إلا بعـد أن خاضوا ثلثمائة و خمسة و سـبعين وقعـة! و أمام جيش قوامه خمسون ألفا. كل أولئك و هو من شح نفسه، و من اصـطحاب جماجم أهل‌البيت (عليهم‌السـلام) فى خزائنه، فى أمر مريـج... يحسب ان كل صـيحة عليه هى العدو، و ان كل خروج عليه يـدعو الجميع ليخرجوا... و هم على خروج قادرون. مع كل ذلك نجـح المنصور بالحـذر و الغـدر و معاجلـة الخصوم. فاسـتبقى دولته لتكون أطول الـدول الإسـلامية عمرا... و أبعـدها فى الحضـارة العالميـة أثرا. لكن التاريـخ - و قانون الاسـتقامة - و طبيعـة الأشـياء - و قانونها (كل فعل رد فعل، مساو له فى المقـدار، و مضاد له فى الاتجاه) - لم يتركا أبناءه و حفـدته دون عقاب. و كأنما كان طول عمر دولته تطويلا- للعقـاب عليهم و تكـثيرا لمن ينزل بهم. كـان من لوازم السـلطة أو علامـات عـدم الثقـة بـالنفس أو بـالغير أن تتراءى من أبى‌جعفر فى لقائه لأهل‌البيت (عليهم‌السـلام) أو التعامل معهم نزعات المستوفز الحذر، أو مظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء، أو من يضـعهم فى مواضع الأعـداء. لكن الإمام «الصادق» (عليه‌السـلام) كان يمسك بالزمام فيرد الخليفـة دائما الى حيث يطلب الموعظـة، أو العلم. و من إمساك الزمام فى أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل على أهل البيت (عليهم‌السـلام)، فيقول له «لا تقبل فى رحمك و أهل الرعاية من أهل بيتك من حرم الله [صـفحه ۹۷] عليه الجنة و جعل مأواه النار. فإن النمام شاهد زور و شـريك إبليس فى الإغراء بين الناس. فقد قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصـيبوا قوما بجهالة فتصـبحوا على ما فعلتم نـادمين» و نحن أنصـار و أعوان، و للملـك دعـائم و أركـان، مـا أمرت بـالمعروف و نهيت عن المنكر، و أمضـيت فى الرعيـة أحكـام

القرآن، و أرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان. و إن كان يجب عليك فى سعة فهمك و كثرة علمك و معرفتك بآداب الله أن تصل من قطعك و تعطى من حرمك، و تفعو عمن ظلمك. فان الكافى ليس بالواصل. إنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها. فصل رحمك يزد الله فى عمرك، و يخفف عنك الحساب يوم حشرك.» و يقول المنصور: قد صفحت عنك لقدرك، و تجاوزت عنك لصدقك، فحدثنى عن نفسى بحديث أتعظ به و يكون لى زاجر صدق عن الموبقات. و بهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم، الى موضع المواسى لذوى القرابة، و مكانة طالب الموعظة، فأدلى بها اليه الامام (عليه‌السلام)؛ قال: «عليك بالحلم فإنه ركن العلم. و أملك نفسك عند أسباب القدرة، فإنك إن تفعل ما قدرت عليه كنت كمن شفى غيظا وداوى حقدا، و أحب أن يذكر بالصولة. و اعلم أنك إن عاقبت مستحقا لم يكن غاية ما توصف به إلا ـ العدل. و الحال التى توجب الشكر أفضل من الحال التى توجب الصبر». تلك آداب الله، و أسباب الحكم الصالح، و ملاك السيطرة للحاكم المسلم على قلوب الرعية. و من الواضح أن المنصور كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعى الصفح، و ليس لديه تهمة. ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعظة اليه. و للملوك سماعات، أو أبواق دعايات منتشرة فى الرعية، تلتقط موجات الرضا و الغضب، و الهدوء و القلق، و تبث نظائرها، حسب الحاجة. و النمامون كثر، كخفافيش الليل. و للمنصور جهاز لاينى عن استعماله ليروع خصومه، أو ليجعلهم فى قبضة يده.... [صفحه ۹۸] فلقد يدس من أجهزته دسيسا بعد دسيس على بنى الحسن، و الحسين، مثل أن يدعو ابن مهاجر ذات يوم فيقول له: خذ هذا المال و ائت المدينة و الق عبدالله بن الحسن و جعفر بن محمد (الصادق) و أهل‌بيتهم و قل لهم إنى رجل من خراسان من شيعتكم و قد وجهوا اليكم هذا المال. فادفع الى كل واحد منهم على هذا الشرط... كذا و كذا... فإذا قبض المال فقل انى رسول، و أحب أن تكون معى خطوطكم بقبض ما قبضتموه منى... و ذهب ابن‌مهاجر. فلما رجع قال له المنصور ما وراءك؟ قال: أتيت القوم و هذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد. قال لى: يا هذا! اتق الله و لا تغرن أهل‌بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بنى‌مروان. و كلهم محتاج. فقلت و ما ذاك أصلحك الله؟ فقال: ادن منى. فدنوت فأخبرنى بجميع ما جرى بينى و بينك كأنه ثالثنا. قال المنصور: يا ابن‌مهاجر إنه ليس من أهل‌بيت نبوة إلا و فيهم محدث، و ان جعفر بن محمد محدثنا اليوم. فالصادق يكشف للمنصور و دسيسه حقائق يعلمونها، و ينبههما على ألا ـ يورطا أهل‌البيت من جراء حاجاتهم. يريد لأهله السلامة، و للخليفة الاستقامة، و للأمة الطمأنينة ، و فى كل ذلك خير للمنصور. و لقد كان المنصور - نفسه - يجعل الصادق (عليه‌السلام) حجة من حججه، و إذا فاخر أهل‌البيت فاخرهم به! كتب اليه محمد بن عبدالله (النفس الزكية) يدعوه ليبايعه، و عيره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد... و أم‌المنصور بربرية تدعى سلامة، يتردد اسمها على ألسنة الذين فاخروه؛ فتولى المنصور كبره فى الرد على محمد، و لم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجة من مكانة الإمام الصادق. قال فيما قال «و ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أفضل من على بن الحسين زين‌العابدين و هو لأم ولد. و لهو خير من جدك حسن بن حسن. و ما كان فيكم بعده مثل محمد بن على الباقر وجدته أمولد، و لهو خير من أبيك. و لا مثل ابنه جعفر، وجدته أمولد، و هو خير منك». [صفحه ۹۹] و غض المنصور طرفه عن أن أم‌الولد فى شجرة الباقر «شاه زنان» بنت كسرى ملك الفرس. و أين منها - بعد إذ أسلمت - سلامة! على أن اللقاءات - أو الاحتكاكات - بين الرجلين لا تتوقف. فهذا قطبان، لكل منهما عالمه. و هما ضدان لهما مستويان. و الشرف فيهما لرجل الدين و الزهد و العلم. و الملوك أحوج الى العلماء، من العلماء الى الملوك. و أبوجعفر حريص غدر، يسلط على الصادق من وقت لآخر، و فى مكان بعد آخر، وجوها من التهديد لشخصه و الاتهام لولائه و الإزراء بعلمه. يقول له ذات يوم فى لقاء له بالكوفة: أنت يا جعفر ما تدع حسدك و بغيك و فسادك على أهل‌البيت من بنى‌العباس، و ما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسد و نكد، و ما تبلغ به ما تقدره. فيجيبه الصادق (عليه‌السلام): «و الله ما فعلت شيئا من ذلك. و لقد كنت فى ولاية بنى‌أمية - و أنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا و لكم، و أنه لا حق لهم فى هذا الأمر - فوالله ما بغيت عليهم و لا بلغهم عنى شىء مع جفائهم الذى كان لى. و كيف أصنع هذا الآن، و أنت ابن‌عمى، و أمس الخلق بى رحما... و أكثر عطاء وبرا. فكيف أفعل هذا»! و الصادق (عليه‌السلام) بهذا يسجل للخليفة بره، و يقدر له أولية ذوى الأرحام عنده فى البر بهم، و يقرر له حقه فى

الخلافـة... و ليس للمنصور فوق ذلك طلبات. و بهـذا يسـتل الضـغن من صـدره، ليـدعه فى ميدانه الذى يسره الله له. و مع ذلك يعاد المشهد فى بغداد، بعد سنة ۱۴۵، فيستحضـره المنصور لمواجهة جديدة. يقول له: يا جعفر. ما هذه الأموال التى يجبيها لک المعلى بن خنيس؟ قال الصادق (عليه‌السـلام): معاذ الله ما كان من ذلک شيء. قال المنصور: تحلف على براءتک بالطلاق و العتاق. قال الصادق (عليه‌السـلام): نعم أحلـف بـالله مـا كـان من ذلـک شـىء. قـال المنصـور: بـل تحلف بالطلاـق و العتـاق. [صـفحه ۱۰۰] قـال الصادق (عليه‌السـلام): ألا ترضـى بيمينى: الله لا إله إلا هو! قال المنصور: لا تتفقه على. قال الصادق (عليه‌السلام): و أين يذهب الفقه منى؟ قال المنصور: دع عنـک هـذا فـإنى أجمع الساعـة بينـک و بين الرجـل الـذى رفع عنک هـذا حتى يواجهک. فأتوه بالرجل... قال الصادق (عليه‌السـلام): تحلف أيها الرجل أن الـذى رفعته صـحيح؟ قال: نعم. ثم بدأ باليمين؛ قال: و الله الذى لا إله إلا هو الغالب الحى القيوم. قال الصادق (عليه‌السـلام): لا تعجل فى يمينک فإنى اسـتحلفک. قال المنصور: ما أنكرت من هذه اليمين؟ قال الصادق (عليه‌السـلام): ان الله تعالى حى كريم اذا أثنى عليه عبـده لا يعاجله بالعقوبة. و لكن قل أيها الرجل: أبرأ الى الله من حوله و قوته، و ألجأ الى حولى و قوتى. إنى لصـادق بر فيمـا أقول. قـال المنصور للرجـل: احلف بمـا اسـتحلفک به أبو عبـدالله. قال راوى الخبر: فحلف الرجل. فلم يتم الكلام حتى خر ميتا. فارتعـدت فرائص المنصور. و قال للصادق (عليه‌السـلام): سـر من عنـدى الى حرم جدک إن اخترت ذلک. و ان اخترت المقـام عنـدنا لـم نـأل جهـدا فى إكرامـک. فـوالله لاـ قبلـت بعـدها قـول أحـد أبـدا. و أيـن يـذهب الفقـه من إمـام المسـلمين (عليه‌السـلام)، و هو الى يوجه اليمين، و من حقه صـياغتها! و فى الصـيغة مـا ذكر المفترى بعظم افترائه، و بالخالق سـبحانه «و من أظلم ممن افترى على الله كـذبا». و من الإنسـانى، و من جلال مقام الإمام عنـد الله و الناس، ان يخر صـريعا من يفترى على الله و على الامام، فى مجلس الخليفة. بهذه الآية هدى جبار السـموات جبارا على الأرض لا يطأطئ رأسه. فإذا حركها عندما يناوشه الذباب سأل حضاره كالمسـتنكر: لم خلق الله الذباب!!. و كان الصادق (عليه‌السلام) حاضرا يوما فأجاب: ليذل الله به الجبابرة. [صفحه ۱۰۱] و لئن كان فى وجود الذباب فى المجلس تذكرة للجبابرة ، ففى سـقوط المفترى على الامام (عليه‌السلام) بين أيديهم آية ما بعدها آية. و كما يضمن المنصور طاعـة الامـام بالبغتـات يصـطنعها من حين لآخر، لا يتورع عن محاولـة إفحام الإمام بين علماء العصـر، أو تسـخير أعظم علماء العراق، لينصب منه شـركا يوقـع فيه الأمـام! و ليس هـوى المنصور مع أى منهمـا. و لاـ بـأس عنـده إذا أعجز كـل منهمـا، أو أحـدهما، صاحبه. و إن المرء ليلمس خساسـة الحيل الظاهرة من المنصور، باتخاذ العلم و الفقه أداة للشـر المدبر، و عظماء العلماء وسائل للإساءة للمسالمين الـذين يأمن جانبهم. فلنقس عليها فظاعـة تـدابيره السـرية لمن يخشـى العواقب منهم، و لندرک جلالة الحق إذ ينتصـر على الحيلـة، و جلجلـة الحقيقـة إذ تظهرها وسـيلة أريـد بها طمس معالمها، و مكانـة الامام الصادق (عليه‌السـلام) فى العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء، فى مجلس علمى يسـيطر عليه الخليفـة: أقـدم المنصور الإمام الصادق (عليه‌السـلام) من المدينـة الى العراق و بعث الى أبى‌حنيفـة فقال له: إن الناس قـد افتتنوا بجعفر، فهيئ له المسائل الشـداد. و يقول أبوحنيفـة عن لقائه بعد ذلک: «بعث الى أبوجعفر المنصور و هو بالحيرة، فأتيته. فدخلت عليه و جعفر بن محمد (عليه‌السـلام) جالس عن يمينه. فلما أبصـرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر فسلمت عليه، فأومأ الى فجلست. ثم التفت اليه فقال: يا أبا عبدالله هذا أبوحنيفة. قال جعفر (عليه‌السـلام): إنه قـد أتانـا. ثم التفت الى المنصـور و قـال: يـا أباحنيفـة ألـق على أبى عبـدالله (الصـادق) مسائلـک. فجعلت ألقى عليه فيجيبنى فيقول: أنتم تقولون كـذا. و أهل المدينـة يقولون كـذا. و نحن نقول كـذا. فربما تابعهم. و ربما خالفنا جميعا. حتى أتيت على أربعين مسألـة»... و لقد قال أبوحنيفة فى مقام آخر: «ألسنـا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس». [صـفحه ۱۰۲] و انما يقصد أبوحنيفـة باختلاف الناس الاجتهاد الفقهى للمقارنـة بين مذاهب المجتهـدين... فأبو حنيفة - و هو الإمام الأعظم عند أهل السـنة - يقرر أن الامـام الصادق (عليه‌السـلام) أعلم الناس باختلاف الناس فى المدينـة حيث علم المحـدثين، و فى الكوفـة حيث علم أهل الرأى؛ و كانتا قـد بلغتا أوجهما، على أيـدى أبى‌حنيفـة و مالک؛ و هما التلميذان فى مجالس الامام الصادق (عليه‌السـلام). و كمثلهما كان إمام العراق الآخر سفيان الثورى. و أبوحنيفة أكبر سنا من جعفر الصادق. ولد قبله بأعوام و سيموت بعده. و كان أبوحنيفة - كما قال مالک

- لو حدثك أن السارية من ذهب لقام بحجته. و الجاحظ كبير النقاد يقول بعد مائة عام: «جعفر بن محمد الذى ملأ الدنيا علمه و فقهه و يقال إن أباحنيفة من تلاميذه و كذلك سفيان الثورى. و حسبك بهما فى هذا الباب». و الجاحظ يذكر تلاميذ العراق. ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسى مالك بن أنس. بلغ الامام الصادق (عليه‌السلام) بمسالمته للمنصور بعض آماله لأهل بيته (عليهم‌السلام)، بقية أيام حياته، بل طوال خلافه أبى‌جعفر المنصور. فكان ميمون النقيبة بالسلام الذى نشده، و الامان الذى دعا له، و أطال زمانه. و منع كثيرا من الطغيان الذى طالما شكاه أبوه، على ما سيروى ابن أبى‌الحديد فى شرح نهج‌البلاغة - «ثم لم نزل أهل‌البيت نستذل و نستضام، و نقضى و نمتهن، و نحرم و نقتل، و لا نأمن على دمائنا و دماء أوليائنا، و وجد الكاذبون و الجاحدون لكذبهم و جحودهم موضعا... فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة و المكذوبة و رووا عنا ما لم نقله و ما لم نفعله ليبغضونا الى الناس. و كان عظم ذلك و كبره زمن معاوية بعد موت الحسن. فقتلت شيعتنا بكل بلدة، و قطعت الأيدى و الأرجل على الظنة. و من يذكر بحبنا و الانقطاع الينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره. ثم لم يزل البلاء، يزداد الى زمان عبيدالله بن زياد قاتل [صفحه ۱۰۳] الحسين. ثم جاء الحجاج [۲۹] فقتلهم كل قتلة و أخذهم بكل ظنة و تهمة، حتى ان الرجل يقال له زنديق أحب اليه من أن يقال شيعة على». و فى عصر الباقر (عليه‌السلام) كان الحسن البصرى (۱۱۰) الجسور (قاضى عمر بن عبدالعزيز و شيخه الذى لا يهاب الخلفاء) إذا روى عن أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) يقول (قال أبوزينب) ليخفى الاسم الذى لا خفاء له! بل كان الشعبى (۱۰۴) شيخ المحدثين بالعراق يقول: «ماذا لقينا من آل على إذا أحببناهم قتلنا و إذا أبغضناهم دخلنا النار». و كان طبيعيا من دولة «هرقلية» يكون همها الملك لا الدين أن تعاقب من تتوهم خطره عليها و تترك من تزندق، و أن تزداد الاستهانة بالدين فى مقابل السلام الذى تنشده الدولة، و البلهنية التى يؤثرها دعاة الدعة. بدأ ذلك من عهد معاوية و سيستمر استمرار فساد الدولة. و ستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل‌بيت النبى (عليهم‌السلام)، أو توقع بهم لفرطات تفرط من أحدهم، أو تعزى كذبا اليهم، منتهزة للفرص حينا، أو مفتعلة لها فى أغلب الأحيان. كانت الأوامر تصدر من بغداد الى أرجاء الامبراطورية التى تدين لبنى العباس، و منها مصر؛ أن «لا يقبل علوى ضيعة. و لا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها. و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد (و الرقيق يومذاك قوة العمل). و إن كانت بين العلوى و بين أحد خصومه فلا- يقبل قول العلوى. و يقبل قول خصمه بدون بينة»! و كانوا يسفرون من الأطراف الى العاصمة ليكونوا تحت الرقابة. بل أمر الرشيد ان يضمن العلويون بعضهم بعضا. و كانوا يعرضون على السلطان كل يوم، فمن غاب عوقب... و كأن «أهل‌بيت النبى» جالية من العدو أو شرذمة من المشبوهين. [صفحه ۱۰۴] و لقد كان يكفى للحيطة أقل القليل من حاكم يريد أن يطمئن. و إنما كان ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة، يشترك فى تنفيذها الخلفاء، و الأشياع و الظلمة، تدفع الثائرين الى أن يثوروا، فيؤخذوا بثوراتهم، أو يؤخذ غيرهم بجرائر تنسب اليهم. أما سياسة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فواضحة من شعار أبناء على فى كلمة مسلم بن عقيل؛ «إنا أهل‌بيت نكره الغدر»... قالها عندما عرض عليه البعض قتل عبيدالله بن زياد فى إحدى زياراته. فنجا ابن‌زياد بهذا الشعار ليقتل مسلما فيما بعد. أما شعار حاشية معاوية فكان: «ان لله جنودا من عسل» يقصدون دس السم الى أعدائهم فيه. و لقد طالما استخدم الطغاة السم فى تصفية أهل‌البيت فى القرون التالية. فإن لم يكن سم فى خفاء فالقتل جهرة. و من الروايات أن أئمة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) - الاثنى عشر - ماتوا مسمومين ما عدا أميرالمؤمنين عليا و أباالشهداء الحسين (عليهماالسلام) - فكانت شهادتهما بالسيف. و فى أيام الخليفة الهادى (سنة ۱۶۹) كان أهل‌بيت النبى فى المدينة يستعرضون كل يوم! لكل واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب. بل ولى عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبدالعزيز بن عبدالله. فولى بدوره على أهل‌البيت رجلا يقال له عيسى الحائك. فحبسهم الحائك فى المقصورة، فثارت لأجلهم المدينة إذ ثاروا، و كسرت السجون و أخرج المسجونون، و بويع للحسين بن على بن الحسن. فبقى واحدا و عشرين يوما بالمدينة ثم ارتحل الى مكة فأقام بها الى زمن الحج. و كرر التاريخ نفسه فى خروج الحسين و من معه من أهل المدينة إذ جاءه الامام موسى الكاظم (عليه‌السلام) يستقيله من الخروج معه، كما صنع أبوه مع النفس الزكية (محمد بن عبدالله). قال الكاظم للحسين «أحب أن تجعلنى فى حل من تخلفى عنك». قال: أنت فى سعة. قال الكاظم

(علیه‌السلام): «أنت مقتول... و عند الله عزوجل أحتسبکم من عصبۀ...». و جهز الهادی جیشا لاقاه حیث استشهد فی موقع یقال له (فخ) و معه کثیر من [صفحه ۱۰۵] العلویین. و حملت رأس (الحسین شهید فخ) الی القائد العباسی بالبشری! مع رؤوس مائۀ آخرین. و استعرض القائد الرؤوس بالمدینۀ فقال الامام الکاظم (علیه‌السلام) عندما عرضوا رأس الحسین: «إنا لله و انا الیه راجعون. مضی و الله مسلما، صالحا، صواما، قواما، آمرا بالمعروف ناهیا عن المنکر. ما کان فی أهل‌بیته مثله». و کان مع الحسین یحیی بن عبدالله بن الحسین (أخی محمد و إبراهیم، و إدریس ابناء عبدالله بن الحسن) فلما انتهت المعرکۀ استتر، ثم ظهر، فخرج علی الرشید فی بلاد الدیلم، و وجه الیه الرشید جیشا بقیادۀ الفضل بن برمک حتی استسلم بعهد مکتوب. و مع ذلک استفتی الرشید العلماء لقتله، فأبی ذلک محمد بن الحسن صاحب أبی‌حنیفۀ و صاح: ماذا تصنع لو کان محاربا و ولی کان آمنا. لکن الرشید وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله، و کان هو أقدر علی النفاق السیاسی من مفتیه. أخذ من المفتی ما یملکه، لیصنع هو ما یقدر علیه.. فسجن یحیی و ضیق علیه الخناق حتی مات فی سجنه، کمثل ما سیموت فی سجن الرشید الإمام موسی الکاظم و یشهد الرشید الناس علیه، لیبرئ نفسه من تهمۀ اغتیاله. أما الأخ الرابع إدریس فأفلت هاربا الی مصر، ثم الی المغرب، هناک تمکن الرشید من دس السم الیه و اغتیاله، فأسس ابنه دولۀ الأدارسۀ. و سیموت فی حبس الرشید کذلک عبدالله بن الحسن (الأفطس). قتله جعفر بن برمک وزیر الرشید. و سیموت فی حبسه محمد بن یحیی بن محمد بن عبدالله بن الحسن، و العباس بن محمد بن عبدالله، و کذلک الحسین ابن... عبدالله بن جعفر. [۳۰] . [صفحه ۱۰۶] و فی عهد المأمون وجه الی جماعۀ من آل أبی‌طالب. فحملوا الیه فی مرو عاصمۀ خراسان و فیهم الامام علی الرضا (بن الکاظم بن الصادق) (علیهم‌السلام) فخاطبه فی أن یکون ولی عهده. فأبی. فتهدده بقوله: «ان عمر جعل الشوری فی ستۀ آخرهم جدک. و قال من خالف فاضربوا عنقه. و لابد من قبولک ذلک» فقبل. و بایع له المأمون و العباس بن المأمون. ثم دعاه المأمون للخطبۀ فأوجز، و کأنه یتوقع و جازۀ أیامه. فاکتفی بعد أن حمد الله بقوله (علیه‌السلام): «إن لنا علیکم حقا برسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم). و لکم علینا حق فإذا أدیتم إلینا ذلک وجب علینا الحق لکم». لکنه مات بعد قلیل فی ظروف غامضۀ لا یستبعد منها دس السم کما تؤکد ذلک الشیعۀ، فموت علی الرضا (علیه‌السلام) کان حلا لإشکالات بنی‌العباس سواء من یحبون المأمون، أو الکارهین للرضا، أو للمأمون ذاته [۳۱] . [صفحه ۱۰۷] و لا نستطرد للسرد. فلیس فی تاریخ البشریۀ، کلها، أسرۀ شردت و جردت، و ذاقت العذاب و الاسترهاب، مثل أهل‌البیت النبی (صلی الله علیه و آله و سلم). بدأبهم تاریخ الاسلام مجده. و استمر فیهم بعبرته و عظمتها. قدم أبوهم (علیه‌السلام) للبشریۀ أسباب خلاصها بکتاب الله و سنۀ الرسول. و قدم أهل‌بیته (علیهم‌السلام) أرواحهم فی سبیل القیم التی نزل بها القرآن و جاءت بها السنۀ. کانت مصابیحهم تتحطم لکن شعلتهم لا تنطفیء، لتخلد الجهاد و الاستشهاد و الإرشاد، بالمثل العالی الذی کانوه، و الضوء الذی لم تمنع الموانع من انتشاره، و علم فیه أبناء النبی أمته بعض علومه: ان الاستشهاد حیاۀ، للمستشهدین و للأحیاء جمیعا [۳۲] . [صفحه ۱۰۹]

امام المسلمین

اشاره

انت یا جعفر فوق ال مدح و المدح عناء جاز حد المدح من قد ولدته الانبیاء [صفحه ۱۱۱] قامت الدولۀ الاسلامیۀ بالمدینۀ المنورۀ حیث طبق الدین أکمل تطبیق. فلم تکن العاصمۀ المناسبۀ لدول ثلاثۀ أقامها أصحابها من أجل خلافۀ الدنیا لا خلافۀ الدین. و المدینۀ هی المقر الأمثل لأهل‌بیت الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) حیث یرتبطون بکل أثر فیها و ترتبط بهم المعانی التی خلد بها الاسلام، و انتصر المسلمون. و السنۀ هی الشجرۀ المبارکۀ و فروعها؛ فی ثمرها الیانع رحمۀ و یسر و معرفۀ، و فی ظلالها الوارفۀ مودۀ و إیلاف و تواصل. و من هذه العناصر نتج الفکر الرفیع للمجتمع العظیم، یسقی من القرآن و یحیا به. و بالقرآن و السنۀ، و الفکر الرفیع و

الفقه المحيط، اعتصم أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فی المدينة. فاختصم و إياهم خلفاء الدول الثلاثة الأموية و المروانية و العباسية، و ولاتهم على المدينة. لكنها ظلت مدرسة السنة و الفقه. و تتابع فيها أئمة أهل‌البيت (عليهم‌السلام): زين‌العابدين، و الباقر، و الصادق. و الفصل الثانی من الباب الحالی مداره مجلس إمام المسلمين جعفر الصادق (عليه‌السلام)، و أمثال لما يجری فيه من أقوال، و من يشرف بالانتهاء اليه من رجال، ليسوا كسائر الرجال. فهم أئمة الفكر الإسلامی جميعه... من سنن وفقه، و زهد و كلام، و علوم تطبيقية... منذ القرن الثانی للهجرة حتى يرث الله الأرض و من عليها. [صفحه ۱۱۳]

فی المدينة المنورة

اشاره

«اللهم ان إبراهيم عبدك و خليلك و نبيك. و إنه دعاك لمكة. و إنی أدعوك «للمدينة» بمثل ما دعاك لمكة و مثله معه». (حديث شريف) [صفحه ۱۱۵] ولی مروان بن الحكم إمرة المدينة لمعاوية سنة ۴۲. و كان مروان طلبة الثوار على عثمان؛ لو تسلموه لما قتلوا الخليفة - كما قيل - و كان مروان يبحث لنفسه فی الفتنة عن مكان. و من أجل ذلك رمى معاوية المدينة به، أو رماه بها، من فور ولايته للسلطة. و هو ابن‌عمه و ابن‌عم عثمان. كان معاوية يصرفه عن الإمره ثم يعيده. و آثر مروان و أهله الإقامة بالمدينة فی الحالين، على الذهاب الى دمشق عاصمة بنی‌أمية، حيث الصدارة لغير، و حسن صلاته بأهل المدينة. فلما وقعت مجزرة كربلاء كانت عواطفه مع أهل بلدته. ثم أجاءته الرياح الى حيث نصبه أهله خليفة سنة ۶۴ بعد اعتزال معاوية بن يزيد. ثم خلف مروان ابنه عبدالملك لتبقى خلافته عشرين عاما من سنة ۶۶ الى سنة ۸۶. و فی عبدالملك يقول عبدالله بن عمر: إن لمروان ابنا فقيها فاسألوه. لكنه بعد الخلافة صار ظلوما غشوما: أدخل عليه الأسرى ذات يوم فأمر بضرب أعناقهم - دون استجواب! فقال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه - لقد أقست الخلافة قلبك. و كنت رؤوفا! فأجاب: كلا. و لكن أقساه الضغن بعد الضغن. كان يستنكر ضرب جيوش يزيد بن معاوية للكعبة سنة ۶۳ فی حصار مكة، حتى إذا ولی الخلافة ضربها الحجاج له فی سنة ۷۳! و لما سئل الحسن البصری أن يقول قوله فی عبدالملك بن مروان أجاب: ماذا أقول فی رجل؛ الحجاج إحدى سيئاته!! و لم يتمهد الملك لابنه الوليد إلا بعد عشرين عاما من حكم عبدالملك، فلقد [صفحه ۱۱۶] بويع لابن الزبير بمكة سنة ۶۴ من أهل الحجاز و العراق و مصر، فدارت رحى الحرب، و استمرت بيعة العراق لابن الزبير حتى سنة ۷۱ عندما قتل جند عبدالملك مصعب بن الزبير، و هدموا قصر الخلافة الزبيرية بالكوفة. و فی العام التالی استرجع «المدينة» لعبد الملك طارق بن عمر، و فی سنة ۷۳ قتل عبدالله بن الزبير، و استسلم للحجاج أهل «مكة». و فی حياة الإمام جعفر الصادق كان على إمرة المدينة أبان بن عثمان حتى سنة ۸۲ حين عزله عبدالملك بهشام بن اسماعيل، الذی ضرب سعيد بن المسيب سنة ۸۵ من جراء رفضه بيعة الوليد و سليمان ابنی عبدالملك، و طاف به فی المدينة. ثم عزل الوليد هشاما بعمر بن عبد العزيز سنة ۸۷؛ و عمر زوج اخته و هو زوج أخت عمر. و الأربعة حفدة مروان. و أمر الوليد عمر أن يوقف هشاما للناس أمام دار مروان، و لكن عنده مظلمة. فمر الناس به يلمزونه و يغمزونه. فصاحب المعروف لا يقع و ان وقع وجد متكأ. و كان هشام من كثرة ما أساء الى علی بن الحسين (زين‌العابدين) (عليه‌السلام) يقول: ما أخاف إلا من علی زين‌العابدين - فلو أزرى به زين‌العابدين لحق عليه الدمار من العابدين و من العامة - لكن زين‌العابدين (عليه‌السلام) و مواليه و خاصته مروا به لا يتعرضون له بكلمة. فلما مروا و سلم هشام، صاح: الله يعلم حيث يجعل رسالته. ورد عمر بن عبدالعزيز لأهل‌البيت (عليهم‌السلام) فدكا. و كان النبی (صلى الله عليه و آله و سلم) قد أعطاها لفاطمة الزهراء (عليهاالسلام) و لم يورثها أبوبكر و عمر لها. فكان اجتهاد عمر بن عبدالعزيز خلافا فی الفقه مع أبی‌بكر و مع جده عمر بن الخطاب. و منع عمر الشعار الأموی الآثم؛ و هو سب علی (عليه‌السلام)، و زاد إنصافا فاستعاض عنه شعارا تبدو فيه معانی التوبة النصوح و الاستغفار من الذنوب. و هو الآية الكريمة «ربنا اغفر لنا. و لإخواننا الذين سبقونا بالايمان». و كان

معاویة قد استحدث نظام القصص لیثنی القصاص علی الخلفاء من بنی‌أمیة و یزینوا للناس حالهم، فأمرهم عمر ان یقصروا الثناء (علی المؤمنین). [صفحه ۱۱۷] و فی عمر یقول أحمد بن حنبل «لیس من التابعین قوله حجة إلا عمر بن عبدالعزیز» و یخاطبه کثیر – و هو من شعراء الشیعة – بقوله: و لیت و لم تسبب علیا و لم تخف مریبا و لم تقبل مقالة مجرم و صدقت بالقول الفعال مع الذی أتیت فأمسی راضیا کل مسلم و فی العام التالی لولایة عمر علی المدینة حج الولید، و بدا له أن یأمر بتوسعة المسجد، لتدخل فیه حجرات أمهات المؤمنین و بیت علی، الذی اذن له به النبی، فی حین ردم أبواب سائر الصحابة. فنصح بعضهم الخلیفة أن یعود الی مقر الملک فی دمشق و یصدر أوامره منها بتوسیع المساجد عامة فی مکة و المدینة و بیت المقدس، و ان یبنی مسجدا بدمشق، و بهذا یتحقق غرضه دون أن یلومه الناس. فرجع الی دمشق و أصدر منها أوامره. و شق الأمر علی أهل المدینة و تظاهروا علیه طالبین ترک (الحجرات) کما ترکها صاحب الشریعة. فأصر الولید و أنفذ، لتنفیذ أمره، بعثة من العمال من بلاد الروم. قال خبیب بن عبدالله بن الزبیر لعمر «نشدتک الله یا عمر ان تذهب بآیة من آیات الله تقول «إن الذین ینادونک من وراء الحجرات أکثرهم لا یعقلون»... و طعن فی بنی‌أمیة، و بلغ خبره الولید بدمشق فأمر بجلده. فجلد. و مضی زمن و مات خبیب. فکان عمر یقول کلما بشره بالجنة أحد: «کیف. و خبیب علی الطریق!». و فی سنة ۹۱ حج الولید فزار المسجد، و خطب علی منبر الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) قاعدا فی کبریاء فنفر الفقهاء، و ترضی السادات فاستفز الفقراء. و کان عمر یؤوی بالمدینة من یتهددهم بطش الحجاج فی العراق، لکن الولید ولی الحجاج علی الحج سنة ۹۲، فاستعفاه عمر من مرور الطاغیة بمدینة الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم)، فقبل. و لم یکن عدل عمر مانعا، بل ربما صار مقتضیا، أن یعزله الولید بعثمان بن حیان المری سنة ۹۳، فأنزل الوالی الجدید النکال بالعلماء، و منهم ناسک المدینة محمد [صفحه ۱۱۸] بن المنکدر فقیه بنی تیم قبیلة أبی‌بکر و أخوال جعفر الصادق (علیه‌السلام)، و قذف أهل المدینة من فوق المنبر بقوله «أیها الناس إنا وجدناکم أهل غش لأمیرالمؤمنین فی قدیم الدهر و حدیثه». و امتدت ید البطش الی أبی‌بکر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاری (وجده عمرو عامل الرسول صلی الله علیه و آله و سلم)، فأمر بحلق لحیته لولا ان عزل الخلیفة الجدید (سلیمان بن عبدالملک) عثمان بأبی بکر ذاته سنة ۹۶. و بقی أبوبکر أمیرا علی المدینة حتی سنة ۱۰۱. و اجتمع له القضاء و الامرة علیها فی خلافة عمر بن عبدالعزیز. و لما عزله یزید بن عبدالملک بعد وفاة عمر، بعبد الرحمن بن الضحاک بن قیس عذب الوالی الجدید أبابکر. فلما عزل عبدالرحمن سنة ۱۰۴، حاقت البأساء و الضراء بعبد الرحمن، حتی صار یلتمس الصدقة من سوء حاله. و فی سنة ۱۰۶ تولی إبراهیم بن هشام بن اسماعیل – و هو خال الخلیفة هشام بن عبدالملک – فبقی ابراهیم والیا الی سنة ۱۱۴. ثم عزل بخالد بن عبدالملک بن الحارث بن أبی‌العاص، فبقیت له الإمرة حتی سنة ۱۱۸. و خطب خالد علی منبر الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم)، فانتقص أولاد الرسول و أباهم علیا (ع)، فقام الیه داود بن قیس فبرک علی رکبتیه و قال: کذبت کذبت؛ حتی حیل بینهما. ثم عزل بمحمد بن هشام بن اسماعیل أخی إبراهیم فبقی حتی سنة ۱۲۵. و کما ولی محمد و ابراهیم ابنا هشام، لخؤلتهما لهشام بن عبدالملک، ولی الولید ابن‌یزید إمرة المدینة «خاله» محمد بن یوسف الثقفی، و أمره ان یعذبهما، و ان یقیمهما للناس، و ان یبعث بهما الی والی العراق لیذیقهما الهوان حتی یموتا من العذاب. ففعل. و بقی حتی سنة ۱۲۶ فعزل بعبد العزیز ابن (عمر بن عبدالعزیز) لیبقی ثلاث سنوات حتی سنة ۱۲۹، فیحل محله عبدالواحد بن سلیمان بن عبدالملک. و فی ولایة عبدالواحد کانت شمس بنی‌أمیة فی طریقها الی الغروب: لقد طرد [صفحه ۱۱۹] الحارث بن سریج عاملهم نصر بن سیار من أقصی الشرق فی مرو – و أقبل أبوحمزة «الخارجی» یخرجهم من قلب الاسلام فی المدینة سنة ۱۳۰ بعد وقعة قدید. و فیها قتل من أهل المدینة خلق کثیر، و فر عبدالواحد. و سفر الی أبی‌حمزة، و هو علی أبواب المدینة، السفراء: شیخ بنی‌هاشم عبدالله بن الحسن، و محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، و کان محسوبا مع بنی‌هاشم لما یجمعه بهم من رحم، و عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبی‌بکر خال الإمام الصادق (علیه‌السلام)، و عبدالله بن عمر بن... عمر، و معهم ربیعة الرأی شیخ مالک بن أنس، فی رجال آخرین. فعامل أبوحمزة الوفد معاملة الخوارج، للصحابة: عبس و بسر فی وجه الأولین حفیدی علی و عثمان. و بشر فی وجه الثالث و الرابع – حفیدی الشیخین: أبی‌بکر و عمر. و قال

لهما: و الله ما جئنا إلا لنسير بسيرة أبويكما. قال شيخ بنىهاشم و الله ما جئناك لتفضل بين آبائنا، و لكن بعثنا اليك الأمير برسالة، و هذا ربيعة يخبرك بها... أقام أبوحمزه بالمدينة ثلاثة أشهر ثم خرج لقتال جند الشام فانهزم... ثم جاءت دولة بنىالعباس. و تولى إمرة المدينة للسفاح عمه داود بن على فقام فخطب فقال: أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟... و السيف مشهر: حتى يبيد قبيلة فقبيلة و يعض كل مثقف بالهام و يقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام لكن الله عاجله بعد ثلاثة أشهر فلقى حتفه – و ولى بعده زياد بن عبدالله بن المدان خال السفاح. و أحاط السفاح ببنى أمية: دعاهم، و منحهم الأمان، حتى إذا اجتمعوا به أعمل رجاله السيوف فيهم، و كانوا نيفا و ثمانين رجلا. و فى سنة ۱۳۳ قتل عماله من أشياعهم ثلاثين ألفا بالشام. و استدعى عبدالله بن على، أخو داود، و قائد جيش الشام، الإمام الأوزاعى إمام [صفحه ۱۲۰] الشام الى عسكره فسأله: ما تقول فى بنىأمية؟ قال: لقد كانت بينك و بينهم عهود، و كان ينبغى أن تفوابها. قال: ويحك! اجعلنى و إياهم لا عهد بيننا. يقول الأوزاعى «فأجهشت نفسى و كرهت القتل... فذكرت مقامى بين يدى الله فقلت: دماؤهم عليك حرام» فانتفخت عيناه و أوداجه و قال: ويحك لم؟ قلت: قال رسول الله: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بثلاث: ثيب زان و نفس بنفس و تارك دينه». قال: ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة؟ أليس رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قد أوصى لعلى؟ فسكت... و جعلت أتوقع رأسى يسقط. و قال: أخرجوه. فخرجت. و روى عبدالله بن على رماحه من الدم بما لم يسمع التاريخ بمثله. حتى إذا ولى أبوجعفر المنصور (۱۵۸ – ۱۳۶) – عزل زياد بن عبدالله بن المدان عن المدينة بمحمد بن خالد القسرى، و أمر بحمل زياد بن عبدالله الى العراق مكبلا بالحديد. ثم عزل محمد بن خالد و ولى مكانه رباح بن عثمان بن حيان سنة ۱۴۱، و هو ابن‌عم مسلم بن عقبة (الذى يسميه البعض مجرم بن عقبة – فهو قائد الجيش الذى دمر المدينة و ارتكب الفظائع فى معركة الحرة سنة ۶۳) ففاخر الناس بنقائصه قال: أنا الأفعى ابن‌الأفعى أنا ابن‌عثمان بن حيان و ابن‌عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم. فوثب عليه الناس فحصبوه بالحصى و رموه بالحجارة. و فى إمرته اقتحم الجند منازل أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فأخرجوا منها رجالهم الى السجون. و مرت مواكب أهل‌البيت فى شوارع المدينة و هم فى الأصفاد. هزلهم العذاب و الأيام الشداد، ثم سيقوا الى الكوفة، ليودعوا السجن حيث حبسوا – كما [صفحه ۱۲۱] يقول المسعودى فى مروج الذهب – فى سرداب تحت الأرض لا يعرفون الليل من النهار حتى مات أكثرهم، ثم خر عليهم، ليموت تحت أنقاضه الأحياء منهم، و يدفن الذين سبقوهم الى الموت دون أن يعنى بهم أحد. و بقى رباح حتى خرج محمد بن عبدالله (النفس الزكية) على المنصور و قبض الخارجون على رباح و أدخلوه سجن المدينة هو و أخاه. و لما انتهت الحرب عين المنصور على المدينة عبدالله بن الربيع الحارثى فبقى حتى سنة ۱۴۷ ثم عزل. فولى مكانه جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله بن عباس، فبقى واليا حتى سنة ۱۴۹. و هو الذى أمر بضرب مالك بن أنس حتى انخلعت كتفه و طافوا به فى المدينة. و فى ولاية جعفر بن سليمان توفى الامام الصادق (عليه‌السلام). بهذه الوجازة العجلى لأمر الولاة فى نحو قرن من الحكم الأموى و المروانى و العباسى للمدينة، عاش فيه الامام الصادق (عليه‌السلام)، تتكشف أمور حسبنا أن ننبه على بعضها الآن: ۱ – ففى حكم مروان، لم يكن لأهل‌البيت (عليهم‌السلام) بخاصة مشكلة مع الدولة، و إنما كانت المشكلة لأهل المدينة عامة مع العاصمة. أما ثورة زيد بن على زين‌العابدين (عليهما‌السلام) سنة ۱۲۱ و ابنه يحيى سنة ۱۲۵ [۳۳] فكان فى أواخر أيام بنى مروان. [صفحه ۱۲۲] و كذلك كان خروج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر سنة ۱۲۷، بعد عامين من استشهاد يحيى بن زيد. و لقد سلم عبدالله نفسه لأبى مسلم الخراسانى بعد أن انهزم نصر بن سيار والى خراسان لبنى مروان. فقضى أبومسلم عليه بعد ان استسلم. بهذه يمكن القول ان زين‌العابدين، و ابنه محمدا الباقر (عليهما‌السلام) عاشا أكثر من نصف قرن فى سلام مع السلطة. و بهذا السلام تبوءا الذروة من الاحترام و الطمأنينة اللذين يمهدان للعلم أن ينتشر، و للقدوة الصالحة ان يشيع هداها، كالشعاع ينشر النور فى المدينة و يحمل الدفء الى الأفئدة الوافدة من شتى الأقطار. ۲ – كان الأمراء على المدينة إما أقرباء للخلفاء فى دمشق و الأنبار و الكوفة، و إما صنائع لهم. لكنهم كانوا – عدا عمر بن عبدالعزيز – مستضعفين من الجميع، يعزلون، و يقامون للناس، ليتخذوهم سخريا أو ينكلوا بهم. و فى أواخر أيام بنى‌مروان سخر الناس منهم علانية، و اصطدموا بهم، إذا مسوا

أمیرالمؤمنین علیا (علیه‌السلام) بسوء. و کان عبدالملک قد أوصی عامله علی المدینة بقوله: «جنبنی دماء بنی‌هاشم فإنی رأیت آل حرب لما تهجموا علیهم لم ینصروا» – و هو الباطش، الذی تولی له بالعراق الحجاج، و بخراسان المهلب بن أبی‌صفرة، و بمصر هشام بن اسماعیل و ابنه عبدالله، و بالیمن محمد أخو الحجاج، و بالجزیرة محمد بن مروان (أخو عبدالملک). و کل من هؤلاء ظالم فاتک. و لما سئل عبدالله بن المبارک: أبومسلم خیر أم‌الحجاج؟ أجاب: «لا أقول أبومسلم خیر من أحد، لکن الحجاج شر منه». ۳ – أما فی عهد العباسیین – أبناء العمومة – فقد هبت علی بنی علی (علیه‌السلام) ریح صرصر، من الطغیان المدمر، لتنزل بهم و بأحفاد الصحابة و التابعین الفزع الأکبر، کهیئة ما صنع بنوأمیة فی کربلاء و الحرة. و طبائع الطغیان واحدة. [صفحه ۱۲۳]

اهل المدینة

غاضبت دمشق العراق و الحجاز أیام صیرها معاویة حاضرة بنی‌أمیة. و تابعته علی ذلک دولة بنی‌مروان. لکن المدینة بلدة طیبة و شعب کریم. ثار أهلها علی الأمویین بعد کربلاء ثم ترکوهم یجلون عنها، علی موثق من أهلها، ألا یدلوا جند یزید علی عوراتها. رحل الأمویون الی الشام إلا زوج مروان بن الحکم، عائشة بنت عثمان بن عفان، توجهت الی الطائف فی حمایة «علی زین‌العابدین علیه‌السلام». و المدینة واحة فی قفر، و الرزق نزر فی الصحاری الساخنة، إلا ما یرد الی الناس من تجارة أو عطاء، متقطع کسحائب الصحراء، یجری، و یجف، حسب الشهوات، فی دمشق. و أهل‌البیت (علیهم‌السلام) تجیئهم حقوقهم فی بیت المال أو لا تجیء، لکنهم ینفقون المال خفیة و علانیة – ولو کان بهم خصاصة – فعلی زین‌العابدین (علیه‌السلام) مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس، لا یعرف إلا بعد أن یموت، فیتفقد الناس المصدر فیعرفونه. و کذلک أبناؤه، یتزعمهم الباقر (علیه‌السلام)؛ و هو القائل: إن استطعت ألا تقابل أحدا إلا و لک الفضل علیه فافعل. أما ابن‌عمهم عبدالله بن جعفر بن أبی‌طالب فکان وثیق العری بالخلفاء. سأله یزید بن معاویة یوما: کم عطاؤک؟ قال: ألف ألف درهم. قال یزید: قد أضعفناها لک. قال ابن‌جعفر: فداک أبی و أمی. و ما قلتها لأحد قبلک. فضاعف یزید عطاءه مرة ثانیة. و لما خرج عبدالله من المجلس، قال جلساء یزید: تعطی رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم! قال: ویحکم إنی أعطیتها أهل المدینة أجمعین. فما یده فیها إلا عاریة. [صفحه ۱۲۴] و الحق ان الفقراء کان لهم فی أمواله حق معلوم، فکانوا یستدینون فی انتظار ورود عطاء عبدالله بن جعفر من العاصمة. و کان الخلفاء یحجرون علی شباب قریش أن یبرحوا الحجاز إلا بإذن فأمسی سجنا واسعا لمن فیه منهم. و ازداد أهله انعزالا و ارتباطا فتراحموا، و تصاهروا، لتصیر المدینة مجتمعا مقطوع القرین، نری فیه: «سکینة بنت الحسین» یبنی بها «مصعب بن الزبیر» ثم یبنی بضرة لها «عائشة بنت طلحة»... أی أطراف یوم الجمل تجتمع فی بیت واحد. و الیک أطرافا أخری فی أختها فاطمة: ولدتها أم‌اسحق بنت طلحة. و تزوجها عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان. ویرزقان محمدا. و له بنت من خدیجة بنت عثمان بن عروة بن الزبیر تدعی حفصة. و أم‌عروة أسماء بنت أبی‌بکر. فهؤلاء: رسول الله و خمسة من العشرة المبشرین بالجنة علی و أبوبکر و عثمان و طلحة و الزبیر یجتمعون فی حفصة! أما الإمام الصادق (علیه‌السلام) فآیة من الآیات. جده لأبیه زین‌العابدین. و زین‌العابدین و سالم بن عبدالله بن عمر و القاسم بن محمد بن أبی‌بکر أولاد خالات ثلاثة. هن بنات کسری یزدجرد. و أبوه الباقر ولدته لزین‌العابدین بنت عمه فاطمة بنت الحسن. و أمه أم‌فروة بنت «القاسم» بن محمد بن أبی‌بکر. و قد تزوج أمیرالمؤمنین علی (علیه‌السلام) أم‌محمد، أسماء بنت عمیس، بعد موت أبی‌بکر. فصار ربیبه، و ترعرع فی کنفه حتی شهد معه الجمل. و کان علی الرجالة. و شهد معه صفین. و ولاه مصر حتی قتلته جیوش معاویة فی مصر. و أمها أسماء بنت عبدالرحمن بن أبی‌بکر عم القاسم و شقیق عائشة. شهد الیمامة مع خالد. و قتل محکم الیمامة فی الحصن فاقتحمه المسلمون. و بعث الیه معاویة بمائة ألف درهم فردها و قال: لا أبیع دینی بدنیای. و عبدالرحمن هو القائل و هو یرفض البیعة لیزید: «جعلتموها هرقلیة کلما مات [صفحه ۱۲۵] هرقل قام هرقل». فجعفر الصادق قد ولده النبی علیه الصلاة و السلام مرتین، و علی مرتین، و الصدیق مرتین، لیدل بهذا المجد الذی ینفرد به فی الدنیا علی أنه نسیج وحده. و من الناحیة الأخری ولده کسری مرتین، لیدل الدنیا – من أعلی مواقعها – علی ان

الإسلام للموالی و العرب. فذلک هو الدین الذی جاء به رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم)... و الذی دافع من أجله عن المساواة بین المسلمین کافة، أمیرالمؤمنین علی (علیه‌السلام). هکذا وحدت المدینة مجتمعها، و رفعت أبناء الصحابة الی أعلی مقام. و أهل البیت الی صدارة المجتمع، یمدون أنسابهم الی هاماته و أسبابهم الی طبقاته. و ذات یوم أصهر الحجاج الی عبدالله بن جعفر فی بنته أم‌کلثوم، فأبرد الیه الخلیفة عبدالملک لیسوغ أباها المهر و یعجل طلاقها، لأنه تجاوز قدره. و هی حجة ظاهرة، قد تخفی حجة حقیقیة، إذا کان یخشی أن یمد الحجاج بسبب الی أسرة قد یشمله هداها، أو یأسره الإخلاص لها، أو یبعده عن أن یکون - بجمعه - لعبد الملک، و بقسوته علی من عداه. لکن العلم ظل الخصیصة الکبری «للمدینة». ففیها وضعت القواعد العامة لتطبیق المبادئ الإلهیة التی بعثت بها السماء آخر رسلها لإصلاح البشر، و وضعت أسس الدولة و مبادئ الجماعة و انتشر الدین فی القارات الثلاث المعروفة؛ لتقدم الحضارة الإسلامیة، سیاسة و إدارة، و تشریعا، دولیا و مدنیا و جنائیا، و اقتصادیا، و قواعد علمیة، و علوما تطبیقیة و ریاضیة لم تشهدها القرون من قبل، و ستبنی علیها الحضارات جمیعا، فتکون طریقا للبشریة من جهالات القرون الأولی الی حضارات العصور الحدیثة العلمیة و الاقتصادیة و التشریعیة و الاجتماعیة. و لما انقضی عهد الرسالة و الراشدین الأربعة، تابعت عاصمة الإسلام - و ان لم تعد عاصمة الدولة - رسالتها بالفقه... و هو فی الحضارة الإسلامیة کحجارة الأساس فی البنیان: ان کانت منه قواعد الفکر الاسلامی کافة، و کانت الحریة الفکریة لحمته [صفحه ۱۲۶] و سداه، و الفضیلة الإنسانیة مبدأه و منتهاه. و فیه صلاح الناس، و التخفیف علیهم، و فتح أبواب الرجاء لهم، و تمکینهم من التطور لملاحقة حاجات الأعصر، بأداته «الدینامیکیة» - المحرکة - نحو التقدم، و هی اجتهاد الرأی. و فی أهل‌البیت (علیهم‌السلام) کان النبی مدینة العلم و علی بابها، و ریحانتا الرسول من الدنیا الامام «الحسن» و «الإمام الحسین» یمثلون الجیل الأول. و فی الجیل الثانی کان السجاد - من کثرة السجود - أو زین‌العابدین - من کمال عبادته - و ابناه الباقر وزید. و کان لزید مذهبه. أما الجیل الثالث من القرون المضلة فقد تراءی فیه للمسلمین جعفر بن محمد الصادق (علیه‌السلام)، بدر تمام، لجیل کان ختام أجیال. و أما من عدا أهل‌البیت (علیهم‌السلام) فقد نهض عنهم الصحابة و أبناؤهم و أحفادهم بعبء العلم نهضة جدیرة بدین یجعل طلب العلم فریضة علی کل مسلم و مسلمة. فاشتهرت بینهم أم‌المؤمنین عائشة و أم‌سلمة، و زینب بنت أبی‌سلمة، و العبادلة الأربعة أبناء العباس، و عمر، و الزبیر، و عمرو، و أبوسلمة بن عبدالرحمن بن عوف، و عبدالرحمن بن أبی‌بکر، و بنته حفصة و عروة بن الزبیر ابن‌أخت عائشة و ابن أخیها القاسم بن محمد بن أبی‌بکر، و راویتها عمرة بنت عبدالرحمن، و هؤلاء الثلاثة أعلم الناس بحدیث عائشة، و سالم بن عبدالله بن عمر و سعید بن المسیب و خارجة بن زید و عبیدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، و أبوبکر بن عبدالرحمن و سلیمان بن یسار، و تعلم علیهم جیل جدید؛ فیه محمد بن شهاب الزهری و أبوبکر بن محمد بن عمرو بن حزم، و محمد بن المنکدر، و محمد بن عبدالله ابنا أبی‌بکر بن حزم، و ربیعة الرأی، و هؤلاء مشیخة مالک بن أنس. و مالک یعاصر فی النصف الثانی من القرن الثانی نهایة الأجیال المفضلة. ثم هو شیخ المدرسة التی نجب فیها محمد بن ادریس الشافعی و تلمیذه أحمد بن حنبل. و لقد طالما زاحم التلامیذ أشیاخهم فی العلم و ان لم یزاحموهم فی مکانتهم عند الله و الناس. [صفحه ۱۲۷] و من المدینة انطلق الفقه الاسلامی الی العراق، حیث أقام عبدالله بن مسعود زمانا معلما و وزیرا کما سماه عمر، و تعلم علیه تلامیذه و تلامیذ علی (علیه‌السلام)، کعبیدة، و علقمة، و الحارث. و عن طریق علقمة تعلمت مدرسة النخعیین یتقدمها الأسود و عبدالرحمن، و یتوسط عقدها إبراهیم ابن‌یزید شیخ حماد بن أبی‌سلیمان. و فی حلقة حماد بالکوفة قضی أبوحنیفة عشرین عاما یتعلم، لیصبح علما علی مدرسة الرأی و القیاس الذی قعد قواعده الشافعی فانتشر فی کل فروع العالم الاسلامی. و هوی أبی‌حنیفة مع أبناء علی (علیه‌السلام) معروف، وصلة فکره بزعماء أهل‌البیت (علیهم‌السلام) واضحة، و ان مذهبه لیقارب المذهب الزیدی أکثر مما یقارب المذهب الحنفی غیره من مذاهب أهل السنة کما قیل. و لقد استشهد زید - بن زین‌العابدین (علیه‌السلام) - سنة ۱۲۱، و فی ذلک العهد جلس أبوحنیفة مجلس حماد بن أبی‌سلیمان بعد وفاته، و شرع یدون بعض مذهبه و کثیرا من الفروع. ثم مکن أبویوسف للمذهب بتولیة زملائه القضاء، لیلزموا الناس به، ثم نشره محمد بن الحسن بتدوینه فی کتبه الشهیرة. و تدوین الفقه فی کتاب «المجموع» قد سبق به

زيد مدرسة أبي‌حنيفة. و لعل أباحنيفة تعلم تدوين الفقه عليه – بل ان الجميع قد قلدوا فيه صنيع أهل‌البيت أنفسهم ولديهم الكتب فيها العلم، أحاديث و فقها، يتعلمونه كابرا عن كابر. فالحجاز و العراق قد تضامنا فى انتاج الفقه، لتتابعهما بعد ذلک شتى الحواضر، فى الفسطاط و دمشق و قرطبة و القيروان، و فى المغرب و فى المشرق، و فى الاندلس، و وسط آسيا. و ظاهر من هذا التاريخ أمور: ۱ – ان المذاهب الفقهية جميعا بما فيها المذاهب الباقية الى اليوم لأهل السنة، يتصدرها فى الظهور مذهب أهل‌البيت على يد زيد بن على زين‌العابدين. و كذلک يسبق «المذهب الزيدى» مذهب الإمام جعفر الصادق (عليه‌السلام)، الذى تبعه الأئمة من [صفحه ۱۲۸] نسله، و صار يسمى مذهب «الإمامية». فالصادق (عليه‌السلام) صار إماما بموت أبيه الباقر (عليه‌السلام) فى العقد الثانى من المائة الثانية، ثم كانت وفاته بعد استشهاد عمه زيد سنة ۱۲۱ بسبعة و عشرين عاما سنة ۱۴۸. أما أبوحنيفة فمات فى سجن أبي‌جعفر المنصور سنة ۱۵۰. و أما مالک فمات بعد أبي‌حنيفة بتسعة و عشرين عاما سنة ۱۷۹. و الشافعى مات بعد أبي‌حنيفة بأربعة و خمسين عاما سنة ۲۰۴، و لحق بهم ابن‌حنبل سنة ۲۴۱. و أصحاب المذاهب الأخرى بين معاصرين لهم أو لاحقين. ۲ – ان الامام «جعفر الصادق عليه‌السلام» كما سنرى، ينهى عن استعمال القياس كمثل ما يرفضه فقهاء المدينة عموما و المحدثون خصوصا. و هم زعماء الفقه فى المائة الأولى من الهجرة. و سنرى بعد ان نهى «الصادق عليه‌السلام» عن القياس لا يعارض الاجتهاد، بل إنه ليأمر به، و يبلغ بمنهاجه فى الاجتهاد ما لا يبلغه سواه. و سنرى ان منهاجه فى الاعتبار و الاستخلاص هو منهج الفكر الإسلامى، نقله عن الفكر العالمى. ۳ – ان البيئة التى عاش فيها أهل‌البيت (عليهم‌السلام) ستين عاما بعد مجزرة كربلاء، كانت منجبة، بظهور العلم و العلماء من الرجال و النساء. فشاركت المرأة فى العلم فى عهد أمهات المؤمنين، و وجدت الفقيهات فى جيل التابعين و تابعى التابعين من أهل السنة، فتصدرت نساء أهل‌البيت سكينة بنت الحسين (۱۱۷) رضى الله عنهما، و كانت فى الطليعة، تساجل فحول الشعراء، بل الفقهاء. ۴ – و فى الهدأة الوقور فى هذه البيئة ازدهر العلم على النحو الذى كان حريا بالمدينة، و بأهل‌البيت، من حفظ لحديث الرسول و تريث فى النظر و المناظرة، و تلبث فى إبداء الآراء، لما فيها من شبهة المخاطرة، و صدق فى خدمة حديث النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) بالعمل به و تعليم الناس إياه. و إنما اشتعلت الثورات، و شققت الفلسفات، فى العراق. ففيها تعاقبت ثورات [صفحه ۱۲۹] التوابين، و الخوارج، و الخارجين – كابن الزبير و ابن‌الأشعث و الآخرين – و من غليان المراجل هنالک أحدثت المبادئ الهدامة أو الغلواء أو الخصومات آثارها، كمثل ما نسب الى الغلاة الذين تبرأ منهم الشيعة، كما تبرأ الإمام على (عليه‌السلام) ممن ألهوه، فحرقهم بالنار. لكن آراء الغلاة و أعداء الاسلام لم تكن تكاد تفد على المدينة حتى تخرج منها واهنة أو محطمة. ففى جوها النقى، تفتحت أبواب بيت النبى (صلى الله عليه و آله و سلم)، و تخرج فى علومها الأئمة.

زين‌العابدين

۳۸ – ۹۴ تعاظم بيت زين‌العابدين (عليه‌السلام) فى عدد أفراده يوما بعد يوم، و قدم «السجاد» لنا ابنه «الباقر»، ثم قدم الباقر ابنه «الصادق» (عليهم‌السلام). فكانوا مثلا علیا فى العزوف عن السلطة و الانصراف الى تعليم الناس العلم الصحيح و العمل الصالح و الأسوة الحسنة. روى عن جابر بن عبدالله و ابن‌عمر إلى جوار روايته علم أهل‌البيت و حديثهم عن أبيه الحسين و أم‌المؤمنين أم‌سلمة. و سمع ابن‌عباس... ليروى عنه فيما بعد ابناه عبدالله و الباقر و خلق كثير. و رأى بعينى المريض العاجز عن الاستشهاد، مصير أبيه العظيم، و إخوته و أعمامه و أولادهم يوم كربلاء. و تجلت فيه الفضائل المنبثقة من الورع و الرحمة: يصلى لله فى اليوم و الليلة ألف ركعة؛ و لهذا سمى «السجاد». إذا توضأ اصفر لونه و إذا قام أرعد من الفرق. و لما سألوه قال: أتدرون من أريد أن أقف بين يديه و من أناجى؟ و مع تألق عبدالله بن جعفر بالمدينة، و هو الصحابى الذى يحرص الخلفاء فى دمشق على ارضائه، و تفريق عبدالله عطاءه الجزل فى فقراء المدينة، و استشهاد ابنين له يوم الحرة، و ثالث فى كربلاء، و مع انه زوج زينب بنت على، عمة زين‌العابدين (عليه‌السلام)، مع هذا كله كان زين‌العابدين يحتل مكانه فى الصدارة، و يحمل [صفحه ۱۳۰] وصفه بجدارة. و فى ذلک نص يروى عن مالک بن

أنس قال: «سمی زین‌العابدین لعبادته». علمته المحنهٔ و الورع الحکمهٔ و حسن الخطاب، فکان فی باکورهٔ حیاته علی علم عظیم. قال له یزید یوم أدخل علیه – مریضا – مع نساء أهل‌البیت (علیهم‌السلام) الناجیات من کربلاء – أبوک الذی قطع رحمی و جهل حقی و نازعنی سلطانی فصنع الله به ما قد رأیت. قال زین‌العابدین (علیه‌السلام): «ما أصاب من مصیبهٔ فی الأرض و لا فی أنفسکم إلا فی کتاب من قبل أن نبرأها». قال یزید: «و ما أصابکم من مصیبهٔ فبما کسبت أیدیکم». قال زین‌العابدین (علیه‌السلام): «هذا فی حق من ظلم لا من ظلم». [۳۴] . تتابع علی الکذب ولاهٔ الشام و الأمصار من عهد معاویهٔ یشتمون علیا (علیه‌السلام) بأمر بنی‌أمیهٔ، فکان یبقی من کذبهم شیء فی عقول العامهٔ، أو الصبیهٔ الذین لا یعلمون. کان عبیدالله بن مسعود من فقهاء المدینهٔ السبعهٔ، و کان معلم عمر بن عبدالعزیز و هو صبی أودعه أبوه أخواله – بنی عدی قوم عمر بن الخطاب – بالمدینهٔ. فسمع یوما شتم علی، فقال لعمر: یابنی. متی علمت أن الله غضب علی أهل بدر؟ قال الصبی: و هل کان علی فی بدر؟ قال عبیدالله: و هل کانت بدر کلها إلا لعلی! فلما ولی عمر الخلافهٔ أبطل شتم أهل‌البیت (علیهم‌السلام)، ورد الیهم حقوقهم. و قال رجل من أنصار الأمویین بالشام: دخلت المدینهٔ فرأیت رجلا راکبا علی بغلهٔ [صفحه ۱۳۱] لم أر أحسن وجها و لا ثوبا و لا سمتا و لا دابهٔ منه. فسألت فقیل: هذا علی بن الحسین بن علی (علیهم‌السلام). فأتیته – و قد امتلأ قلبی له بغضا – فقلت: أنت ابن‌علی بن أبی‌طالب؟ قال: أنا ابن‌ابنه. فقلت: بک و بأبیک أسب علیا. فلما انقضی کلامی قال: أحسبک غریبا؟ مل بنا الی الدار فان احتجت منزلا أنزلناک، أو الی مال واسیناک، أو الی حاجهٔ عاوناک علی قضائها. فانصرفت من عنده، و ما علی الأرض أحد أحب الی منه. و یروی أنه احترق البیت الذی هو فیه و هو قائم یصلی، فلما انصرف (من الصلاهٔ) قیل له: ما بالک لم تنصرف حین اشتعلت النار؟ قال: اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخری. و أنه لما حج و أراد أن یلبی أرعد، و اصفر و خر مغشیا علیه. فلما أفاق سئل فقال: إنی لأخشی أن أقول: لبیک اللهم لبیک. فیقول: لا لبیک و لا سعدیک – ثم لبی. فغشی علیه حتی خر عن راحلته... و کان یرحل من المدینهٔ الی مکهٔ فلا یقرع راحلته مرهٔ واحدهٔ! یقول الأصمعی «لم یکن للحسین (رضی الله عنه) عقب إلا من ابنه زین‌العابدین. و لم یکن لزین‌العابدین نسل إلا من ابنهٔ عمه الحسن، فجمیع الحسینیین من نسله». أما أکبر صدقته فبالليل. یقول: «صدقهٔ السر تطفئ غضب الرب». و مع عظم مکانه کان إذا دخل المسجد تخطی الرقاب حتی یجلس فی حلقهٔ زید بن أسلم، اذا کان هنالک. فیقول له نافع بن جبیر بن مطعم: أنت سید الناس... تأتی تتخطی خلق الله و أهل العلم من قریش حتی تجلس مع هذا العبد الأسود؟ فیجیب: «انما یجلس الرجل حیث ینتفع. و ان العلم یطلب حیث کان». فاذا جلس زین‌العابدین فی المسجد جلس بین القبر و المنبر، و انعقدت حلقهٔ کحلقهٔ أبیه فی روضهٔ کریاض الجنهٔ، یقول عنها القائل «اذا دخلت مسجد رسول لله (صلی الله علیه و آله و سلم) فرأیت حلقهٔ کأن علی رؤوسهم الطیر فتلک حلقهٔ أبی عبدالله مؤتزرا [صفحه ۱۳۲] الی أنصاف ساقیه». و لقد یتحدث مع سلیمان بن یسار (۱۰۷) مولی أم‌المؤمنین میمونهٔ الی ارتفاع الضحی. فإذا أراد أن یقوما قرأ علیهما عبدالله بن أبی‌سلمهٔ سورهٔ، فإذا فرغ عبدالله من التلاوهٔ دعوا الله سبحانه. ولقد یدخل ابن‌شهاب الزهری (۱۲۴) و صحبه فیسأله فیم کنتم؟ فیجیبه أنهم کانوا یتذاکرون الصوم و أنهم لم یروه واجبا إلا فی رمضان فیقول السجاد (علیه‌السلام) – الصوم علی أربعین وجها. ثم یشرحها له وجها وجها: فمنها ما یجب، و منها ما هو بالخیار أو الإباحهٔ... الخ. و فی علمه یقول محمد بن سعد (صاحب الطبقات):«کان زین‌العابدین ثقهٔ مأمونا کثیر الحدیث عن رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم)، عالما، و لم یکن من أهل‌البیت مثله» و یقول الزهری: «ما رأیت أفقه من زین‌العابدین لولا انه قلیل الحدیث.» و هذه الشهادهٔ بالفقه من الشیخ مالک بن أنس تعلن رأی جیل التابعین. بل ان الزهری یعلن مکانهٔ زین‌العابدین بین کل الأحیاء بقوله: «ما رأیت قرشیا أفضل منه». قصد الیه یوما، و نفسه تکاد تبسل من ذنب ألم به، فرده الامام الی صمیم الإسلام؛ قال: «قنوطک من رحمهٔ الله التی وسعت کل شیء أعظم من ذنبک». و الشافعی الذی یقول فی ابن‌شهاب الزهری: لولا الزهری لذهبت السنن من المدینهٔ» یضع زین‌العابدین (علیه‌السلام) فی أعلی مکان. فیعده أعلم أهل المدینهٔ. کان کثیر البکاء من یوم کربلاء. فقیل له فی ذلک فقال: «إن یعقوب علیه‌السلام بکی حتی ابیضت عیناه من الحزن علی یوسف – و لم یتحقق موت یوسف – و قد رأیت بضعهٔ عشر رجلا من أهلی یذبحون فی غداهٔ واحدهٔ». و ربما فسر لنا هذا المقال

بعض أسباب انصرافه الى تعليم المسلمين دينهم، لصلاح دنياهم، و إجماع المسلمين على إجلاله. [۳۵] . [صفحه ۱۳۳] و فى سنة ۹۴، سنة الفقهاء، مات جمع من فقهاء المدينة: عروة ابن‌الزبير، و السعيدان: ابن‌جبير و ابن‌المسيب، و أبوبكر بن عبدالرحمن. و ارتفعت فيها أو فى سنة ۹۵ روح زين‌العابدين (عليه‌السلام) الى الرفيق الأعلى... مخلفا أربعة عشر ولدا منهم عشرة رجال كبيرهم محمد، أبوجعفر، المكنى بالباقر، و فيهم زيد بن على.

الباقر

۵۷ - ۱۱۴ انصرف الامام الباقر (عليه‌السلام) للعلم بكله. فهذا أول دروس أبيه له. بقر العلم أى تبحر فيه، فسمى الباقر. روى علم أبيه وجديه الحسين و الحسن وجد أبيه - على - (عليهم‌السلام) و جادل عبدالله [صفحه ۱۳۴] بن عباس. و عنه روى بقايا الصحابة و التابعين. سأل سائل عبدالله بن عمر فى مسجد الرسول (صلى الله عليه و آله) فأشار الى حيث يجلس الباقر (عليه‌السلام) و قال: «اذهب الى هذا الغلام و سله و أعلمنى عما يجيبك» فلما عاد اليه بالجواب قال: «انهم أهل‌بيت مفهمون». و روى عنه الفطاحل: أخوه زيد و ابنه جعفر الصادق، ثم الأوزاعى إمام الشام، و ابن‌جريح امام مكة، و أبوحنيفة، و عبدالله بن أبى‌بكر ابن‌حزم شيخ مالك إمام المدينة، و حجاج بن أرطاة (۱۴۵)، و مكحول ابن‌راشد، و عمرو بن دينار (۱۱۵)، و يحيى بن كثير (۱۲۹)، و الزهرى (۱۲۴)، و ربيعة الرأى (۱۳۶)، شيخا مالك، و الأعمش، و جابر الجعفى (۱۲۸)، و زرارة بن أعين (۱۵۰)، و الثلاثة الأخيرون من كبار علماء الشيعة و رواة ابنه جعفر الصادق (عليه‌السلام). يقول محمد بن المنكدر - شيخ مالك بن أنس - فى الباقر (عليه‌السلام): «ما كنت أرى ان مثل على بن الحسين يدع خلفا يقاربه فى الفضل حتى رأيت ابنه محمدا الباقر». و ما هو فى سجاياه إلا خليفة «السجاد»، يطوف بالبيت فيركع، و يسجد، فإذا مكان سجوده مبتل بالدموع. يقول عنه الحسن البصرى: «ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء». عايش الباقر (عليه‌السلام) أباه زمانا طويلا، و لم يمتحن محنة أبيه فى كربلاء، أو محنة أخيه زيد إذ أخرجه أهل الكوفة و خذلوه، و لم تعتور حياته الامتحانات المتعاقبة التى اعتورت حياة ابنه - الامام الصادق - أو خلافات بنى عمومته - أبناء الحسن - أو الإرهاب الفكرى أو الفعلى من الخليفة المنصور؛ فأتيح للباقر أن يبلور اتجاه اهل‌البيت (عليهم‌السلام) - من نسل الحسين - الى العلم و التعليم، و يبرز فيه العناية بفقه العبادات و المعاملات. و كثر ترديد اسمه مصاحبا لاسم ابنه الإمام الصادق فى كتب الفقه الشيعى. و اليه يرجع اصحاب الكلام فى العقائد الشيعية، و كثير من الفقه المستنبط من القرآن و السنة. و روى عنه جابر الجعفى أكثر من خمسين ألف حديث، و روى عنه محمد بن [صفحه ۱۳۵] مسلم ثلاثين ألفا. و كان عبدالملك بن مروان يعرف له حقه، و هو فى صدر شبابه، فى حياة أبيه. اليك أمثالا لفكره فى السياسة و الفقه و التفسير: - روى الكسائى: دخلت على الرشيد فقال : هل علمت أول من سن الكتابة على الذهب و الفضة؟ قلت عبدالملك بن مروان. قال ما السبب؟ قلت: لا أعرف. قال: كانت القراطيس للروم و كان أكثر من بمصر على دينهم. و كانت تطرز (أبا و ابنا و روحا) و تخرج من مصر تدور فى الآفاق. فأمر عبدالعزيز - و كان عامله على مصر - بإبطال ذلك، و أن تطرز بصورة التوحيد... مشهدا الله ألا إله إلا هو... فلما وصلت القراطيس الى ملك الروم كتب الى عبدالملك: إن لم يرد هذا الطراز على ما كان عليه فسينقش على القراطيس شتم النبى. فاستشار عبدالملك، فلم يجد عند أحد رأيا، فاستشار الباقر (عليه‌السلام). فقال له: لا يعظم عليك هذا الأمر من جهتين؛ الأولى: أن الله عزوجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم. و الثانية: أن تتهدد من يتعامل بغير دنانيرك. فلما علم ملك الروم أن دنانيره سيبطل التعامل بها إن حوت شتما، كف عما تهدد به. - و فى الاحتكار و رفع الأسعار، يقول فى مسجد الرسول: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «أيما رجل اشترى طعاما فكبسه أربعين صباحا، يريد غلاء المسلمين، ثم باعه فتصدق بثمنه، لم يكن كفارة لما صنع». - و اليمين عند الشيعة لا تنعقد إلا قسما بالله و أسمائه الحسنى و صفاته الدالة عليه صراحة، فمن حلف بغيرها لا يحنث إذا لم يفعل. سئل الباقر (عليه‌السلام) عن قوله تعالى «و الليل إذا يغشى» «و النجم إذا هوى» و ما الى ذلك، فأجاب: إن لله عزوجل أن يقسم بما شاء من خلقه و ليس لخلقه أن يقسموا إلا به. - و سئل: أبالناس حاجة الى الإمام؟

فأجاب: أجل... ليرفع العذاب عن أهل الأرض. و ذكر قوله تعالى: «و ما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم». [صفحه ۱۳۶] تعاقب على الخلافة فى حياة الباقر (عليه‌السلام) أربعة من أبناء عبدالملك و زوج ابنته عمر بن عبدالعزيز - خامس الراشدين فى مدة خلافته - و كان عمر يتردد على الامام الباقر يستنصحه؛ و الباقر يوصيه بالمسلمين أجمعين - فيقول له بين ما يقول: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا. و أوسطهم أخا. و أكبرهم أبا. فارحم ولدك. وصل أخاك. وبر والدك. فإذا صنعت معروفا فربه» أى تعهده. و كان نشر التشيع لأهل‌البيت همه. قال سعد الإسكافى: قلت لأبى‌جعفر الباقر (عليه‌السلام): «انى أجلس فأقص و أذكر حقكم و فضائلكم» قال: «وددت لو أن على كل ثلاثين ذراعا قاصا مثلك». و حج هشام بن عبدالملك فى أيام ملكه (۱۲۵ - ۱۰۵) فرأى الباقر بالمسجد يعلم الناس فى مهابة و جلال، تعاليم الإسلام و آدابه و فرائضه و أحكامه و الناس خشع فى مجلسه. و غلبت هشاما غريزة المعاجزة لأهل‌البيت، فبعث اليه من يسأله: ما طعام الناس و شرابهم يوم المحشر؟ و أجابه الباقر (عليه‌السلام) بآيات الكتاب الكريم... و استطرد فى تعليمه و تعليم من أرسله. و سمعه الحجيج - عامئذ - يقول للناس: «الحمد لله الذى بعث محمدا بالحق نبيا. و أكرمنا به. فنحن صفوة الناس من خلقه و خيرته من عباده و خلفائه. فالسعيد من تبعنا. و الشقى من عادانا». و رجع هشام الى عاصمته... فأرسل فى دعوة الباقر (عليه‌السلام)، و ابنه الصادق (عليه‌السلام)، الى قصبة الملك فى دمشق. يقول الصادق (عليه‌السلام): «فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثا. ثم أدخلنا فى اليوم الرابع». و كأنما أراد هشام أن يظهرهما على أنه إذا لم تكن له مكانة فى جوار البيت العتيق و مسجد الرسول أو كانت الكرامة كلها، فى الحج الأكبر، لأهل‌البيت، فإن له بيتا فى دمشق و حجابا و مواعيد. [صفحه ۱۳۷]

امام المسلمين

اشاره

ان الله أراد منا شيئا و أراد بنا شيئا. فما أراده بنا طواه عنا. و ما أراده منا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا. الامام الصادق (عليه‌السلام) [صفحه ۱۳۹] ولد الامام الصادق (عليه‌السلام) فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ۸۲ على قول، أو غرة رجب. و فى أقوال أخرى انه ولد سنة ۸۰ أو سنة ۸۳. و تتابع بعده أبناء الباقر، و لهذا يكنى الباقر أباجعفر. أما أخوه الشقيق فعبد الله. و أما أولاد الصادق فإسماعيل و عبدالله - و به يكنى أبا عبدالله - و أم‌فروة من زوجته فاطمة بنت الحسين... بن الحسين بن على، و موسى (الكاظم) و اسحق و محمد؛ و أمهم أم‌ولد، تدعى حميدة. و العباس و على و أسماء من أمهات متفرقات. و اسم جعفر فى بيت زين‌العابدين يذكر بأول الشهداء من بيت أبى‌طالب. فعلى هو الثانى فيه. و الحسين هو الثالث. أما الأول فجعفر بن أبى‌طالب قائد جيش مؤتة و شهيدها، الطيار فى الجنة، و ذو الجناحين... كما وصفه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) - و كما روى البخارى و مسلم: قال له رسول الله: «أنت أشبهت خلقى و خلقى». و هو أول زوج لأسماء بنت عميس [۳۶] جدة أم‌فروة أم: جعفر الصادق (عليه‌السلام). و لقد مر بنا كيف ولده رسول الله مرتين، و على مرتين، أبوبكر مرتين، ليدل التاريخ على انه نسيج وحده، و ان كسرى يزدجرد ملك الفرس قد ولده مرتين، ليدل [صفحه ۱۴۰] على ان الإسلام للموالى و العرب. فالباقر - و هو من هو - أكفأ الناس لأم فروة [۳۷] المنحدرة من صلب أبى‌بكر أول الخلفاء الراشدين، و القاسم بن محمد [۳۸] الذى يرشحه للخلافة عمر بن عبدالعزيز - خامس الخلفاء الراشدين. و كأنما سلم الباقر ابنه شعار حياته فى مقولتين صيرتاه ربانيا من كل وجه؛ الأولى: «شيعتنا من أطاع الله». و الثانية «إن الله خبأ رضاه فى طاعته، فلا تحقرن من الطاعات شيئا فلعل رضاه فيه. و خبأ سخطه فى معصيته، فلا تحقرن من معصية شيئا فلعل سخطه فيه. و خبأ أولياءه فى خلقه، فلا تحقرن أحدا فلعله ذلك الولى». تلقى الصادق (عليه‌السلام) من أبيه كل ما وعاه قلبه وقرأ كل ما حوته كتبه، و استمع الى علماء العصر، و انتفع بعلوم جده القاسم بن محمد بن ابى‌بكر (۱۰۶)، و كان مثلا عاليا للأمة و واحدا من الأعمدة السبعة المسمين «علماء المدينة السبعة». [۳۹] يعلن عمر بن عبدالعزيز أنه «لو لا خوف الفتنة من بنى‌أمية لاستخلفه على الأمة» و يوصى عمر

عماله أن يكتبوا السنن من عنده. فهذا رجل له ورع عمر بن عبدالعزيز، و عنده كل علم المدينة، و انه ليستطيع أن يقول – من صلة على الوثقى بأبيه محمد بن أبى‌بكر – إنه أوثق أهل‌بيته صلة برسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، و بأول من تبعه، عليا كان أو أبا [صفحه ۱۴۱] بكر، بل بهما معا. و عندما نذكر ان القاسم بن محمد ظل مصدرا للعلم حتى شارف الصادق ربع القرن من حياته، و أن الصادق شهد حلقات عكرمة مولى ابن‌عباس، (۱۰۴) و عطاء بن أبى رباح، بمكة حيث كان يجلس ابن‌عباس، و أن أوامر الولاة فى الموسم كانت (لا يفتى الناس إلا عطاء)، كما شهد بالمدينة حلقة عبدالله بن أبى‌رافع – مولى أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) – الذى أملى على عليه كتابه الى معاوية، و حلق خاله عبدالرحمن بن القاسم، و عروة بن الزبير (۹۴) الراوية عن خالته عائشة، و محمد بن المنكدر (۱۳۰) شيخ مالك، فليس علينا أن نحاول البحث عما تلقاه جعفر بن محمد الصادق فى صباه. و لقد كان علم أهل‌البيت (عليهم‌السلام) حسبه – فكيف إذا اجتمع اليه علوم هؤلاء، ليملأ بالفقه الشيعى و بالفقه المقارن مدينة الرسول، من يوم مات أبوه و هو بعد فى ثلاثينياته. و الصبى من «أهل‌البيت» لا ينفق صباه فى «عمل لا شى» فذلك هو اللهو، أو فى «عدم عمل شىء»، فهذا هو الفراغ... و على الأجيال المتعاقبة منهم تبعات فى تعاقب الإمامة، لا تدع لهم محيصا عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علم، فوق علمهم، و ما هو إلا القرآن و السنة و السيرة؛ و القرآن كما يقول ابن‌عباس «فى بيتهم نزل»، و السنة من بيتهم صدرت، و السيرة سيرتهم. و اللغة طريق ذلك كله، و هى بعد حصيلته. و إنك لتدرك منزلة جعفر بن محمد (عليهماالسلام) فى البيان العربى من تداوله للتفسير فى اقتدار على تخريج المعانى لا قرين له. و سنراه غدا عمدته النصوص فى الفقه و الدين، يستخرج منها أعمق المعانى بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، شأن أمراء البيان. و من تكن النصوص عمدته الأولى، فالبلاغة عدته الكبرى. و لئن لم يتميز الأطفال أو الصبية فى بيت زين‌العابدين و الباقر بخصوصيات تكبر و تنمو فتبرز إذ هم شيوخ و أئمة، إن بيت زين‌العابدين ذاته كان «خصوصية» فى [صفحه ۱۴۲] مجتمع الاسلام... فيه المثل الأعلى من العلم المحيط و الورع الكامل و التفرغ للخدمة العامة، و تعلق القلوب به، و اتجاه الأبصار تلقاءه. على هذا درج بيت زين‌العابدين (عليه‌السلام)، مع الاستمرار و الاستقرار، فلم يعكر الصفو فيه غير مصرع زيد فى سنة ۱۲۱، بعد إذ خذله أهل الكوفة فى ثورته، فمصرع ابنه يحيى. و حمل الصادق الأمانة فى ذوى رحمه – منذ صار إماما برحيل الباقر سنة ۱۱۴ – فكان يحنو على الأحياء من أبناء عمه زيد، و يأسو جراحات من سقط آباؤهم فى الحرب من رجال زيد، فبعث ألف دينار فرقت فى ورثتهم. و ليس أحد بحاجة فى ترجمة أئمة أهل‌البيت ليسترسل فى وصف خصال من يرث أخلاق الأنبياء و يعلمها. فلنستحضر – و نحن فى بيت النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) – ما كان يصنعه النبى، و لنتيقن أن الامام الصادق كان يحاول أن يصنع نظيره. و لنستحضر فعال على و زهراء النبى، و الحسن و الحسين، و زين‌العابدين، و الباقر (عليهم‌السلام)؛ فهى أصول يتلقاها الخلف عن السلف، ليعملوا بها، ثم يعلموا بها. و ربما أجزأ فى هذا المقام ذكر أمثال عادية من الحوادث اليومية تصور صميم «الشخصية»... و فيما نذكره دلائل على كثير لم نذكره. فحياة الامام مدرسة و تطبيقاتها، و العمر أيام تتكرر. و الحياة جماع أعمال يدل بعضها على البعض الآخر؛ و منها الجزئى الذى يستنبط منه الكلى. و كثيرا ما كان العمل الواحد (رد فعل) عفوى أو فورى، صادرا عن عدة قواعد يجرى عليها العقل أو الشعور أن السليقة أو الطريقة – فردود الأفعال شهادات عيان بدخائل الإنسان. ۱ – مات بين يدى الامام ولد صغير، فبكى، و قال «سبحانك ربى لئن أخذت لقد أبقيت. و لئن ابتليت لقد عافيت». و حمله الى النساء، و عزم عليهم ألا يصرخن، و قال «سبحان من يقبض أولادنا و لا [صفحه ۱۴۳] نزداد له إلا حبا. إنا قوم نسأل الله ما نحب فيعطينا. فإذا نزل ما نكره فيمن نحب رضينا». فأى قلب، فى اطمئنانه و اتزانه، كمثل ذلك الذى يفيض بالشكر، حيث يغيض الصبر عند الغير! ۲ – و نهى أهل‌بيته عن الصعود – فدخل يوما فإذا جارية من جواريه تربى بعض ولده، قد صعدت السلم، و الصبى معها. فلما نظرت الإمام ارتعدت لعصيانها و سقط الصبى من يدها، فمات. فخرج الصادق (عليه‌السلام) متغير اللون. فسئل عن ذلك فقال: «ما تغير لونى لموت الصبى، و إنما تغير لونى لما أدخلت على الجارية من الرعب». ثم قال لها بعد ذلك: «أنت حرة لوجه الله. لا بأس عليك». فهذا أمر واحد عادى، تبعته وقائع ثلاثة غير عادية، أعقبها من الإمام تصرفات لا تصدر إلا عن الإمام؛ فى كل واحدة منها أنواع فضائل... تبدأ باحترام إنسانية الانسان، و

تنتهى بعطاء دونه كل عطاء، يختمه بالكلمة الطيبة – لا بأس – و يبدؤه بأعلى القيم الإنسانية، إذ يمنحها حريتها. ۳ – و ذهب مرة يعزى أحد المصابين بفقد ولد، و انقطع فى الطريق شسع نعله، فتناوله من رجله و مشى حافيا، فخلع ابن‌يعفور شسع نعله و قدمه له. فأعرض عنه كهيئة المغضب و قال: لاـ فصاحب المصيبة أولى بالصبر عليها... فالإمام (عليه‌السلام) لا يلقى متاعبه على من دونه، بل يتحمل الأذى ليتعلم الناس وجوب العمل، و لزوم التحمل، و ليعلم الكبراء أنهم كبراء بما يضربونه من المثل العليا، و ليدرك الجميع أن الصبر على المصيبة شطر الإيمان. و أحق الناس به من أتيحت الفرصة له. ۴ – و ذات يوم دعا للطعام عابر سبيل لم يقرئه السلام، فراجعه حضاره متسائلين بين يديه: أليست السنة أن يسلم الرجل أولا، ثم يدعى للطعام؟ فأجاب الإمام (عليه‌السلام): «هذا فقه عراقى فيه بخل». [صفحه ۱۴۴] ففقه الامام «علوى» يبدأ بالعطاء... و عملى فيه مبادرة... و اجتماعى يسعى به المعطى الى الآخذ... و إسلامى، إنسانى، كله كرامة. لقد ولد فى دار شعارها البدار بالعطاء مع الإخفاء... حتى الصدقة يقول فيها الباقر (عليه‌السلام): «أعط و لا تسم. و لا تذل المؤمن». و فى ذلك السنة... و سنرى تطبيقات شتى من الإمام لهذا الفقه من المنهج الاقتصادى... ۵ – و صحا رجل من الحاج فلم يجد هميانه (الكمر الذى يلفه المحرم حول بطنه و فيه نفقته من النقود) فخرج فوجد الامام الصادق (عليه‌السلام) يصلى فتعلق به و هو يقول: أنت أخذت هميانى... قال الصادق (عليه‌السلام) كم كان فيه؟ قال: ألف دينار. فأعطاه ألف دينار. و مضى الرجل فوجد هميانه فعاد يعتذر و يرد الألف دينار. فأبى الصادق أن يأخذها و قال: شيء خرج من يدى فلا يعود. قال الرجل لمن حوله : من هذا؟ قالوا: جعفر الصادق. قال: لا جرم هذا فعال مثله. فإمام المسلمين لا ينعزل عنهم، فلا ينماز منهم، حتى ليخطئ الجاهلون منهم فى شخصه. فيعرض عن الجاهلين. و يخف ليخفف كرب المكروب، لا يحزنه و همه أو اتهامه، و انما تحزنه همومه، فيشركه فيها بالصنيع النابه مرة إثر أخرى. و الناس أسمع للصوت الذى لا صرير له، و أبصر بالإخلاص الذى لا يتصايح صاحبه به. و الأفضال أفعال تدرك آثارها الحواس الخمس. و لا نستطرد فى السرد، ففى كل واقعة سلفت «عدسة» صغيرة تريك العالم الكبير [صفحه ۱۴۵] الذى وراءها، من مناقب كالنجوم و ان كان أصحابها من البشر. هذه سماء تسعى على الأرض. و هؤلاء بقية النبى عليه الصلاة و السلام، يعيشون فى الدنيا!

مجالس العلم

شهد الامام الصادق (عليه‌السلام) انحدار الناس بعد عصر الخلفاء الراشدين، و رأى بعين الصبى المأمول من أهل‌بيت الرسول ما صنعه عمر بن عبدالعزيز فى خلافته بين سنتى ۹۸، ۱۰۱ إذ أعاد الدين غضا فى نحو من ثلاثين شهرا، و أثبت للدنيا، أن (المدة) كما سمى الناس خلافته، كانت كافية لتعيد الناس الى الاسلام الصحيح عندما يوجد خليفة صادق العزم، يتخذ الخلافة – كما قال – سبيلا الى الجنة. و كان بعض الصالحين يستعجلون عمر ليصنع كل ما صنع فى أول يوم ولى الخلافة. قال له ابنه عبدالملك، «يا أبت ما بالك لا تنفذ الأمور، فوالله لا أبالى فى الحق لو غلت بى القدور»، لكن عمر كان يتأتى للأمور فى رفق و اناة و إصرار. قال: «لا تعجل يا بنى ان الله تعالى ذم الخمر مرتين، و حرمها فى الثالثة. و إنى أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه جملة، فتكون فتنة». و بهذا قدر على أن يرد المظالم و أغنى الله الناس على يديه. فأصبح عمر لا يجد فقراء يوزع المال عليهم فى المدينة أو فى القرية. لكن الامام «الصادق» (عليه‌السلام) تعلم من حياة الخليفة الصادق العزم: أن إصلاحاته لم تؤت ثمارها بعد مماته، إذ دمرها الخلفاء الذين جاءوا من بعده، و تابع الباقون يدمرون. و شهد الامام الصادق ظهور بنى‌العباس و كيف ناقضوا شعارات دولتهم و حكموا حكم الجاهلية. هكذا رأى رأى العيان ان صلاح الأمر لا يكون بتولى السلطة، أو بمجرد إصلاحها [صفحه ۱۴۶] مدة قصيرة أو طويلة. و كل عمر قصير، و انما الصلاح فى إصلاح الأمة... فكيفما تكونوا يولى عليكم... و لكل امة الحكومة التى تستحقها... و استيقنت نفسه الصواب فيما صنعه أبوه وجده، و هو أن يعلموا الأمة، فإذا تعلمت صلحت فلم يستضعفها حكامها... و هى عندئذ تأمرهم بالمعروف و تنهاهم عن المنكر و تشركهم تبعاتهم. فالأمة القوية لا تظلم حكامها و لا يظلمونها. و بشعار الثقة بالله سبحانه «الله وليى و عصمتى من خلقه» و

بنقش الخاتم الذی یعلن مصدر قوته: (ما شاء الله. لا قوهٔ إلا بالله. استغفر الله) قصد الی مجلس العلم، فی مسجد النبی أو فی داره، یستعمل البعد المکانی، حیث یجلس للتعلیم فی مدینهٔ الرسول، و البعد الزمانی؛ فهو تابعی یعیش فی جیل التابعین و تابعی التابعین، و البعد الثالث و هو ارتفاع نسبه الی النبی و علی. أما البعد الرابع فعمق علمه و علم أبیه وجده (علیهم‌السلام). فی هذا المجلس المهیب بالمدینهٔ أو بالکوفهٔ، یجلس رجل ربعهٔ... لیس بالطویل و لا بالقصیر... أزهر له لمعان کالسراج... یسعی نوره بین یدیه... رقیق البشرهٔ، أسود الشعر جعده، أشم الأنف، أنزع قد انحسر الشعر عن جبینه فبدا مزهرا، له إشراق، و علی خده خال أسود – المسلمون أیامئذ أحوج الیه لیعلمهم، منهم الیه لیحکمهم... کل ما یحیط به یوحی بالرجاء فی فضل الله. فلما طعن فی السن ازداد جلالا وسناء و إحیاء للأمل. یلبس الملابس التی عناها جده علیه الصلاهٔ و السلام حینما قال: «کلوا و اشربوا و البسوا فی غیر سرف و لا مخیلهٔ». رآه سفیان الثوری و علیه جبهٔ خز دکناء فقال: یابن رسول الله ما هذا لباسک! فقال: «یا ثوری! لبسنا هذا لله، ثم کشف عن جبهٔ صوف یلبسها، و قال: و لبسنا هذا لکم». کان جده علی (علیه‌السلام) یختار الخشن من الثیاب... و یلح الجوع علیه فیعلل معدته [صفحه ۱۴۷] بقرص شعیر. یخیط نعله إن لم یکن مشغولا، أو یترکه لمن یخیطه بأجر اذا انشغل. لکن الزمان یتغیر فیغیر الصادق (علیه‌السلام) لیظهر أثر النعمهٔ. و یقول للناس: «إذ أنعم الله علی عبده بنعمهٔ أحب أن یراها علیه لأن الله جمیل یحب الجمال». و یقول: «إن الله یحب الجمال و التجمل. و یکره البؤس و التباؤس...». و النظافهٔ من الایمان. فیها الکرامهٔ و السلامهٔ للنفس و للأسرهٔ و للمدینهٔ. فعلی المرء کما یقول الإمام: «أن ینظف ثوبه و یطیب ریحه و یجصص داره و یکنس أفنیته». و ذات یوم رآه «عباد بن کثیر البصری» فی الطواف فقال له: تلبس هذه الثیاب فی هذا الموضع و أنت فی المکان الذی أنت فیه من علی؟ فأجاب – کما یروی الامام نفسه – «فقلت: فرقبی – نسبهٔ الی (فرقب) حیث تصنع ثیاب کتان أبیض – اشتریته بدینار. و قد کان علی فی زمن یستقیم له ما لبس فیه. ولو لبس مثل ذلک اللباس فی زماننا لقال الناس: هذا مرائی مثل (عباد)...». قیل له یوما: کان أبوک و کان... فما لهذه الثیاب المرویهٔ (نسبهٔ الی مرو) فأجاب: ویلک فمن «حرم زینهٔ الله التی أخرج لعباده و الطیبات من الرزق»؟ و إنک لتری آثار النعمهٔ علی مالک و أبی‌حنیفهٔ، و إجابات مشتقهٔ بدقهٔ من هذه الإجابات، فی ردود الرجلین بشأن ملابسهما و أنعم الله علیهما – و کان کلاهما لباسا – فالمذموم من الثیاب ما فیه خیلاء، و المحمود ما کان إظهارا لنعمهٔ الله علی عبده. حتی تلمیذه الثالث سفیان الثوری – و هو إمام الزهد و الورع و الحدیث و الفقه – قد انتفع بدروس الإمام (علیه‌السلام) فی الملبس فأمسی یقول: الزهد فی الدنیا هو بقصر الأمل... لیس بأکل الخشن و لا بلبس الغلیظ. أزهد فی الدنیا ثم نم. لا لک و لا علیک. إن الرجل لیکون عنده المال و هو زاهد فی الدنیا. و ان الرجل لیکون فقیرا و هو راغب فیها. و کان الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) یلبس ما تیسر من الصوف تارهٔ و من القطن تارهٔ و من الکتان تارهٔ. و کانت مخدته من أدم حشوها لیف نخل. و لما قال له رجل یا رسول الله انا [صفحه ۱۴۸] أحب ان یکون ثوبی حسنا و نعلی حسنهٔ، أفمن الکبر ذاک؟ قال: «لا. ان الله جمیل یحب الجمال. الکبر بطر الحق و غمط الناس». و لم یعب الصحابهٔ بعضهم علی بعض الملابس من أعلی و أدنی. لا یعیب صاحب الخز علی صاحب الصوف و لا صاحب الصوف یعیب علی صاحب الخز. فی هذا المجلس تتلمذ للامام جعفر (علیه‌السلام) و روی عنه – کما یقول أرباب الإحصاءات – أربعهٔ آلاف من الرواهٔ و کتب عنه أربعمائهٔ کاتب؛ کلهم یقول: قال جعفر بن محمد. فأی مجلس کان ذلک المجلس! تتراءی فیه أشیاء من رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم)، بعضها مادی یجری فی أصلاب رجل بعد رجل، و بعضه معنوی یتراءی فی معانیه و فحوی مقولاته، لکل هؤلاء. لیس بالمجلس لجاجهٔ و لا حجاج عقیم. یقول للتلامذهٔ: «من عرف شیئا قل کلامه فیه. و إنما سمی البلیغ بلیغا لأنه یبلغ حاجته بأدنی سعیه». إذا سأل سائل عن خلافات الصحابهٔ أجاب: «علمها عند ربی فی کتاب لا یضل ربی و لا ینسی». یهتدی بهدیه الکبراء فی الامتناع عن الجواب فی خلاف الصحابهٔ. یقول أحمد بن حنبل إذ یسأل عما کان بین الصحابهٔ: کان بینهم شیء الله أعلم به. و مع ذلک یعجب و یتساءل عن طلحهٔ و الزبیر: أکانا یریدان أعدل من علی؟ و لا یضیع الحق فی المجلس: سمع أن أحد الولاهٔ نال من أمیرالمؤمنین علی (علیه‌السلام)...! فوقف الصادق فقال: «ألا أنبئکم بأعلی الناس میزانا یوم القیامهٔ و أبینهم خسرانا؟ من باع آخرته لغیره. و هذا هو الفاسق». و عرف

الناس الفاسق الذى باع آخرته لمن يشتهون أن يقدح لهم فى على بن أبىطالب (عليه‌السلام). و المقياس عند صاحب المجلس هو الإخلاص لله و الرسول. يقول و يروى عن [صفحه ۱۴۹] آبائه عن أميرالمؤمنين على: قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «لا قول إلا بعمل و لا قول و لا عمل إلا بنية. و لا قول و لا عمل و لا نية إلا بإصابة السنة». و القاعدة هى المساواة بين الناس، مساواة فطرية – مهما اختلفت العقائد و الأجناس – يقول: «الناس فى آدم مستوون». حتى عبدة النار يقول فيهم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب». و للنساء و البنات عنده المكانة العالية... قياما بوصية جده بالنساء فى آخر خطبه عليه الصلاة و السلام – روى الجارود بن المنذر: قال لى أبوعبدالله الصادق (عليه‌السلام): «بلغنى أن لك ابنة فتسخطها. ما عليك منها؟ ريحانة تشمها. قد كفيت رزقها. و قد كان رسول الله أبا بنات». و أى مثل فى الاسلام كمثل رسول الله. و أى نعمة أن يكون للمرء ريحانه أو رياحين! و أى فضل كفضل البنات يكفى رزقهن الله! يقول الصادق (عليه‌السلام): «إن إبراهيم سأل ربه ابنة تبكيه و تندبه بعد موته». لينبه على بقاء الوفاء فى أفئدة البنات بعد الممات. و من الدروس الأولية فى هذا المجلس تعليم الناس أن يسعوا لعمارة الدنيا بالعمل للرزق، و مجانبة الخلائق الفاقرة بالتواكل، أو البطالة. و بهذا المبدأ أصبح المجتمع الشيعى مجتمع العاملين، و بلغ حظه – حيثما كان – من النماء، و الاستغناء، و الانتفاع بما منحه الله للبشر من مواهب، و أتاح لهم من وسائل. جاء مجلس الامام (عليه‌السلام) يوما جماعة من الزهاد يريدون منه إظهار التقشف و الزهد الكامل. فقال لهم: (حدثنى أبى أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «ابدأ بمن تعول. الأدنى فالأدنى». هذا ما نطق به الكتاب ردا لقولكم... قال العزيز الحكيم «و الذين اذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا و كان بين ذلك قواما». أفلا ترون أن الله تعالى قال غير ما أراكم تدعوننى اليه؟... [صفحه ۱۵۰] فنهاهم عن الإسراف و نهاهم عن التقتير. فلا يعطى جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له؛ للحديث الذى جاء عن النبى: (ان اصنافا من أمتى لا يستجاب دعاؤهم: رجل يدعو على والديه. و رجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه و لم يشهد عليه. و رجل يدعو على زوجته و قد جعل الله تخلية سبيلها بيده. و رجل يقعد فى بيته و يقول رب ارزقنى، و لا يطلب الرزق، فيقول الله عزوجل: يا عبدى ألم أجعل لك السبيل الى الطلب... ألم أرزقك رزقا واسعا؟ فهلا اقتصدت كما أمرتك و لم تسرف فيه و قد نهيتك عن الإسراف. و رجل يدعونى فى قطيعة رحم...) ثم علم الله عزوجل كيف ينفق فقال: «و لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك و لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا». فهذه أحاديث رسول الله يصدقها الكتاب؛ و الكتاب يصدقه أهله من المؤمنين... و فيهم سلمان الفارسى و أبوذر رضى الله عنهما: فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته حتى يحضر عطاؤه من قابل. فقيل له: يا أبا عبدالله أنت فى زهدك تصنع هذا و أنت لا تدرى لعلك تموت اليوم أو غدا؟ فكان جوابه انه قال: ترجون لى البقاء و قد خفتم على الفناء. أما علمتم أن النفس قد تلتاث على صاحبها ما لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا أحرزت معيشتها اطمأنت. و أما أبوذر فكانت له نويقات و شويهات يحلبها، و يذبح منها اذا اشتهى اللحم، أو نزل به الضيف... و من أزهد من هؤلاء و قد قال فيهما رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ما قال... و لم يبلغا من الزهد أن صارا لا يملكان شيئا البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم و شيئهم... و يؤثرون على أنفسهم و عيالهم...). فالإمام (عليه‌السلام) يريد مجتمعا عاملا، متواصلا، فيه قصد وجد، فبهذا يعين الله من يعين نفسه من عباده. [صفحه ۱۵۱]

التلاميذ الأئمة

كان سفيان الثورى إمام العصر فى الورع و السنن و الفقه، للعراق كافة. و كانت له فى مجابهة الخليفة مواقف لا يمل الحديث فيها. و كان لكثير من رواد المجلس كسفيان مكانة فى المسلمين؛ منهم عمرو بن عبيد الذى نشأت على يديه فرقة المعتزلة، و أبوحنيفة، و محمد بن عبدالرحمن بن أبىليلى (ترب أبىحنيفة)، و إمام المدينة مالك بن أنس. و أبوحنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنة. و مالك أكبر من تلقى عليه الشافعى علما، و أطولهم فى تعليمه زمانا. و الشافعى شيخ أحمد بن حنبل. و كمثلهم كان المحدثون العظماء : يحيى بن سعيد محدث المدينة و ابن‌جريح و ابن‌عيينة محدثا مكة. و ابن‌عيينة و هو المعلم الأول للشافعى فى الحديث. فلندع للأئمة

وصف مكـانهم من الامـام - و فيه وصف مجـالس علمه. يقول مالـك بن أنس: «كنت أرى جعفر بن محمـد، و كـان كـثير الدعابـة و التبسم. فإذا ذكر عنـده النبي اخضـر و اصـفر. و لقـد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال؛ إما مصليا و إما قائما و إما يقرأ القرآن. و مـا رأيته يحـدث عن رسول الله إلاـ على الطهـارة. و لاـ يتكلم فيمـا لاـ يعنيه. و كـان من العلماء و العباد و الزهاد الـذين يخشون الله. و مـا رأيته قـط إلاـ و يخرج و سادة من تحته و يجعلها تحتى». و فى مقولـة أخرى يضـيف مالك: «و كان كثير الحـديث، طيب المجالسـة، كثير الفوائـد، إذا قال (قال رسول الله) اخضـر مرة و اصـفر أخرى حتى ينكره من يعرفه. و لقـد حججت معه سـنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام، كلما هم بالتلبية انقطع الصوت فى حلقه، و كاد أن يخر عن راحلته. فقلت: يابن رسول الله! أو لابد لك أن تقول! قال: كيف أجرؤ أن أقول لبيك و أخشـى أن يقول الله عزوجل: لا لبيك و لا سـعديک»... و إنا لنـذكر ما كان يصـنعه جده زين‌العابدين فى هذا المقام. [صـفحه ۱۵۲] و أصبح مالـك إذا ذكر النبى اصـفر لونه. فـإذا تساءل جلساؤه قال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ما ترون. و يذكر لهم حال ابن‌المنكدر [۴۰] ثم يعقب حال جعفر. إنما كان مالك يجد ريح الرسول فى مجلس ابن‌بنته... و يحس، أو يكاد يلمس، شيئا ماديا، يتسلسل من الجد لحفيده، و أشياء غير مادية تملك اللب و القلب: فالرؤية متعة و السماع نعمة... و الجوار - مجرد الجوار - تأديب و تربيب... و فى كل أولئك طرائق قاصـدة الى الجنـة. و صاحب المجلس طهر كله. لا يتحـدث عن جـده إلا على الطهارة. يقول: «الوضوء شـطر الإيمان». و من أجل ذلك لم يعـد الوضوء عنـده أو فى مـذهبه، مجرد وسيلة لغيره - أى للصـلاة - بل أمسى مستحبا لذاته كالصلاة المستحبة... يتهيأ به المتوضئ لدخول المساجد، و قراءة القرآن، بل الزوجان ليلة زفافهما، و المسافر الى أهله... و القاضـى ليجلس للقضاء، و الإمام الـذى يفتى أو يعلم. و ما هو بـدع أن يشـغف به مالك - و هو الأموى بهواه - فإنمـا هو حب الرسول و أهـل بيته. فحبهم ايمـان. و مـا كـان تعبير مالـك إلا حبا، و هو - بعـد - التلميـذ النجيب لفقهاء بنى تيم (قبيلة أبى‌بكر) سواء كانوا من مواليهم - كربيعة الرأى - أو من أنفسـهم كمحمد بن المنكدر، أو أمهم منهم، كالإمام جعفر (عليه‌السـلام). و أبوبكر الصـديق يقف فى قمة التاريخ العلمى لمصادر مالك باتباعه و اجتهاده و أبنائه و بنى تيم. تعلم مالك الكثير من السـلوک على الامام جعفر الصادق (عليه‌السـلام) فكان إذا حـدث لا يحدث إلا على الطهارة. و يحمى مجلسه ممن يخرجونه عن قصده. كما يكرم [صفحه ۱۵۳] تلامذته. بل صار إماما لليسر الذى تتمثل فيه خصائص المدينة. و أمسى عنوانا على العلم: فإذا خاصم السلطة خاصمها من أجل النزاهة العلمية فحسب. و فى منهجه الاحتفال الكامل بالواقع. و فى طريقته العمل للرزق، حتى لا يحتاج لأحد؛ مما يعبر عن اقتداء كامـل بالإمـام الصـادق (عليه‌السـلام). و كهيئـة الإمـام الصادق، لم يجار فقهاء العراق فى قولهم أرأيت أرأيت. أى افتراض الفروض و استباق الحوادث و إبـداء الرأى فيما لم يحـدث حتى سـماهم خصومهم (الأرأيتيين). و من رضا الامام (عليه‌السـلام) عن التلميـذ كان «الصادق» يشـير بإتيان حلقـة مالك. روى عنوان البصـرى أنه كان يختلف الى الامام جعفر يتعلم عليه فغاب الإمام عن المدينة فاختلف الى مالك سنتين ثم عاد الصادق فعاد عنوان الى مجلسه. فنصحه أن يجلس الى مالك. و لقد يدخل الامام المسجد - فيقدم اليه تلميذ من تلاميـذه ابن أبى‌ليلى (۱۴۸) قاضـى الكوفـة. فيقول الامـام: أنت ابن أبى‌ليلى القاضـى؟ و يجيب: نعم. فينبهه الامام على جلال خطر القضاء بقوله: «... تأخذ مال هذا و تعطيه هذا. و تفرق بين المرء و زوجه لا تخاف فى ذلك أحدا... فما تقول إذا جىء بأرض من فضة و سـماء من فضة ثم أخذ رسول الله بيدک فأوقفك بين يدى ربك فقال: يا ربى هذا قضـى بغير ما قضيت!» و اصفر وجه ابن أبى‌ليلى مثل الزعفران. لكنه خرج من المسـجد مزودا بزاد من خشـية الله زوده به ابن‌رسول الله. و لما سـئل مرة: أكنت تاركا قولا أو قضاء لرأى أحد؟ أجاب: لا، إلا لرجل واحد؛ هو جعفر بن محمد الصادق. و ابن أبى‌ليلى قاضـى بنى‌أمية و بنى‌العباس. و هم أعداء الامام. فى هذا المجلس بالمدينـة، أو بالكوفة فى إحدى سـفرات الامام جعفر (عليه‌السـلام) الى [صـفحه ۱۵۴] العراق، دخل أئمـة الكوفة مجتمعين: أبوحنيفـة و ابن أبى‌ليلى و ابن‌شبرمـة (۱۴۴) على الامـام جعفر. فجعـل الصـادق ينبه أباحنيفـة مكتشف أداة «القياس»، على خطرها فى حضور العالمين الآخرين. و فى مواجهـة هذين يقول الامام الصادق (عليه‌السـلام) لأبى‌حنيفة: «اتق الله و لا تقس الدين برأيک». و لقد يكون أبوحنيفـة فى حلقته بالكوفـة أو فى المدينـة فيقف عليهـا الإمـام الصـادق، و لاـ تقع عليه عين أبى‌حنيفـة، فـإذا لمحته عينـاه هب

أبوحنيفة واقفا و هو في مجلس الدرس، فقال: «يابن رسول الله – لو شعرت بك أول ما وقفت ما رآني الله أقعد و أنت قائم» ليشهد الله على دخيلة نفسه أنها لا تقبل الجلوس و الامام قائم و أبوحنيفة (۱۵۰ – ۸۰) أكبر عمرا من الامام الصادق (عليه‌السلام). لكن الصادق يشد أزره بعبارات مشجعة، فيقول له: «اجلس يا أباحنيفة فعلى هذا أدركت آبائي» يريد بذلك إعظام مجالس العلم، و وقوف الجميع و جلوس الاستاذ. انقطع أبوحنيفة الى مجالس الامام طوال عامين قضاهما بالمدينة، و فيهما يقول: «لو لا العامان لهلك النعمان» – و كان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله «جعلت فداك يابن بنت رسول الله». و لقد يتحدى الامام الصادق (عليه‌السلام) في مجلسه أباحنيفة ليختبر رأي صاحب الرأي فيسأل: ما تقول في محرم كسر رباعية الظبي. و يجيب أبوحنيفة: يابن رسول الله لا أعلم ما فيه. فيقول له الامام الصادق (عليه‌السلام): أنت تتداهي. أولا تعلم أن الظبي لا تكون له رباعية! فإذا جاء ابن‌شبرمة وحده يسأل عما لم يقع – كدأب تلاميذ أبي‌حنيفة و مدرسة الكوفة – لم يتردد الامام في دفعه، بالحسنى: ذهب اليه ذات يوم يسأله عن القسامة في الدم فأجابه بما صنع النبي. فقال ابن‌شبرمة: أرأيت لو أن النبي لم يصنع هذا، كيف كان القول فيه؟ فأجابه: أما ما صنع النبي فقد أخبرتك به. و أما مالم يصنع فلا علم لي به. [صفحه ۱۵۵] و الصادق (عليه‌السلام) عليم بالاختلاف بين آراء الفقهاء، أي بعلم المدينة و علم الشام و علم الكوفة، و هو يروي عشرات الآلاف من الأحاديث، في حين كانت قلة ما سلمه أهل العراق من الحديث آفة علمائه. حتى صوبهم الشافعي في نهاية القرن، بالقوة التي لا نزاع فيها لخبر الواحد، و بوضع قواعد القياس. و الحسن بن زياد اللؤلؤي يعلن رأي صاحبه في إحاطة الامام الصادق فيقول: «سمعت أباحنيفة و قد سئل عن أفقه الناس ممن رأيت فقال: جعفر ابن‌محمد». و لما استفتى أبوحنيفة في رجل أوصى «للإمام»، بإطلاق الوصف، قال انها لجعفر بن محمد. فهذا إعلان لتفرده بالإمامة في عصره. و لم تكن السنتان اللتان حيي بسببهما النعمان بن ثابت (أبوحنيفة) و لم يهلك، إلا تكملة لسنين سابقة كان يتدارس فيها فقه الشيعة. و من ذلك كان يشد أزر زيد بن علي في ثورته على هشام بن عبدالملك. و قيل مال الى محمد و ابراهيم (ولدي عبدالله بن الحسن) في خروجهما على المنصور. و ان قد جاءته امرأة تقول: ان ابني يريد الخروج مع هذا الرجل – في إبان خروج إبراهيم – و أنا أمنعه. فقال لها: لا تمنعيه. و يروي أبوالفرج الأصفهاني عن أبي‌اسحق الفزاري: جئت الى أبي‌حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله؟ أفتيت أخي بالخروج مع ابراهيم حتى قتل!! فقال: «قتل أخيك حيث قتل، يعدل قتله لو قتل يوم بدر. و شهادته مع ابراهيم خير له من الحياة». و لئن كان مجدا لمالك ان يكون أكبر أشياخ الشافعي، أو مجدا للشافعي أن يكون أكبر أساتذة ابن‌حنبل، أو مجدا للتلميذين أن يتلمذا لشيخيهما هذين، إن التلمذة للامام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنة. أما الامام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة و لا النقصان؛ فالإمام (عليه‌السلام) مبلغ للناس، كافة، علم جده عليه الصلاة و السلام... و الإمامة مرتبته... و تلمذة أئمة السنة له تشوف منهم لمقاربة صاحب المرتبة. لقد يجيء للمناظرة عمرو بن عبيد (۱۴۴) زعيم المعتزلة، الذي لم يضحك أبوحنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرة في إبان مناظرته: يافتي [صفحه ۱۵۶] تتكلم عن مسألة من مسائل العلم و تضحك؟، و الذي يبلغ من وقاره أن يراه الرائي فيحسبه أقبل من دفن والديه. فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام: «هلك من سلبكم تراثكم و نازعكم في الفضل و العلم». و يجيء إمام خراسان عبدالله بن المبارك، و هو إمام فقه، و بطل معارك... تتلمذ للإمام زمانا، و لأبي‌حنيفة، فتعلم ما جعله يخفي بطولاته في الفتوح «لأن من صنعها لأجله – سبحانه – مطلع عليها». [۴۱] و في الإمام جعفر شعره الذي ورد فيه: أنت يا جعفر فوق ال مدح و المدح عناء إنما الأشراف أرض و لهم أنت سماء جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء فإذا كان الصادق (عليه‌السلام) في مواجهة مع المنصور، حيث القادة و العلماء يجلسون على مبعدة منه، فإن مجلس الإمام عن يمينه... حتى ولو دعاه يخوفه. فلقد طالما انتهت اللقاءات بالموعظة يلقيها الامام من حديث رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)، و لحديث رسول الله شرف المجلس، و لابن رسول الله شرف من رسول الله. ولو جلس الصادق على مبعدة أو مقربة من الخليفة، لكان الشرف حيث يجلس. و ربما قربه الخليفة ليلتمس لنفسه القربى الى الناس في الدنيا، و يوم لا تملك نفس [صفحه ۱۵۷] لنفس شيئا، و عندما تلتمس الشفاعة. و أبوجعفر المنصور يقر بمكانه من العلم و التقوى مع ضيق صدره بمكانته في الأمة. يقول: «هذا الشجي المعترض في حلقي أعلم أهل زمانه. و إنه ممن يريد

الآخرة لا الدنيا». و من نص الإقرار ما يدل على ان مجلس الصادق للعلم، لم يكن ليسلم من مراقبة أعوان السلطان، و صاحب المجلس شجى معترض فى حلقه. و هو قد ينبئ عن أن الفرصة متاحة للإمام ليلقى دروسه، مع الحيطة الواجبة، حتى لا يغص الخليفة بريقه مما ينقل اليه، و ان كان المؤكد ان مجرد وجود الإمام كان فيه الشجى المعترض.

كل العلوم

و المجلس مورد عذب كثير الزحام - لكل فيه ما يغنيه - فالإمام (عليه‌السلام) فى مجلسه الرفيع يروى السنة عن آبائه. و ما يقوله يجرى عند الشيعة مجرى الأصول. فإذا أبدى الرأى فى واقعة معينة جعله الشيعة مجعل السنة و التزموها باعتبارها نصا عنه. أما أهل السنة فيأخذونه مأخذ اجتهاد الأئمة. و اللسان العربى علم العلوم. و امام المسلمين إمام فى البلاغة العربية، عبر عن اسلوبه أبوعمرو بن العلاء حين قال عن أساليب العربية: «العرب تطيل ليسمع منها و توجز ليحفظ عنها». و عند الصادق (عليه‌السلام) لكل مقام مقال... يسهب و يستطرد كما ستقرأ بعد، أو يوجز ليحفظ عنه و يتذوق منه، بحروف لها جرس فى الأذن و نغم فى الفم؛ كأن يقول: «لا تصل فيما خف، أو شف». و كلاهما كاشف. و يجرى على لسانه الشعر الرفيع مثل الذى يرويه عنه سفيان الثورى: لا اليسر يطرؤنا يوما فيبطرنا و لا لأزمة دهر نظهر الجزعا إن سرنا الدهر لم نبهج لصحبته أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا مثل النجوم على مضمار أولنا إذا تغيب نجم، آخر طلعا [صفحه ۱۵۸] أو مثل قوله جوابا لسفيان إذ يسأل: يابن رسول الله لم اعتزلت الناس؟ قال: «يا سفيان قد فسد الزمان و تغير الإخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد»، و أنشد: ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب و الناس بين محاتل و موارب يفشون بينهم المودة و الصفا و قلوبهم محشوة بعقارب و مثل قوله: فلا تجزع و إن أعسرت يوما فقد أيسرت فى زمن طويل و لا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل و لا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل و مثل قوله: لا تجز عن من المداد فإنه عطر الرجال و حلية الآداب فإذا جاءه المناظرون من كل فج عميق، أو التلاميذ الفقهاء، يمثلون أقطار الإسلام، و يجادلون فى الأصول أو الفروع، فهو البحر لا تنزفه الدلاء، يروى العقول و يشفى الصدور. فالديصانى، زعيم فرقة ملحدة، و صاحب الإ هليلجة طبيب هندى، و عبدالكريم بن أبى‌العوجاء [۴۲] عربى ملحد، و عبدالملك مصرى يتزندق، و عمر بن عبيد شيخ المعتزلة، و أبوحنيفة إمام الكوفة، و ملك إمام المدينة، و سفيان الثورى، و غيرهم... كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب، و لا يضيق صدرا بجدالهم ؛ بل يضرب الأمثال، بمسلكه معهم و اتساع صدره لهم، على الحرية الفكرية التى يتيحها [صفحه ۱۵۹] الامام (عليه‌السلام) للناس فى مجلسه ، ليفهموا العلم، أو ليؤمنوا عن فهم، دون إكراه أو إعنات، و على سعة الخلاف الفقهى لكل اتجاهات المسلمين، و على اليسر و الرحمة فى الشريعة... فكل هذه أسباب لنشر الإسلام و خلود فقهه. يقول ابن‌المقفع - و هو متهم بالمجوسية أو بالزيغ على الأقل - إذ يومئ الى «الصادق» (عليه‌السلام) فى موضع الطواف: «هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس». و يذهب ابن أبى‌العوجاء ليناظره فتعتريه سكتة، فيسأله الامام (عليه‌السلام): ما يمنعك من الكلام؟ فيقول: «إجلالا لك، و مهابة منك. و ما ينطق لسانى بين يديك. فإنى شاهدت العلماء و ناظرت المتكلمين فما تداخلنى من هيبة أحد منهم ما تداخلنى من هيبتك». رآه الإمام مرة بالحرم فقال له: ما جاء بك؟ قال: عادة الجسد و سنة البلد. و لنبصر ما الناس فيه من الجنون و الحلق و رمى الحجارة. قال الصادق: أنت بعد على عتوك و ضلالك يا عبدالكريم؟ فذهب يتكلم. فقال الإمام (عليه‌السلام): لا جدال فى الحج. و نفض رداءه من يده و قال: ان يكن الأمر كما تقول، و ليس كما نقول، نجونا و نجوت. و ان يكن الأمر كما نقول، و ليس كما تقول، نجونا و هلكت. و أى صبر فى حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الامام الصادق (عليه‌السلام)؟ و حيث تؤدى المناسك! و إنما ترك الامام رجلا ملحدا سيقتل - بعد - فى إلحاده سنة ۱۶۱. و إذا لم يأخذ الملحدين بالشدة، فتحا لأبواب الهداية لهم، فهو صارم فى صدد المغالين فى على (عليه‌السلام)، أو فيه، ليكفهم عن غلوائهم؛ و منهم بيان بن سمعان التميمى... كان يعتقد ألوهية على و الحسن و الحسين (عليهم‌السلام) ثم محمد بن الحنفية، ثم ابنه أبى‌هاشم. بل زعموا أنه قال إنه - اى بيانا - المراد بقوله تعالى: «هذا بيان للناس». وادعى المغيرة بن سعيد الانتماء الى

الباقر، و صار يؤله عليا ثم جعفر الصادق، و يكفر أبابكر و عمر و من لم يوال عليا. [صفحه ۱۶۰] و كذلك كان بشار الشعيرى. يقول جعفر الصادق (عليه‌السلام) لمرازم: «تقربوا الى الله فإنكم فساق كفار مشركون» و يقول له: «إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيرى و قل له يا كافر يا فاسق أنا برىء منك». دخل عليه بشار يوما فصاح به: «اخرج عنى لعنك الله. و الله لا يظلنى و إياك سقف أبدا». فلما خرج قال: «ويحه! ما صغر الله أحد تصغير هذا الفاجر. و الله إنى عبدالله و ابن‌أمته». و يقول عن المغيرة بن سعيد: «لعن الله المغيرة بن سعيد. لعن الله يهودية كان يختلف اليها يتعلم منها الشعر و الشعبذة و المخاريق. فوالله ما نحن إلا عبيد، خلقنا الله و اصطفانا، ما نقدر على ضرر و لا نفع إلا بقدرته... و لعن الله من قال فينا ما لا نقول فى أنفسنا». و يقول (عليه‌السلام): «من قال إننا أنبياء فعليه لعنة الله و من شك فى ذلك فعليه لعنة الله». و ينبه الأذهان على دسائس خصوم الشيعة بالاختلاق عليهم فيقول: «إنا أهل‌بيت صادقون لا نعدم من يكذب علينا عند الناس. يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا». و يقول لخيثمة: «أبلغ شيعتنا أننا لا نغنى من الله شيئا، و أنه لا ينال ما عندالله إلا بالعمل، و ان أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلا ثم خالفه الى غيره...». و هى مقولات لا تترك مجالا لدعاوى المغالين فى جعفر الصادق و آبائه و بنيه من الائمة (عليهم‌السلام)، و تنفى عنهم ما ادعوه من علم الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله. كما تجعل الأئمة مجعل البشر، و هى آراء أبيه و جده. سأل سائل جده زين‌العابدين (عليه‌السلام): متى يبعث على؟ فأجاب: «يبعث - و الله - يوم القيامة، و تهمه نفسه» أى انه يحاسب يوم الحساب كما يحاسب غيره. و أما تعبير الأحلام فالصادق (عليه‌السلام) يرى أنها (لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم [صفحه ۱۶۱] أنبياء، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلا لا معنى لها. فكانت تصدق أحيانا لينتفع بها الناس فى مصلحة يهتدى لها، أو مضرة يحذر منها. و تكذب كثيرا لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد). فرؤى الأنبياء حقائق من هدى النبوة. أما رؤى الآخرين فأصداء أفكار تتحرك فى باطنهم؛ منها ما يصدقه الواقع و منها ما يكذبه. روى هشام بن الحكم: كان بمصر زنديق يبلغه عن أبى عبدالله (الامام الصادق) أشياء. فخرج الى المدينة ليناظره فلم يصادفه و قيل له انه خارج بمكة. فخرج الى مكة، و نحن مع أبى عبدالله، فصادفنا فى الطواف، و كان اسمه عبدالملك، و كنيته أبو عبدالله. فضرب كتفه كتف أبى عبدالله... فقال له أبو عبدالله: فمن هذا الملك الذى أنت عبده... من ملوك الأرض أو من ملوك السماء؟ و أخبرنى عن ابنك عبد إله السماء أمعبد إله الأرض. قل ما شئت تخصم... اذا فرغت من الطواف فائتنا. فلما فرغ أتاه الزنديق فقعد بين يديه... قال أبوعبدالله: أيها الرجل! ليس لمن لا يعلم حجة من يعلم. و لا حجة للجاهل... يا أخا مصر إن الذين يذهبون اليه و يظنون انه الدهر، ان كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم؟ و ان كان يردهم لم لا يذهب بهم؟ - يا أخا مصر لم السماء مرفوعة و الأرض موضوعة؟ لم لا تنحدر السماء على الأرض؟ لم لا تنحدر الأرض فوق طبقاتها؟ و لا يتماسكان و لا يتماسك من عليها؟ قال الزنديق: أمسكهما الله ربهما و سيدهما... فآمن الزنديق... فقال: اجعلنى من تلامذتك... فقال: يا هشام بن الحكم! خذه اليك. فعلمه هشام. فصار يعلم أهل الشام و أهل مصر الإيمان. و يروى هشام (ان زعيم الديصانية و فد على مجلس الامام فقال له: دلنى على معبودى و لا تسألنى عن اسمى. فإذا غلام له صغير فى كفه بيضة يلعب بها... فقال: يا ديصانى. هذا حصن مكنون له جلد غليظ. و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق. و تحت [صفحه ۱۶۲] الجلد الرقيق ذهبة مائعة و فضة ذائبة... فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة. و لا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة. فهى على حالها، لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها. و لا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها. و لا يدرى أللذكر خلقت أم‌للأنثى. تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أولا ترى لها مدبرا؟ فأطرق الديصانى ثم قال: أشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له. و ان محمدا عبده و رسوله. و أنك إمام و حجة من الله على خلقه. و انا تائب مما كنت فيه. قصد اليه فى مجلسه ذات يوم نفر من المعتزلة يطلبون اليه بيعة «محمد بن عبدالله» النفس الزكية. فطلب اليهم أن يختاروا واحدا منهم ليناظره. فاختاروا زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد. و ظاهر ان تاريخ ذلك المجلس كان معاصرا لرفض الامام الصادق (عليه‌السلام) أن يبايع يوم الأبواء قبل قيام الدولة العباسية سنة ۱۳۳. فلقد كان عمرو بن عبيد من أنصارها، له صلة خاصة بالمنصور، و اشتهر عنه أنه لم يبايع محمدا و قال انه لم يختبر عدله، و ربما كان ذلك المجلس فى إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ۱۲۶، أو فترة الحروب الأخيرة لبنى مروان، التى قامت على أثرها الدولة

العباسية. قال عمرو: قتل أهل الشام خليفتهم و ضرب الله بعضهم بقلوب بعض و شتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلا له دين و عقل و مروءة و هو محمد بن عبدالله بن الحسن. فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، و قد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غناء لنا عنك لفضلك. قال الصادق (عليه‌السلام): إنا نسخط اذا عصى الله. فإذا أطيع الله رضينا. أخبرنى يا عمرو: لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال و لا ـ مؤنة فقيل لك و لها من شئت، كنت تولى؟ قال عمرو: كنت أجعلها شورى بين المسلمين. قال الصادق: بين كلهم؟ [صفحه ۱۶۳] قال: نعم. قال: قريش و غيرهم؟ قال عمرو: العرب و العجم. قال الصادق: يا عمروا! أتتولى أبابكر و عمر أم تتبرأ منهما؟ قال: أتولاهما. قال الصادق: يا عمرو إن كنت رجلا تتبرأ منهما فإنه يجوز الخلاف عليهما. و ان كنت تتولاهما فقد خالفتهما. فقد عمد عمر الى أبى‌بكر فبايعه و لم يشاور أحدا. ثم ردها أبوبكر عليه و لم يشاور أحدا. ثم جعلها عمر شورى بين ستة فأخرج منها الأنصار. ثم أوصى الناس بشىء. و ما أراك ترضى به أنت و لا أصحابك. قال عمرو: و ما صنع؟ قال الصادق (عليه‌السلام): أمر صهيبا أن يصلى بالناس ثلاثة أيام، و ان يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن‌عمر يشاورونه و ليس له من الأمر شىء. و أوصى من بحضرته من المهاجرين و الأنصار إن مضت الثلاثة و لم يفرغوا و لم يبايعوا أن يضرب أعناق الستة. و ان اجتمع أربعة قبل أن يمضى ثلاثة أيام و خلفا اثنان أن يضرب أعناق الاثنين. أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى فى المسلمين؟ قال: لا. قال الصادق: أرأيت لو بايعت صاحبك الذى تدعو اليه ثم اجتمعت لكم الأمة و لم يختلف منهم رجلان. أفمضيتم الى المشركين؟ قال: نعم. قال الصادق (عليه‌السلام): فتفعلون ماذا؟ قال عمرو: ندعوهم الى الاسلام فإن أبوا دعوناهم الى الجزية. قال الصادق: فإن كانوا مجوسا و عبدة النار و البهائم و ليسوا أهل الكتاب؟ قال عمرو: سواء... و بعد محاورة فى شأن الجزية و الصدقات أقبل على عمرو و الناس و قال: «اتق الله [صفحه ۱۶۴] يا عمرو. و أنتم أيها الرهط فاتقوا الله. فإن أبى‌حدثنى و كان خير أهل الأرض و أعلم بكتاب الله و سنة رسول الله أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «و من ضرب بسيفه و دعاهم الى نفسه و فى المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف».

مع القرآن

كان جده على (عليه‌السلام) يقول: «سلونى عن كتاب الله. فوالله ما من آية إلا أنا أعلم بليل نزلت أم بنهار. فى سهل نزلت أم فى جبل» فلقد كان دائما الى جوار الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم). و هو باب مدينة العلم. و الامام جعفر يصدر من المنبع ذاته. يقول مثل جده على: «كان أصحاب محمد يقرأ أحدهم القرآن فى شهر أو أقل. ان القرآن لا يقرأ هذرمة و لكن يرتل ترتيلا. و اذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها و أسأل الله تعالى. و اذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها و تعوذ بالله من النار». للقرآن عنده المقام الأول. يسأل عمن يؤم القوم فيجيب: «أن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: يتقدم القوم أقرؤهم للقرآن. فإن كانوا فى القراءة سواء فأقدمهم هجرة. فان كانوا فى الهجرة سواء فأكبرهم سنا. و ان كانوا فى السن سواء فأعلمهم بالسنة، و أفقههم فى الدين. و لا يتقدمن أحد الرجل فى منزله، و صاحب السلطان فى سلطانه». و نصوص القرآن حاضرة كلما أراد أن يدلى بحجة. و هو فى قمة البلاغة العربية تسعه اللغة، لا يلجأ الى التأويل بديلا من التفسير. فهو فى فهم النصوص أنفذ بصيرة لم يعلم له تفسير نوقض فيه. و التفسير بتخريج مجازات القرآن لا يقدر عليه إلا البلغاء. [۴۳] . [صفحه ۱۶۵] و من القرآن ينبثق فقه الامام فى كل باب: - يسأله سائل عن قوله تعالى «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا. و من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» فيجيب: «من أخرجها من هدى الى ضلال فقد - و الله - قتلها». - و يجيئه زنديق يسأله عن تفسير قوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» و قوله تعالى فى آخر السورة «و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل». فيفحم الامام الزنديق فيقول: «أما قوله (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فإنما عنى النفقة. و أما قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فإنما عنى المودة. فانه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين فى المودة». - و يقول عن الرزق الذى يحض الله على الإنفاق منه «و مما رزقناهم ينفقون» فيفسرها «و مما علمناهم يبثون» فالعلم رزق، و إذاعته إنفاق واجب. - و من تعبيره عن

حجیة القرآن أبدا یسأله السائل: لم صار الشعر و الخطب یمل ما أعید منهما و القرآن لایمل؟ فیجیب (علیه‌السلام): «لأن القرآن حجة علی أهل العصر الثانی کما هو حجة علی أهل العصر الأول. فکل طائفة تراه عصرا جدیدا. و لأن کل امرئ فی نفسه متی أعاده و فکر فیه، تلقی منه فی کل مدة علوما غضة، و لیس هذا کله فی الشعر و الخطب». - و یقول المفضل: قلت: أخبرنی عن قول الله عزوجل «و جعلها باقیة فی عقبه» قال: «یعنی بذلک (الامامة) جعلها فی عقب الحسین (علیه‌السلام) الی یوم القیامة»، فقلت: [صفحه ۱۶۶] فکیف صارت الامامة فی ولد الحسین دون ولد الحسن و هما جمیعا ولدا رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) و سبطاه و سیدا شباب أهل الجنة؟ فقال: ان موسی و هارون کانا نبیین مرسلین أخوین فجعل الله النبوة فی صلب هارون دون صلب موسی، و لم یکن لأحد أن یقول لم فعل الله ذلک. فإن الإمامة خلافة الله عزوجل جعلها فی صلب الحسین دون صلب الحسن لأن الله هو الحکیم فی أفعاله. لا یسأل عن فعله و هم یسألون. - و یعلن الامام (علیه‌السلام) بوجوب الامامة، فیسأله السائل عن منزلة الأئمة، و من یشبهون؟ فیقول: کصاحب موسی و ذی القرنین... کانا عالمین، و لم یکونا نبیین. [۴۴] . - و فی قوله تعالی «یمحو الله ما یشاء و یثبت»، یقول الامام: «و هل یمحو الله إلا ما کان ثابتا. و هل یثبت الله إلا ما لم یکن» و یقول: «لو علم الناس ما فی القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الکلام فیه» و إنما یقصد استجابة الله لدعاء العباد. و فی ذلک قوله: «ما عظم الله بشیء مثل البداء». - و یسأله عمرو بن عبید عن الکبائر «من کتاب الله». فیسردها، و یضع فی جوار کل کبیرة النص علیها من الکتاب العزیز فهی: [صفحه ۱۶۷] الشرک: «ان الله لا یغفر أن یشرک به». الیأس من روح الله: «لا ییأس من روح الله إلا القوم الکافرون». عقوق الوالدین: «و برا بوالدتی و لم یجعلنی جبارا شقیا». قتل النفس: «و من یقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فیها». قذف المحصنات: «ان الذین یرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فی الدنیا و الآخرة». أکل مال الیتیم: «ان الذین یأکلون أموال الیتامی ظلما إنما یأکلون فی بطونهم نارا و سیصلون سعیرا». أکل الربا: «الذین یأکلون الربا لا یقومون إلا کما یقوم الذی یتخبطه الشیطان من المس». الفرار من الزحف: «و من یولهم یومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحیزا الی فئة فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصیر». السحر: «و لقد علموا لمن اشتراه ماله فی الآخرة من خلاق». الزنا: «و لا تقربوا الزنا إنه کان فاحشة و ساء سبیلا». الیمین الغموس: «ان الذین یشترون بعهد الله و أیمانهم ثمنا قلیلا أولئک لا خلاق لهم فی الآخرة و لا یکلمهم الله و لا ینظر الیهم یوم القیامة و لا یزکیهم و لهم عذاب ألیم». الغلول: «و من یغلل یأت بما غل یوم القیامة». منع الزکاة: «و الذین یکنزون الذهب و الفضة و لا ینفقونها فی سبیل الله فبشرهم بعذاب ألیم». کتمان الشهادة: «و من یکتمها فإنه آثم قلبه». شهادة الزور: «و الذین یشهدون الزور». نقض العهد و قطیعة الرحم: «الذین ینقضون عهد الله من بعد میثاقه و یقطعون ما أمر الله به أن یوصل و یفسدون فی الأرض أولئک هم الخاسرون». [صفحه ۱۶۸] کفران النعمة: «و لئن کفرتم إن عذابی لشدید». بخس الکیل: «ویل للمطففین». و ترک الصلاة (.....) و اللواط: (.....) و قول الزور: (.....) و شرب الخمر: (.....) و البدعة: (.....). - و من علم الامام جعفر (علیه‌السلام) بالقرآن أخذ القراءات علیه حمزة بن حبیب التیمی. و فیها مد و إطالة وسکت علی الساکن قبل الهمز. - و فی صفات الله یقول الامام لعبد الملک بن أعین: «تعالی الله الذی لیس کمثله شیء و هو السمیع البصیر. تعالی عما یصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه... إن المذهب الصحیح فی التوحید ما نزل به القرآن من صفات الله عزوجل فانف عن الله تعالی البطلان و التشبیه فلا نفی و لا تشبیه... هو الله الثابت الموجود». و یقول لمن سأله هل رأی رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم) ربه: «نعم لقد رآه بقلبه - أما ربنا جل جلاله فلا تدرکه أبصار الناظرین و لا تحیط به أسماع السامعین». و سأله الأعمش، شیخ المحدثین، عن مکان الله، فقال: لو کان فی مکان لکان محدثا. و لما سئل عن استوائه علی العرش قال: انه یعنی أنه لا شیء أقرب الیه من شیء. سئل عن قوله تعالی «وسع کرسیه السموات و الأرض» فقال: «العرش فی وجه هو جملة الخلق و الکرسی و عاؤه. و فی وجه آخر هو العلم الذی أطلع الله علیه أنبیاءه و رسله و حججه. و الکرسی هو العلم الذی لم یطلع علیه أحدا من أنبیائه و رسله و حججه». و سئل عن قوله تعالی: «و کان عرشه علی الماء» و قول البعض ان العرش کان علی الماء و الرب فوقه؟ فأجاب: «کذبوا. من زعم هذا فقد صیر الله محمولا، و وصفه بصفة المخلوق، و لزمه أن الشیء الذی یحمله أقوی منه». و واضح من ذلک نهی الامام (علیه‌السلام) عن التجسید و

التشبيه و تصحيحه افهام تلاميذه؛ كيوم جاءه يونس بن ظبيان يقول: إن هشام بن الحكم يقول قولا عظيما. [صفحه ۱۶۹] يزعم أن الله تعالى جسم! قال الامام: «ويله أما علم ان الجسم محدود متناه. فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة و النقصان. فإذا احتمل الزيادة و النقصان كان مخلوقا!». - و واضح منحى الامام في الاحتجاج بنظام الكون، و نظام الجسم الانساني، و بالعقل و هو درس من جده علي، يلفت النظر الى بديع صنع المبدع جل جلاله؛ و في ذلك قول علي (عليه‌السلام): أتحسب أنك جرم صغير و فيك انطوى العالم الأكبر؟ - يجيء الامام رجل من أهل مصر أوصى أخوه للكعبة بجارية مغنية فارهة كانت له، فقيل له ادفعها الى بني شيبة (و فيهم سدانة الكعبة). و اختلف الناس في أداء الوصية. و أخيرا أشاروا عليه أن يأتي الامام. قال الامام: «ان الكعبة لا تأكل و لا تشرب و ما أهدى اليها فهو لزوارها. فبع الجارية و ناد: هل من محتاج؟ فإذا أتوك فسل عنهم و أعطهم». - و يسأل عن القضاء و القدر فيجيب: «هو أمر بين أمرين: لا جبر و لا تفويض» [۴۵] و يحسم القضية بين الجبرية و القدرية فيقول: «ما من قبض و لا بسط إلا لله فيه مشيئة و رضاء و ابتلاء». [صفحه ۱۷۰] يسأل عن الجبر و التفويض: جعلت فداك. أجبر الله العباد على المعاصي؟ فيجيب: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي ثم يعذبهم عليها. فيقول السائل: جعلت فداك ففوض اليهم؟ فيجيبه: لو فوض اليهم لم يحصرهم بالأمر و النهي. فيقول السائل: جعلت فداك فبينهما منزلة؟ فيجيب: «نعم. ما بين السماء و الأرض». و في مجلس آخر يسأله السائل: و ما أمر بين أمرين؟ فيجيب: «مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته. فتركته. ففعل تلك المعصية. فليس، حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذي أمرته بالمعصية». و يقول لسائل آخر: «قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): من زعم أن الله يأمر بالسوء و الفحشاء فقد كذب على الله. و من زعم أن الخير و الشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه. و من زعم ان المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله. و من كذب على الله أدخله النار». و يقول: «إن الله أراد منا شيئا. و أراد بنا شيئا. و ما أراده منا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟».

مع أهل الكوفة و أبي‌حنيفة

و لقد يقول له قائل: إن لي جارا يزعم أنك تبرأ من أبي‌بكر و عمر! فيجيب: برئ الله من جارك. يقول سالم: قال لي جعفر: «أيسب الرجل جده؟ أبوبكر جدي». و لقد كان لجده زين‌العابدين (عليه‌السلام) ابن أسماه عمر. و يقول أبوحنيفة: «استأذنت عليه فحجبني. و جاء قوم من أهل الكوفة استأذنوا لهم فدخلت معهم. فلما صرت عنده قلت: يابن رسول الله لو أرسلت الى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)؟ فإني تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم!. [صفحه ۱۷۱] فقال: لا يقبلون مني. فقلت: و من لا يقبل منك و أنت ابن‌رسول الله؟ فقال الصادق (عليه‌السلام): أنت أول من لا يقبل مني، دخلت بغير إذني، و جلست بغير أمري، و تكلمت بغير رأيي، و قد بلغني أنك تقول بالقياس. فقلت: نعم أقول به. فقال: ويحك يا نعمان أول من قاس إبليس حين أمر بالسجود لآدم فأبى و قال: «خلقتني من نار و خلقته من طين». أيهما أكبر يا نعمان؛ القتل أم‌الزنا؟ قلت: القتل. قال: فلم جعل الله في القتل شاهدين و في الزنا أربعة؟ أيقاس لك هذا؟ قلت لا. قال: فأيهما أكبر؛ البول أو المني. قلت: البول. قال: فلماذا أمر في البول بالوضوء و أمر في المني بالغسل. أيقاس لك هذا؟ قلت: لا. قال أيهما أكبر؛ الصلاة أم‌الصوم؟ قلت: الصلاة. قال: فلم وجب على الحائض أن تقضي الصوم و لا تقضي الصلاة؟ أيقاس ذلك؟ قلت: لا. قال: فأيهما أضعف؛ المرأة أم‌الرجل؟ قلت: المرأة. قال: فلم جعل الله للرجل سهمين في الميراث و للمرأة سهما؟ أيقاس ذلك؟ قلت: لا. قال: و قد بلغني أنك تقرأ آية من كتاب الله «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم» انه الطعام الطيب و الماء البارد في اليوم الصائف. قلت: نعم. قال: لو دعاك رجل و أطعمك و سقاك ماء باردا، ثم امتن عليك. ما كنت تنسبه اليه؟ قلت: البخل. قال: أفبخل علينا؟ قلت: فما هو: [صفحه ۱۷۲] قال حبنا أهل‌البيت». [۴۶] . [صفحه ۱۷۳] و المسلمون يرفعون أباحنيفة الى مكانته العليا بين كبار المجادلين من أهل الاسلام، و لا يجدونه ساكتا في يوم من الأيام، كهيئة ما كان في ذلك المقام. فأما تفسير القرآن بما ينفي البخل عن المعطي جل شأنه فحجة الصادق (عليه‌السلام)فيه لا راد

لها. و اما حجاجه بعد طاعة أهل الكوفة فظاهر لأبی‌حنیفة، إمام الكوفة فی الفقه و الأدب الدینی و الاجتماعی، الذی دخل و جلس و تكلم دون أن يطيع، ثلاث مرات. أما أسئلته عن القياس فقد وضعت القياس موضع التهمة. و لم يحر أبوحنيفة جوابا. طعم أبوحنيفة يوما مع الامام الصادق (عليه‌السلام) - فرفع الامام يده حمدا لله ثم قال: اللهم هذا منك و من رسولك. قال أبوحنيفة: يا أبا عبدالله أجعلت مع الله شريكا؟ قال الامام: ان الله يقول فی كتابه «و ما نقموا إلا أن أغناهم الله و رسوله من فضله». فقال أبوحنيفة «لكأنی ما قرأتها قط فی كتاب و لا سمعتها إلا فی هذا الموقف». و لقد يدخل عليه سفيان الثوری و فيه قول القائل «ما رأيت الغنی أذل منه فی مجلس الثوری و لا الفقير أعز منه فی مجلس الثوری». و الذين يجلون ورع الامام أحمد بن حنبل يشبهونه فيه بسفيان الثوری. و سفيان الثوری يسمی (أميرالمؤمنين فی الحديث). و حسبه أن يكون من تلاميذه فی الحديث ابن‌جريج إمام مكة [صفحه ۱۷۴] و الأوزاعی إمام الشام و مالك بن أنس إمام المدينة، و ابن‌اسحق امام المحدثين فی السيرة، و هو فوق كل ذلك إمام عامل... رمی كتاب «المهدی» له فی دجلة - و فيه توليته للقضاء - و هرب من السلطان فولی شريكا بدله. و كان سفيان كثير المغاضبة للخلفاء - و لهذا كثر ما كان الخليفة يطلب دمه، و كان يختفی عن عيونه. يستأذن سفيان علی الامام، فلا يرفض الإذن بل يدخله ليعلن له أن ظهوره فی المجلس العلمی، و هو مختف، أمر غير سائغ، صيانة للمجلس العلمی من أن يكون مجلس المطلوبين، و حماية للمطلوب ذاته، و حفظا لعلاقة الإمام بالخليفة. و مع ذلك لا يضن الامام عليه بالحكمة. يقول ابن أبی‌حازم: «كنت عند جعفر الصادق يوما و إذا بسفيان الثوری بالباب فقال: إيذن لی. فدخل. فقال له جعفر: إنك رجل يطلبك السلطان فی بعض الأحيان، و تحضر عنده و أنا أتقی السلطان. فاخرج عنی غير مطرود. قال سفيان: حدثنی حديثا أسمعه و أقوم. قال الامام (عليه‌السلام): حدثنی أبی عن جدی عن أبيه عن رسول الله (صلی الله عليه و آله و سلم) قال: «من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله. و من استبطأ الرزق فليستغفر الله، و من حزنه أمر فليقل: لا حول و لا قوة إلا بالله». طلب اليه سفيان يوما أن يعظه، فقال عليه‌السلام: «يا سفيان لا مروءة لكذوب و لا أخ لملول. و لا راحة لحسود. و لا سؤدد لسيیء الخلق». فقال سفيان: زدنی. قال: «يا سفيان ثق بالله تكن مؤمنا. و أرض بما قسم الله تكن غنيا. و أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما. و لا تصحب الفاجر يعلمك فجوره. و شاور فی أمر دينك الذين يخشون الله عزوجل». فاستزاده سفيان فقال: «من أراد عزا بغير عشيرة، و غنی بغير مال، فلينتقل من ذل معصية الله الی عز طاعته». [صفحه ۱۷۵] فإذا أوصی زرارة عندما ولی القضاء، ذكره حساب السماء، قال: «انه اذا كان يوم القيامة و جمع الله الخلائق سألهم عما عهد اليهم و لم يسألهم عما قضی عليهم». فالقضاء أمانة الله. و اذا كان القاضی يجری عليه قضاء الله فهو مسؤول عما يجری به قضاؤه علی غيره. و يوصی الامام ابنه موسی الكاظم (عليهماالسلام) فيقول: «يا بنی! من رضی بما قسمه الله له استغنی. و من مد عينيه الی ما فی يد غيره مات فقيرا. و من لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله فی قضائه. و من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره. يا بنی؛ من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته. و من سل سيف البغی قتل به. و من احتفر لأخيه بئرا سقط فيها. و من داخل السفهاء حقر. و من خالط العلماء وقر. و من دخل مداخل السوءاتهم. يا بنی؛ إياك أن تزری بالرجال فيزری بك. و إياك و الدخول فيما لا يعنيك فتذل لذلك. يا بنی؛ قل الحق لك أو عليك. يا بنی: كن لكتاب الله تاليا، و للإسلام فاشيا، و بالمعروف آمرا، و عن المنكر ناهيا، و لمن قطعك واصلا، و لمن سكت عنك مبتدئا، و لمن سألك معطيا، و إياك و النميمة، فإنها تزرع الشحناء فی قلوب الرجال، و إياك و التعرض لعيوب الناس، فمنزلة المتعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف». و تصبح هذه الوصية تراثا للأئمة بعده. فيعلن الامام الثامن (علی الرضا عليه‌السلام) انه: ما ترك هذه الوصية الی ان توفی. و لقد يفد علی المجلس الكميت - شاعر أهل‌البيت (عليهم‌السلام) - كما كان يدخل علی زين‌العابدين (عليه‌السلام) [۴۷] و الإمام يعرف انبعاث الشاعر، و يخشی عليه من الخيال [صفحه ۱۷۶] الصادق فی تصوير ظلم يعانيه أهل‌البيت. و شعر الكميت من أسير الشعر فی الأدب العربی - و العيون تنقل للخليفة الخبء من أی شیء - فيستأذن الكميت الامام قائلا: جعلت فداك! ألا أنشدك؟ فينبهه الإمام قائلا: «إنها أيام عظام». فيقول الكميت عن القصيدة: إنها فيكم. و يقول الامام: هات. فينشده قصيدته التی مطلعها: ألا هل عم فی رأيه متأمل و هل مدبر بعد الإساءة مقبل إلی أن قال: كلام النبيين الهداة كلامنا و أفعال

أهل الجاهلية نفعل رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت و نقتل و نحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة مما نخاف و نعقل فكثر البكاء و ارتفعت الأصوات إلى أن قال: [صفحه ۱۷۷] كأن حسينا و البهاليل حوله لأسيافهم ما يختلى المتبقل فلم أر مخذولا أجل مصيبة و أوجب منه نصرة حين يخذل فرفع جعفر الصادق عليه‌السلام يديه و قال: اللهم اغفر للكميت ما قدم و ما أخر. و ما أسر و ما أعلن. و أعطه حتى يرضى، ثم أعطاه ألف دينار و كسوة. قال الكميت: و الله ما أحببتكم للدنيا، و لو أردتها لأتيت من هى لديه، و لكنى أحببتكم للآخرة؛ فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فإنى أقبلها لبركتها، أما المال فلا أقبله.

المذهب الجعفرى

أخرج الحاكم فى تاريخه بالإسناد الى أبى‌بكر عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «من كتب على علما أو حديثا لم يزل يكتب له الأجر ما بقى ذلك العلم أو الحديث». و أجمع أبوبكر أيام خلافته على تدوين الحديث فجمع خمسمائة حديث فبات ليلته يتقلب كثيرا. قالت عائشة: فغمنى تقلبه، فلما أصبح قال لى: «أى بنية هلمى الأحاديث التى عندك» فجئت بها فأحرقها. و عن الزهرى عن عروة أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأشاروا عليه أن يكتبها. فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما فقال: «انى كنت أريد أن أكتب السنن، و انى ذكرت قوما قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها و تركوا كتاب الله، و انى و الله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدا». لكن عليا (عليه‌السلام) دون، و خلف فى شيعته طريقة (التدوين). فلقد كان على ثقة من طريقته؛ و هو الذى يقول فيه الرسول: «على مع القرآن و القرآن مع على و لن يفترقا حتى يردا على الحوض». و عنه قال الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم): «يا معشر قريش. و الله ليبعثن الله عليكم رجلا- منكم امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين»، قال أبوبكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، و لكن ذلك الذى يخصف النعل»؛ و كان على يخصف نعلا للنبى عند ذلك. [صفحه ۱۷۸] و بالتدوين الفقهى استقر المذهب فى صدور الحفظة و النقلة، من على الى بنيه، فبنيهم، و بخاصة زين‌العابدين و زيد و الباقر و الصادق (عليهم‌السلام)، ثم عملت مجالس الامام الصادق فى نشره كمثل عمل التدوين فى استقراره. و أدرك الأئمة الذين تتلمذوا عنده و تلاميذهم أمورا ترفع مجلس الصادق فوق المجالس، سواء مجالس أهل السنة أو «أهل‌البيت» منها: ۱ - أن الذى يلقى هذا العلم إمام موصى اليه «باسمه» من أبيه. و بهذا ينماز من عمه زيد بن على صاحب المذهب الزيدى و من غيره من الشيعة. ۲ - أن هذا الإمام يقف بين العلماء جميعا فى مكان خاص. فالسنة عند الشيعة بعد موته تثبت عن طريقه - إلا ما ندر - فعنه يروى آلاف، و عنهم جاءت الأحاديث المروية فى كتبهم. ۳ - ان الآراء الفقهية فى أصول الدين و أصول الفقه و فروع المعاملات و العبادات سيراها اللاحقون منسوبة اليه. و ربما اقترن به أبوه الباقر، أو أشير الى رأى جده، السجاد، لكن نبع العلم منه هو الأشهر و الأكثر. و إذا لم يعرف التاريخ إماما فى السنن من درجته أو إماما فى الفقه من مرتبته، فالتاريخ - كذلك - لا يعرف إماما اجتمعت له الإمامتان مثله. ۴ - انه الامام الذى يوثقه أئمة المسلمين جميعا، و يستوى فى ذلك من أهل السنة أئمة الرأى فهم تلاميذه، و أئمة الحديث فهو فى القمة منهم، و روايته للحديث يوثقها واضع الاساس العلمى لقبول الحديث «الشافعى» و علماء الجرح و التعديل كيحيى بن معين و أبى‌حاتم و الذهبى و ابن‌حنبل و الآخرين... و تتردد فى كتب الصحاح أحاديثه، كما يبايعه إمام أهل‌البيت الذى سبق بفرقة عظيمة و فقه خالد (عمه زيد بن على زين‌العابدين، صاحب المذهب الزيدى)، و يضعه موضع الامامة فيقول: «فى كل زمان رجل من أهل‌البيت يحتج به الله على خلفه و حجة زماننا ابن أخى جعفر لا يضل من كان من شيعته و لا يهتدى من خالفه». ۵ - ان هذا الامام هو أول و آخر واحد من صلب آبائه و أجداده من الله عليه بهذه [صفحه ۱۷۹] الفرصة: أواخر الدولة المروانية المشغولة عنه بتثبيت دعائمها المهتزة، و أوائل عهد الدولة العباسية التى تمد اليه بسبب من السلام أو الخصام، و آصرة من النسب، تخدمانه أو تخدمانها - و هى ترفع شعار أهل‌البيت و الدفاع عن الدين - و بهذا أتيحت له حرية الجلوس لكل الناس، و التدريس لكل العلوم، و أن تسيل الأباطح الأباطح بأعناق المطى اليه من بقاع العالم، فى حقبة مزدهرة من التاريخ العالمى و الاسلامى.

۶ – انه الامام الذى طمأن الخلفاء (الملوک) فى الدولتين، و کانوا سفاحين غلاظ الأکباد، فهو – کما يقول الشهرستانى و أبونعيم فى (الملل و النحل) و (حليهٔ الأولياء): «ما تعرض للإمامهٔ قط و لا نازع فى الخلافهٔ أحدا. و من غرق فى بحر المعرفهٔ لم يطمع فى شط. و من تعلى الى ذروهٔ الحقيقهٔ لم يخف من حط». ۷ – انه الامام الذى أتيح له على مدار ثلث قرن من الزمان بعد وفاهٔ أبيه سنهٔ ۱۱۴ أن يکون «الإمام»... فامتد به عصر سلام، ضرورى لنشر العلم، باطمئنان طالبه، و واهبه، و الدولهٔ التى ينتشر فيها رعاياها. هذه العناصر التى لم تجتمع لواحد من آبائه أو أبنائه جميعا، هى التى سوغت لمن تبع فقهه من الشيعهٔ أن يطلقوا على مذهبه (المذهب الجعفرى). و ما هو فى صميمه إلا «مذهب على عليه‌السلام». و انما تخول السماء برکاتها لبعض الأسماء فى شکل حظوظ. و کان الامام جعفر الصادق عليه‌السلام جديرا بنعمهٔ السماء قدر ما صدق و کافح فى خدمهٔ الاسلام. و ما کان على بحاجهٔ الى ما يخلد اسمه. فالإسلام فى أعظم أيامه يقرن باسم على، قدر ما اقترن اسم على بالنبى و بيت النبى (عليهم‌السلام). و المذهب يحمل اسمه جعفر لأنه صاحب مدرسهٔ سقيت منه السنهٔ الصحيحهٔ، و مصادر الفقه العظيم، و المنهاج السياسى و الاجتماعى و الاقتصادى الذى نهجه تابعوه، و روى ذلک کله الآلاف، و روى عنهم أمثالهم. و فى الجدود، بمعنى الحظوظ، جد و جد، لکنها ليست خبط عشواء: فاسم أمريکا قد خلد اسم امريکو فسپوتشى، لأن أمريکو فسپوتشى کان کاشفا حقيقيا لبعض [صفحه ۱۸۰] شواطئها سنهٔ ۱۴۹۹. و لم يغمط حظ الکاشف الثانى حق کرستوفر کولمبس، الکاشف الأول لها فى ۱۴۹۲. فاسم کولومبوس ما يزال يجرى على کل لسان على انه کاشف العالم الجديد. و التاريخ – کله – يقدمه على فسپوتشى. و لسنا فى مقام مقارنات برجال، فعلى و جعفر (عليهماالسلام) فوق المقارنات، بما قدموا للعالم کله – وسيطه و حديثه – من عناصر الحضارهٔ، التى نقلت العالم من جهالات العصور القديمهٔ و ظلمات العصور الوسطى، الى الحضارهٔ المعاصرهٔ، على عجلات التقدم، يحرکها العلم الصحيح، و الاجتهاد الذى لا يتوقف. و کسب الأمم من علم الأئمهٔ (عليهم‌السلام) کاقتران اسماء أصحاب الکشوف بکشوفهم و أرباب الابتکارات بفتوحهم، ليس صدفهٔ، و لا ـ محض جزاء، و انما هو توفيق من الله للإنسانيهٔ و للناس، لتکريم أمم، و رجال، فتحوا أرض الله لعباده، أو مکنوهم من أنعم السماء، أو سنن الأنبياء، ليشجع الشجعان، و يستمر ضوء الفکر الانسانى فى اشراقه حفزا للعزائم و ظهورا للعلم. و منذ القرن الميلادى الماضى يطلق العلماء أسماء الرجال الذين يسروا للناس أسرار الطبيعهٔ على مقاييس الطبيعهٔ: الوات نسبهٔ الى Watt و الفرد نسبهٔ الى Faraday و الأمبير نسبهٔ الى Ampere و الفولت نسبهٔ الى Volta و الأوم نسبهٔ الى Ohm و الهرتز نسبهٔ الى Hertz و رونتجن نسبهٔ الى Rontigen. و هم إنجليزيان و فرنسى و إيطالى و ثلاثهٔ من الألمان. و أين تجربهٔ أو تجارب أو کشف أو کشوف من شريعهٔ بتمامها، و إمام فى الصدر من أئمتها، وطأ نصوصها، و أصل أصولها، وقعد القواعد لها، و أقام عليها دولا باقيهٔ بقاء الزمان، و مجتمعات خالدهٔ بخلود الاسلام، ينسب المذهب فيها الى صاحبه، فيکون المذهب «الجعفرى» أو المذهب «الامامى» المنسوب الى الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) و الى القول «بإمامهٔ الأئمهٔ الاثنى عشر». [صفحه ۱۸۳]

المدرسهٔ الکبرى

اشاره

يا أهل‌بيت الله حبکمو فرض من الله فى القرآن أنزله کفاکموا من عظيم القدر منزلهٔ من لم يصل عليکم لا صلاهٔ له الشافعى [صفحه ۱۸۵] فى هذا الباب محاولهٔ لرسم خطوط تقريبيهٔ للبنيان العظيم لفکر الشيعهٔ الجعفريهٔ (الاثنا عشريهٔ أو الاماميهٔ) الذى کان الامام الصادق (عليه‌السلام) فى طليعهٔ بناته، و الذى يحمل اسمه، و ان شارکت فى رفع صرحه مدرسهٔ کاملهٔ من السابقين عليه، و الآخذين إخذه، من تلاميذه و تلاميذهم، بدأت بالنبى (صلى الله عليه و آله و سلم)، مدينهٔ العلم، و على بابها، و تتابع فيها الصحابهٔ العظماء، و التابعون و تابعو التابعين؛ و فى الأجيال الثلاثهٔ الامام على و الحسن و الحسين ثم زين‌العابدين فالباقر فالصادق (عليهم‌السلام). ثم تتلمذ

للإمـام الصـادق فريـق المخضـرمين ممن تعلموا على أبيه أو أبيه وجـده، و من الشـباب الـذين تعـاونت قرائحهم فى تفـتيق الكلاـم فى العقيـدة، و تشـقيق المعانى فى الفقه، ليصـبحوا للذين جاءوا بعدهم، حتى اليوم، علامات على الطريق. و فى مشـيخة هذه المدرسة ورد الفصل الأول. و الفصل الثانى يتناول أمورا أساسـية فى فكر المدرسـة، دون حصـر لتفاصـيله أو تطرق للاختلاف عليه بينهم و بين أهل السـنة، أو بينهم و بين فرقهم، حتى لا نخرج من إطار الصورة التى نحاول رسـمها، و تنقيتها مما تبرأ منه الشـيعة، و تقع التبعات فيه على الغلاة المطرودين. و قـد خصصـنا بالبيان فى هذا الفصل مسألتين أصوليتين؛ لكل منهما أثر فى الفقه – سواء أكان فقه معاملات أم فقه عبادات – فبدأنا «بالحديث» و شـروط قبوله وثنينا «بالإمامة». و أضـفنا كلمات عن مسائل خلافية بين المذهب الجعفرى و بين غيره من المـذاهب التى تتقاسم أهل السـنة... تخيرناها من شتى مناحى التفكير الفقهى، لتتم أبعاد الصورة للقارئ، و يزداد جانبها الخلفى جلاء: أن الدين واحد عند أهل السنة و الشيعة. [صفحه ۱۸۷]

المدرسة الكبرى

اشاره

ماذا لقينا من أبناء على. إذا أحببناهم قتلنا، و إذا عاديناهم دخلنا النار. «الشافعى» [صـفحه ۱۸۹] أخذ الفروع و الأصول عن الامام جعفر الصادق (عليه‌السـلام) جمع غفير من ثقات الشيعة، و رووا ذلک لمن بعدهم على سبيل التواتر القطعى، و رواه هؤلاء لمن خلفوهم قرنا بعـد قرن. فالصادق يروى علم من قبله، و يروى الأئمـة من أبنائه علمه، كما يرويه تلامـذته. فهو الحلقة التى تتوسط السلسـلة، أو العروة الوثقى بين كتب آبائه و بين ما كتب بعده «الإمامية».

المصحف الخاص أو كتاب الأصول

آلى أميرالمؤمنين على بن ابى‌طالب (عليه‌السـلام) على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول (صـلى الله عليه و آله و سـلم) ألا يرتدى إلا للصـلاة أو يجمع القرآن، فجمعه مرتبا على حسب النزول، و أشار الى عامه و خاصه؛ و مطلقه و مقيده؛ و محكمه و متشابهه؛ و ناسـخه و منسوخه؛ و عزائمه و رخصه؛ و سـننه و آدابه، و نبه على أسـباب النزول فيه. و من جلال شأن هذا الكتاب، قال فيه محمد بن سـيرين: «لو أصـبت هـذا الكتـاب كـان فيه العلم». فهو كمـا يظهر من محتوياته مصـحف خاص و كتاب أصول من صـنع على (عليه‌السـلام). و الجامعـة: كتـاب طوله سـبعون ذراعـا من إملاء النبى (صـلى الله عليه و آله و سـلم) و خط على (عليه‌السـلام)؛ فيه ما يحتاجه الناس من حلال و حرام و غيره، حتى ليصل فى التفصيل الى أرش الخدش (التعويض عنه). و قد وصفها بذلک الباقر و الصادق (عليهماالسلام)، و شـهدها عنـدهما الثقات من أصـحابهما و منهم أبوبصـير. قال الصادق (عليه‌السـلام): «أما و الله عنـدنا ما لا نحتاج الى أحـد، و الناس يحتـاجون لينا. إن [صـفحه ۱۹۰] عنـدنا الكتاب بإملاء رسول الله صـلى الله عليه و آله و سـلم و خط على عليه‌السـلام بيـده... صـحيفة طولها سبعون ذراعا، فيها كل حلال و حرام». و قال: «ان الجامعة لم تدع لأحد كلاما... فيها الحلال و الحرام. ان أصحاب القياس طلبوا العلم بالقيـاس فلم يزدهم من الحق إلاـ بعـدا. و ان دين الله لاـ يصـاب بالقيـاس». قـالوا: سـميت الجامعـة، و الصـحيفة، و كتاب على، و الصـحيفة العتيقـة. كان أميرالمؤمنين (عليه‌السـلام) يخطب الناس فيقول: «و الله ما عنـدنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله تعالى و هذه الصحيفة – و كانت معلقة بسيفه – أخذتها عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم». و لقد دعا الخليفة أبوجعفر المنصور بكتاب على هذا، فجاء به الامام الصادق و قرأ فيه ان النساء ليس لهن من عقار الرجل – إذا توفى عنهن – شيء. و قال أبوجعفر: هذا و الله خط على و إملاـء رسول الله (صـلى الله عليه و آله و سـلم). و أبوجعفر من العلمـاء كمـا قال عنه مالک إمام المدينـة، و كما أقر له الجاحظ كبير النقاد. فهو قد يقسم لأنه قرأ كتابه قبل ذلک لعلى (عليه‌السـلام)، أو لأن لديه من العلم ما يعرفه أنها باملاء النبى (صلى الله عليه و آله و

سلم). و كتاب الديات؛ و هو يغطى ما يسمى فى الفقه المعاصر «المسؤولية المدنية» عن الفعل الضار بالجسم... أورد محتوياته ابن‌سعد فى كتابه المعروف بالجامع، و روى عنه أحمد بن حنبل فى المسند الأعظم، و ذكره البخارى و مسلم، و رويا عنه.

مصحف فاطمة

و من التراث العلمى عند الشيعة ما يسمى بمصحف فاطمة. حدثوا عن الصادق (عليه‌السلام) إذ سئل عنه: «ان فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة و سبعين يوما و كان قد دخلها حزن على أبيها، و كان جبرئيل يأتيها فيحسن عزاءها ويطيب نفسها، و يخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها، و كان على يكتب ذلك. فهذا مصحف فاطمة». فليس هذا مصحفا بالمعنى الخاص بكتاب الله تعالى و إنما هو أحد المدونات. [صفحه ۱۹۱]

التدوين

يروى «الصدوق» فى (الأمالى) ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «المؤمن من إذا مات ترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترا بينه و بين النار». و فى حياة النبى أو حياة على، اقتدت بعلى شيعته فى التدوين أو قل: هديت لتنفيذ أمر الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم). يقول ابن شهراشوب: «أول من صنف فى الاسلام على بن أبى‌طالب، ثم سلمان‌الفارسى ثم أبوذر». و الاثنان شيعة على. و السيوطى يروى أن عليا و الحسن بن على (عليهماالسلام) ممن أباحوا كتابة العلم بين الصحابة و فعلوها. و ألف أبورافع مولى الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم)، و صاحب بيت‌المال فى خلافة الامام على بالكوفة، كتاب السنن و الأحكام و القضايا. يقول موسى بن عبدالله بن الحسن: سأل أبى‌رجل عن التشهد فقال أبى: هات كتاب أبى‌رافع، فأخرجه فأملاه علينا. أما على بن أبى‌رافع فكتب كتابا فى فنون الفقه على مذهب أهل‌البيت عليهم‌السلام، أى آراء على بن أبى‌طالب، و كانوا يعظمون شأن هذا الكتاب و يحملون شيعتهم عليه. و من الشيعة زيد الجهضمى... حارب مع على (عليه‌السلام) و ألف كتابا يحوى خطبه؛ و منهم ربيعة بن سميع له كتاب فى زكاة النعم؛ و منهم عبدالله بن الحر الفارسى... له لمعة فى الحديث جمعها فى عهد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم). و منهم الأصبغ بن نباتة صاحب على... روى عنه عهده الى الأشتر النخعى. و وصيته الى ابنه محمد بن الحنفية. و منهم سليم بن قيس الهلالى صاحب أميرالمؤمنين (عليه‌السلام)، له كتاب فى الإمامة، و له مكانة عليا فى المذهب من حيث الأصول. [صفحه ۱۹۲] و ذات يوم كان الحكم بن عيينة عند الباقر (عليه‌السلام) يسأله فقال: يابنى قم فأحضر كتاب على، فأحضر كتابا مدرجا عظيما ففتحه، و جعل ينظر حتى أخرج المسألة، و قال: هذا خط على و إملاء رسول الله، و أقبل على الحكم و قال: «اذهب أنت و سلمة و المقداد حيث شئتم يمينا و شمالا... فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرئيل». و من قبل الامام الباقر وجدت عند الامام زين‌العابدين الصحيفة المسماة الصحيفة الكاملة. و عن زين‌العابدين آلت الى الشيعة رسائل عديدة منها رسالة الحقوق، و رسالة الى ابن‌شهاب الزهرى. [۴۸] . و كذلك ألف عمرو بن أبى‌المقدام جامعا فى الفقه يرويه عن الامام زين‌العابدين (عليه‌السلام). فلما صارت الامامة للصادق (عليه‌السلام) حض على تدوين العلم أيا كان موضوعه، دينيا أو دنيويا، فقه عبادات أو معاملات أو علوما تطبيقية. و كان يقول: «القلب يتكل على الكتابة». و كان يملى على تلاميذه، و يجيئهم بالدواة و القرطاس، و يقول: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا». و يلتمس سفيان الثورى اليه ان يحدثه بحديث خطبة الرسول بمسجد الخيف، و يرجوه ليأمر له بقرطاس و دواة ليثبته، فيأمر له، ثم يمليه : «بسم الله الرحمن الرحيم. خطبة رسول الله فى مسجد الخيف: نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها و بلغها من لم تبلغه. يا أيها الناس! ليبلغ الشاهد منكم الغائب. فرب حامل فقه ليس بفقيه. و رب حامل فقه الى من هو أفقه منه». [صفحه ۱۹۳] و كتب عبدالله الحلبى كتابا عرضه على «الصادق» فصححه و استحسنه. و سنرى حفيده الامام العسكرى (عليه‌السلام) يعرض عليه يونس بن عبدالرحمن كتاب (يوم و ليلة) فيصححه و يأمر بالعمل به. و لما غاب «المهدى عليه‌السلام» فى

النصف الثانی من القرن الثالث أحوجت «الغیبة» الی الرجوع للمدونات التی تزخر بها خزائن الشیعة؛ إذ لم یکن لدیهم إمام ظاهر یسألونه. و کثرت الکتابة عندهم فی القرن الرابع. کان أول المستفیدین بالتدوین الباکر أولئک الذین یلوذون بالائمة من أهل‌البیت (علیهم‌السلام) فیتعلمون شفاها أو تحریرا، أی من فم لفم أو بالکتابة. فما تناقلته کتب الشیعة من الحدیث، هو التراث النبوی - فی صمیمه - بلغ الشیعة فی یسر طوع لعلمهم الازدهار؛ فی حین لم یجمع أهل السنة هذا التراث إلا بعد ان انکب علیه علماؤهم قرنا و نصف قرن حتی حصلوا ما دونوه فی المدونات الأولی. ثم ظلوا قرونا أخری یجوبون الفیافی و القفار فی کل الأمصار، فتطابقت السنة - فی مجموعها - عند هؤلاء و أولاء، إلا أمورا لا تتصل بأصل الدین، و خلافات فی الفروع لیست بدعا فی الأمة. و ربما کان اختلاف مذاهب أهل السنة فیما بینهم و بین أنفسهم أکثر ظهورا فی بعض المسائل من خلافهم فیها مع فقهاء الشیعة. و إذا لا حظنا ان من الرواة من قیل انه روی عشرات الآلاف من الحدیث عن الامام، تجلت کفایة التراث الموثوق به عند الشیعة لحاجات الأمة. و إذا لا حظنا توثیق الشافعی و مالک و أبی‌حنیفة و یحیی بن معین و أبی‌حاتم و الذهبی للامام الصادق (علیه‌السلام) - و هم واضعو شروط المحدثین و قواعد قبول الروایة و صحة السند - فمن الحق التقریر بأن حسبنا ان نقتصر علی التفتیش عن رواة السنة عن الامام الصادق (علیه‌السلام). و الشیعة یکفیهم أن یصلوا بالحدیث الی الامام... لا یطلبون اسنادا قبل الامام جعفر (علیه‌السلام)... بل لا یطلبون إسنادا قبل الأئمة عموما؛ لأن الامام بین أن یکون یروی [صفحه ۱۹۴] عن الامام الذی أوصی له، و بین أن یکون قرأ الحدیث فی کتب آبائه - الی ذلک فإن ما یقوله سنة عندهم، فهو ممحص من کل وجه... فلیست روایته للحدیث مجرد شهادة به، بل هی إعلان لصحته. و إذ کان مارواه الصادق روایة الباقر و روایة السجاد عن الحسین عن الحسن أو عن علی عن النبی (صلی الله علیه و آله و سلم)، فهذا یصحح الحدیث علی کل منهج. فالثلاثة الأخیرون من الصحابة المقدمین، یروون عن صاحب الرسالة، إذ یروی الحسن و الحسین عن علی عنه. لقد کان منهج علی (علیه‌السلام) و من تابعه فی التدوین خیرا کبیرا للمسلمین، منع المساوئ المنسوبة الی بعض الروایات، و أقفل الباب دون افتراء الزنادقة و الوضاعین. فالسبق فی التدوین فضیلة الشیعة. و لما أجمع العلماء بعد زمان طویل علی الالتجاء الیه کانوا یسلمون بهذه الفضیلة - بالاجماع - لعلی و بنیه. و السنة شارحة للکتاب العزیز، و هو مکتوب بإملاء صاحب الرسالة. فهی کمثله حقیقة بالکتابة. إنما کان المحدثون من أهل السنة فی القرون الأولی مضطرین لسماع لفظ الحدیث من الأشیاخ، أو عرضه علیهم، لأن السنن لم تکن مدونة. فکانت الرحلة الی أقطار العالم لتلقی الحدیث علی العلماء وسیلتهم الأکیدة. و لم یغیر ذلک النظر انتشار التدوین فی نهایة القرن الثانی و منتصف الثالث، و کثرة الحدیث المدون فی المسانید و المجامیع و الصحاح التی ألفت بعد تلک الفترة؛ و منها مسند أحمد بن حنبل (۲۴۱) حوی ثلاثین ألفا دون المکرر، اختارها من ثلاثة أرباع ملیون جمعها من أفواه العلماء من أقصی الأرض و أدناها، و حدث بها تلامیذه لینقلوها الی الأجیال التالیة. و کان فی أواخر أیامه یستوثق لنفسه، فیروی للناس الحدیث و یطلب المسند یقرأ فیه. ثم جاءت أجیال تأخذ الحدیث من الصحف الموثوق بصحة صدورها من صاحبها [صفحه ۱۹۵] دون أن یرتحل الیه. و هذا ما أطلقوا علیه الوجادة [۴۹] - یقولون: وجدنا بخط فلان. و فی القرن الرابع اعتبر ابن‌یونس الصفدی (۳۴۷) إماما حافظا للحدیث و ان لم یرحل. قلنا فی کتابنا (أحمد بن حنبل امام أهل السنة): [۵۰] «و البعض من المحدثین لم یکونوا یروون عن الامام جعفر الصادق (علیه‌السلام) لأنه یحدث بما قرأه فی الکتب... سئل أبوبکر بن عیاش و هو من أول أشیاخ أحمد: لماذا لم تسمع من جعفر، و قد أدرکته؟ قال: سألناه عما یحدث من الأحادیث: أشیء سمعته؟ قال: لا، لکنها روایة رویناها عن آبائنا» و عقبنا ذلک بقولنا: «و الشافعی [۵۱] و یحیی بن معین [۵۲] متفقان علی توثیقه؛ و هو شیخ مالک. و لیس بعد هؤلاء أدلة علی جواز طریقة الامام جعفر (علیه‌السلام) مع علمه الضخم فی کل باب». و فی کتابنا (الامام الشافعی) أجملنا الکلام عن موضع الامام من الاسلام کله فی کلمات: «الامام جعفر... یمثل صمیم الاسلام... یجتمع فی نسبه النبی علیه الصلاة [صفحه ۱۹۶] و السلام و أبوبکر و علی. و هو إمام فی الدین و الفقه و بحر فی العلوم الطبیعیة». و هذا البحر، و القطعة من الاسلام و المسلمین الثلاثة الأولین - بل الأربعة الأولین و فیهم أم‌المؤمنین خدیجة - إمام یهتدی بهدیه و اجتهاده أئمة أهل السنة کافة. أما الشیعة الامامیة، فقول الامام المعصوم یجری عندهم

مجری قول النبی من کونه حجهٔ علی العباد. و لقد توسع علماؤهم فی اصطلاح السنهٔ الی ما یشمل «قول کل واحد من المعصومین و فعله و تقریره». فالأئمهٔ المعصومون لیسوا – بهذه المثابهٔ – من قبیل رواهٔ السنن، بل هم منصوبون من الله تعالی، علی لسان النبی، لتبلیغ الأحکام عن طریق الإلهام، کالنبی بطریق الوحی الیه، و هو خاص به، أو عن طریق التلقی من المعصوم الذی یسبق. أما فعل المعصوم فدلیل علی الإباحهٔ، و اما ترکه فدلیل علی عدم الوجوب. و تآلیف الامام الصادق (علیه‌السلام) کثیرهٔ؛ منها رسالهٔ فی شرائع الدین؛ و وصایاه للامام الکاظم؛ و رسالهٔ فی الغنائم و وجوب الخمس؛ و توحید المفضل؛ و کتاب الأهلیلجهٔ؛ و کتاب مصباح الشریعهٔ؛ و کتاب مفتاح الحقیقهٔ؛ و رسالهٔ الی أصحابه؛ و رسالهٔ الی أصحاب الرأی و القیاس؛ و رسالهٔ لمحمد بن النعمان؛ و أخری لعبدالله بن جندب؛ و رسالهٔ فی وجوه المعایش للعباد؛ و وجوه إخراج الأموال؛ و رسالهٔ فی احتجاجه علی الصوفیهٔ فیما ینهون عنه من طلب الرزق؛ و رسالهٔ حکم قصیرهٔ. و الرسالتان الأخیرتان عملان أساسیان فی الاقتصاد و الاجتماع، یدلان علی منهاج الامام فی صلاح الدنیا بالعمل و العبادهٔ معا. وثمهٔ الرسائل العلمیهٔ المقترنهٔ بجابر بن حیان. أما کتاب الجفر المنسوب الی الامام الصادق (علیه‌السلام) – فیقول عنه ابن‌خلدون (۸۰۶ – ۷۳۲ ه) (۱۴۰۶ – ۱۳۳۲ م): «و اعلم ان کتاب الجفر کان أصله ان هارون بن سعید البجلی – و هو رأس الزیدیهٔ – کان له کتاب یرویه عن جعفر الصادق و فیه علم ما سیقع لأهل‌البیت (علیهم‌السلام) علی العموم و لبعض الأشخاص منهم علی الخصوص، وقع ذلک لجعفر و نظائره من رجالاتهم علی طریق الکرامهٔ و الکشف الذی یقع لمثلهم. و کان [صفحه ۱۹۷] مکتوبا عند جعفر فی جلد ثور صغیر فرواه عنه هارون البجلی و کتبه و سماه الجفر باسم الجلد الذی کتب علیه، لأن الجفر فی اللغهٔ هو الصغیر. و صار هذا الاسم علما علی الکتاب عندهم. و کان فیه تفسیر القرآن و ما فی باطنه من غرائب المعانی مرویهٔ عن جعفر الصادق (علیه‌السلام). و هذا الکتاب لم تتصل روایته و لا عرف عینه، و انما یظهر منه شواذ من الکلمات لا یصحبها دلیل. ولو صح السند الی جعفر الصادق لکان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الکرامات. و قد صح عنه أنه کان یحذر بعض قرابته بوقائع تکون لهم فتصبح کما یقول». و الروایات متضافرهٔ علی أن الجفر غیر (الجامعهٔ). و البعض یقول إن الجفر من مؤلفات علی (علیه‌السلام) أملاه علیه النبی (صلی الله علیه و آله و سلم). [۵۳] . و هو جفران: الأبیض و هو وعاء من أدم فیه علوم الأنبیاء و الوصیین و الذین مضوا من علماء بنی‌اسرائیل، و الأحمر فیه علم الحوادث و الحروب. کان تلامیذ الصادق مدونین کبارا، فلقد عاشوا فی عصر نهضهٔ علمیهٔ کبری أعجب بها العالم، تبارت فیها یراعات المدونین. و دارت عجلات التدوین کهیئهٔ مادارت عجلات الطباعهٔ عند ظهور المطبعهٔ... بدأها عمر بن عبدالعزیز علی رأس القرن إذ أمر بتدوین السنهٔ، و تابعها علماء الأمهٔ من أهل السنهٔ. و من بعد وفاهٔ الامام الصادق (علیه‌السلام) فی عام ۱۴۸، دون أربعهٔ آلاف من التلامیذ فی [صفحه ۱۹۸] کل علومه، و من جملتها ما یسمی (الأصول الأربعمائهٔ)، و هی أربعمائهٔ مصنف لأربعمائهٔ مصنف من فتاوی الصادق، و علیها مدار العلم و العمل من بعده. و خیر ما جمع منها کتب أربعهٔ هی مرجع الإمامیهٔ فی أصولهم و فروعهم الی الیوم، و هی «الکافی» و «من لا یحضره الفقیه» و «التهذیب» و «الاستبصار». و الکافی – لابی‌جعفر محمد بن یعقوب الکلینی (۳۲۹) – أعظمها و أقومها، و أحسنها و أتقنها. فیه ۱۶۱۹۰ حدیثا. ألفه الکلینی فی عشرین سنهٔ. و أما کتاب (من لا یحضره الفقیه) فوضعه ابن‌بابویه القمی – محمد بن علی بن موسی بن بابویه القمی [۵۴] المقلب (بالصدوق) – (دخل بغداد سنهٔ ۳۵۰ و مات بالری سنهٔ ۳۸۱). و فیه ۵۹۶۳ حدیثا. و هذا الکتاب أهم مؤلفاته مع أنه ألف ثلاثمائهٔ کتاب. و أما «التهذیب» و «الاستبصار» فوضعهما بعد نحو قرن محمد بن الحسن بن علی الطوسی (۴۶۰) الملقب ب (شیخ الطائفهٔ)؛ و کان فقیها فی مذهبی الشیعهٔ و أهل السنهٔ. و فی (التهذیب) ۱۳۵۹۰ حدیثا، و فی (الاستبصار) ۵۵۱۱ حدیثا. دخل الطوسی بغداد سنهٔ ۴۰۸ و استقر بها فی أیام الشیخ المفید (محمد بن النعمان ۴۱۱ – ۳۳۶) صاحب شرح عقائد الصدوق و أوائل المقالات، و نحو مائتی مؤلف. و تتلمذ الطوسی بعد موت الشیخ المفید للشریف المرتضی فنجب فی مدرسهٔ الشرف، و فی «دار العلم» التی أنشأها، و کان یجری علیه اثنی عشر دینارا فی الشهر طوال ملازمته له حتی وفاهٔ المرتضی. و انتفع بکتب المرتضی و الکتب التی حوتها مکتبته. فألف فی کل علوم الاسلام، و اجتهد الاجتهاد المطلق؛ فکان حجهٔ فی فقه الشیعهٔ و السنهٔ. و من أجل آثاره تدریسه فی مجالسه، و أمالیه

«بالنجف الأشرف» فی جوار مشهد أميرالمؤمنين علی (عليه‌السلام). و بهذا افتتح عصر العلم بالنجف الأشرف فصار صنوا [صفحه ۱۹۹] للأزهر الأغر - الذی أقامته دولة من دول الشيعة - و المعهدان هما اللذان حفظا علوم الإسلام. فالطوسی، و الشريفان الرضی و المرتضی، و الشيخان المفيد و الصدوق، و الكلينی، قد وصلوا ما انقطع من التأليف منذ عصر الامام الصادق (عليه‌السلام) حتی منتصف القرن الخامس، ليستمر التيار فی التدفق. و الشريفان فی مدرسة جدهما صنوان؛ أبوهما أبوأحمد الموسوی (نسبة الی جده الامام موسی الكاظم عليه‌السلام). و فيه قول ابن أبی‌الحديد شارح نهج‌البلاغة للشريف الرضی: كان أبوه أبوأحمد جليل القدر عظيم المنزلة فی دولة بنی‌العباس و بنی‌بويه. و لقب «بالطاهر ذی المناقب» و لقبه أبونصر بن بويه «بالطاهر الأوحد». ولی نقابة الطالبيين عدة دفعات، كما ولی النظر فی المظالم، و حج بالناس مرارا علی الموسم. عاش أبوأحمد طوال القرن الرابع (۴۰۰ - ۳۰۴) و كان يستخلف علی الحج ولديه «الرضی» و «المرتضی». و الشريف الرضی (۴۰۶ - ۳۵۸) هو شاعر العربية الشهير، و جامع «نهج‌البلاغة» الأشهر، من خطب أميرالمؤمنين علی (عليه‌السلام). تولی نقابة (الطالبيين) فی حياة أبيه و من بعده، و تولی النيابة عن الخليفة العباسی. فهذه ولاية يتفرد بها فی التاريخ، تجمع بين نقابة الطالبيين و بين نيابة الخلافة السنية. و للشريف الرضی تآليف عظيمة فی تفسير القرآن منها (۱) تلخيص البيان فی معجزات القرآن. (۲) حقائق التأويل و متشابه التنزيل. (۳) معانی القرآن. كذلک له (۴) مجازات الآثار النبوية. (۵) خصائص الأئمة. أما الشريف المرتضی (۴۳۶) فيقول عنه الثعالبی فی «يتيمة الدهر» - و هما متعاصران - «انتهت الرياسة اليوم ببغداد الی المرتضی فی المجد و الشرف و العلم و الأدب و الفضل و الكرم. و له شعر نهاية فی الحسن. و مؤلفاته كثيرة؛ منها أمالی المرتضی - الشافی - تنزيه الأنبياء - المسائل الموصلية الأولی - مسائل أهل الموصل [صفحه ۲۰۰] الثانية - مسائل أهل الموصل الثالثة - المسائل الديلمية - المسائل الطرابلسية الأخيرة - المسائل الحلبية الأولية - المسائل الجرجانية - المسائل الصيداوية - و تآليف أخری كبيرة فی الفقه و القياس و رفضه. و قد شرح تلميذه الطوسی أكثر من مؤلف له». و من أعظم آثاره إنشاء «دار العلم» ببغداد و رصده الأموال عليها و إجراؤه العطاء علی التلاميذ و إطعامهم و إسكانهم. و كان يتبع «دار العلم» هذه مكتبته التی تحوی أكثر من ثمانين ألف مجلد. و حسبه ان يكون الطوسی من تلاميذه. و فی آثار هذا السلف العظيم تتابع ركب العلماء و المؤلفين الفحول يخلدون فقه الاسلام.

مشيخة العلماء

كان مع الكتب التی آلت عن علی (عليه‌السلام) و معاصريه، مؤلفات، كبيرة أو صغيرة، وضعها من جاءوا بعده، و سير لهذا الثبت الضخم من شيعته من الصحابة و التابعين و تابعی التابعين. فهذا هو التراث التاريخی للشهداء و أشياع الشهداء... لا تكف الأمة عن ترديده، جهرة و خفية، يتصدرهم الصحابة العظماء و اليک بعض الأسماء: سلمان الفارسی (و الذی يطلق عليه سلمان المحمدی)؛ و أبوذر (أصدق الناس لهجة)؛ و عمار الذی (تقتله الفئة الباغية) و هو فی التسعين يحارب مع علی (عليه‌السلام)؛ و العباس بن عبدالمطلب؛ و أبوأيوب الأنصاری؛ و المقداد بن الأسود الكندی الذی قال لعلی (عليه‌السلام) يوم بيعة السقيفة: «إن أمرتنی ضربت بسيفی و ان أمرتنی كففت»، قال (عليه‌السلام): (اكفف)؛ و خزيمة ذو الشهادتين؛ و أبوالتيهان؛ و عبدالله و الفضل ابنا العباس؛ و بلال بن رباح؛ و هاشم بن عتبة المرقال؛ و ابان و خالد ابنا سعيد بن العاص؛ و أبی بن كعب سيد القراء؛ و أنس بن الحرث بن نبيه؛ و عثمان و سهل ابنا حنيف؛ و بريدة؛ و حذيفة؛ و قيس بن سعد بن عبادة رئيس الأنصار؛ و هند بن أبی‌هالة - أمه أم‌سلمة أم‌المؤمنين؛ و جعد بن هبيرة المخزومی - أمه أم‌هانئ بنت أبی‌طالب؛ و جابر بن [صفحه ۲۰۱] عبدالله الأنصاری. و سيجری فی آثار الصحابة التابعون لهم و تابعو التابعين... فيضيفون الی التراث العظيم آثار رجال عظماء منهم، من أشياع علی (عليه‌السلام): الأحنف بن قيس؛ سويد بن غفلة؛ الحكم بن عيينة؛ سالم بن أبی‌الجعد؛ علی بن أبی‌الجعد؛ السعيدان: ابن‌جبير و ابن‌المسيب؛ [۵۵] يحيی بن نظير العدوانی؛ الخليل بن أحمد الفراهيدی مؤسس علم العروض؛ و أبومسلم معاذ بن مسلم الهراء مؤسس علم الصرف. و فی مدرسة التابعين هذه برز: أبوهاشم

(عبدالله بن محمد بن الحنفية ابن أميرالمؤمنين)... و أبوهاشم أول من تكلم فى علم الكلام... و من بعده نشأت مدرسة المعتزلة يتزعمها و اصل بن عطاء و عمرو بن عبيد. و بأبى هاشم تبدأ مدرسة المتكلمين من الشيعة. و من جيل التابعين: هشام بن محمد بن السائب الكلبى؛ و أبومخنف الأزدى المؤرخان. و يتوالى موكب العلم العظيم من عهد على (عليه‌السلام)... و تتعالى أصوات الدعاة العظماء للمذهب الشيعى، كالنابغة الجعدى: شهد صفين مع أميرالمؤمنين، و له فيها أشعاره المشهورة، و كان معه عروة بن زيد الخيل؛ و لبيد بن ربيعة؛ و كعب بن زهير صاحب قصيدة «بانت سعاد». و من بعدهم: الفرزدق، و كثير بن عزة من شعراء القرن الأول، ثم الكميت؛ و قيس بن ذريح؛ و السيد الحميرى؛ و دعبل الخزاعى؛ و أبوتمام؛ و البحترى؛ [صفحه ۲۰۲] وديك الجن؛ و الحسين بن الضحاك؛ و ابن‌الرومى؛ و الأشجع السلمى. [۵۶] . و علم أهل‌البيت علم كل الأمة. فأميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) فى قمة السند عند الجميع من سنة و شيعة. لكن الذين ينقلون عنه - من الشيعة أو السنة - محل تفاوت. فالشيعة لا يقبلون كلمة ممن حارب عليا (عليه‌السلام) أو ظلمه من الصحابة أو التابعين. و أهل السنة، مع اختلافهم من ناحية شروط الرواية و الراوى، لا يقبل بعضهم ما لا يصل اليه بطريقته، و يتشكك بعضهم فى بعض ما يرويه الشيعة لأمور تتعلق بالسند أو [صفحه ۲۰۳] بالمتن أو برواية من الشيعة. و فى اسناد الشيعة فحول - بكل المقاييس - فى العدالة و النزاهة و العلم، تتردد اسماؤهم عالية فى «كتب الحديث» و «الصحاح» التى يقوم عليها العلم عند أهل السنة - و الحق أن «جوهر الحديث النبوى» واحد عند هؤلاء و أولاء، مع تعدد الطرق. و من هؤلاء: - الحارث بن عبدالله الهمدانى (۶۵) صاحب أميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) و خاصته. حديثه فى كتب السنن الأربعة: قال ابن‌سيرين «كان من أصحاب ابن‌مسعود خمسة يؤخذ عنهم أدركت أربعة منهم وفاتنى الحارث، فلم أره. و كان يفضل عليهم و كان أحسنهم. و يختلف فى هؤلاء أيهم أفضل: علقمة و مسروق و عبيدة». - علقمة بن قيس النخعى (۶۲) عم الأسود و أخويه أبناء يزيد. كان من أولياء آل محمد (صلى الله عليه و آله و سلم). و الشهرستانى يعده من الشيعة فهو قد شهد صفين مع أميرالمؤمنين، و استشهد فيها أخوه أبى، و خضب علقمة سيفه من دماء الخوارج، و لم يزل عدوا لمعاوية حتى مات. و مكانة علقمة عند أهل السنة من المسلمات. كان عنده كل علم ابن‌مسعود. و فى بيت علقمة نشأت مدرسة النخعيين، و فيها نجب ابراهيم بن يزيد واسطة العقد فى فقه العراق. - ظالم بن عمرو قاضى البصرة لعلى (ابوالأسود الدؤلى) (۶۹). احتج به أصحاب الصحاح الستة. و هو واضع علم النحو... و مكان النحو من اللغة، و مكانة اللغة من القرآن و السنة و كل علوم الأمة، يضعان أباالأسود فى أعلى مكان. - عبدالله بن شداد بن الهاد (۸۱). أمه سلمى بنت عميس أخت أسماء أم عبدالله بن جعفر و محمد بن أبى‌بكر و يحيى بن على. و هو أخو عمارة بن حمزة لأمه. و حمزة بطل أحد و شهيدها. [صفحه ۲۰۴] روى عن على (عليه‌السلام) و أمى المؤمنين عائشة و ميمونة. خرج مع القراء أيام ثورة ابن‌الأشعث فقتل يوم دجيل. احتج بحديثه أصحاب الصحاح و سائر الأئمة أصحاب المسانيد. - سليمان بن صرد الخزاعى (۶۵) كبير الشيعة فى عصره، و بطل من أبطال صفين. يحتج به المحدثون. و حديثه عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بلا واسطة، أو بواسطة الصحابى جبير بن مطعم، موجود فى صحيحى البخارى و مسلم. و حديثه فى غيرهما كثير. و هو قائد التوابين الذين نهضوا للثأر لدم الحسين (عليه‌السلام). و كانوا أربعة آلاف ساروا الى عبيدالله بن زياد و هو فى سبعين ألفا، فتلاقوا فى موضع يقال له «عين الوردة» حيث استشهد سليمان عن ثلاثة و تسعين عاما و هو يحارب جيش عبيدالله بن زياد. أما عبيدالله بن زياد فقتله ابراهيم بن الأشتر النخعى بيده. - صعصعة بن صوحان العبدى: أسلم فى عهد النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) و لم يره. و هو من مشاهير خطباء العربية الذين خلدت بلاغتهم، فهو تلميذ فى مدرسة أميرالمؤمنين (عليه‌السلام). شهد معه «الجمل» و معه أخواه زيد و سيحان. و كانت الراية بيد سيحان يوم ذاك، فقتل، فأخذها زيد فقتل، فأخذها صعصعة و انتصر. ثم شهد صفين مع أميرالمؤمنين (عليه‌السلام). روى عن على و ابن‌عباس. و نفاه المغيرة بن شعبة والى العراق بأمر معاوية، الى الجزيرة فى البحرين فمات - احتج به النسائى. - عمرو بن وائلة - أبوالطفيل - (۱۱۰) كان صاحب راية المختار ابن‌عبيد الثقفى. و هو آخر الصحابة موتا. قدم على معاوية يوما فقال له: كيف وجدك على خليلك أبى‌الحسن؟ (يقصد أميرالمؤمنين عليا عليه‌السلام) فأجاب: كوجد أم‌موسى على موسى. و أشكو الى الله التقصير. قال

معاوية: كنت فيمن حصر عثمان؟ قال: لا ولكن فيمن حضره. [صفحه ۲۰۵] قال معاوية: فما منعك من نصره. قال: فما منعك أنت من نصر عثمان؟ كنت فی أهل الشام و كلهم تابع لک فيما تريد. قال معاوية: أو ما ترى طلبی لدمه نصرة له؟ قال: إنک لكما قال أبوجعف: لألفينك بعد الموت تطلبنی و فی حياتی ما زودتنی زادا و حديثه فی صحيح مسلم. روى عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و عن علی و ابن‌مسعود و حذيفة بن اليمان و حذيفة بن سعد و ابن‌عباس و عمر و معاذ. - إبراهيم بن يزيد النخعی (۹۵) أبوه يزيد بن عمرو بن الأسود النخعی. و أخواله الأسود و ابراهيم و عبدالرحمن ابناء يزيد بن قيس. يؤلفون - مع علقمة بن قيس - مدرسة النخعيين. و ابن‌قتيبة يعتبر ابراهيم من الشيعة. و روايته فی الصحيحين. و عنه يروى حماد بن أبی‌سليمان. و عن حماد يروى أبوحنيفة. و من فحول القرن الثانی كثيرون نختار منهم بعض الأسماء: - عطية العوفی (۱۱۱) كان أبوه من أصحاب علی (عليه‌السلام). و علی هو الذی أعطاه اسمه. ضربه الحجاج ۴۰۰ سوطا لا متناعه عن سب علی (وحد الجلد مائة!). له ذرية نبلاء من الشيعة؛ منهم الحسين بن الحسن بن عطية الذی ولی القضاء. يحتج به أبوداود و الترمذی. - جابر بن يزيد الجعفی (۱۲۷). قالوا: إنه كان يؤمن بالرجعة. و أحاديثه فی مسلم. و روى عنه النسائی و الترمذی و أبوداود و أخذ عنه شعبة. و من أجل قولهم عنه و وثاقته يروى ابن عبدالحكم عن الشافعی «ان سفيان (ابن‌عيينة) قال لشعبة: لئن تكلمت فی جابر لأتكلمن فيك». - شعبة بن الحجاج (۱۶۰) أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين. - عبدالرزاق بن همام (۲۱۰) شيخ أحمد بن حنبل و يحيى بن معين و اسحق بن [صفحه ۲۰۶] راهويه. سئل يحيى، و هو استاذ الجرح و التعديل، عن الرواية عن عبد الرزاق مع تشيعه، فقال: لو ارتد عن الاسلام ما تركنا حديثه. و كان عبدالرزاق يتكلم فی عثمان. و ذكر أمامه معاوية مرة فقال: لا تقذروا مجالسنا بذكر ولد أبی‌سفيان. [۵۷] . - الأعمش - سليمان بن مهران الأسدی الكوفی - (۱۴۸). يحتج به أصحاب الصحاح الستة. و يروى عنه شعبة و جرير و السفيانان (الثوری إمام الكوفة و ابن‌عيينة إمام المدينة). بعث اليه هشام بن عبدالملك ليكتب له مناقب عثمان و مساوئ علی. فأخذ القرطاس و أدخلها فی فم شاة و قال للرسول: قل له هذا جوابه. قال الرسول: لقد أقسم ان يقتلنی إن لم آت بجوابک. فكتب: «أما بعد، فلو كان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كان لعلی مساوئ أهل الأرض ما ضرتك. فعليك بخويصة نفسك. و السلام». - ابن‌لهيعة (۱۷۴) قاضی مصر. يقول عنه سفيان «عند ابن‌لهيعة الأصول و عندنا الفروع». - شريك بن عبدالله النخعی القاضی (۱۷۷). كان يقول «علی خير البشر فمن أبی‌فقد كفر». سأله الخليفة المهدی يوما: ماذا تقول فی علی بن أبی‌طالب؟ قال: ما قال فيه [صفحه ۲۰۷] جداك العباس و عبدالله. قال ما قالا؟ قال شريك: أما العباس فمات و علی عنده أفضل الصحابة. و كان يرى المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل، و ما احتاج هو الى أحد حتى لحق بالله. و أما عبدالله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، و كان فی حروبه سيفا منيعا و قائدا مطاعا. فلو كانت إمامته على جور كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه و فقهه فی أحكام الله. و لم يمض وقت طويل حتى عزل شريك. [۵۸] . - خالد بن مخلد القطوانی (۲۱۳) شيخ البخاری. قال عنه أبوداود: صدوق و لكن يتشيع! - هشيم بن بشير أول أشياخ أحمد بن حنبل المحدثين (۱۶۳). [صفحه ۲۰۸] - عبدالله بن موسى العبسی (۲۶۳) من مشايخ بخاری. - معروف الكرخی (۲۰۰) زعيم الصوفية. وصف ابن‌حنبل معروفا لابنه عبدالله بن حنبل عندما سأله: هل عنده علم؟ فقال: كان عنده رأس الأمر كله؛ تقوى الله.

التلاميذ من الشيعة

صنف الحافظ أبوالعباس بن عقدة كتابا جمع فيه رجال الصادق (عليه‌السلام) ورواة حديثه و أنهاهم الى أربعة آلاف. و كتب من أجوبته أربعمائة مصنف. و إنما أمكنه من ذلک انقطاعه المخلص للتعليم عامة و تعليم السنن و الفقه و التفسير خاصة، للشيعة و لغيرهم. كان الرواة من تلامذته و من غيرهم - كما يقول اليعقوبی - يروون عنه فيقولون: قال (العالم). و كثيرا ما جلس فی مجلس الامام المخضرمون الى جوار الجيل الجديد من المتفقهة؛ و من الأولين قيس الماصر، و أبان بن تغلب، و مؤمن الطاق. و كثيرا ما درب التلاميذ بين يديه ليصنعوا على عينيه. يفد على المدينة وافد من الشام فيعدو الى المجلس و يناقشهم فی «وجوب تنصيب الإمام»

فيتجارون في جداله حتى يسلم لهم. ثم يعلق الامام الصادق (عليه‌السلام) على طريقتهم أو قدرتهم، فيقول لحمران بن أعين «تجرى الكلام على الأثر فتصيب».ثم يلتفت لهشام بن سالم فيقول له «تريد الأثر و لا تعرفه». و يلتفت الى الأحول (الطاقى) و يقول «قياس رواغ تكسر باطلا بباطل، لكن باطلك أظهر». و يقول لقيس الماصر «تتكلم و أقرب ما تكون الى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. أنت و الأحول قفازان حاذقان»... و أخيرا يقول لهشام بن الحكم: «يا هشام: لا تكاد تقع... تلوى رجليك. إذا [صفحه ۲۰۹] هممت بالأرض طرت. مثلك يكلم الناس. فاتق الزلة...». و لقد يلاحظ المرء من ذلك تعدد طرقهم و تفاوت علمهم و نفاذ بصر الامام (عليه‌السلام) الى خصائصهم، و دوره في تصويب و تدريب كل منهم، و هو لا يتركهم دون تشجيع؛ يشير الى زرارة بن أعين و بريد العجلى و أبى بصير المرادى و محمد بن مسلم فيقول: «لو لا هؤلاء لانقطعت آثار النبوة واندرست». و كان في أسرة زرارة الحفاظ المدققون يتصدرهم تلميذا الامام، الحسن و الحسين ابنا زرارة. و الامام يهب الأسرة جلال الذكرى في التاريخ فيقول: «لولا أسرة زرارة و نظرائه لا نقطعت أحاديث أبى». و هو إذ يثنى على أسرة زرارة، يشجع النظراء، و ربما لا يتركهم الامام دون تضييف: فالمستشرق رونلدسن يصور بعض مجالس الامام مع تلاميذه فيقول ما تعريبه «و من الوصف الذى نقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه في بستانه الجميل في المدينة، و استقباله الناس على اختلاف مذاهبهم، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية. و قد ساهم تلاميذه مساهمة عظمى في تقدم علمى الفقه و الكلام. و صار اثنان من تلامذته و هما (أبوحنيفة و مالك) فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية. و أفتوا بالمدينة أن اليمين التى أعطيت في بيعة المنصور لا تعتبر، ما دامت أعطيت بالإكراه. و يروى ان تلميذا آخر من تلامذته و هو «و اصل بن عطاء» رئيس المعتزلة جاء بنظريات في الجدل مما ادى الى اخراجه من حلقة تدريس الامام جعفر، و كان (جابر بن حيان) الكيميائى الشهير من تلامذته أيضا». و اليك بعض الأسماء: «أبان بن تغلب» (۱۴۱) تلميذ زين‌العابدين و الباقر و الصادق (عليهم السلام). قال له الباقر (عليه‌السلام): «اجلس في المسجد و أفت الناس. فأنا أحب أن يرى في شيعتى مثلك». و قال له الصادق (عليه‌السلام): «ناظر أهل المدينة فأنا أحب أن يكون مثلك من رواتى و رجالى». كان اذا دخل على الصادق (عليه‌السلام) عانقه و أمر بوسادة تثنى له، و أقبل عليه بكله، و لما مات قال: أما و الله لقد أوجع قلبى موت ابان. [صفحه ۲۱۰] روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث، و هو – بهذه المثابة – شاهد على التعاقب و الاستمرار و الشمول في علم أهل‌البيت (عليهم‌السلام). يعرف الشيعة بأنهم (الذين اذا اختلف الناس أخذوا بقول على عليه‌السلام و اذا اختلف الناس عن على أخذوا بقول جعفر بن محمد عليه‌السلام) فهو القائل في جعفر بن محمد: «ما سألته عن شيء إلا قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم». كان اذا جلس بالمسجد تقوضت اليه الحلق، و أخليت له سارية النبى (صلى الله عليه و آله و سلم). فيجيئه الناس يسألونه فيجيئهم بمختلف الأقوال. ثم يذكر قول أهل‌البيت (عليهم‌السلام) و يورد حججه. و من أجل هذا المنهج في التدريس كان الصادق (عليه‌السلام) يوصى التلاميذ بأن يعبوا من منابعه؛ يقول لأبان بن عثمان: إيت أبان فإنه سمع عنى ثلاثين ألف حديث فاروها عنه. فهو لا يتردد في تفضيله حتى ليجعله طبقة بينه و بين سميه في الرواية عنه. و قد احتج بحديثه مسلم بن الحجاج في صحيحه و أصحاب السنن الأربعة. و روى عنه سفيان بن عيينة شيخ الشافعى. و له كتب شتى منها كتاب في الأصول. – ثابت بن دينار (۱۵۰) – أبوحمزة الثمالى – تلميذ الامام الصادق (عليه‌السلام) و السدى المفسر. يقول فيه الرضا حفيد الصادق (عليهماالسلام): أبوحمزة في زمانه كلقمان في زمانه. استشهد بنوه الثلاثة حمزة و نوح و منصور في خروجهم مع زيد بن على – روى عنه الترمذى. – «مؤمن الطاق» – كما يسميه الشيعة – نسبة الى «طاق المحامل» حيث كان متجره، أو «شيطان الطاق» كما يسميه فقهاء السنة؛ هو: محمد بن على بن النعمان الأحول. و يقال ان أباحنيفة هو الذى لقبه بشيطان الطاق لمناظرة جرت بين الخوارج و بينه أمام أبى‌حنيفة. و الراجح ان خصومه سموه كذلك لعبقريته. أما الأمام الصادق (عليه‌السلام) فيناديه بعبارة بارعة يرضاه الجميع «ياطاقى» أو يقول (صاحب الطاق). كان مناظرا لا يشق له غبار. رآه تلميذ آخر يناظر، و أهل المدينة يضيقون بمناظرته حتى قطعوا آراءه، و هو لا ينكف عن الجدل. فنبهه على ان الامام ينهاهم عن الكلام. [صفحه ۲۱۱] فالتفت اليه و قال: أو أمرك أن تقول لى؟ قال لا، و لكنه أمرنى أن لا أكلم أحدا. قال: اذهب فأطعه فيما أمرك. و سمع الصادق (عليه‌السلام)

بالواقعة من التلميذ، فتبسم و قال له: ان صاحب الطاق يكلم الناس فيطير. أما أنت ان قصوك لن تطير. و يروى انه ناظر زيد بن على فى إمامة الصادق (عليه‌السلام). كان أبوحنيفة يتهمه بالرجعة؛ و هو يتهم أباحنيفة بالقول بالتناسخ. تلاقيا بالسوق يوما و مع صاحب الطاق ثوب يبيعه. قال أبوحنيفة أتبيعه الى حين رجعة؟ قال: إن أعطيتنى كفيلا ـ أن لا ـ تمسخ قردا. و لما مات الامام الصادق (عليه‌السلام) قال له أبوحنيفة: مات إمامك. فأجابه: لكن إمامك لا يموت إلى يوم القيامة. [۵۹] . و له كتاب فى مناظراته لأبى‌حنيفة. – أبان بن عثمان بن أحمر البجلى. يروى عن الصادق ثم عن الكاظم (عليهماالسلام)، و له مؤلفات شتى، و ذكره ابن‌حيان فى الثقات. و هو على رأس الستة الذين أجمع الشيعة على تصحيح ما يصح عنهم و الإقرار بالفقه لهم؛ و هم: أبان، و جميل بن دراج، و عبدالله بن مسكان، و عبدالله بن بكير، و حماد بن عيسى، و حماد بن عثمان. – هشام بن الحكم (۱۷۹) نشأ بالكوفة و دخل بغداد للتجارة و استقر بها، و لزم الامام الصادق (عليه‌السلام) ثم صار خصيصا بالإمام الكاظم (عليه‌السلام) يقول عنه ابن‌النديم: هو من جلة أصحاب جعفر. و هو من متكلمى الشيعة ممن فتقوا الكلام فى «الامامة». عمل مدة من الزمان قيما بمجالس الكلام عند يحيى بن برمك وزير الرشيد. و كان أول أمره من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل الى القول بالإمامة فى شبابه. [صفحه ۲۱۲] فكان الصادق (عليه‌السلام) يدعو له: «لا تزال مؤيدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك». و نفذ هشام الى المعتزلة من خلال (النظام). و ظل أثره قويا فى غير المعتزلة حتى ظهر المذهب الأشعرى. و هشام هو الذى يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا الى من ولاه الله من سمائه فعزلوه و إلى من عزله الله من سمائه فولوه (يقصد تبليغ على سورة براءة بدلا من أبى‌بكر، و قول جبريل للرسول: لا يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك). كان اذا قصد إفحام معارضيه لم يثبت أمامه رجل. سمعه الرشيد فى بعض مجالس يحيى بن برمك و كان يحضرها من وراء ستر فقال: «ان لسان هشام أوقع فى نفوس الناس من ألف سيف». و لما فتك الرشيد بالبرامكة طلب هشاما فاختفى. فأخذ به خلقا كثيرا ثم أطلقهم بعد ان مات هشام مستترا. و لم تكن مجالس المناظرات خالية من الخطر. يسأل هشاما سائل ذات يوم: «أما علمت أن عليا نازع العباس (جد الرشيد) – الى أبى‌بكر؟ فأيهما كان الظالم لصاحبه؟ – قال هشام فيما بعد «قلت فى نفسى إن قلت العباس بلغ ذلك الرشيد، و إن قلت عليا ناقضت نفسى» – قال هشام: لم يكن فيهما ظالم. قال السائل أفيختصم اثنان... و هما محقان!! قال هشام: نعم اختصم الملكان الى داود، و ليس فيهما ظالم. و انما أراد أن ينبهاه. كذلك اختصم هذان الى أبى‌بكر ليعلماه ظلمه». فهو ينجو من المزالق، و يكرم الرجلين، و يفضل عليا على أبى‌بكر. و من وصية الامام الصادق (عليه‌السلام) له قوله: «يا هشام من أراد الغنى بلامال، و راحة القلب من الحسد، و السلامة فى الدين، فليفزع الى الله فى مسألته ان كل له عقل. فمن عقل قنع بما يكفيه. و من قنع استغنى. و من لم يقنع لم يدرك الغنى أبدا... يا هشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا... العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه. إن الزرع ينبت فى السهل... من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قبله». و كان يحذره من التشبيه و التجسيم، و قد كانت تبلغه عنه زلات فى هذا الشأن. و مع [صفحه ۲۱۳] ذلك لا يكف عن تشجيعه. فيستعيده رواية ما وقع منه مع عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة. و يستحى هشام. فيقول له الامام (عليه‌السلام): «إذا أمرتكم بشىء فافعلوا». فيقول هشام: «بلغنى ما كان فيه عمرو بن عبيد و جلوسه فى مسجد البصرة، فعظم ذلك على، فخرجت اليه و دخلت البصرة يوم الجمعة و أتيت المسجد، و إذا بحلقة عظيمة فيها عمرو... و الناس يسألونه... فقعدت فى آخر القوم على ركبتى. ثم قلت: أيها العالم. انى رجل غريب. تأذن لى فى مسألة... قلت: ألك عين؟ قال نعم. فقلت: ألك أنف؟... ألك لسان؟... ألك أذن؟ قال نعم. قلت ألك قلب؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح و الحواس. قلت: أوليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب. قال: لا ـ قلت: لابد من القلب و إلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت: يا أبامروان. و الله تعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماما يصحح لها الصحيح و تتيقن به مما شكت فيه، و يترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم و شكهم و اختلافهم لا يقيم لهم إماما يردون اليه شكهم و حيرتهم، و يقيم لك إماما لجوارحك ترد اليه شكك و حيرتك؟... فسكت. ثم التفت الى و قال: أنت هشام بن الحكم»... فضحك الامام (عليه‌السلام) و قال: من علمك هذا؟ قال: شىء أخذته منك... قال: «هذا و الله مكتوب فى صحف إبراهيم و موسى». و ظاهر ان طريقته كانت طريقة الامام فى استعمال المحسوسات

و الاعتبار بها فی الإثبات و استعمال العقل بنزاهة فی الاستدلال. و سنعرض لها فیما بعد. بلغت مؤلفات هشام سبعة عشر مؤلفا؛ منها: كتاب «الامامة» و كتاب الوصیة و الرد علی من یطلبها، و كتاب الحكمین. - «جابر بن حیان» - أول من استحق فی التاریخ لقب كیمیائی، كما تسمیه أوربا المعاصرة. و هو الذی یشیر إلیه الرازی (۳۲۰ - ۲۴۰) - جالینوس العرب - فیقول «استأذنا أبوموسی جابر بن حیان». و المؤرخون - إلا بعضا من غیر المسلمین - متفقون [صفحه ۲۱۴] علی تلمذته للإمام، و علی صلته أو تأثره به فی العلم و العقیدة... و أكثرهم علی انه صار بعد موت الامام من الشیعة الإسماعیلیة. یقول فی كتابه الحاصل: «لیس فی العالم شیء إلا و فیه من جمیع الأشیاء. و الله لقد و بخنی سیدی (یقصد الامام الصادق علیه‌السلام) علی عملی، فقال: یا جابر لولا أنی أعلم أن هذا العلم لا یأخذه عنك إلا من یستأهله و أعلم علما یقینا أنه مثلك، لأمرتك بإبطال هذه الكتب من العلم». و كانت كتب ریاضة و كیمیاء تسبق العصور بجدتها... قیل انه أخذ علمه عن خالد بن یزید ثم أخذ عن الامام جعفر (علیه‌السلام). و هو یشیر الی الامام دائما بقوله «سیدی»، و یحلف به، و یعتبره مصدر الإلهام له. یقول فی مقدمة كتابه (الأحجار): «و حق سیدی لولا أن هذه الكتب باسم سیدی - صلوات الله علیه - لما وصلت الی حرف من ذلك الی الأبد». ذكر له المستشرق كراوس ناشر كتبه فی العصر الحدیث أربعین مؤلفا، و أضاف ابن‌الندیم فی القرن الرابع للهجرة عشرین كتابا أخری. و ینقل ابن‌الندیم قوله: «ألفت ثلثمائة كتاب فی الفلسفة و ألفا و ثلثمائة رسالة فی صنائع مجموعة، و آلات الحرب، ثم ألفت فی الطب كتابا عظیما ثم ألفت كتبا صغارا و كبارا، و ألفت فی الطب نحو خمسمائة كتاب. ثم ألفت فی المنطق علی رأی ارسطو طالیس. ثم ألفت كتاب الزیج أیضا نحو ثلثمائة ورقة. ثم ألفت كتابا فی الزهد و المواعظ. و ألفت كتبا فی العزایم كثیرة حسنة، و ألفت فی الأشیاء التی یعمل بخواصها كتبا كثیرة. ثم ألفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضا علی الفلاسفة. ثم ألفت كتابا فی الصنعة یعرف بكتب الملك. و كتابا یعرف بالریاض». و تلامیذ الصادق المشهورون، فیما عدا من سلف ذكرهم، من كبار أهل السنة أشیاخ للفقهاء فی جمیع المذاهب منهم: سفیان بن عیینة؛ و سعید بن سالم القداح؛ و ابراهیم بن محمد بن أبی‌یحیی؛ و عبدالعزیز الدراوردی. و قد روی الشافعی عن كل هؤلاء. و جریر بن عبدالحمید؛ و ابراهیم بن طهمان؛ و عاصم بن عمر... بن عمر بن الخطاب؛ [صفحه ۲۱۵] و أبوعاصم النبیل (۲۱۲) شیخ أحمد بن حنبل؛ و أبوعاصم آخر تلامیذ الامام الصادق وفاة، و قد روی عنه كتابا؛ و الكسائی عالم اللغة؛ و عبدالعزیز بن عبدالله الماجشون زمیل مالك فی الفتیا فی موسم الحج؛ و عبدالعزیز بن عمران... بن عبدالرحمن بن عوف؛ و ابن‌جریح امام مكة؛ و الفضیل بن عیاض؛ و القاسم بن معن؛ و حفص بن غیاث - و الثلاثة أصحاب أبی‌حنیفة؛ و منصور بن المعتمر؛ و مسلم بن خالد الزنجی شیخ الشافعی بمكة؛ و یحیی بن سعید القطان. و إنما أحدثت السیاسة الخلافات بین فقهاء السنة و الشیعة فانتجت وجوها لخلافات فقهیة و حدیثیة. فوجدنا للشیعة رواة لیسوا من رواة الكتب التی یتداولها أهل السنة و منها الصحاح الستة المشهورة. فالشیعة لا یقبلون أحادیث من حاربوا علیا (علیه‌السلام) أو أخطأوا فی حقه. و من الناحیة الأخری وجدنا فی بعض كتب الحدیث لأهل السنة، أوصافا للرواة من الشیعة، تتضح منها جذور هذه الخلافات. و الیك بعض أمثال: - كان الشعبی - شیخ المحدثین بالكوفة علی رأس المائة الأولی - یكذب الحارث الهمدانی، صاحب علی (علیه‌السلام)، فیسلط الله علی الشعبی ثقات أثباتا من الرواة یستخفون به. - و أبان بن تغلب خریج مدرسة السجاد و الباقر و الصادق (علیهم‌السلام). یقول فیه الحافظ السعدی: زائغ مجاهر. و یقول فیه الجوزجانی: زائغ مذموم المذهب. و یقول عنه الحافظ الذهبی فی میزان الاعتدال: «شیعی جلد. و لكنه صدوق. فلنأخذ صدقه و علیه بدعته». - و علی هذا النحو تجد خالد بن مخلد القطوانی (۲۱۳)، و هو من مشایخ البخاری، یقول عنه ابن‌سعد، إنه كان مفرطا فی التشیع. و یقول عنه ابوداود: صدوق لكنه یتشیع. [صفحه ۲۱۶] - و تجد تلید بن سلیمان. یقول فیه أبوداود - تلمیذ أحمد - رافضی یشتم أبابكر و عمر. فلنا «صدقه» و علیه «بدعته». لكن ابن‌حنبل یأخذ عنه. و حسب الرجل شهادة ابن‌حنبل. - و جعفر بن سلیمان یقول فیه ابن‌عدی: «أرجو أنه لا بأس به»، فی حین أن أحمد بن حنبل عندما یقال له ان سلیمان بن حرب یقول لا تكتبوا حدیث جعفر بن سلیمان، یرد أحمد: «لم یكن ینهی عنه انما كان جعفر یتشیع» فیبین سبب ظلم سلیمان له. - و لقد تجد الراویة یقول بالرجعة، فیضعه یحیی من معین، استاذ الجرح و التعدیل و زمیل

أحمـد بن حنبل، لکنک تجـد عبـدالرزاق بن همام یقول بالرجعة و مع ذلک یروی عنه الأعمش و سـفیان و شـعبة و ابن‌حنبل و یحیی نفسه و سـفیان بن عیینة شـیخ المحدثین بمکة و اسـتاذ الشافعی. و أحمد ابن‌حنبل صاحب المسند العظیم. - أو تجد زبید بن الحارث، یقول فیه الجوزجانی: «کان ممن لا یحمـد الناس مذاهبهم». و یضـیف: «احتملهم الناس لصدق ألسـنتهم فی الحدیث» لذلک یحتج به أصـحاب الصـحاح و أرباب السـنن، و کمثلهم الشـعبی و إبراهیم بن یزیـد النخعی. و الحافظ بن حجر فی تهـذیب التهـذیب یقول فی الجوزجانی: «و أما الجوزجانی فلا عبرة بحطه علی الکوفیین فالتشیع فی عرف الأقدمین هو: أن علیا کان مصیبا فی حروبه و ان مخالفه مخطئ، مع عـدم تقدیم الشـیخین. و ربما اعتقد بعضـهم أن علیا أفضل الخلق بعد رسول الله. و إذا کان معتقد ذلک ورعا دینا، صادقا، مجتهدا، فلا ترد روایته». و هذا هو الذی جعل روایات الرواة الذین ذکرناهم، و أمثالهم، تتردد فی کتب الصـحاح و السنن. هکذا کان انقسام الأمـة نقمـة علی العلم. و کان الوقوف علی أبواب السـلاطین نقمة أخری. و الوسائل طیعة، من ترهیب و ترغیب و بث للعیون و الارصاد، و بخاصة علی [صفحه ۲۱۷] الشیعة، مما أورث هؤلاء العمل بالتقیة. و التقیة أو الحذر یوجبان الانطواء أو التباعد. و فی عصر الخلافة العباسـیة کان «مذهب السـلطان» مذهب أبی‌حنیفة فی المشـرق ، و مذهب مالک بإفریقیة فی المغرب، فی حین کانت المعتزلة تتزعم التجدیـد و تلتصق بالخلفـاء. و کـان - الشافعیـة - کإمـامهم - أساتیـذ جـدل، و کمثلهم کان أهل الظاهر أتباع داود، و قـد بـدأ شافعیا. و أما المحدثون فقد کانوا یمثلون السـلف و الدفاع عن السـنة. و کانت خلافات المتفقهة سـمة العصـر، و مثلهم المالکیة. و فی القرن الرابع الهجری جاب المقدسـی (۳۸۰) العالم الاسـلامی، فـذکر أن أهل الأندلس کانوا إذا وقعوا علی معتزلی أو شـیعی قتلوه، ثم وصف تناحر الوسط العلمی فی عصـره بعبارات حادة، قال: «قلما رأیت فی بغـداد من فقهاء أبی‌حنیفة إلا رأیت أربعا: الریاسة، مع لباقة فیهـا، و الحفـظ، و الخشـیة، و الورع. و فی أصـحاب مالـک أربعـا: النقل و البلادة و الدیانـة و السـنة. و فی أصـحاب الشافعی: النظر و الشغب و المروءة و الحمق - و فی أصحاب داود: الکبر و الحدة و الکلام و الیسار. و فی الشیعة: البغضة، و الفتنة، و الیسار، و الصیت». أما الصفتان الأولیان اللتان یصف بهما الشیعة فمردهما الی التمسک بمقدساتهم و علومهم فی مواجهة المتعصبین الذین لا یکفون عن التناوش معهم من قریب أو بعید. و اما الصـیت، فأی صـیت فی الأمة أبعد من صـیت أهل‌البیت (علیهم‌السـلام) أو محبیهم! و أما الیسار فمرده الی فتوح الله علیهم، بـالعلم الـذی طالما علمهم الامام جعفر الصادق (علیه‌السـلام)، فی «منهـج کامل فی الاقتصاد»، سـنعرض له فیما بعد. [صفحه ۲۱۹]

الدرس الکبیر

اشاره

لکن نبی وصـی و وارث. و إن وصـیی و وارثی علی بن أبی‌طالب (حدیث شـریف) [صفحه ۲۲۱] أحـدث انقسام الأمة بفعل بنی‌أمیة أثره فی الفقه. و لیس کلاـم بعض المسـلمین فی أفراد الصـحابة إلاـ أثر من آثار هـذا الانقسام. و من الطبیعی ألا تمتنع الألسـنة عما لم تمتنع عنه الأسـلحة، و أن تسـتمر معارک الکلام و إن توقفت رحی الحرب. شق أهل الشام عصا الطاعة لأمیرالمؤمنین منذ استخلف. و انتهت یوم «وقعـة الجمـل» فتنـة عمیـاء. فیومئـذ قـال محمـد بن الحنفیـة و هو یحمـل الرایـة: هـذه و الله الفتنـة الکاملـة العمیـاء. و نـاداه أمیرالمؤمنین (علیه‌السلام): «هل عندک فی جیش مقدمه أبوک، شیء!». و نفر البطل للقاء أهل الشام فی صفین... و رفع جیش معاویة المصـاحف. ثم کـانت خدعـة التحکیم و تمرد الخـوارج و هزیمتهم. لکنهم ظلـوا یمثلون التعصب العمیق لفکر لم یتمرس بالسـیاسة و تبعـات القیادة و حقن الـدماء. فلاموا علیا (علیه‌السـلام) لقبوله التحکیم مع معاویـة. [۶۰] و عندئـذ لم یوالوا علیـا و لاـ من والاه - لکن الدولـة لم تؤل الیهم، و لهـذا قل أثرهم فی الاتجاه العام للأمة. و انما الذی أحدث أثره العظیم فی الأمة خلاف معاویة، إذ ولی الحکم و ألزم ولاته بالطعن فی علی، و التنکیل بمن والاه. و نظرت العامة الی مصـلحتها العاجلة فی توقی الشرور من السلطة. و نظر المتفقهون

- و معهم جمهور الأمة - بفقه طابعه [صفحه ۲۲۲] الشمول، أنزل الخلفاء الراشدين الأربعة منازلهم. و سبحت ثلة منهم بزوارق السلطة خوفا أو طمعا. و رأى البعض إرجاء إبداء الآراء. و بطش بنوأمية جبارين. فتضاءل عدد الشيعة أو توارى بعضهم تقية، كما قل اتصال أهل‌البيت (عليهم‌السلام) بالعامة و فقهاء الجمهور. و استمسك الشيعة بفقههم و روايات الأحاديث من أئمتهم أو عن أئمتهم. و لما قتل معاوية حجر بن عدى، لغضب الصحابى الجليل من القدح فى أهل‌البيت (عليهم‌السلام)، كان معاوية يقتل استقلال الآراء عن السلطة. ثم كانت المذبحة الكبرى بأهل البيت فى كربلاء سنة (۶۱) متابعة من يزيد لأبيه فى حماية «العرش» الأموى بغير حساب. ثم صفت وقعة الحرة (۶۳) جيل الصحابة من المهاجرين و الأنصار. و فصلت حروب المختار بين عبيدة بين أشياع السلطة و بين على من جديد. و لم تكن حرب ابن‌الزبير مع أهل الكوفة، و لا- حربهم لبنى مروان، إلا- أسبابا جديدة لانكماش الشيعة. و الحجاج - والى عبدالملك بن مروان - مصلت سيفه. و كمثله الولاة بعده. فى أخريات العهد كان زين‌العابدين (عليه‌السلام) قد ملأ الأفق بورعه و علمه و سخائه، و بعده بزغ نجم الباقر (عليه‌السلام) فى سماء المدينة، و أعقبه الصادق (عليه‌السلام)، ليبدأ إمامة مهد لها أبوه. و مكن لهم أن ينشروا العلم، الانصراف عن السياسة أو المطالبة بالحكم، فأشرق الفجر الجديد. لكن ثورة زيد بن على، ثم هجوم الخوارج على المدينة، ثم هزيمتهم، ثم هزيمة بنى‌مروان أمام العباسيين، ثم مطاردة العباسيين لأبناء على (عليه‌السلام)، و قد تضاءلت بالنسبة لها مذابح الأمويين، كل أولئك زاد من القطيعة بين أصحاب السلطة و بين أهل‌البيت، و الانطواء من الشيعة على أنفسهم، و الانفصال بين معظم الرواة من أهل السنة و بينهم: فرأينا عامر بن شرحبيل الشعبى (۱۰۴) شيخ المحدثين فى العراق و قاضى بنى‌مروان يقول: «ماذا لقينا من آل على إذا أحببناهم قتلنا و إن عاديناهم دخلنا النار». [صفحه ۲۲۳] و من كثرة ما عمل للخفاء، صار دربا على معاملة الأمراء: سأله الحجاج كم عطاءك؟ قال: ألفين. فاستدرك الحجاج و قال: ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: لم لحنت؟ قال: لما لحن الأمير لحنت، و لما أعرب أعربت... و سمعنا الحسن البصرى (۱۱۰) الجسور، إذ يروى عن على (عليه‌السلام)، يقول: «قال أبوزينب» - و لما سأله ابن‌عياش «ما هذا الذى يقال عنك إنك قلته فى على؟» أجاب: «يابن أخى... احقن دمى من هؤلاء الجبابرة، لولا ذلك لسالت بى أعشب». و لما تقطعت بين الشيعة و غيرهم الأسباب، اضمحلت، أو قلت، المشاركة العلمية. و صار هنالك عالمان فقهيان متقاطعان. و لم يكن غريبا فى هذه القطيعة أن تقل رواية أهل السنة عن أهل‌البيت، أو أن نرى مالك بن أنس - فى المدينة ذاتها - يسأل عن سبب ندرة الرواية منه عن على و ابن‌عباس فيجيب: لم يكونا ببلدى (يقصد أن عليا كان بالكوفة و ابن‌عباس بمكة)، أو نراه يقتصر - فيما يرويه عن الإمام الصادق - على أحاديث قليلة جدا فى الموطأ، و فيه نحو من ألف حديث. [۶۱] . [صفحه ۲۲۴] و لما قال البخارى بعد أكثر من مائة عام من قيام الدولة العباسية - عن صحيحه «ما وضعت فيه إلا الصحيح. و ما تركت من الصحاح أكثر»، كان فى هذا القول دلالة على الاحتياط العلمى، و على أن أحاديث صحاحا قد أغفلت، و أنها أكثر مما تضمنه كتابه من الصحيح. و لعله بهذا يقصد، فيما يقصد ، أحاديث على و أهل‌البيت (عليهم‌السلام) فيما تركه من صحاح. فهو لم يرو أحاديث أهل‌البيت، فى حين احتج بها الجميع [۶۲] وورد الكثير منها فى سائر الصحاح [۶۳] و المسانيد. [صفحه ۲۲۵] و مع أن الحرب الكلامية و الافتراءات الموجهة للرواة كانت ضروسا فقد وثق الأئمة الفقهاء و المحدثون - أعظم التوثيق - الإمام جعفر الصادق (عليه‌السلام)، و شرفوا بالرواية عنه، و وقفت المذاهب الأربعة موقف الإجلال له. فكان ذلك إعلانا من أهل العلم أن أئمة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) للجميع لا للشيعة وحدهم، و أن الحديث متى ثبت عنهم هو حديث جدهم (صلى الله عليه و آله و سلم). كان يوسف بن أبى‌يوسف يروى عن أبيه عن أبى‌حنيفة عن «جعفر بن محمد عليهماالسلام» عن سعيد بن جبير عن ابن‌عمر حديث رسول الله؛ و فى الوقت ذاته يروى عن أبيه عن أبيه حنيفة عن اسحاق بن ثابت عن أبيه عن على بن الحسين حديث رسول الله (عليهم‌السلام)، مع أن على بن الحسين (زين‌العابدين عليه‌السلام) لم ير جده - و اللقاء من شروط البخارى. و يروى يوسف عن أبيه عن أبى‌حنيفة عن «جعفر بن محمد» حديث رسول الله - مع أن الصادق حفيد زين‌العابدين - فهذا أبوحنيفة و من روى عنهم - كمثل مالك و غيره - يروون عن أئمة أهل البيت، و يأخذون بحديثهم عن رسول الله، مع أنهم لم يلقوه أو لم يكن بينهم و بين الرسول صحابى. و الكتب التى يقوم عليها الفقه

الشیعی تروی کلها عن الامام جعفر الصادق أو الأئمة المعصومین (علیهم‌السلام)... یستوی فی ذلک الکتب الأربعة الشهیرة و غیرها. و فی ضوء ذلک نستطیع أن نفهم انقسام العلم بانقسام مصادره، و انحسار هذا البحر من بحاره عن الجمهور، باقتصاره علی الشیعة... و لا جرم کانت فیه کفایـة لإنتاج هذا التراث، بما فیه عن غزارة، و باعتماده علی النقل و العقل معا، و بإقبال الشـیعة - شأن الأقلیات جمیعها - علی تعمیق علومها، و تقویة شـعوبها. و ساعدهم انفتاح الفکر و اجتهاد الرأی فی تطهیر و سطهم العلمی و الاجتماعی ممن ینتسبون، أو ینسبهم [صفحه ۲۲۶] الخصوم الیهم، من الغلاة فی علی بن أبی‌طالب (علیه‌السلام)، [۶۴] ثم تمییز علمهم من علم المخالفین الذین یتولون غیر الامام جعفر و غیر أبیه کالزیدیـة. [۶۵] . [صفحه ۲۲۷] أو من علم الـذین یتولون غیره و غیر أبیه وجده کالکیسانیة. [۶۶] . یقول الشیخ المفید فی غلاة الشیعة: «و هم نسـبوا أمیرالمؤمنین و الأئمة من ذریته (علیهم‌السلام) إلی الألوهیة و النبوة، و وصفوهم فی الـدین و الـدنیا بما تجاوزوا فیه الحـد و خرجوا عن القصـد. فهم ضـلال و کفار». و الإمامیـة لا یجیزون القدح فی الصـحابة. فإذا وجد قـادحون منهم فـآراؤهم فردیـة، فی أفراد من الصـحابة... یبـدیها المتطرفـون، و أشـباههم موجودون فی أهـل السـنة، ممن قـدحوا بطل الإسـلام «علی»، و ریحانتی النبی «الحسن» و «الحسین». و القدح «معصیة» لا تخرج من الإسلام. و لا یعتبر معصیة اجتهاد «مجتهد» تأول فأخطأ. و قد نظر علماء السـنة هذا النظر الأخیر الی خلافات المعترکین من الصحابة فی الجمل و صفین، فاعتبروها اجتهادات فیها الخطأ و الصـواب. و الإمـام علی معلم أول للأـصول و الفقه و أدب الـدنیا و الـدین، یقـول عن الخـوارج الـذین کفروه! و طلبـوا إلیه التوبـة!: «إخواننا بغوا علینا». [۶۷] . [صـفحه ۲۲۸] و الإمامیـة یقولون إن رسول الله (صـلی الله علیه و آله و سـلم) أوصـی الی اثنی عشـر إماما بأسـمائهم؛ کـل منهـم یـبین خلفه باسـمه، إذ یکشـفه الله له... أولهم علی الـذی أوصـی للحسن. و أوصـی الحسن للحسـین. و تتـابعت لزین‌العابدین و منه للباقر الذی أوصـی للصادق. و تتابعت الوصـیة من الصادق الی ابنه موسـی الکاظم (۱۸۳) فابن الکاظم علی الرضا (۲۰۳) فابن الرضا محمـد الجواد (۲۲۰) فـابن الجواد علی الهادی (۲۵۴) فابن الهادی الحسن العسـکری (۲۶۰) فابن العسکری محمد المهدی المولود بسامراء سنة (۲۵۶)، و المختفی بعد عام ۲۶۰ و المنتظر ظهوره لیملأ الدنیا عدلا.

السنة

یروی الحارث الاعور: قلت یا أمیرالمؤمنین إذا کنا عندک سـمعنا منک ما یشد دیننا، و إذا خرجنا من عندک سمعنا أشیاء مختلفة و لا نـدری مـا هی؟ قال: أو فعلتموها؟... سـمعت رسول الله (صـلی الله علیه و آله و سـلم) یقول «أتانی جبریل فقال: یا محمـد سـتکون فی أمتـک فتن. قلت فمـا المخرج منهـا؟ فقـال کتاب الله». و اذا کان فی الکتاب حل لکل مشـکلة، فالسـنن موضـحة و منفـذة لأحکامه. و السنن إذ تروی عن جعفر بن محمد الصادق أو عنه عن آبائه أو تروی عن الأئمة عامة لا یوجد فیها صحابی یختلف الشیعة معه. و علی أساس هذه الأحادیث قام فقه الشیعة الإمامیة، مرویا عن الامام، فلا یناقشونه، فکلامه نصوص، أی هو سـنة، فی غنی عن الإسناد، تغنی عنی الاجتهاد. و فی کتبهم - کما قیل - ما یکفی الأمة حتی أرش الخدش. [صفحه ۲۲۹] و قد دون علم الأئمة و فقههم فی کتبهم؛ و منه علم لـدنی عن الإمام المعصوم، و منه تفسـیرهم للقرآن. [۶۸] و الأئمـة - عنـدهم - قـد اختصوا بعلم ما لم ینص علیه و ما لم یعلنه النبی (صلی الله علیه و آله و سلم). و السنة أساسها القرآن. یقول الإمام الصادق: «إذا رویت لکم حدیثا فسلونی أین أصله من القرآن». روی یومـا نهی النبی «عن القیـل و القال و فساد المال و کثرة السؤال» فقیل له: أین هـذا من کتاب الله؟ فأجاب: إن الله تعالی یقول: «لا خیر فی کثیر من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصـلاح بین الناس» و قال تعالی: «و لا تؤتوا السـفهاء أموالکم التی جعل الله لکم قیاما» و قال تعالی: «لا تسألوا عن أشـیاء إن تبـدلکم تسؤکم». فهـذه أصول قرآنیـة ثلاثـة لحـدیث واحـد فی السـلوک. و هو علیه الصـلاة و السـلام لا ینطق عن الهوی. و إذا لم یکشـف الإجماع عن رأی الامام، فباب الاجتهاد مفتوح لطلب الحکم الشرعی فیما لیس فیه نص، و العقل - مع الضوابط التی یضعونها من قواعد و أصول - قدیر علی أن یبلغ المجتهد طلبه. روی هشام بن سالم قول الصادق «إنمـا علینـا أن نلقی إلیکـم الأـصول و علیکـم أن تفرعـوا» - و فی نهج‌البلاغـة جملـة مـن الأـصول الـتی نبه علیهـا أمیرالمـؤمنین علی

(عليه‌السلام)، و تكلم فيها الأئمة الباقر و الصادق و الرضا؛ كالكلام عن الناسخ و المنسوخ، و العام و الخاص، و النوافل و الفرائض، و الرخصة و العزيمة، و المطلق و المقيد، و المحكم و المتشابه، والواجب و غير ذلك. و مما ردده الأئمة الثلاثة قواعد الجمع بين الحديثين المتعارضين، و الترجيح بينهما، و التخيير، و أحكام النسخ، [صفحه ۲۳۰] و لزوم رد المتشابه إلى المحكم، و جواز الأخذ بخبر الواحد، و العمل بالظاهر، و منع القياس أو تفسير القرآن بالرأی، و العمل بالاستصحاب، و أصالة الحل و الإباحة، و الطهارة و البراءة و الصحة، و قواعد الفراغ واليد و القرعة. و كلام الامام الصادق فی هذه الأبواب كثير. و لهشام بن الحكم كتاب فی مباحث الألفاظ، و فی الأصول. و كذلك ليونس بن عبدالرحمن كتاب فی الاصول. و السنة المتواترة هی التی يتكاثر رواتها و يتفرقون الی حد لا يمكن معه اتفاقهم على الكذب. و بهذا يتحصل علم قاطع بأنهم لم يجمعهم جامع على الكذب. و التواتر عن الرسول كالتواتر عن الإمام المعصوم. و الإمام الصادق يقول: «حديثی حديث أبی، و حديث أبی‌حديث جدی، و حديث جدی حديث الحسين، و حديث الحسين حديث الحسن، و حديث الحسن حديث أميرالمؤمنين، و حديث أميرالمؤمنين حديث رسول الله (صلی الله عليه و آله و سلم)، و حديث رسول الله قوله تعالی». و التعبير بأن حديث الرسول هو قوله تعالی يعدل القول بأن السنة هی الحكمة التی ذكر القرآن ان الرسول يعلمها للمسلمين. و خبر الواحد مقبول لدی جمهور الفقهاء عندهم. و حجتهم فی ذلك - على الجملة - كحجج أهل‌البيت. [۶۹] . و الصادق لا يری بأسا فی رواية الحديث بالمعنی. سأله تلميذه: أسمع منك الحديث فأزيد و أنقص؟ فأجاب: «أن تريد معانيه فلا بأس». و لا يضيقون صدرا بالإرسال من الثقات، بغير معارض، فلقد تقرأ «صحيح فلان [صفحه ۲۳۱] عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه‌السلام». [۷۰] . و يمكن القول إجمالا إن الحديث عندهم صحيح و حسن و موثق و ضعيف. فالحديث الصحيح هو الذی ينقله العدل الضابط عن مثله فی جميع الطبقات حتی الإمام المعصوم. و الحديث الحسن هو المتصل السند بالإمام المعصوم. فان انقطع السند لم يعد حسنا. و يشترط أن يكون الراوی ممدوحا من غير معارضة ذم و إن لم تثبت العدالة. فلو ثبتت لكان صحيحا. و الحديث الموثق هو ما دخل فی طريقه غير إمامی إذا كان الأصحاب الإمامية يوثقونه. و هنا لا يشترط الاتصال بالإمام المعصوم. و هناك من يشترط أن يتوسط غير الإمامی إماميين. و هناك من يرفضه. و الحديث الضعيف غير هذه الأقسام الثلاثة: و ما لا يبلغ حد التواتر يسمی خبر الواحد. فوصف الواحد يراد به عدم التواتر، و قد يكون عن متعددين. فالخبر المستفيض و المشهور نوع من خبر الواحد؛ المستفيض مارواه أكثر من اثنين، و المشهور ما اشتهر على الألسن و فی الكتب، و إن كان رواية واحد. [۷۱] . [صفحه ۲۳۲] أما الشهادة فيقول فيها الإمام الصادق: «لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلا شهادة الأنبياء و الاوصياء، فمن لم تره بعينيك يرتكب ذنبا و لم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة و الستر. و شهادته مقبولة و إن كان فی نفسه مذنبا». و إذا كان فی بعض المذاهب من لا يقبل شهادة أصحاب الصنائع التی يسمونها (دنيئة)، فالإمامية يرون قبول شهادتهم، و الله يقول: «إن اكرمكم عند الله اتقاكم» فليس فی الصناعات شريف و مشروف، و إنما الصناع فيهم من هؤلاء و هؤلاء. و الشيعة - مع هذا - ضائق صدرهم بالطفيليين و المستجدين، فهؤلاء متساهلون فی عزة النفس التی أمر الله بها المسلمين. و الصادق يقول: «إن الاجماع لا ريب فيه». و هو عند الإمامية «اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأی المعصوم» فلا يخلو عصر من وجود الإمام ظاهرا أو خافيا. و إذا كان اتفاق جماعة من الإمامية فيخرج غيرهم. و من أجل ذلك عرفت آراء الصادق من خلال اتفاق تلاميذه. و ليست الحجة للإجماع، بل هی لرأی الإمام المعصوم الذی يكشف عنه الإجماع. و الإجماع يثبت بالتواتر و المشاهدة و بخبر الواحد. و ليس اجتماع الرجال شرطا عندهم. و الإجماع من عصر أو عصرين لا يجعل الحكم ضرورة دينية أو مذهبية، بل [صفحه ۲۳۳] يكون اجتهاديا يقبل الجدال. أما إجماع الأمة فی كل عصر و مصر، من عهد الرسول الی الآن، فيجعل الحكم من ضرورات الدين. و الاجماع من الصحابة يدخل فيه على بن أبی‌طالب (عليه‌السلام)، فهو الإمام المعصوم. و العقل يكشف عن نظر الإمام ان لم يوجد نص أو إجماع. فالاجتهاد [۷۲] مفتوح أبدا فی الظنيات التی ليس فيها دليل من الشرع يفيد اليقين، و ليس للعقل فيها حكم واجب حتم، كخلاف الصحابة فی العول فی المواريث وعدة الحامل المتوفی عنها زوجها، و كالمعاملات. أما القطعيات فلا اجتهاد فيها كالعقائد الواجبة، و ما ثبت من الاحكام

العملية بالتواتر؛ و العقائد كاتصاف الله بالكمال و إرسال الرسل، و انزال الكتب، و البعث و الحساب؛ و الأحكام العملية كالصلاة و الصوم و الحج. و ليس من وسائل اجتهاد الشيعة القياس. فالإمام الصادق (عليه‌السلام) يقول: «إن السنة إذا قيست محق الدين». و لما قيل: له أرأيت ان كان كذا و كذا ما يكون القول فيها؟ قال: «ما أجبتک فيه من شیء فهو عن رسول الله صلی الله عليه و آله و سلم. لسنا من أرأيت فی شیء» لكن وسائل استعمال العقل مباحة للمجتهد. و الامام الصادق (عليه‌السلام) يقول: «مامن أمر يختلف فيه اثنان إلا و له أصل فی كتاب الله و لكن لا تبلغه عقول الرجال». و آيات الأحكام قليلة، و كمثلها قلة؛ أحاديث أصول الأحكام، [۷۳] فوجب الاجتهاد. [صفحه ۲۳۴] و نحن مأمورون بتوظيف العقل، و أحكام السماء تظهر للعقول بالتدريج. كان أصحاب النبی (صلی الله عليه و آله و سلم) يجتهدون فی وجوده، و ازدادت حاجتهم للاجتهاد بعد وفاته، و الدنيا أطوار تحتاج للفقه الذی يطبق عليها حكم الشريعة لتبقی الحياة محكومة بالدين، و تتطور فی حدود مقاصد الشارع. و حكم الله فی كل مسألة معين، نصب الله دليلا عليه، فمن المجتهدين من يصل اليه و يصيبه، و منهم من لا يصل اليه و يظن غيره... فهو مخطئ معذور... مغفور له خطؤه مادام قد بذل جهده دون هوی. و للمصيب أجران لصوابه و اجتهاده، و للمخطئ أجر واحد علی اجتهاده. فذلک حكمه صلی الله عليه و آله و سلم، و من أجله كانت السماحة التی اتصف بها الصحابة إذ يختلفون. و المنصفون من كل المذاهب يعلنون ان فی المذاهب الفقهية المعتبرة خطأ و صوابا. و ليس منها مذهب واحد كله خطأ أو كله صواب. لذلک كان التعصب المطلق آفة الفقهاء. لقد كثرت مخالفات علی لعمر، و نزول عمر عند رأی علی (عليه‌السلام). و علی هو القائل بأنه ترک لعمر تنفيذ رأيه (فی بيع أمهات الأولاد) فی حياة عمر، و لما آل اليه الأمر أنفذ رأيه. فعلمنا أمورا؛ منها: ۱ - ان المذهب الشيعی و هو يدور حول آراء علی (عليه‌السلام)، إنما هو مذهب حيی فی حياة الخلفاء الراشدين أنفسهم. فلما آل اليه الأمر و أتيحت له الفرصة التی أتيحت لغيره لتطبيق اجتهاداته أنفذها - و لكن المكان و الزمان ضاقا عليه لانشغاله فی الحروب و الفتن، و انحصار سلطانه علی الأرض، و اغتياله علی أيدی الخوارج. ۲ - حق الخليفة فی إنفاذ رأيه. و من هنا أنفذ عمر رأيه فی أمور شتی كما أنفذ أبو [صفحه ۲۳۵] بكر رأيه من قبل. و الرأی اجتهاد. ۳ - مشروعية الخلاف. و هو درس تعلمه الصحابة من رسول الله (صلی الله عليه و آله و سلم)، مطلوب من الجميع أن يتعلموه، و أن يعلموا الناس أنه وسيلة التقدم. روی النسائی ان رجلا أجنب فلم يصل. فذكر ذلک للنبی (صلی الله عليه و آله و سلم) فقال: أصبت. و أجنب رجل فتيمم وصلی، فذكر ذلک للنبی (صلی الله عليه و آله و سلم) فقال: أصبت. و روی البخاری عن عمران بن حصين أنه قال للرجل الذی اعتزل فلم يصل فی القوم «فما يمنعک أن تصلی» فقال: أصابتنی جنابة و لا ماء. قال: «عليک بالصعيد. فإنه يكفيک». و الآثار فی الخلاف بين الصحابة كثيرة جدا. [۷۴] . و الخلاف بين المجتهدين أجل من أن يحصر، و فيه ثراء للفكر، وسعة فی الدنيا، و رحمة بالأمة. كان أحمد بن حنبل يری الوضوء من الفصد و الحجامة و الرعاف. فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم و لم يتوضأ هل تصلی خلفه؟ فقال: كيف لا أصلی خلف «مالک» و «سعيد بن المسيب»؟ و كان مالک يفتی الرشيد أنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم. فصلی يوما بعد الحجامة و صلی خلفه «أبويوسف» صاحب «أبی‌حنيفة» (و هو يری الوضوء من الحجامة). و اغتسل أبويوسف فی الحمام، و أخبر بعد صلاة الجمعة أنه كان فی بئر الحمام فأرة ميتة فلم يعد صلاته و قال: «نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا». فهؤلاء أئمة المذاهب لا يتسامحون فی خلافاتهم فحسب، بل يتجاوزون [صفحه ۲۳۶] الخلاف العلمی الی التطبيق العملی. من أجل ذلک يقول أحمد لتلميذه إسحاق بن بهلول إذ ألف كتابا يريد أن يسميه «كتاب الاختلاف»: «سمه كتاب السعة». و يقول عمر بن عبدالعزيز «ما سرنی باختلافهم حمر النعم».

الامامة

اشارة

الإسلام دين و دولة. فالدولة تكفل لمبادئ الإسلام التطبيق، و الانتشار، و انتفاع الجماعة و الأفراد به. و بالدين عزة الفرد و الجماعة، و رسوخ أركان الدولة. و الدين للدولة روح للجسد. و هو للفرد دم نقى يجرى فى عروقه أو هواء صحى يتنفسه. و لا حياة إلا بالدم و التنفس. و كان من آيات الإعجاز الإسلامى أن يبلغ المسلمون الذروة أفرادا أو دولا- أو مجتمعات فى عصر، أو فى أشهر، بل فى ساعات، بمجرد إخلاصهم فى التمسك بالإسلام. لقد بلغوا ما يدعو اليه السلام فى «خلافة» أبى‌بكر و عمر، و السنين الستة الأولى من «خلافة» عثمان، و فى أقل من ثلاثين شهرا فى «خلافة» عمر بن عبدالعزيز. و الخلافة الراشدة قيادة مسددة. و لقد بلغ المحاربون مبالغهم، في يوم واحد، هو العاشر من رمضان سنة ۱۳۹۳، إذ كانوا يقتحمون حصون اسرائيل و هم يهتفون: الله أكبر. و الإمامة – أو الخلافة – قد تكون خلافة عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) فى تبليغ الأمور الدينية أو فى الولاية السياسية أو فيهما جمعيا . و هى عند الشيعة دينية و سياسية محصورة فى أهل‌البيت (عليهم‌السلام). لكنها عند جمهور أهل السنة تجوز لأى قرشى عادل، يختاره المسلمون بشورى صحيحة، و بيعة عامة. و لا تبقى الخلافة إلا ما بقى الخليفة قائما بالعدل، فإذا انحرف لم تبق خلافة نبوية بل استحالت سلطة زمنية . و الشافعية و المالكية و الحنابلة يرون القرشى العادل إذا تغلب، فبايعه المسلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين، تكون البيعة له صحيحة، و ان تأخرت عن الولاية التى [صفحه ۲۳۷] نالها بالغلبة. أما الحنفية فيشترطون سبق البيعة ضمانا للحرية و كفالة للمشورة. و الشيعة الامامية يرون الإمامة ثابتة لاثنى عشر إماما بذواتهم لا بالبيعة لهم، و لكن بالوصية اليهم؛ و هم على و بقية الاثنى عشر (عليهم‌السلام)، و الله يعلن الإمامة لمن قبله فيوصى السلف للخلف. و ليست بيعة الجماعة لهم إلا إعلان رضا المسلمين بهم، و لا- ترشيحهم أو اختيارهم. و الشيعة الامامية يرون «واجبا على الله تعالى» أن ينصب إماما للناس لطفا منه بعباده. و أهل السنة يرون نصب الامام «واجبا على الناس». أما الخوارج فلا يرون واجبا نصب الامام، بل يرونه «جائزا»، إلا اذا قامت الحاجة اليه فيجب. و هم كالمعتزلة يرون أن الخلافة يصلح لها أصلح رجل فى الأمة عربيا أو غير عربى، و يرون أنها تكون بانتخاب حر، و يؤثرون ان ينتخب غير قرشى، لتيسر اقصائه ان أخطأ. يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «لا يموت الامام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصى له». «أترون الموصى منا يوصى الى من يريد؟ لا- و الله. و لكن عهد من الله و رسوله لرجل فرجل، حتى ينتهى الأمر الى صاحبه». و يقول لتلميذ له: «يا أبامحمد ان الله افترض على امة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) خمس فرائض؛ الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و ولايتنا. فرخص لهم فى أشياء من الفرائض الأربعة، و لم يرخص لأحد من المسلمين فى ترك ولايتنا. لا و الله ما فيها رخصة. و قال النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) «من مات و عليه إمام مات ميتة جاهلية». عليكم الطاعة فقد رأيتم أصحاب على. و من توفيق الامام جعفر، و أبنائه (عليهم‌السلام)، أنهم لم يطلبوا لأنفسهم خلافة دنيوية. و بهذا يتميز تاريخ الشيعة الامامية من الشيعة الاسماعيلية، التى ستظهر بعد موت الامام بوقت طويل... و التى كان من أهدافها ولاية السلطة، و إقامة الدول. [صفحه ۲۳۸] قال سليمان بن خالد للامام الصادق (عليه‌السلام): إن الزيدية قوم عرفوا و خرجوا و شهدهم الناس، و ما على الأرض محمدى أحب اليهم منك. فان أردت أن تدنيهم و تقربهم منك فافعل. فأجاب (عليه‌السلام): «ان كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدونا عن علمنا الى جهلهم، فلا مرحبا بهم، و ان كانوا يسمعون قولنا و ينظرون أمرنا، فلا بأس». و مع أن «مؤمن الطاق» – تلميذ الامام الصادق (عليه‌السلام) – ثبط زيدا عن الخروج، «فالصدوق» يروى عن الامام «الكاظم عليه‌السلام» قول أبيه: «رحم الله عمى زيدا. إنه دعا الى الرضا من آل محمد. ولو ظفر لوفى». فزيد لم يدع لنفسه، لأن الامامة كانت للباقر (عليه‌السلام). و انما كان خروجه تجديدا للاستشهاد عندما تدعو دواعيه. يقول الصادق (عليه‌السلام): «مضى و الله عمى زيد و أصحابه شهداء على مثل ما مضى عليه الحسين بن على بن أبى‌طالب و أصحابه» – بل هو يعلن الاستعداد للاستشهاد، ويراه واجبا من واجبات أهل‌البيت عامة، و الأئمة خاصة. و أبوبصير يروى عنه قوله «ان الله تعالى أعفى نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها. جعل ذلك علينا». و الشيعة مجمعون أن عليا (عليه‌السلام) أولى بالخلافة – من أبى‌بكر و من عمر و من عثمان – لكن عليا سما عن أن يترك فى الأمة صدعا يوم بايع لأبى بكر، و قبل استخلاف أبى‌بكر لعمر، و بايع لعثمان مع المسلمين. و تسبيب البيعة بأنها كانت لرأب الصدع فيه تسليم بأن ولاية شؤون الدولة يمكن أن تنفصل عن الخلافة

الدينية. فلو كانت غير ذلك لما سلم على (عليه‌السلام) فى أمر يخالف الدين. و طالما صارح الخلفاء الثلاثة برأيه الشجاع، و أجمعوا دائما على تقديره، و نزلوا عنده - و سيبقى له فى ضمير التاريخ و صحفه أنه دخل فى إجماع المسلمين. فذلك درس لهم - من دروسه التى لا تكاد تحصى - ليعتصموا بحبل الله جميعا و لا يتفرقوا. و الذين يقولون - من أى فريق - انا عليا (عليه‌السلام) بايع «مرغما» يتأولون. فعلى أعلى [صفحه ۲۳۹] صوتا و مكانا من أن يرغم، أو لا يعلن رأيه، مواجهة. و لما بايع عمر لأبى بكر يوم السقيفة، كان يومئذ - كعلى يوم بايع - يرأب الصدع بين المهاجرين و الأنصار، و هم بين أظهرهم. و لما جعل عمر الخلافة شورى فى الستة بعده، كان مسؤولا عن المسلمين، كما كان أبوبكر يوم استخلفه. و على (عليه‌السلام) فى طليعة المسؤولين، و كمثله الأئمة من بعده. و الذين ينسبون الى الشيعة ما صنعه أو فهمه الدهماء منهم من قدح فى أبى‌بكر أو فى عمر ظالمون. و من الشيعة مفكرون يعلنون أن من تعود البعض من الشيعة أن يلعنوه فى احتفالات مآتم عاشوراء - و قد ظهرت بعد موت الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) بقرن، فى عهد دولة بنى بويه - هو عمر بن سعد قائد الجيش الذى قتل الحسين (عليه‌السلام). جاء فى كتاب الاستاذ أحمد مغنية عن الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام): «و قد حورب المذهب الجعفرى فى عهد العثمانيين و الاتراك... كما أن المفرقين أنفسهم و جدوا فى اتفاق الاسمين: عمر بن الخطاب و عمر بن سعد قاتل الحسين، ميدانا واسعا يتسابقون فيه فى تشويه الحقائق... يعرف الناس جمعيهم ان الشيعة يعنون عناية تامة فى المآتم الحسينية التى تقام أيام عاشوراء و غير عاشوراء من أيام السنة... و الحسين هو موضوع تلك المآتم... و كان طبيعيا أن يكون لعنة اللعنات عمر بن سعد. و من من المسلمين و غير المسلمين لا يلعن عمر بن سعد قاتل ابن‌بنت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)؟... لا أنكر وجود أفراد - بالأمس - سواد الشيعة و بسطائهم لا يفرقون بين هذين الاسمين بل لا يعرفون أن فى دنيا التاريخ الاسلامى عمرين تقيا و شقيا... و ساعد على بعد الشقة و توسيع نطاق الفتنة شيوخ جهلة مرتزقة أئمة من كلتا الطائفتين السنية و الشيعية...». و أيا كانت الجهالة أو العصبية فهى بلاء ابتليت من الأمة يتفجر بذاء و خصومات فى المناسبات - و فيما كان يقع بين مذاهب أهل السنة مشابه منها - و المؤكد أن أئمة [صفحه ۲۴۰] المذاهب منها براء. و أن الجيل الذى تعلم عليهم برىء من التعصب أو الافتراء. و أن العلماء الصدق بعيدون عن متابعة السواد و البسطاء. [۷۵] . و فقه المذهب غزير فى الإمام مذ فتق الكلام فيها التلاميذ فى حياة الامام و بعدها. مستندين الى أحاديث النبى (عليه‌السلام)، وردت فى كتبهم و فى كتب أهل السنة ذاتها - و يرتبون عليها نظرية الإمامة. أما أهل السنة فلهم فى شأن هذه الأحاديث و جهات نظر أخرى حول السند و حول المعنى اللازم. اليك «بعض» الأحاديث: يقول عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس. انى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا... كتاب الله، و عترتى: أهل‌بيتى» [۷۶] و يقول: «إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: كتاب الله حبل ممدود من السماء و عترتى أهل‌بيتى. و لن يفترقا حتى يردا على الحوض. فانظروا كيف تخلفونى فيهما» [۷۷] و يقول: «إنى تارك فيكم خليفتين كتاب الله... و عترتى أهل‌بيتى» [۷۸] و يقول: «انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل و عترتى... فانظروا كيف تخلفونى فيهما» [۷۹] أو: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب [صفحه ۲۴۱] الله و أهل‌بيتى. و انهما لن يفترقا» [۸۰] - ذلك أنه لما رجع عليه الصلاة و السلام من حجة الوداع نزل بغدير خم يوم ۱۸ ذى الحجة فى السنة العاشرة - و الشيعة تعتبره عيدا يسمى عيد الغدير - و كان قد نزل عليه الوحى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك. و ان لم تفعل فما بلغت رسالته. و الله يعصمك من الناس»، فأمر بدوحات فقممن فقال: «كأنى دعيت فأجبت. انى قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى و عترتى. فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض...» ثم قال: «إن الله عزوجل مولاى. و أنا مولى كل مؤمن». ثم أخذ بيد على و قال: «اللهم وال من والاه و عاد من عاداه». [۸۱] . و ابن‌حجر فى صواعقه يقرر أن لهذا الحديث طرقا كثيرة وردت عن نيف و عشرين صحابيا مع اختلاف فى المكان أهو غدير خم أم‌الطائف أم‌المدينة. أما طرقه عن أهل‌البيت فنحو ثمانين طريقا. و فى على قوله (صلى الله عليه و آله و سلم): «من أحب أن يحيا حياتى و يموت ميتتى و يدخل الجنة التى و عدنى ربى فليوال عليا و ذريته من بعده. فانهم لن يخرجوكم من باب هدى و لن يدخلوكم فى باب ضلالة». [۸۲] . و فى أهل‌البيت قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «ألا إن مثل

أهل‌بيتی فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا و من تخلف عنها غرق. و إنما مثل أهل‌بيتی فيكم مثل باب حطة فی بنی‌إسرائيل. من دخله غفر له» [۸۳] و قوله (عليه‌السلام): «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق و أهل‌بيتی أمان لأهل الأرض من الاختلاف». [۸۴] . [صفحه ۲۴۲] و الشيعة مؤمنون بأنه لا ينقض حجة هذه الأحاديث علی منزلة أهل‌البيت و مكانة علی، تأويلها من بعض أهل السنة أو التشكيك فيها من البعض الآخر. و الآخرون يرونها سندا صحيحا فی تكريم علی (عليه‌السلام) و لا يرونها سندا فی الإمامة بالمعنی الذی يريده الشيعة. و لقد كان الصحابة يجلون عليا (عليه‌السلام) كل الإجلال. و الكثرة منهم لا تسلم له بأولوية الخلافة علی سابقيه من الخلفاء. ثم جاء جيل جديد أصبح فيه إنكار هذه الأولوية وسيلة للسلطة لتثبيت شرعيتها، بل طريقا الی أصحاب السلطة، يسلكه من يلتمسون المصلحة أو الجاه أو الراحة. لكن الأمة بقيت علی حب علی و أبنائه (عليهم‌السلام). و كثرتها ككثرة الصحابة فی إجلاله. فالشافعی - أكبر عقل علمی - يضع حب أهل‌البيت بين فرائض الدين، و يذكر المسلمين بأن الصلاة علی أهل‌البيت (عليهم‌السلام) جزء من الصلاة لله. يقول: يا أهل‌بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فی القرآن أنزله كفاكمو من عظيم القدر أنكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له و الامام أحمد يقول: «ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلی» و تشيع أبوحنيفة محل إقرار أو إنكار، و هو القائل: «لو لا السنتان لهلك النعمان» قاصدا مدة دراسته علی الامام الصادق (عليه‌السلام). و مالك بن أنس من أنبه تلاميذ الأمام جعفر ذكرا. و الأربعة أئمة أهل السنة. أخرج أحمد بن حنبل عن عائشة: «جاء رجل فوقع فی علی و عمار عند عائشة. فقالت: أما علی فلست قائلة لك فيه شيئا. و أما عمار فإنی سمعت رسول الله صلی الله عليه و سلم يقول فيه: «لا يخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما». و لقد كان عمار من أول حياته فی الاسلام، حيث كان فی آخر يوم فی حياته فی [صفحه ۲۴۳] الدنيا، مع علی، و فی جنده، استشهد فی صفين و هو فی التسعين... قتلته الفئة الباغية عليه و علی علی معه. و لقد أوصی [۸۵] النبی لعلی أن يغسله صلی الله عليه و آله و سلم و يجهزه و يدفنه و يفی دينه و ينجز وعده، و يبرئ ذمته و يبين للناس ما اختلفوا فيه. و ما ذلك إلا لأن عليا منه و من أهل‌بيته حيث هو. من هذه المكانة لعلی كان معه فی صفين ثمانون من الصحابة الأحياء كلهم بدری، و هؤلاء من أهل الجنة. أما معاوية فمعه الواهمون أو أهل الدنيا الذين يعدهم و يمنيهم، لتصير الأمور الی ما انتهت اليه فی أيامه و ما بعد أيامه. و أما الأمة فجعلت مكان معاوية من علی (عليه‌السلام)، مثلا سائرا فی اللسان العربی: (و أين معاوية من علی). يقول الأحنف بن قيس: دخلت علی معاوية فقدم الی الحار و البارد و الحلو و الحامض مما كثر تعجبی منه. ثم قدم لونا لم أعرف ما هو. فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مصارين البط محشوة بالمخ... و قد قلی بدهن الفستق، و ذر عليه بالطبرزد! فبكيت. فقال ما يبكيك؟ قلت: ذكرت عليا (عليه‌السلام): بينا أنا عنده و حضر وقت الطعام و إفطاره (إذ كان صائما) و سألنی المقام. فجیء له بجراب مختوم. فقلت: ما فی الجراب؟. [صفحه ۲۴۴] قال: سويق شعير. قلت: خفت عليه أن يؤخذ أو بخلت به؟ قال: لا، و لا أحدهما، و لكنی خفت أن يلته الحسن و الحسين بسمن أو زيت. فقلت: محرم هو يا أميرالمؤمنين؟ قال: لا، و لكن يجب علی أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغی الفقير فقره. فقال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله. يری الشيعة أهل‌البيت (عليهم‌السلام) ثانی الثقلين و أولهما القرآن، و الثقل كل خطير نفيس. و هم عدل القرآن فی الأمة، و خلفاء الرسول (صلی الله عليه و آله و سلم) فی الحفاظ علی الشريعة. فللأئمة جميع ماله من المناصب ماعدا رتبة النبوة... ولديهم الكتب التی دون فيها علم النبوة، و فيهم ينحدر الهدی النبوی، و تنحصر الإمامة. و أن الله سبحانه و تعالی يختار للنبوة من يشاء و يختار للامامة من يشاء، و يأمر نبيه بالنص عليه وتنصيبه للناس بعده للقيام بوظائفه، إلا أن الإمام لا يوحی اليه بل يتلقی الأحكام عن النبی مع تسديد السماء له، فهو مبلغ عن النبی، فی حين ان النبی مبلغ عن الله جل شأنه. و الإمامية يرون الإمام إنسانا من البشر، لكنه أفضل أهل زمانه، و لا تجوز عبادته، فهذا عمل من خداع إبليس. و ان من هذا شأنه يجب أن يكون معصوما من الخطأ. فالناقص لا يكمل غيره. و وجه الحاجة الی العصمة فيه و فی النبی واحد؛ [۸۶] و هو حفظ الأحكام عن الخطأ. و إذ كان ذلك كذلك، فما يرد عن الإمام سنة، سواء أكان رواية عن النبی أم كان رأيه لأنه نص. أما مالا لايرد عن الامام فهو محل للاجتهاد وفق القرآن و السنة و الإجماع و الدليل العقلی. [صفحه ۲۴۵] أما ولاية الحكم، فقد رأينا الإمام الصادق و آباءه (عليهم‌السلام) لم يطلبوها

کما لم یطلبها الأئمة من بعده. یقول الکاظم (علیه‌السلام) لهشام: «کما ترکوا لکم الحکمة اترکوا لهم الدنیا». فما أحراهم أن یترکوا للملوک ما یتناحرون علیه. و یعتبر الشیعة الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنی عشر من أصول الدین عندهم. و انها «ردیفة» التوحید و النبوة، فی حین لا یوافق أهل السنة علی ذلک. لا تکفر الشیعة أهل السنة فی إنکارها هذا الأصل... و لا یکفر أهل السنة الشیعة باعتقادها فی الامامة. و انما یشتد الخلاف من جراء الغلو فی الأئمة و نسبة أشیاء الیهم یختلف فی بعضها أهل السنة أنفسهم، کالرجعة، أو القدح فی بعض الصحابة، کعمرو و معاویة و المغیرة. أو یختلف فیها الشیعة أنفسهم کولایة المفضول، و النص علی الامام بالاسم لا بالوصف... مما حدا بالأضداد و الأشیاع الی تبادل أزمة الثقة. أما الفقهاء فأدخلوا خلافاتهم فی إطار ما یختلف فیه المجتهدون. و أما المتعصبون، من کل ملة، فیتقاطعون... و ما یتقاطعون إلا للمصلحة أو للغلواء أو لضیق الأفق. [۸۷] . [صفحه ۲۴۶] و مرد عدم التکفیر - بین الشیعة و اهل السنة - مع الخلاف فی الاعتقاد بالإمامة، [صفحه ۲۴۷] الی ان الأصول - کما یقول الشیعة - ثلاثة: التوحید، النبوة، و البعث - و یکفی من التوحید الایمان بوحدانیة الله تعالی... و یکفی من النبوة الایمان بأن محمدا رسول الله صادق فیما أخبر به معصوم... و یکفی من المعاد الاعتقاد بأن کل مکلف یحاسب بعد الموت. أما الفروع التی هی من ضرورات الدین فهی کل حکم اتفقت علیه المذاهب الإسلامیة کافة، من غیر فرق بین مذهب و مذهب کوجوب الصلاة... فإنکار حکم من هذه الأحکام إنکار للنبوة و تکذیب لما ثبت فی دین الاسلام بالضرورة... [۸۸] . و ضرورات «المذهب الشیعی» نوعان... نوع یعود للأصول و هو الإمامة. فیجب أن یعتقد کل «شیعی» إمامة الاثنی عشر إماما. و النوع الثانی یرجع الی الفروع کنفی العول و نفی التعصیب. فمن أنکر فرعا منها کان غیر شیعی و ان کان مسلما. و الایمان و الاسلام عند الشیعة مترادفان... یثبتان لمن آمن بالتوحید، و النبوة، و البعث. و یطلقان علی معنی أخص... هو هذه الأرکان، و معها رکن العمل بدعائم الاسلام - و هی الصلاة و الزکاة و الصوم و الحج و الجهاد - و یزیدون رکنا خامسا هو الاعتقاد بالإمامة، و أنها منصب إلهی کالنبوة، منصوص علی من یلیها، و ان الإمام [صفحه ۲۴۸] أفضل أهل زمانه، و معصوم. فمن اقتصر علی الأرکان الأربعة الأولی مسلم مؤمن. و انما الاعتقاد بالإمامة له أثر فی منازل القرب و الکرامة یوم القیامة. یقول الامام محمد الحسین آل کاشف الغطاء: «نعم یظهر أثر التدین بالإمامة فی منازل القرب و الکرامة یوم القیامة - أما فی الدنیا فالمسلمون بأجمعهم سواء. و بعضهم لبعض أکفاء. و أما فی الآخرة فلا شک أن المسلمین تتفاوت درجاتهم و منازلهم حسب نیاتهم و أعمالهم. و أمر ذلک و علمه عند الله سبحانه. و لا مساغ للبت به لأحد من الخلق. و الغرض أن أهم ما امتازت به الشیعة عن سائر فرق المسلمین هو القول بإمامة الأئمة الاثنی عشر؛ و به سمیت هذه الطائفة بالإمامیة. إذ لیس کل الشیعة تقول بذلک... و القول بالاثنی عشر لیس بغریب عن أصول الاسلام و صحاح کتب المسلمین. فقد روی البخاری و غیره فی صحاحه حدیث الاثنی عشر خلیفة بطرق متعددة، فیها بسنده عن النبی (صلی الله علیه و آله و سلم): «أن هذا الأمر لا ینقضی حتی یمضی فیهم اثنا عشر خلیفة». [۸۹] . [صفحه ۲۴۹] و الشیعة یعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجة علی العباد من نبی أو وصی، ظاهر أو مستور، فالامام «المهدی» الثانی عشر «غائب» منتظر. و الامامة منصب دینی لا یجوز التنازل عنه لأنه من الله. و لما تنازل علی (علیه‌السلام) للخلفاء السابقین علیه کان التنازل عن الخلافة الدنیویة، وحدها، و بناء علی أسباب. [صفحه ۲۵۰]

امور خلافیة فی الفقه

اشاره

یظهر من استعراض کبریات مسائل الخلاف بین الشیعة و بین مذاهب أهل السنة، فی الفقه، أنها لا تمس أصل الدین، و أنها تحتمل الاجتهاد، و تتسع للخلاف علیها، کما اتسعت أمور أمثالها للخلاف بین مذاهب أهل السنة ذاتها - إلا زواج المتعة. فالخلاف فیه یتمیز مما عداه: أما الفرائض الدینیة فواحدة عندهم و عند أهل السنة. فی «الصلاة»: الفروض واحدة لدی أهل السنة ولدیهم. و عدد

الركعات فيها واحد. اما المندوب عندهم فلا حصر له. و أفضله عندهم «الرواتب». و عددها «على المشهور» ثمانية للظهر و ثمانية للعصر قبل الفريضة و أربع للمغرب بعد الفريضة و العشاء ركعتان جالسا و يجوز قائما و ثمانية ركعات صلاة الليل و ركعتا الشفع و ركعة الوتر و ركعتا الصبح قبل الفريضة... فالرواتب عندهم كثيرة... و يشترطون القراءة فى الصلاة باللغة العربية. و لا يجيزون الترجمة. و يشترطون الجهر بالبسملة. و فى «الزكاة» و وجوه البر، لا يختلفون عن جمهور المسلمين. بل هم يضيفون اليها «خمس» الدخل، الذى يجبى للإمام، لإنفاقه فى مصارفه الدينية. و فى «الصوم»: يرون الكذب على الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) يفطر الصائم. و فى «الحج»: جهاد لا يسقط بالموت بل يؤديه الوارث عن مورثه. و للغير أن يؤديه عنه من مال للموروث قبل أن تقسم التركة. و يكثرون من مظاهر «الروح الإسلامى» فى العقود. فيستحبون البدء بالبسملة فى كل معاملة، و يحرصون على الصيغة العربية. و يكرهون معاملة تارك الصلاة و المستهتر. و يحرمون الاتجار بما يترتب عليه فساد المجتمع. و فيما يلى أنواع خلاف بينهم و بين أهل السنة، لعلها تبين الإطار العام أو المعالم المهمة، للوفاق و للخلاف بين الفريقين. [صفحه ۲۵۱]

الجمع بين الصلاتين

المسلمون مجمعون على جواز الجمع فى الحج فى جبل عرفة بين الظهر و العصر و فى المزدلفة بين المغرب و العشاء للحجاج خاصة - أما غير ذلك فمحل خلاف. فالشيعة يجيزون الجمع مطلقا جمع تقديم و تأخير، لعذر و غير عذر، فى السفر و الحضر، و ان كان التفريق عندهم أفضل - إلا إذا حدث حرج. و حجة الشيعة مشتقة من صحاحهم و من تفسير الامام الصادق عليه‌السلام لقوله تعالى: «أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل و قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا». فالغسق هو تراكم الليل و اشتداد الظلمة. و بهذا تكون أوقات الصلاة الأربعة ممتدة من الزوال الى نصف الليل. فالظهر و العصر ينتهيان فى الغروب. و المغرب و العشاء الى نصف الليل. اما الصبح فقد اختصها الله بقوله: «و قرآن الفجر ان اقرآن الفجر كان مشهودا».

الاذان

كان بلال - مؤذن الرسول - يؤذن لصلاة الصبح فيقول بعد «حى على الفلاح»: «الصلاة خير من النوم». و أقره الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) على ذلك. و الشيعة يقولون إن الاذان كان فيه (حتى على خير العمل) حتى عهد عمر - كما قال الامام الباقر (عليه‌السلام). و سبب رفعها من الأذان ان المؤذن وجد عمر نائما عند أذان الصبح فأضاف: (الصلاة خير من النوم) - كما أورد الزرقانى فى تعليقه على الموطأ - فاستحسنها عمر [صفحه ۲۵۲] فأمر أن تضاف الى أذان الصبح. و أخرج ذلك ابن أبى‌شيبة. [۹۰] . و علماء الشيعة متفقون على أن قول «أشهد ان عليا ولى الله» ليس من فصول الأذان و أجزائه. و أن من يأتى به بنية أنه من الأذان فقد أبدع فى الدين، أى أدخل فيه ما هو خارج عنه. و يقول الشيعة إن إسقاط (حى على خير العمل) كان بأمر من أولى الأمر فى عهد عمر، حرصا منهم على أن تفهم العامة أن الجهاد فى سبيل الله هو خير العمل، و أن النداء على الصلاة بخير العمل مقدمة لفرائضها الخمسة ينافى التحريض المطلوب للجهاد. فخطب عمر فنهى عنه. [۹۱] . [صفحه ۲۵۳]

المسح على الرجلين

اشارة

يختلف الناس فى أن مسح القدمين هو الفرض أو الغسل هو الفرض، لأن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) توضأ و مسح على قدميه. و الشيعة تستدل بمسح الرسول على قدميه على ان المسح هو الفرض - و مروى عن ابن‌عباس انه قال: ما صح عن رسول الله الا

غسلتين و مسحتين. و يفسرون الآية «و امسحوا برؤوسكم و أرجلكم» بما يسعفهم فى المسح.

الزواج و الطلاق

فى الزواج

المهر لا يقدر قلة و لا كثرة، إلا ان يقصر عن التقويم كأن يقول حبة قمح! أما الكثرة ففيها قول الله: «و آتيتم إحداهن قنطارا»، و ان كان يكره تجاوز مهر السنة الذى أصدقه النبى صلى الله عليه و آله و سلم زوجاته؛ و هو خمسمائة درهم. و يجوز النظر الى وجه المطلوب زواجها دون استئذان و مع الوجه الكفين. و ينظرها قائمة وماشية . و للمرأة أن تنظر الى الرجل – و لا يجوز العزل عن المرأة إلا بإذنها. و للمرأة – بكرا أو ثيبا – أن تزوج نفسها ممن تريد إذا بلغت رشدها، و ان كان من المستحسن أن تستأذن وليها فى ذلك.

فى الطلاق

أما الطلاق الثلاث بفم واحد، فجعله عمر ثلاثا زجرا للناس. و بقى الأمر كذلك ثلاثة عشر قرنا ظهر فيها ما أحوج الى العودة الى الأمر الأول. و الشيعة لم يقبلوا عمل عمر من بادئ الأمر. فالطلاق الثلاث فى مجلس واحد [صفحه ۲۵۴] يقع مرة واحدة. ولا حلف عندهم بالطلاق على عمل. و هذان إصلاحان أحدثتهما مصر فى سنة ۱۹۲۹. و هم يوجبون حضور شاهدين للطلاق، فى حين لا ـ يوجبون حضور شاهدين للزواج. فالزوجية تنشأ دون شهود. لكن الطلاق واجب له الشهود. و المتفقهة الآن من أهل السنة فى مصر يستحسنون إيجاب حضور شاهدين للطلاق، بل هذا تعديل مطلوب فى مشروع قانون للأحوال الشخصية. و هم يمنعون طلاق المغضب، و المتهيج و المنزعج. و يقررون ان الطلاق الذى أمر به الله رسوله هو الذى يقع إذا خاضت المرأة و طهرت من حيضتها، فأشهد الرجل شاهدين عدلين قشبل أن يجامعها على تطليقه. ثم هو أحق برجعتها مالم تحض ثلاثا. فإن مضت ثلاثة قروء قبل أن يراجعها فهى أملك لنفسها. فإن أراد أن يخطبها مع الخطاب خطبها. فإن تزوجها كانت عنده. و ليس للمريض ان يطلق. و له أن يتزوج. فان تزوج و دخل بها فجائز. و ان لم يدخل و مات بطل الزواج. و لا مهر و لا ميراث للزوجة. فلنلاحظ اليسر فى الزواج عندهم. و التشدد فى الطلاق. و رعاية المرأة فى كل حال. و الحرص على الأسرة.

زواج المتعة: (الى أجل معين)

و الشيعة يسمونه الزواج المؤقت. و يرجعونه الى قوله تعالى: «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن». و المفسرون متفقون على ان جماعة من الصحابة العظماء أفتوا بإباحتها؛ منه: ابن‌مسعود، و أبى بن كعب، و ابن‌عباس، و جابر بن عبدالله، و عمران بن حصين. بل كانوا و هم يتلون الآية ينطقون بتفسيرها فيقرأون «فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى». فالمشروعية ثابتة و العمل بها ثابت. و إنما يحزم أهل السنة بأنها أبيحت لدواعيها ثم نسخت بأحاديث جازمة. [صفحه ۲۵۵] و الشيعة لا ـ يرونها أحاديث ثابتة. و يقولون ان الحلال القطعى الثبوت لا ينفيه تحريم غير قطعى. و هم يقولون ان المتعة سائغة فى السفر لطلب العلم و التجارة و الجهاد، فلقد كانت مشروعيتها للسفر و للجهاد. و إنها زواج عادى، لولا انه الى أجل. فالزوجة فى زواج المتعة تعد اذا انتهى الأجل، ككل طلاق. و لابد من المهر... و الابن من الزواج هو ابن‌عادى، له الميراث و النفقة. اما الزوجة فلا نفقة و لا ميراث لها، إلا اذا اشترطت. و ليست النفقة من لوازم الزوجية، فالناشز زوجة و لكنها بلا نفقة. و من النساء من ترث و ليست زوجة، كمن طلقت فى مرض الموت، و مات زوجها قبل مضى سنة. و الثابت أن عمر أعلن تحريم المتعة إذ خطب الناس فقال «متعتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و على عهد أبى‌بكر رضى الله عنه، و أنا أنهى عنهما...» و أنه حرمها و هو بصدد قضية لعمرو بن حريث ثم أطلق النهى. و أهل

السنة يقرون ان نهى عمر عنها كان إعلانا لتحريم ثابت قبل ذلك. و لم تقبل الشيعة نهى عمر من بادئ الأمر بل قال على: «لو لا نهى عمر عن المتعة مازنى إلا شفا (قليل أو مشرف على الهلكة) أو شقى». وثبت عن الامام الصادق (عليه‌السلام) قوله: «ثلاث لا أتقى فيهن أحدا متعة الحج و متعة النساء و المسح على الخفين». و من نوادر يحيى بن أكثم قاضى المأمون أنه سأل شيخا من أهل البصرة: بمن اقتديت فى جواز المتعة؟ قال: بعمر. قال: كيف، و كان من أشد الناس فيها؟ قال: إنه صعد المنبر فقال: أيها الناس! متعتان أحلهما الله و رسوله لكم، و أنا أحرمهما عليكم و أعاقب عليهما. فقبلنا شهادته و لم نقبل تحريمه. [۹۲] . [صفحه ۲۵۶]

الميراث

للشيعة تفسير فى المواريث فى صالح البنات، لذواتهن، و لمن يتوسل للميراث بهن. يقول تعالى: «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد و له أخت فلها نصف ماترك و هو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك و انما كانوا إخوة رجالا و نساء فللذكر مثل حظ الأنثيين». و هم يرون البنت ولدا فى اللغة و العرف، و لذلك يعطون البنت دائما، و لا يعطون الأخت أو الأخ ان كان هناك بنت أو ابن فكلاهما ولد. و هم يسقطون الوصية مادام هناك ولد (ابن أو بنت). و للشيعة قاعدة: ان كل فريضة لم يهبطها الله إلا الى فريضة، تكون مقدمة عند «العول»؛ و كل فريضة، إذا زالت عن فرضها، لم يكن لها إلا ما بقى، تكون مؤخرة. [صفحه ۲۵۷] مثال ذلك للزوج النصف فإن هبط له الربع، فإن دخل عليه فى التقسيم ما يزيد عن السهام رجع الى الربع المفروض. و لا- يزيله عن الفرض شىء. و مثله الزوجة و الأم. أما البنات و الأخوات فلهن النصف و الثلثان. فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لهن إلا ما بقى. فإذا اجتمع ما قدم الله و ما أخر بدئ بما قدم الله فأعطى حقه كاملا. فان بقى شىء كان لما أخر. و هو تطبيق لحديث ثابت عندهم، أورده الشهيد الثانى [۹۳] - و أورده الحاكم فى المستدرك و قال: إنه صحيح على شرط مسلم - و يستشهد أهل السنة بآيات و يستشهد الشيعة بآيات. و هم ينفردون بما يسمى (الحبوة) للولد الأكبر؛ ملابس أبيه و ثيابه و مصحفه و خاتمه زيادة على حصته فى الميراث - كما ينفردون بعدم توريث الزوجة من عقار الزوج و رقبة الأرض عينا و قيمة، لأخبار وردت عن الأئمة مروية عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم).

متعة الحج

ينوى الحاج إحرامه من ميقاته (أماكن القصد الى البيت الحرام) و المتمتع يأتى مكة و يطوف بالبيت، ثم يقصر و يحل من إحرامه و يقيم بعد ذلك حلالا، ثم يفيض الى المشعر الحرام، ثم يأتى بأفعال الحج بإحرام جديد. و هذان التقصير و الإحلال تيسير بإباحة محظورات الإحرام فى المدة المتخللة بين الإحرامين. و هذا ما كرهه عمر و حرمه قائلا: هى سنة رسول الله لكنى أخشى أن يعرسوا بهن - نسائهم - تحت الأراك ثم يروحون بهن حجاجا، فخطب و نهى عن هذه المتعة مع متعة الزواج. و مع ذلك فابن عمر يقول عن عمل أبيه: أرأيت إن نهى عنها أبى، و صنعها رسول الله! أأمر أبى‌أتبع أم‌أمر رسول الله؟ و ابن‌عباس كعلى لا يحرمان ما حرمه عمر. و لما قدم على من اليمن وجد فاطمة الزهراء (عليهاالسلام) قد حلت و لبست صبيغا، و اكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: ان أبى‌أمرنى بهذا. فذهب الى [صفحه ۲۵۸] رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: صدقت صدقت. و الشيعة لهذا يرون متعة الحج.

التفسير بالتأويل

يروى الشيعة عن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) أنه قال: «ان للقرآن ظاهرا و باطنا، و لبطنه بطن الى سبعة أبطن» و يروون عن على (عليه‌السلام) أنه قال: «ما من آية قرآنية إلا و لها ظاهر و باطن، وحد و مطلع». و يروى هذا البيان عن «سهل التسترى»، من المفسرين الصوفيين، و انه أضافه. فالظاهر: التلاوة. و الباطن: الفهم. والحد: حلالها و حرامها. و المطلع: إشراف القلب على المراد به فقها عن الله

عزوجل. قيل له ما الباطن؟ قال: فهمه. و يروون عن الامام الصادق (عليه‌السلام) انه قال: «ان فى كتاب الله أمورا أربعة: العبارات و الإشارات، و الحقائق و اللطائف. فالعبارات للعوام. و الإشارات للخواص. و اللطائف للأولياء. و الحقائق لأنبياء الله». و المتتبع لتفسيرات الامام الصادق و أجوبته على المسائل يجدها تنبع من بحر عميق فى فهم القرآن و اللسان العربى، أمكنه أن يكشف للناس بين الفينة و الفينة ما فيه من شمول و ما بينه و بين السنة من صلة الأصل بفرعه. و بذلك قدر الامام (عليه‌السلام) أن يفسر القرآن بالقرآن - ففى بيته نزل - و ان يجد للحديث الواحد أصولا عدة، فى آيات متفرقة، بمجرد ان يدلى اليه سائل بسؤال! و هو منهج سيتتابع عليه عظماء الأئمة من أهل السنة، و فى طليعتهم أحمد بن حنبل. و لا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الامام الصادق (عليه‌السلام) من أضرب التفسير بالرأى أو بالمأثور أو بهما - و هى مصنفة بين عقلى و نقلى و صوفى و رمزى و قصصى... الخ - و فى البعض منها تأويل باطنى. و ابن‌عطية من كبار مفسرى أهل السنة ينفى صحة نسبة تفسير باطنى أو رمزى الى الامام الصادق، و يقول: «... و هذا قول جار على طريقة الرموز. و لا يصح عن جعفر [صفحه ۲۵۹] بن محمد - رضى الله عنه - و لا ينبغى أن يلتفت اليه». اليك مثلا - بين نظائر تجل عن الحصر - لاستعمال اللسان العربى فى التفسير: يقول زرارة للامام الصادق (عليه‌السلام): من أين علمت أن المسح ببعض الرأس؟ و يجيب الامام: لمكان الباء فى قوله تعالى «و امسحوا برؤوسكم». يقصد أن الباء للبعضية. و لقد تتابع على هذا التفسير الائمة فى اللغة و الفقه. جاء فى المصباح المنير فى مادة (بعض) ان الباء فى قوله تعالى (و امسحوا برؤوسكم) للتبعيض... و نص على مجيئها للبعض ابن‌قتيبة، و أبوعلى الفارسى، و ابن‌جنى. و ذهب الى مجىء الباء بمعنى البعض الشافعى، و هو من أئمة اللسان. و قال بمقتضاه أحمد و أبوحنيفة. و من استعمال ظاهر اللسان العربى تفسير «الكوثر» بأنه الذرية الكثيرة، فى قوله تعالى: «إنا أعطيناك الكوثر». فهى صيغة مبالغة من الكثرة (فوعل)، يؤيد ذلك. الآية التى تجىء فيما بعد «ان شانئك هو الأبتر»، و الأبتر من لا عقب له. و بهذا ساغ تفسير الشيعة بأن الكوثر هو الذرية. و قد رزق الله النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) الذرية الكثيرة من فاطمة (عليهاالسلام). فهى الكوثر المقصود. و الآخرون يقولون ان الكوثر نهر فى الجنة، و غيرهم يؤولونه بأنه النبوة. و لقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الامام، كالخوف من عدم العدل بين النساء، و الإنفاق من رزق الله، و رؤية الله جل شأنه، و قتل النفس بإخراجها من الهدى الى الضلال، و التفسيرات التى جعلت أباحنيفة يقول عن آية «و ما نقموا إلا أن أغناهم الله و رسوله من فضله»، لكأنى ما قرأتها قط فى كتاب الله و لا سمعتها إلا فى هذا الموقف. و هى جميعا صادرة عن فهم دقيق للسان العربى الذى نزل به القرآن. و التفسير بالظاهر ممن يفهم البلاغة العربية و مجازاتها المتعددة و الاستعارة، و الإيجاز اللفظى، و هو بعض خصائص الإعجاز البيانى فى القرآن، لا ينفى استعمال العقل، بل فيه مجال واسع له، و لا ينفى القيمة العظيمة لتفسير الزمخشرى المعتزلى، و هو حجة فى اللغة، و حجة فى الجمع بين الظاهر و بين وجوه «الرأى»، بالمعانى [صفحه ۲۶۰] الدقيقة و أسرار البلاغة. [۹۴] . و ممن أثارهم الإعجاب به الامام يحيى بن حمزة العلوى (۷۴۹) صاحب كتاب الطراز. و ما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل‌البيت (عليهم‌السلام) إلا تلقته العقول بالقبول، لأنه لا يغاير النص من القرآن و السنة، و إنما يشرحهما فى نورانية باهرة، [۹۵] فى حين ان المعتزلة يؤولون ليخضعوا المعنى لأصولهم الخمسة. [۹۶] و هذا خلاف عظيم بين [صفحه ۲۶۱] المؤولين، و بين الامام الصادق و الشيعة الامامية. أما الاسماعيلية، فلهم بعض التأويلات الباطنية التى تهمل المعنى الظاهر و تحمل الألفاظ ما لا تحتمله. و الاسماعيلية فرقة شيعية لم تظهر إلا بعد موت الامام جعفر الصادق (عليه‌السلام) بقرن أو أكثر.

البداء؛ و مفهومه الشائع: الظهور بعد الخفاء

نسب الى الشيعة القول بأن الله يبدو له فيغير ما قرره لظهور طارئ. و أطلقوا على ذلك لفظ البداء. و الشيعة الامامية لا تقول شيئا بهذا المعنى - بل تعتقد ان الله عالم بكل شىء... و علمه أزلى بما كان و ما يكون. يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «ما بدا لله فى شىء إلا كان فى علمه قبل أن يبدو له». و سأله منصور بن حازم: هل يكون اليوم شىء لم يكن فى علم الله بالأمس؟ قال: «لا... من قال هذا

فقد أخزاه الله». قال منصور: ما كان و ما هو كائن الى يوم القيامة أليس فى علم الله؟ قال: «بلى قبل أن يخلق الخلق» و يروى عنه (عليه‌السلام) قوله: «إن الله لم يبد له عن جهل». فجميع الكائنات الممكنة، قبل أن تخلق، قدرها الله تعالى و كتبها بمشيئته و إرادته فى اللوح المحفوظ. و الله تعالى يقول: «يمحو الله ما يشاء و يثبت» و كل ما يتعلق به القضاء، و التقدير، لابد له من تعلق الإرادة و المشيئة به. و ما لا ـ يكون قضاؤه و تقديره حتميا مما هو مورد المحو و الإثبات تتعلق المشيئة بمحوه و إثباته. و قد يكون وجوده، و تكوينه بإرادة الله تعالى، منوطا أى مشروطا، بتحقق أمر آخر. فيكون قد جرى فى علمه تعالى أن يوجد اذا حصل ما اقتضت المصلحة، التى يعلمها الله، أن تكون شرطا. و الله تعالى يقول: «فقلت استغفروا بكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا» و يقول: «ولو ان أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء [صفحه ۲۶۲] و الأرض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون». و روى أحمد فى المسند أن النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. و لا يرد القدر إلا الدعاء. و لا يزيد فى العمر إلا البر». و عن أبى‌سعيد ان النبى (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم و لا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يستجيب لدعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها». قالوا: يا رسول الله إذن نكثر. قال: «الله أكثر». و من القضاء علم مخزون لا يطلع الله عليه أحدا... فلا بداء فيه، و قضاء أخبر به ملائكته و رسله، فهذا أيضا لا ـ بداء فيه، و قضاء معبر عنه بلوح المحو و الإثبات؛ و فى هذا القسم يرد قول الشيعة بالبداء: «يمحو الله ما يشاء و يثبت». و الشهرستانى ينفى عن الامام جعفر عليه‌السلام ما ينسب اليه من أقوال فى الغيبة و البداء بمعنى تغيير إرادة الله.

الرجعة

القول بالرجعة ليس مجمعا عليه فى الفكر الشيعى. فمنهم من لا يعتبرها عقيدة، و منهم من يأخذ بها، كما أخذ بعض أهل السنة ببعض أنباء الغيب و حوادث المستقبل و أشراط الساعة... مثل نزول عيسى من السماء، و ظهور الدجال الذى يظهر قبل الإمام بقليل فيقتله الامام، و خروج السفيانى. يقول بعض الشيعة: ان عقيدة البعث أصل مجمع عليه، و انه عندما يؤخذ القول بالرجعة على انها بعث فلا وجه لنفى العدالة عمن يفهمها كذلك. و يقول الامام محمد حسين آل كاشف الغطاء من أئمة الشيعة (الامامية) المعاصرين: «و ليس التدين بالرجعة فى مذهب التشيع بلازم، و لا انكارها بضار، و ان كانت ضرورية عندهم و لكن لا يناط التشيع بها وجودا أو عدما». و يقول: «و حديث الطعن بالرجعة كان هجيرى علماء السنة... فكان علماء الجرح [صفحه ۲۶۳] و التعديل اذا ذكر بعض العظماء من رواة الشيعة و محدثيهم و لم يجدوا مجالا للطعن فيه لو ثاقته و ورعه و أمانته نبذوه بأنه يقول بالرجعة فكأنهم يقولون يعبد صمنا أو يجعل لله شريكا. و نادرة مؤمن الطاق مع أبى‌حنيفة معروفة. و أنا لا أريد أن أثبت فى مقامى هذا و لا غيره صحة القول بالرجعة و ليس لها عندى من الاهتمام قدر قلامة ظفر...». يقول الشيخ محمد رضا المظفر فى كتابه (عقائد الامامية): «من يستغرب الرجعة يكون بمثابة من يستغرب البعث فيقول «من يحيى العظام و هى رميم» فيقال: «قل يحييها الذى أنشأها أول مرة و هو بكل خلق عليم»، و ينهى بحثه فى هذا الصدد بقوله: على كل حال، فالرجعة ليست من الأصول التى يجب الاعتقاد بها. و انما اعتقادنا بها كان تبعا للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت الذين ندين بعصمتهم من الكذب. و هى من الأمور الغيبية التى أخبروا بها و لا يمتنع وقوعها». و ابن‌الجوزى الحنبلى يسمى القائلين بالرجعة فى كتابه «تلبيس إبليس» (الرجعية). و لقد أسلفنا تضعيف بعض محدثى أهل السنة للقائلين بالرجعة. [صفحه ۲۶۵]

المنهج العلمى

اشاره

ان العلم هو علم محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)، فى ميراث محمد (صلى الله عليه و آله و سلم). (ابن تيمية) [صفحه ۲۶۷] فى الباب الحالى فصول ثلاثة تحاول تصوير منهج الإمام الصادق (عليه‌السلام) «العلمى»، و«الحضارى» «السياسى و الاقتصادى»، كما رسم خطوطه بالفعل و بالقول، و كما اقتفى آثاره و بنى عليه علماء الاسلام، الفقهاء منهم و الرياضيون و التطبيقيون، مستمتعين بحرية الفكر و البحث التى وردت بها نصوص الكتاب العزيز و أمرت بها السنة. و كان الامام الصادق (عليه‌السلام) من الأوائل فى تعليمها للمسلمين، ممن انتسبوا اليه و ممن أخذوا عنهم... يستوى فى ذلك الشيعة و فقهاء أهل السنة. على هؤلاء الفقهاء و العلماء تعلمت أوربا منهج النزاهة العلمية و الواقعية الذى تبلور فى طريقة «التجربة و الاستخلاص»، و الذى أعلنه جابر بن حيان - أول من استحق فى العالم لقب كيميائى كما يعبر عنه الأوربيون. و من المنهج الحضارى: المنهج السياسى و الاقتصادى الذى يستهدف عمارة الدنيا بالعدل فى الناس، و العمل للحياة، و التكافل بين أعضاء الجماعة، و السعى لاستثمار طاقات الناس و أموالهم - و هى قواعد بلغ بها الفقه الشيعى غايته، ابتداء من منهج أميرالمؤمنين على، معمولا به فى حياته أو خلافته، أو منصوصا فى عهده للأشتر النخعى، و كله سياسة و اجتماع و اقتصاد، الى رسالة حفيده زين‌العابدين فى الحقوق، و هى تجرى فى آثاره، الى برنامج حفيده الصادق العلمى و الحضارى، السياسى و الاقتصادى، يدلى به للناس، و يطبقه بنفسه، و يضع به الأسس لدول أو مجتمعات، أو جماعات، أو جمعيات، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوجها به. و هذه خصيصة لا يجارى الصادق (عليه‌السلام) فيها عالم من العلماء فى التاريخ . و حسبنا فى هذا المقام كلمات، كالاشارات، تضمنتها الفصول الثلاثة التى حواها هذا الباب. [صفحه ۲۶۸]

التجربة و الاستخلاص

اشارة

أما اذا خرجت من الإنكار الى منزلة الشك، فإنى أرجو أن تخرج الى المعرفة. (جعفر الصادق عليه‌السلام) لو أتيح لى الأمر لحرقت كتب أرسطو كلها، لأن دراستها يمكن أن تؤدى الى ضياع الوقت و إحداث الخطأ و نشر الجهالة. روجير بيكون (۱۲۹۴ ميلادية) لم يكن روجير بيكون فى الحقيقة إلا واحدا من رسل العلم الاسلامى و المنهج الاسلامى الى أوربا المسيحية. روبر بريفو [صفحه ۲۷۱] أتيحت للإمام الصادق حقبة طويلة للتعليم يتلقاه أو يلقيه. فلم يحبس كمثل ما حبس الكثيرون من أهل‌بيته، أو يقتل كما قتل عظماؤهم. و لم يصطدم مذهبه الفقهى بمذهب فقهى للسطان. فبنو أمية و بنوالعباس، حتى عهده، لم يكن لهم مذهب فقهى - ان لم تظهر المذاهب «رسميا» إلا فى أخريات القرن الثانى للهجرة، عندما صير أبويوسف مذهب أبى‌حنيفة مذهب السلطان. و استعصمت المدينة بفقهها، ثم ظهر الشافعى فى أواخر القرن الثانى. و لم يصطدم الامام بمذهب سياسى للخليفة - إذ لم يظهر اعتناق الدولة للاعتزال إلا فى عصر المأمون فى مطلع القرن الثالث. و كان الجهميون و القدريون مستضعفين، و لم يكن لمناقشات أصحاب الملل و النحل شأن يستلفت النظر. بهذا أتيح للإمام (عليه‌السلام) فى مجلسه العلمى، و اقتداره الذى يسلم به الجميع... ان يرسى فى أمنة و اطمئنان، قواعد «منهج علمى» ما يزال يعبر القرون باعتباره فتحا من الفتوح التى فتحها الله على البشر. و فحوى المنهج ان العلم «مشاهدة» و «نزاهة فكرية» فى «استخلاص» النتائج لا يقبل الله سواها من عالم أو متعلم. فى هذا الفحوى قول الامام (عليه‌السلام): «اطلبوا العلم، فانه السبب بينكم و بين الله». - و السبب الى الله لا يقوى إلا بقلب خاشع. و من ثم وجب إخلاص النية فيه، و صدق الهمة فى تلقيه، و قبول حقائقه دون تلويثها بشوائب الهوى أو الغرض أو المقررات السابقة، أو العوامل الخارجية. [صفحه ۲۷۲] و بهذه الخصائص تصبح «النزاهة العلمية» سمتا للعبادة و شأوا للسيادة - يقول الامام (عليه‌السلام): «الملوك حكام على الناس و العلم حاكم عليهم... حسبك من العلم أن تخشى الله. و حسبك من الجهل أن تعجب بعلمك». و لتحقيق ذلك يأمر الإمام طالب العلم - من بدء أمره - بالتحلى بخصال، و ينهاه عن نقيضها. يقول (عليه‌السلام): «لا تطلب العلم لثلاث؛ لترائى به و لا لتباهى به و لا لتمارى

به. و لا تدعه لثلاث: رغبة فی الجهل و زهادة فی العلم و استحیاء من الناس». و ما المراء أو الإصرار علی عدم المعرفة أو تحقیر العلم أو خوف النقد إلا ـ خروق واسعة تتساقط منها کنوز العلماء، و مواهب المتعلمین، و واجب الفرد فی أن یتعلم، فی أمة فرض رسولها العلم علی کل مسلم و مسلمة. فالعلم فی الإسلام طریق للبقاء و التقدم. و یقول لمحمد بن النعمان (مؤمن الطاق)، و هو المناضل الجدل: یابن النعمان: إیاک و المراء فإنه یحبط عملک، و إیاک و الجدل فإنه یوبقک. و إیاک و کثرة الخصومات فإنها تبعدک من الله. و ان من قبلکم کانوا یتعلمون، و انتم تتعلمون الکلام... إنما ینجو من أطال الصمت عن الفحشاء... إن أبغضکم إلی المترئسون، المشاءون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم. و انما أولیائی الذین سلموا لأمرنا و اتبعوا آثارنا. و لیست البلاغة بحدة اللسان، و لا بکثرة الهذیان، و لکنها إصابة المعنی و قصد الحجة... یا بن النعمان... إن أردت أن یصفو لک ود أخیک فلا تمازحنه و لا تجارینه و لا تباهینه. لا تطلع صدیقک من سرک إلا علی ما لو اطلع علیه عدوک لم یضرک. فإن الصدیق قد یکون عدوک یوما... و من أدوات المنهج طمأنینة المعلم و المتعلم، بالاستغناء عن الناس، فالإمام یحث تلامیذه علی العمل للرزق، و یمدهم بالمال، لیتجروا، و یستغنوا عن الناس لیستمع الیهم الناس، و لیقدروا علی الاستمرار فی التلقی و فی الإلقاء. و من أدواته التعمق و التخصص. فالعلم لا یعطیک بعضه إلا ـ ان تعطیه کلک، کما [صفحه ۲۷۳] یقول أبویوسف: فأبان بن تغلب وزرارة بن أعین متخصصان للفقه . یفتیان الناس فی مسجد الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم). و حمران بن أعین حجة فی علوم القرآن. و مؤمن الطاق للکلام = علم التوحید. و هشام بن الحکم للکلام فی العقائد و فی الإمامة. و أبان بن عثمان للکلام فی الاستطاعة و ما الیها. و المنهج شامل: یسأل الإمام (علیه‌السلام) عن قوله تعالی: «و من یؤت الحکمة فقد أوتی خیرا کثیرا» فیقول: «الحکمة هی المعرفة و التفقه فی الدین». و لما جمع للحکمة المعرفة و التفقه فی الدین کان یعلم الناس أن الفقه وحده لیس الحکمة و إنما هو درجة فیها. و هو القائل: «تفقهوا فی الدین فإن من لم ینفقه منکم فهو اعرابی». و لما جعل مطلق المعرفة بعض الحکمة فتح الباب لکل أنواع العلوم. فلیست المعرفة قاصرة علی العلم الدینی. فهذا ینفیه نصه علی التفقه فی الدین معها. و انما قصد الامام (علیه‌السلام) العلم عموما؛ و منه العلوم التطبیقیة و الفلسفات الاجتماعیة و السیاسیة و الاقتصادیة التی کان لها فی مجالس الامام الصادق (علیه‌السلام) مکان، هو أول مکان تلقاه فی حلقة إمام للدین فی مدارس الاسلام... کمکان جابر بن حیان، و هذه التفرقة بین ألوان المعرفة یوجبها المنهج العلمی علی الدارسین. و هذا الجمع لشتی العلوم إیذان بتطبیق المنهج الإسلامی فی فنون العلم العالمی کما سنری بعد. و للمنهج - بعد - شعار من حب رسول الله (صلی الله علیه و آله و سلم)، و تقدیر أصحابه «محمد رسول الله و الذین معه»، فلا یقبل العلم من رجل، أو یقبل العلم علی رجل، قصر إیمانه عن صیانتهم. [صفحه ۲۷۴] و النص علی العقل و استعماله مستمد من القرآن الذی طالما خاطب فطرة البشر «لتعتبر» بما تدرکه الحواس من آیات الله، و تتدبرها، و تستصحبها، لتری آلاءه علی عباده، و تشهد تقدیره و تدبیره، فتقنعهم بوجوده و وحدانیته و قدرته، فتصبح الدلیل ما بعده دلیل. [۹۷] . و کما استعمل الصادق (علیه‌السلام) العقل، استعمل الحریة، التی منحها القرآن للإنسان: لا یکره الناس علی أن یکونوا مؤمنین، و لا یستعمل فی جدالهم إلا التی هی أحسن. و لا فی وعظهم إلا الموعظة الحسنة... حتی ثبوت الألوهیة لا یرضاه الله بإکراه. و العقل لا یعمل إلا حرا. و اذا أکره تعطل أو انحرف. و الجدال بعنف تعسف. و للعقل کرامة. و الکرامة هی الحریة. و الاعتبار بالآثار و الأشیاء المیحطة بالناس، بالمشاهدة و الاستخلاص، ثم الحریة و الأمانة فی التفکیر و التقدیر، أی النزاهة الفکریة، هما صمیم المنهج. و هو لا یتجلی قدر ما یتجلی فی الدلالة علی الله جل ثناؤه. الیک مثلا من زندیق تحداه بقوله: کیف یعبد الله الخلق و لم یروه؟ قال الصادق (علیه‌السلام): رأته القلوب بنور الإیمان. و أثبتته العقول بیقظتها إثبات العیان، و أبصرته الأبصار بما رأته من حسن الترکیب و إحکام التألیف. ثم الرسل و آیاتها. و الکتب و محکماتها. و اقتصر العلماء علی ما رأوه من عظمته دون رؤیته. فلنلاحظ أنه یبدأ بآثار الله التی یراها الناس فی نور الایمان، و یثبتها العقل و البصر، ثم یثنی بالرسل اللافتین انظار الناس الی آیات الله، و بالنصوص المحکمة التی جاءوا بها. و أخیرا یذکر ما یحصله العلم المحدود بما یراه العلماء من آثار ذلک. لکن الزندیق یستمر: ألیس هو قادرا أن یظهر لهم. فیعرفوه فیعبد علی یقین؟ قال الصادق (علیه‌السلام): «لیس للمحال جواب». قال الزندیق: فمن أین

أثبت أنبياء و رسلا؟ [صفحه ۲۷۵] قال الصادق (عليه‌السلام): «إنا لما أثبتنا أن لنا خلقا صانعا متعاليا عن جميع ما خلق، و كان ذلك الصانع حكيما، لم يجز أن يشاهده خلقه أو يلامسوه... ثبت أن له سفراء فی خلقه و عباده يدلونهم على مصالحهم...». و مثلا مما يروى محمد بن سنان: «حدثنی المفضل بن عمر قال: كنت ذات يوم بين القبر و المنبر - قبر الرسول بالمدينة - و أنا أفكر فيما خص به الله تعالى سيدنا محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم)... إذ جاء ابن أبی‌العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه... فخرجت من المجلس محزونا متفكرا فيما بلی به الاسلام و أهله من كفر هذه العصابة و تعطيلها. فدخلت على مولای (عليه‌السلام)، منكسرا فقال: مالك؟ فأخبرته. فقال: بكر علی غدا... فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لی فجلست و قمت بين يديه فقال: إن الشكاك جهلوا الأسباب و المعانی فی خلقه. و قصرت أفهامهم عن تأمل الصواب و الحكمة، فخرجوا بقصر علومهم الی الجحود... فهم فی ضلالهم و تجبرهم بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء و فرشت بأحسن الفرش... و وضع كل شیء من ذلك موضعه... فجعلوا يترددون فيها يمينا و شمالا... محجوبة أبصارهم عنها... و الإنسان كالمالك لهذا البيت... ففی هذه دلالة على ان العالم مخلوق بتقدير و حكمة و نظام و ملاءمة. و أن الخالق له واحد. و هو هنا يدلل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود ما لا تلمسه، فهو يستعمل العقل و الواقع معا. و يروى ابن‌بابويه القمی (۳۸۱): «كان ابن أبی‌العوجاء و ابن‌المقفع يلاحظان الجمع الذی كان يطوف بالكعبة فقال ابن‌المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الانسانية إلا هذا الشيخ الجالس - و أشار الی جعفر بن محمد (عليه‌السلام) - فقام ابن أبی‌العوجاء الی الشيخ، و تحدث معه ثم رجع الی صاحبه و قال: ما هذا ببشر، ان كان فی الدنيا روحانی يتجسد إذا شاء ظاهرا، أو يتروح إذا شاء باطنا، فهو هذا... ظل يحصی لی قدرة الله التی فی نفسی، و التی لم أستطع رفضها، حتى ظننت أن الله قد نزل بينی و بينه. [صفحه ۲۷۶] و نزول الله بين الامام و بين ملحد، باعتراف الملحد، آية باقتدار المنهج على بلوغ غرضه، و قدرة مجادل جمع الآيات الربانية حججا بين يدی منكر أخذته حجة الأمر الواقع فأبلس. فاذا تصدى الإمام (عليه‌السلام) للمغالطين أزرى بالسفسطات، و صدمهم - كدأبه - «بالواقع»، فبهتتهم - كأن لم يشهدوها قبل - حقائق الأمر الواقع. طلب واحد من تلاميذه بيانا عن قول أبی‌شاكر الديصانی - زعيم الفرقة الديصانية - و هی طائفة ملحدة تنعم بحرية العقيدة فی بلدان الإسلام - ان فی القرآن ما يدل على ان الإله ليس واحدا، ففيه: «و هو الذی فی السماء إله و فی الأرض إله» فأجاب الامام بقوله: قل له ما اسمك فی الكوفة فيقول: فلان. فقل له ما اسمك فی البصرة؟ فيقول: فلان. فقل له فكذلك: ربنا فی السموات إله و فی الأرض اله و فی البحار إله و فی كل مكان إله. و فی كتاب الإهليلجة المروی عن طريق المفضل بن عمر يوظف الجدل العلمی، فی تنبيه الشكاك على أنهم فی بداية الطريق نحو المعرفة يقول: «أخبرنی هل رقيت الی الجهات كلها و بلغت منتهاها؟... فهل رقيت الی السماء التی ترى أو انحدرت الی الأرض السفلى فجلت فی أقطارها... فما يدريك لعل الذی أنكره قلبك هو بعض مالم تدركه حواسك و لم يحط به علمك... أما إذ خرجت من الإنكار الی منزلة الشك فإنی أرجو أن تخرج الی المعرفة». فلنلاحظ أنه يجادل الرجل بأن يرتفع من الإدراك المادی الی حيث يفكر، و انه يرفع المفكر الی حيث يستيقن، فيطالب الشاك بمزيد من التجربة المحسوبة الملموسة. ليصل من الشك الی المعرفة، و هی مراحل العلم الذی يصل اليه الناس بوسائل مأمونة و مجربة. و هذا المنهج «الواقعی» القائم على النزاهة الفكرية و الحرية العقلية هو الآن منهج [صفحه ۲۷۷] عالمی، يدين بن الجميع للقرآن و أصول الفكر الإسلامی على ما سنرى فيما بعد. [۹۸] . ففی حين استخلص علماء العالم القديم من اليونان «نظريات» عمموها ليخضعوا لها نتائج الاستنباط، و فرضت سيادة الفكر الأرسطی على العقل فی أوربا منطق النظريات و العموميات، و قاومت الكنيسة فی تاريخها القديم حرية التفكير، نرى القرآن ينبه «العقل» على الاعتبار بالمحسوس التی يتمثل فی «الواقع» و ان يرفض الاستسلام للعموميات التی تحكم مقدما أی أمر واقع، و يرشد الإنسان الی توظيف فكره بحرية. بل نرى الامام الصادق (عليه‌السلام) يعتبر «التقليد» مذلة عقلية «و استعبادا للنفس»، و يحاجج فی ذلك قرآنيا، و يفسره تفسيره الرائع. عن أبی‌بصير عن أبی عبدالله الصادق (عليه‌السلام) فی معنى «اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله» قال: «أما و الله ما دعوهم الی عبادة، ولو دعوهم ما أجابوهم، و لكن أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا، فعبدوهم من حيث لا يشعرون». و فی تعبير آخر يقول؛ عن

أبی‌بصیر عن أبی‌عبدالله الصادق (علیه‌السلام)؛ اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دول الله قال (علیه‌السلام): «و الله ما صاموا لهم و لا صلوا، لکن [صفحه ۲۷۸] أحلوا لهم حراما و حرموا علیهم حلالا- فاتبعوهم». فالاتباع دون فهم، فی الحلال و الحرام، أو غیرهما، ترک لزمام النفس فی قبضة الغیر، و إهدار لحریتها و قدرتها، و تلک عبادة لغیر الله، و لیس بعد ذلک کفر. و لیس أبلغ من هذه العبارات فی الدعوة للحریة الفکریة و الحث علی الاجتهاد و توظیف العقل. یقول الشافعی عن مکانة علی فی علوم الاسلام: «کان علی کرم الله وجهه قد خص بعلم القرآن و الفقه لأن النبی (صلی الله علیه و آله و سلم) دعا له. و أمره ان یقضی بین الناس. و کانت قضایاه ترفع الی النبی فیمضیها». و لقد آلی علی نفسه بعد الفراغ من تجهیز الرسول (صلی الله علیه و آله و سلم) ألا یرتدی إلا للصلاة أو یجمع القرآن - کما أسلفنا - فجمعه مهتما بأمور «أصولیة» فی الشریعة و فقهها تتعلق بالمحکم و المتشابه، أی بما لا یحتمل الاجتهاد و ما یحتمله، و بالنصوص التی نسخت و التی هی واجبة التطبیق، و بالمطلق منها و الذی یحتمل التخصیص، و العزائم و الرخص، و بالفروض و المندوبات، و فیها المحرم و المکروه، و ما هو تهذیب للأمة من فضائل و آداب. [۹۹] . [صفحه ۲۷۹] و فی «نهج‌البلاغة» طائفة من أصول الفقه التی ینبه علیها أمیرالمؤمنین (علیه‌السلام) و هذه و تلک أساسیات فی أصول الفقه. و الأصول أدلة فی طریق أو نهج. و لا إمامة إلا بمنهج. و الفقه السنی یعتبر الشافعی أول من اتجه الی تجلیة أصول الفقه فی کتابه (الرسالة) و قد وضعه، و الناس یتحلقون حوله، فی جوار الکعبة بعد سنة ۱۸۴. ولیس غریبا ان نجد النبوغ الشافعی یتلاقی و أمورا أساسیة أهمت من بادئ الأمر علی بن أبی‌طالب (علیه‌السلام)، أو تجد أفکارا «علویة» أو آراء «شیعیة» تظهر بقوة فی مذهب الشافعی و آرائه. و الشافعی من ابناء عمومة النبی و علی، یباهی بحب أهل‌البیت (علیهم‌السلام) و یتحدی به، و هو إمام فی اللسان العربی، له لغة خاصة تعلنها قوامیس اللغة... طوعت له إمامته فیها أن یفهم القرآن فهم الذین نزل فیهم. و اتصال اللغة و البلاغة بالفقه فی الاسلام أساسی، لأن الفقه فهم للقرآن؛ و القرآن عربی. فالشافعی فی استنباطه للأصول من القرآن کان موجها بفهم عربی عمیق للکتاب الکریم، الذی صنعت علی أسسه العقلیة الاسلامیة. یقول أحمد بن حنبل - و هو الإمام الرابع لأهل السنة فی الفقه، فوق أنه إمام فی اللغة: «الشافعی فیلسوف فی أربعة أشیاء: فی اللغة، و اختلاف الناس، و المعانی، و الفقه». و هذه هی الأمور الأساسیة فی کل فقه. و سواء انبثقت الأصول من اهتمامات علی (علیه‌السلام)، فی جوار قبر النبی (صلی الله علیه و آله و سلم) بالمدینة غداة عروج النبی الی الرفیق الأعلی، أو ممن نحوا ذلک النحو من الشیعة، أمانبثقت من «رسالة الشافعی» فی جوار البیت الحرام بمکة... و سواء اطلع الشافعی علی کتب لأهل البیت (علیهم‌السلام) أو علی آرائهم، أم لم یطلع، فالأصول قرآنیة المبدأ و المنتهی، مشتقة من نصوص القرآن و السنة و منهاجهما و أسلوبهما. و من ذلک شرفها فی الفکر الدینی و العلمی. و حریة التفکیر توجب «الاجتهاد» علی أساس العلم کما یقرر الشافعی فی «رسالته»، مع النزاهة الفکریة الکاملة، غیر المقیدة إلا بما تثق بوجوده، و تحقیق المناط [صفحه ۲۸۰] و تنقیحه، و التدقیق فی الفرع و فی الأصل؛ و السند، فیما لیس قطعی الورود فی السنة أو قطعی الدلالة فیها أو فی الکتاب العزیز... و مع اتخاذ الأهبة. و هذه کلها أمور یوجبها القرآن و السنة. و الحضارة العالمیة مدینة بهذا المنهج للإسلام بما طور من فکر الأمم التی دانت به، فی أربعة عشر قرنا، و من أسالیبها، و وسائلها العلمیة، حتی صبغ فکرها، فی شکله و موضوعه، صبغة الله... و من أحسن من الله صبغة! و کما ارتفع العرب درجات بالإسلام انتفع به کل الأمم ممن أسلموا، و ممن لم یسلموا. و من هنا کان الاسلام خیرا للعالم کله. فتلک خصائص رسالته العالمیة، و الأبدیة. و السمو، و الطریق الیه مفتوحة حتی یرث الله الأرض و من علیها. و ما تقدم الإنسانیة إلا حاصل دفع الله الناس بعضهم ببعض، و أخذ بعضهم بید البعض - و من أجل ذلک اختص الفقه الاسلامی بمیزة القدرة علی إحداث التطور و مواکبته، مع الیسر و حفظ الدین، «بالاجتهاد» الذی أمر به الله علی أصول القرآن و السنة. [۱۰۰] . أعلن علی علیه‌السلام تمسکه «بالاجتهاد» إذ تولی إمارة المؤمنین بعد عمر ابن‌الخطاب. و من أجل ذلک وحده، لم یبایع له عبدالرحمن بن عوف. و أعلن عثمان التزامه بأن «یتبع» عمل السابقین فجعل عبدالرحمن یبایع له. «فالاجتهاد» شعار من شعارات «علی» من بادئ الأمر، و شعارات الشیعة من بعده، و من ذلک لم یصخ عظماؤهم الی ذلک الصوت البغیض الذی أعلن إقفال باب الاجتهاد فی القرن الرابع الهجری، لتنفتح أبواب التقلید، و تخبو شعلة الفکر، بل شهد

الشيعة فى القرن الرابع ذاته نهضة شاملة تتراءى فى أعمال عظمائهم. فالعقل أصل؛ [صفحه ۲۸۱] و الأصل لا يتعطل. و ما الاجتهاد إلا الحرية الفكرية فى استخلاص النتائج، و النزاهة العلمية أو الاعتبار «بالواقع و الصحيح». و هاتان العجلتان اللتان تحملان موكب الفكر الإنسانى المنجب، هما شعار مجالس الامام الصادق (عليه‌السلام) كما سلف البيان؛ بل هما أساس ما استخلصه تلميذه جابر بن حيان، من تجاربه العلمية، و عنه انتقل الى أوربا المنهج التجريبى، أو منهج «التجربة و الاستخلاص» كما يسمى فى العصور الحديثة. و من نزاهة المنهج فى الفقه، كان الإقرار بضعف الإنسان. فليس الاجتهاد مقابلا للحقيقة، و انما هو أحسن أداة توصل المرء اليها. يقول أبوحنيفة: «علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه كان أولى بالصواب منا». و لما قال الشافعي (الاجتهاد بالقياس) و إنهما اسمان لمعنى واحد، و استطرد فقعد له القواعد، ليجرى علماء أهل السنة فى مضماره، صلى الأصوليون من أهل السنة بعده فى حلبة الفكر العالمى، منذ القرن الثانى للهجرة، و التاسع للميلاد، فوضعوا القواعد التى لم يبدأ فى تعريفها الأوربيون إلا بعد ثمانية قرون تحت عناوين اطراد العلة... و انها اذا توفرت ثبت الحكم، أو قانون اطراد الحوادث لوجود «نظام» فى الكون، أو تناسق تخضع له الأشياء، طردا و عكسا، باطراد أسبابها و ملابساتها فيها. و هذا ما قرره الأصوليون المسلمون عند تماثل العلل لاستنباط الأحكام. غير أن الأصوليين المسلمين فاقوا فى تمحيصهم «جون ستيوارت مل» فى أبحاثه. إذ تعمقوا فى مسالك العلة، و دققوا فى الاستقراء و الاستنباط، مع الاحتياط الكامل و النزاهة الفكرية المثلى. فكان عندهم لكل ركن من أركان «القياس» أبحاثه، و ضمانات صحته، باتساع الاختبار و امتحان الاستخلاص، و ايجاب أن تجمع الأصل «المقيس عليه» و «الفرع» «المقيس» «علة»، لتنتج ثمرة القياس و هى «الحكم». و أولى الأصوليون العلة و تخريجها اهتماما منقطع النظير، فشرطوا لها مسالك نقلية من نص أو إجماع، أو عقلية من تحقيق المناط بوجود العلة، و تنقيح المناط بحذف ما لا يدخل فى الاعتبار، و بطرائق السبر و التقسيم و الطرد، لحصر الأوصاف التى تصلح [صفحه ۲۸۲] للعلية، و استبعاد ما لا يصلح منها، و مقارنة الأوصاف للحكم، و دوران العلة مع المعلول وجودا و عدما الخ... مع تكامل اختبار الوقائع و سلامة النتائج ثم قبولها. كل أولئك دون تأثير لمقررات أو نظريات سابقة. و مع التقرير بأن ما يصل اليه المجتهد ليس الحقيقة و إنما هو الراجح بغلبة الظن، فإن اجتهادا آخر قد يغيره. و الاجتهاد مفتوح. و قانونه الحرية. فإذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران. و اذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر. و على هذا التحديد أخذ المنهج التجريبى فى الوجود: تمحيص الواقعة و الاستخلاص بحرية و نزاهة. و القرآن يحوى جميع صور الاستدلالات العقلية؛ و منها قياس الأولى و فى هذه الصور تبرز طريقة الاعتبار بآيات الله المادية الواقعية المحيطة بالناس و التى تحسها حواسهم. و كذلك كانت طريقة الأنبياء فى الاستدلال على الله بلفت النظر الى آياته أو بقياس الأولى، و هو ما يكون الحكم المطلوب فيه أولى بالثبوت من الصورة المذكورة فى الدليل الدال عليه - و كان أحمد بن حنبل يستعمل هذا القياس، و هو القائل إنه لا يصار الى القياس إلا عند الضرورة. و ابن تيمية يجعل للفطرة مكانها فى الميزان الذى تعرف به الأحكام، و يروى ان معرفة الاختلاف و التماثل أمر فطرى. و استعماله ضرورى. و الميزان عنده هو العدل، و ما يعرف به العدل... و انه هو القياس العقلى القرآنى. [۱۰۱] . [صفحه ۲۸۳] و الوزير الصنعانى (۸۴۰) صاحب كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)، يذكر ان أئمة أهل‌البيت لم يعرفوا المنطق (اليونانى و الإرسطاطاليسى) و لم يصوغوا أدلتهم على التوحيد فى صور منطقية. و انما فى «منهج قرآنى أساسه الاعتبار». و ان الامام عليا (عليه‌السلام) لم يعرفه فى خطبه و مواعظه، و ان الأئمة قدموا أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطق و لا تقاسيم المتكلمين. و يقرر الوزير الصنعانى أن أسلوب المسلمين أرجح و أحجى من أسلوب المناطقة: «فهذا أسلوب الأنبياء و الأولياء و الأئمة و السلف فى النظر. و خالفهم بعض المتكلمين و أنواع المبتدعة فتكلفوا و تعمقوا و عبروا عن المعانى الجلية بالعبارات الخفية». و الذين ينكرون القياس، من أهل السنة، كداود (۲۷۰) امام أهل الظاهر و ابن‌حزم (۴۵۶)، أو من المعتزلة كالنظام (ابراهيم بن سيار شيخ الجاحظ)، يعتمدون على النص وحده - و قد أسعفتهم النصوص فى إقامة مذهب بتمامه. و لم تخذلهم قدرتهم الفقهية فى استخراج الفقه باستعمال كليات الشريعة فى الاجتهاد. فدل هؤلاء على أن نصوص الكتاب و السنة تجعل كليات الشرع و قواعده كافية «للعقل» ليبلغ بالفقه الاسلامى مبالغه، فيحقق أن الله تعالى ما فرط فى الكتاب من شىء. فلكل واقعة

حکم. و علی المجتهد طلبه بالعقل و النقل معا. و الشافعی من حرصه علی العمل بهما معا، یندد «بالاستحسان». و یسمیه تلذذا. مع ان الاستحسان فی جملة أمره استعمال لنص خاص أو قاعدة متعلقة «بالواقعة» [صفحه ۲۸۴] المطلوب لها الحکم. [۱۰۲] . و أهل القیاس مجمعون علی ان المنهی عنه هو الاجتهاد فی مقابل النص القطعی، أو إطلاق العنان لاستخراج الأحکام دون تقید بالنصوص الخاصة أو العامة. و هم یجمعون علی قیاس العلة و یختلفون فیما عداه. و من المعانی الجامعة التی تترد فی أبواب الاجتهاد أن أحکام الشریعة جمیعا – حتی فی الأعمال غیر التعبدیة – فیها معنی تعبدی... أی حق لله، یطاع فیه الله و یعبد. فمن أحسن بیعه و شراءه و إجارته و إعارته، أو قضاءه أو فتواه... الخ فهو یطیع الله و یستحق ثوابه. و من ساءت معاملته فهو خاسر فی أمرین، قضاء الناس ضده، و غضب الله علیه، لأنه یعصی الله فیما عمل من عمل غیر صالح. و من ثمة تأثیر الجانب الروحی أو الوازع الدینی فی الحیاة الواقعة، و فی الدراسة العلمیة، و فی طلب الأحکام الفقهیة، فی المجتمع الاسلامی، و هو امتیاز لا تبلغه الأمم الأخری أو مجتمعاتها. و فی منهج الاعتبار بالواقع أو بالآثار الدالة علی المطلوب «واقعیة» أدنی الی التصدیق من مجازفات الفکر. و فی الواقع المادی ضمان أن لا یبعد الاستخلاص من الملموس و المحسوس بالحواس الخمس. و هذه الواقعیة أو النزاهة الفکریة تسبق واقعیة «أوغست کومت» [۱۰۳] بقرون عشرة، و عقلانیة «دیکارت» بقرون تسعة، کما تسبق «جون سیتوارت مل» [۱۰۴] فی نظریة اطراد العلل بقرون عشرة. و بهذه القرون [صفحه ۲۸۵] یقاس سبق الحضارة الاسلامیة. والی جوار المشاهدة الواقعیة و التحقیق النزیه و الاستخلاص الصادق، یضیف الفقه الاسلامی ضمانا جدیدا هو اعتبار الاجتهاد سعیا لبلوغ الحق لا بلوغا له. فثمة عوامل أخری قد تکون موجودة أو قد یدرکها عقل آخر فتجعله أدنی الی السداد، أو تجعله یصل الی السداد. و هذا الاحتمال الذی یلازم الاجتهاد یحتمل تداخل العناصر. فالنتائج نسبیة حتی تقطع التجریبیة بأنها لا تتخلف أبدا... و هی فی الفقه تبقی نسبیة حتی تبلغ الحکم الذی شرعه الشارع – فشرع الله هو الثابت... الذی یقصده المجتهدون. و ربما کان الکلام المنقول عن «جابر بن حیان» أوضح کلام فی الدلالة علی المنهج التجریبی الذی تعلمه فی مجلس الامام أو من کتب الامام (علیه‌السلام). یخاطب جابر الامام فی مقدمة کتابه الأحجار بقوله: «و حق سیدی – لو لا ان هذه الکتب باسم سیدی – صلوات الله علیه – لما وصلت الی حرف من ذلک الی الأبد». و یقول جابر فی کتابه الخواص عن طریقته: «اتعب أولا تعبا واحدا. و اعلم. ثم اعمل. فإنک لا تصل أولا. ثم تصل الی ما ترید». و فی کتابه السبعین یقول: «من کان دربا (مجربا) کان عالما حقا. و من لم یکن دربا لم یکن عالما. و حسبک بالدربة فی جمیع الصنائع أن الصانع الدرب یحذق و غیر الدرب یعطل». و یحصر جابر طریقته فی عبارته المأثورة: «عملته بیدی، و بعقلی، و بحثته حتی صح، و امتحنته فما کذب». و فی هذا المقام یقول استاذ الفلسفة الاسلامیة فی جامعة القاهرة، د. زکی نجیب محمود: «... فلو شئت تلخیصا للمنهج الدیکارتی [۱۰۵] کله لم تجد [صفحه ۲۸۶] خیرا من هذا النص الذی أسلفناه عن جابر». و یری الصیدلی المعاصر د. محمد یحیی الهاشمی ان «الواقعیة» هی التی سوغت لجابر أن یقسم القیاس أو الاستدلال و الاستنباط الی ثلاثة أقسام – المجانسة و مجری العادة و بالآثار – و من دلالة المجانسة دلالة الأنموذج کمن یریک بعض الشیء دلالة علی کله، و هو استدلال غیر قاطع إذ الأنموذج لا یوجب وجود شیء من جنسه یساویه تماما فی الطبیعة و الجوهر. و کذلک دلالة مجری العادة فإنه – کما یقول جابر – «لیس فیه علم یقین واجب اضطراری برهانی اصلا، بل علم إقناعی یبلغ ان یکون: أحری و أولی و أجدر لا غیر، لکن استعمال الناس له و تقبلهم فیه و استدلالهم به و العمل فی أمورهم علیه أکثر کثیرا جدا... و لیس فی هذا الباب علم یقین واجب. و انما وقع منه تعلق و استشهاد الشاهد علی الغائب، لما فی النفس من الظن و الحسبان فان الأمور (ینبغی أن تجری علی نظام و مشابهة و مماثلة) فانک تجد أکثر الناس یجرون أمورهم علی هذا الحسبان و الظن». یقول جابر: «... و بالجملة فلیس لأحد أن یدعی انه لیس فی الغائب إلا مثل ما شاهد... إنما ینبغی له أن یتوقف حتی یشهد البرهان بوجوده من عدمه...». فهو ینقد القیاس من الناحیة المنطقیة أو الریاضیة لیترک المجال مفتوحا للحقائق القاطعة التی تثبت بالتجارب. و حسبک دلیلا علی دقة طریقة التدلیل بآثار الأشیاء، أن تجدها احدی المسلمات فی المعامل و الجامعات، فی القارات جمیعا، منذ بدأ الأخذ بطریقة التجربة و الاستخلاص حتی الیوم. و ستبقی أبدا. و عندما توضع آراء جابر [۱۰۶] فی القرن الثانی للهجرة

الی جوار آراء «الحسن بن [صفحه ۲۸۷] الهیثم» (۴۳۰ – ۳۵۴) بعد أكثر من قرنين، و قد عمل فی خدمة الدولة الفاطمية، و هی دولة من دول الشيعة، و له ۴۷ كتابا فی الرياضيات و ۵۸ كتابا فی الهندسة، تتأكد لنا طريقة التجربة و الاستخلاص التی سلكها الامام الصادق (عليه‌السلام) و أتقن العمل بها و وصفها جابر و الحسن. و قد أحسن الحسن التعبير عنها بمنهج علمی واضح الفحوی محدد العبارات. [۱۰۷] . [صفحه ۲۸۸] و يشهد بها من أهل أوربا دراپير فی كتابه (النزاع بين العلم و الدين) فيقول: «كان الأسلوب الذی توخاه المسلمون سبب تفوقهم فی العلم. فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظری لا يؤدی الی التقدم. و ان الأمل فی معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها. و من هنا كان شعارهم فی أبحاثهم هو (الاسلوب التجريبی). و هذا الأسلوب هو الذی أرشدهم الی اكتشاف علم الجبر و غيره من علوم الرياضة و الحياة. و إننا لندهش حينما نری فی مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم فی هذا العصر». و القارئ يلاحظ فی هذا المقام أمورا؛ منها: الأول: أن جابرا يقرر – إذ يقسم بالإمام (عليه‌السلام) – استرشاده فی طريقته هذه به. و ان علمه منه هو سبب توفيقه. ولو كان قد تلقی الطريقة عنه دون لقاء له لما نقص الفضل. فذلك شأن العلماء فی كل زمان. الثانی: ان ممارسة جابر لطريقته مع إقرار الامام (عليه‌السلام) له، قد ضبطتها مدارسة أبی‌حنيفة للإمام. إذا انبهت القياسين علی وجوب ضبط طريقة القياس بوضع حدود له و استبعاد ما ليس منه. [۱۰۸] . [صفحه ۲۸۹] و ظاهر من قبول أبی‌حنيفة لنهی الامام عن القياس و عدم مجادلته للامام بكلمة، أن أباحنيفة أدرك أن النهی عن القياس نهی عن القول فی الدين بالرأی، و ليس مقصودا به النهی عن الاجتهاد و استعمال العقل. و ظاهر أن الإمام بلغ مراده من أبی‌حنيفة و ممن تابعوه فی القياس. فلم يقل أحد منهم فی الدين برأيه. و التزم القائلون بالقياس كل الدقة، بعد إذ جاء الشافعی و فصل شروطه تفصيلا. الثالث: انه يظهر من محاورة الامام (عليه‌السلام) لأبی‌حنيفة يوم استأذن عليه فحجبه فدخل مع أهل الكوفة التی سلف ذكرها أمران: ۱ – ان الأحكام التی ذكرها الامام لأبی‌حنيفة، وارد فيها نصوص، مما يجعل لتحريم القول فی الدين بالرأی أو مطلق القياس حجة مسلمة. ۲ – ان الإمام ذكر أباحنيفة بقياس إبليس، إذ أعلن انه يخرج عن طاعة الله برأيه. فكان رأيه عصيانا صريحا، لأمر صريح، و خروجا علی نص وارد علی سبيل الجزم. و ليس عجيبا و إنما هو التواتر علی استعمال العقل، أن يقرر أئمة أهل السنة جميعا أن باب الاجتهاد مفتوح إذا لم يكن ثمة نص، و ان يجمع علماؤهم أن أحدا لا يقول الكلمة الأخيرة فيه، و أن يكون هذا منهج الفقه الشيعی الذی دأب عليه علماؤه. يقول ابن‌إدريس (۵۹۸) من فقهاء الشيعة المتقدمين: «اذا فقدت الثلاثة – الكتاب و السنة و الإجماع – فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل العقل». و من فحولهم المحقق نجم‌الدين الحلی (۶۷۶) يقسم الدليل العقلی قسمين؛ الأول: يتعلق بالخطاب – و فحواه و لحنه و دليله –، و الثانی: ما ينفرد العقل بالدلالة عليه لحسنه أو قبحه. و الشهيد الأول محمد بن مكی (۷۸۶) يوسع فی القسم الأول و يفصل فی القسم الثانی فيزيد البراءة الأصلية، و ما لا دليل عليه، و الأخذ بالأقل عند التردد بين الأكثر و الأقل، و الاستصحاب. [صفحه ۲۹۰] و ربما أجمل التفصيل فی قول بعض المتأخرين [۱۰۹] من الاصوليين عن الدليل العقلی: إنه كل حكم للعقل يوجب القطع بالحكم الشرعی. فالدليل العقلی يوجب القطع. و ليس بعد القطع حجة. بالعقل أدرك الإنسان وجود ربه، ودان بالرسالات، و أدرك المعانی و العلل، و قدر علی تمييز القبيح و الحسن بفطرة البشر. فالقبح مفسدة و الحسن مصلحة. [۱۱۰] و ما يدركه العقل منهما هو حكم عقلی يستقل الإنسان بتقريره. و ما يستقل العقل بتقريره من مصلحة أو مفسدة هو مصلحة أو مفسدة شرعية. و علی كليهما تدور الأحكام. فالشرع هاد للبشر، و البشر مفطورون علی استعمال نعمة الشارع. و لا يمنع هذا التأييد الشرعی للعقل أو التأييد العقلی للشرع، أن توجد بعض مصالح يراها الشرع و لا يفطن لها العقل العادی فيتردد أمامها بظنه. و اذا كان أصل استعمال العقل يسع كل وسائل النظر، فالفقيه ملزم بالاحتياط – و هو أول ما تستوجبه النزاهة العقلية – لوجود احتمال التزاحم و التعارض. فلا تجوز المجازفة بالتحليل و التحريم مع وجود هذا الاحتمال... و إنما يلجأ الفقيه لاستخراج الحكم، عند عدم ظهور النص، الی استعمال العقل، و بقواعد يمليها العقل و النقل، مثل وجوب دفع الضرر المحتمل، و مثل عدم العقاب بلا بيان. و العقل إذ يقرر قبح العقاب بلا بيان، يسوغ للمكلف أن يصنع ما يراه عند عدم البيان؛ و بتعبير آخر تصبح الإباحة هی الأصل. و الحرية هی الأصل، حتی تتقيد بنص. يقول الامام الصادق (عليه‌السلام): «كل شیء لك حلال

حتى تعلم أنه حرام بعينه». و من هنا اتسع مجال النشاط الإنسانى. فلا حرام إلا ما حرم الله. [صفحه ۲۹۱] و النص نقطة الثبات، أو حجر الزاويـة فى الفقه. فلاـ اجتهـاد مع وروده. و الـتزام فحواه أو الـتزام مقاصـد الشـارع الـتى ينطق النص بهـا، أو يـدل على معناهـا مجموع النصوص، لاـ يـدخل بالمصـلحة أو بالقيـاس شـيئا على الشـرع ليس منه. و الامام الصادق (عليه‌السـلام) يفتـح أبواب رحمـة الله و يرفع الحرج و يبيـح الرخص. يقول: «الوضوء نصف الايمان». و يقول: «إنه توبة من غير اسـتغفار». و مع هذا سـئل عن رجل يكون معه الماء فى السـفر و يخـاف قلته؟ فقـال: «يتيمم بالصـعيد و يسـتبقى المـاء». و يقول (عليه‌السـلام): «من خـاف عطشـا فلا يهريق قطرة. و ليتيمم بالصـعيد. فالصعيد أحب الى». سئل عن رجل ليس معه ماء و الماء عن يمين الطريق و يساره غلوتين أو نحو ذلك (الغلوة مسافة مرمى السـهم)؟ فقال: «لا آمره أن يغرر بنفسه فيتعرض له لص أو سـبع». و سـئل عن رجل يمر بالركيـة (البئر) و ليس معه دلو. قال: «ليس عليه أن يـدخل الركيـة، لأن رب الماء هو رب الأرض. فليتيمم. إن الله جعل التراب طهورا كما جعل الماء طهورا». و يقول: ان أباذر قال: يا رسول الله هلكت. جامعت أهلى على غير ماء. فقال (صـلى الله عليه و آله و سـلم): «يا أباذر يكفيك الصـعيد عشـر سـنين». و سئل عن رجـل به القروح و الجراحـات فيجنب؟ قـال: لاـ بـأس بـأن يتيمم و لاـ يغتسـل. و الفقهـاء يقولون: إن نفى الحرج فى الشـريعة من باب الرخصة لأن تحمل الألم و المشقة غير منهى عنه. و نفى الضرر من باب العزيمة لأن الضرر منهى عنه. يقول تعالى: «و لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة». يقول الامام الصادق (عليه‌السـلام): «لا صـلاة إلا الى القبلة»، فقيل له: أين حد القبلة. قال: «ما بين المشـرق و المغرب كله قبلـة» و يشـرح ذلك قوله: «يجزى التحرى أبدا إذا لم يعلم وجه القبلة». و الفقهاء يصـرحون بالإذن لمن يشك فى الدليل بأن يسـتعمل قواعد الشرع من [صفحه ۲۹۲] أصول الحل و الطهارة و التخيير و استصحاب الحال - و معناه استدامة ما كان ثابتا، و نفى ما كان منفيا - فمن شك فى قيامه بالوضوء قبل أن يصـلى فعليه أن يتوضأ. لأن الوضوء شرط واجب قبل الصلاة، و الحال قبل الوضوء للصلاة حال تقتضـى الوضوء. و من توضـأ ثم شـك فى نقض الوضوء فهو على وضوء. و من شك فى أنه توضأ بعـد أن دخل فى الصـلاة قطعها و توضأ، ليحرز شـرط الصـلاة. فإن شك بعد إتمام الصـلاة فليس عليه أن يعيدها. فقد فرغ منها. لكن عليه أن يتوضأ لصـلاة تالية لأنه لم يبدأها و لم ينته منها. أى لم يتجاوز الشـىء الذى شك فيه الى غيره. سئل الامام الصادق (عليه‌السلام) عن رجل شك فى الأذان، و قد دخل فى الإقامة؟ قال: يمضـى. قيل له: شك فى الإقامة، و قد كبر؟ قال: يمضى... و فى التكبير، و قد قرأ؟ قال: يمضى... و فى القراءة، و قـد ركع؟ قال: يمضـى... و فى الركوع، و قـد سـجد؟ قال: يمضـى... الى ان قال: «اذا خرجت من شـىء ثم دخلت فى غيره فشـككك ليس بشـىء». يقول: «اذا شـككت فى شـية من الوضوء و قـد دخلت فى غيره فليس شـكك بشـىء. انمـا الشك اذا كنت فى شـىء لم تجزه». و سـئل عن رجل يشك كثيرا فى صـلاته، فقال فيما قال: «ان الشـيطان خبيث معتاد لما عود. فليمض أحـدكم فى الوهم» أى لا يحفل به... و بنى الفقهاء على ذلك قاعـدة: (لا شك لكثير الشك). يقول الامام الصادق (عليه‌السـلام): «من كان على يقين ثم شـك فلا ينقض اليقين بالشك». و هذا اعلان عن دليل استصـحاب الحال، و اعتماد الواقع و الظاهر كمن استأجر ارضا و شاع أمره فى الناس يعامل معاملـة المسـتأجر، و لا يقبل منه ادعاء الملك إلا بـدليل. و تتعاون مع هذا الأصل أصول أخرى مثل أصل البراءة و الإباحة حتى يرد منع الشـارع. و يسـتثنى الفقهـاء الشـيعة من المنع من القياس فى حالتين: ۱ - حالـة العلـة المنصوصـة... و كثير ما هى فى الكتاب و السنة. ۲ - حالـة مفهوم الأولويـة، كقول أف للوالـدين اذ نهى الله عنهـا، فمن بـاب أولى مـا هو أشـد. [صـفحه ۲۹۳] و يفرعـون على العمومات و المبادئ الكلية الواردة فى النصوص و الإجماع... كمثل قواعد الوفاء بالعقود، و درء الحدود بالشـبهات، و جواز كل شرط إلا أن يحل حراما أو يحرم حلالا. و على هذه الكليات مدار الفقه. و الاجتهاد بها واجب. و بالاجتهاد بلغ الفقه الشيعى ما بلغه فقه أهل السـنة؛ كل على شاكلته. ندب الرسول (صـلى الله عليه و آله و سـلم) عليا (عليه‌السلام) الى اليمن. فسأله الامام: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ - أى اجتهد رأيى فيما بين يدى مما ليس بين يديك - قال عليه الصـلاة و السـلام: «بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب». فهو يأذن له أن يجتهـد، أو يأمره أن يجتهد. و يقول ابن‌مسـعود للقضاة و المفتين و المجتهدين: «من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله. فان لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضـى به نبيه (صـلى الله عليه و آله و سلم). فإن جاء أمر ليس فى

كتاب الله و لم يقض به نبيه فليقض بما قضى به الصالحون – فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله و لم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه. فإن لم يحسن فليقم و لا يستحى». و الشيعة فى اجتهادهم يعملون بأصل الاحتياط الواجب، مع العلم بالتكليف الملزم، و أصل التخيير اذا تردد الفعل بين الوجوب و الحرمة. و يرون الحسن و القبح أمرين «عقليين» ثابتين بالعقل. و ما أمر الشارع و نهيه فى صددهما إلا لأن العقل يأمر بهما. فلا حاجة إذن لسؤال الشرع ابتداء، بل يسأل العقل. فعدم العلم بالنهى كاف للحل. و لا تحتاج الإباحة لدليل ، و انما يحتاج ادعاء عكسها الى دليله. فالاختراعات الحديثة مباحة استنادا الى ما ثبت شرعا من أن كل شىء مطلق حتى يرد فيه نهى. و الجواز فى التصرف مطلق لا ـ يقيده إلا التثبت من حق الغير. فالمعاملات، أية كانت، صحيحة مالم تزاحم حقا عاما أو خصا أو يوجد نص أو معنى يحرمها. [صفحه ۲۹۴] و فى كثير من الأحيان، يكون عمل الفقيه مجرد تحكيم النصوص بعضها على بعض، مثل قوله تعالى: «و ما جعل عليكم فى الدين من حرج»، و قول الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم): «لا ضرر و لا ضرار» و قاعدة «ان الله يأمر بالعدل و الإحسان» و هذه أمثال للأدلة الحاكمة على أدلة سواها. فالعمل بها ليس تخصيصا للنص بالمصلحة، و انما هو حكومة نص على نص. أى رفع اليد على الكتاب و السنة بدليل منهما – أيضا – مجعول فى ظرف خاص يزاحم الدليل الآخر أو يحكم عليه. و الشيعة إذ يبنون فهمهم على ان الله يأمر بالفعل لمصلحة، و ينهى عن الفعل لمفسدة، لا يعتبرون مخالفا للأمر و النهى من يوجد فى حالة اضطرار، و انما يشترطون أن تكون المخالفة على قدر الضرورة، و ارتفاع المسوغ حالة انتهاء الاضطرار، أو عند تجاوز المقدار. يقول تعالى «و ما جعل عليكم فى الدين من حرج» و «يريد الله بكم اليسر و لا ـ يريد بكم العسر» و «يريد الله ان يخفف عنكم». و بالانتفاع بهذه الرخص يظهر ان الاضطرار نسبى. بل يظهر انه ليس إلا خيار، و فيه إرادة. و الإجبار هو ما يعدم الاختيار بما يزيل من القدرة – و هى شرط التكليف. فالمضطر فى الواقع «يختار» الفعل لعامل خارجى أو داخلى (نفسى)... كمن لا يملك إلا ثوبا واحدا يلبسه ليستره (و يختار) أن يبيعه ليأكل، إذ يؤثر العرى على الجوع إذا لم يقدر أن يواجه جوعه بطريق آخر. و لا عجب أن تتآمر كثرة الأوربيين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقولة من نهج المسلمين، كدأبهم فى التنكر لآباء العلوم الرياضية و الهندسية، و المهد الذى نشأت فيه. فذلك استمرار للحرب الصليبية، و إخضاع للحقائق العلمية للتعصب الدينى المتأصل فى الحضارة الأوروبية. فهم لا يذكرون أن فيثاغورس و ارخميدس و إقليدس آباء الرياضيات ألقوا الدروس و تلقوها فى مدرسة الإسكندرية بمصر – و لا يذكرون أنهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمى (الأساسيات) أو (العناصر) إلا عن [صفحه ۲۹۵] نسخة عربية. و لا يذكرون أن أوروبا المعاصرة أخذت عن العلم الاسلامى المنهج العلمى المعاصر، أى منهج التجربة و الاستخلاص. يقول الشاعر محمد إقبال [۱۱۱] إن دبرنج Dubring يقول: «ان آراء روجير بيكون أصدق و أوضح من آراء سلفه... و من أين استمد روجير بيكون دراسته العلمية؟ من الجامعات الاسلامية فى الأندلس». و يقول بريفو [۱۱۲] Robert Briffault: «إنه لا ينسب الى روجير بيكون (۱۲۹۴) [۱۱۳] و لا [صفحه ۲۹۶] الى سميه الآخر فرانسيس بيكون (۱۶۲۶) أى فضل فى اكتشاف المنهج التجريبى فى [صفحه ۲۹۷] أوربا. و لم يكن روجير بيكون فى الحقيقة إلا واحدا من رسل الحضارة الاسلامية و المنهج الاسلامى الى أوربا المسيحية. و لم يكف بيكون عن القول بأن معرفة العرب و علمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة... و لقد انتشر منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون و تعلمه الناس فى أوربا يحدوهم الى هذا رغبة ملحة». و يضيف: «انه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربى لم يكن للثقافة الاسلامية عليها تأثير اساسى، و ان أهم أثر للثقافة الاسلامية هو تأثيرها فى العلم الطبيعى و الروح العلمى و هما القوتان المميزتان للعلم الحديث». ثم يضيف: «ان ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدموه لنا من اكتشاف نظريات مبتكرة غير ساكنة. ان العلم مدين للثقافة الاسلامية بأكثر من هذا. فقد أبدع اليونان المذاهب و عمموا الأحكام. لكن طرق البحث و جمع المعرفة الوضعية و تركيزها و مناهج العلم الدقيقة و الملاحظة المفصلة العميقة و البحث التجريبى كانت كلها غريبة عن المزاج اليونانى... ان ما ندعوه بالعلم ظهر فى أوربا نتيجة لروح جديدة فى البحث، و لطرق جديدة فى الاستقصاء... طريقة التجربة و الملاحظة و القياس. و لتطور الرياضيات، صورة لم يعرفها اليونان. و هذه الروح و هذه المناهج أدخلها العرب الى العالم الأوربى». [صفحه ۲۹۸] أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس : «ان

أوربا القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجا لمعاصريها العرب. و هم الواسطة التى انتقل بها الى اوربا جزء كبير من ذلك التراث الثمين. كما تعلمت أوربا من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجوب البحث المستقل و التجربة. و كان لهذين الأساسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى و الإيذان بعصر النهضة». و روجير بيكون يعلن تأثره المنهج العربى و رفضه للمنهج الأرسطى الذى سيطر على الفكر الأوروبى من جراء الفساد فى بعض استنتاجاته فى العلوم الطبيعية فيقول: «لو أتيح لى الأمر لأحرقت كل كتب أرسطو، لأن دراستها يمكن أن تؤدى الى ضياع الوقت و الوقوع فى الخطأ و نشر الجهالة». [۱۱۴] . و كما قال (غوستاف لوبون) بعد ستة قرون من وفاة بيكون: «أدرك العرب بعد لأى أن التجربة و المشاهدة خير من أفضل الكتب. و لذلك سبقوا اوربا الى هذه الحقيقة. فالمسلمون أسبق الى نظام التجربة فى العلوم». [صفحه ۲۹۹]

فى السياسة و الاجتماع

اشاره

«و إنما عماد الدين و جماع المسلمين و العدة للأعداء العامة من الأمة. فليكن صغوك لهم. و ميلك معهم» «على بن أبى‌طالب عليه‌السلام» [صفحه ۳۰۱] لم تكن خلافة أميرالمؤمنين على هادئة أو هانئة. ولو هدأت لحمل الناس على الجادة بعلمه و عدله، و شجاعة رأيه و زهده. و الزهد آية على صدق الولاة، و سبيل معبدة لهم الى أنفس الرعية. فالشجاعة تروعها. أما الزهادة فتقنعها. و على (عليه‌السلام) إمام الزاهدين و المتقشفين من الصحابة. أجمع عليه العلماء، و الفقهاء و البلغاء و أبطال الحروب و الحكماء، و كل محب لأهل بيت النبى (صلى الله عليه و آله و سلم). و الصوفية يمدون اليه بالأسباب، فيضعونه فى قمتهم، كما يصرح بذلك: الشبلى، و الجنيد، و سرى السقطى، و أبويزيد البسطامى، و معروف الكرخى. و هم يسندون اليه الخرقة التى يتخذونها شعارا لزهدهم. و أحمد بن حنبل - و الصوفية يعتبرونه من أئمتهم - يقول إنه: «ما اجتمعت لأحد من الفضائل بالأسانيد الصحاح ما اجتمع لعلى»، يقابله الجاحظ زعيم المعتزلة - أى فى الطرف الأقصى من الخصومة لأحمد - و مع ذلك يتلاقى الطرفان فى «على» حيث يقول الجاحظ: «لا يعلم رجل من أهل الأرض: متى ذكر السبق فى الاسلام و التقدم فيه، و متى ذكرت النخوة و الذب عن الاسلام، و متى ذكر الفقه فى الدين، و متى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناحر الناس عليها، كان مذكورا فى هذه الخلال كلها، إلا على». و المعتزلة يمدون اليه أسبابهم الفكرية عن طريق حفيده أبى‌هاشم بن محمد بن الحنفية. و فى مكان بعيد جدا من المعتزلة يقف محيى الدين بن عربى، من فلاسفة المتصوفة، ليقول: «على من أصحاب العلم و ممن يعلمون من الله ما لا يعلمه غيره»، و يقول السراج الطوسى: «لأميرالمؤمنين على (عليه‌السلام) من بين جميع أصحاب [صفحه ۳۰۲] رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (خصوصية) بمعانى جليلة و إشارات لطيفة و ألفاظ مفردة و عبارات و معان للتوحيد و المعرفة و الايمان و العلم، و غير ذلك، و خصال شريفة تعلق و تخلق بها أهل الحقائق من الصوفية». و لقد طالما افتتن بشخصيته الناس؛ و منهم المستشرقون الذين يتحدثون عنه، على طريقتهم فى الإيضاح عن آرائهم، مثل كارادى فو، حيث يتصوره «ذلك البطل المتوجع المتألم، و الفارس الصوفى، و الامام ذو الروح العميق القرار، التى يكمن فى مكامنها سر العذاب الإلهى». و إذا ذكرت كلمة (الإمام) مطلقة، انصرفت الى على بن أبى‌طالب (عليه‌السلام) دون سائر الصحابة. و لم يكن النهج العلمى الذى أوجزنا الإشارة اليه، قبل، إلا استعمالا لأصول تهدى الى معرفة حكم الشرع و دليله، لبلوغ «السعادة فى الدنيا و الآخرة». و كان طبيعيا، و قد تضافرت فى رسم حدود هذه السعادة، و ضوابطها، و العلاقات الهادية اليها نصوص القرآن و السنة أن تجلى الامام على (عليه‌السلام) فى هذا المجال، و ان يتخلف لنا من حياته و سنوات حكمه على قصرها و انحسار سلطته فيها، مواقف معلمة و نصوص شارحة، و ان يتتابع فى نسقها أعمال الأئمة من بنيه ليتشكل منها «مذهب سياسى و اجتماعى و اقتصادى» متكامل: فترى الحسن (عليه‌السلام) يضرب مثلا فى العطاء و حقن الدماء. و نرى الحسين (عليه‌السلام) مثلا يضرب مثلا للجهاد فى

حروب الأمـة و للاستشـهاد فى سبيل الحق. و نرى الائمـة الثلاثـة بعدهما يفصـلون القواعد للمجتمع العظيم، و الدولة المثلى، و الاسـرة الفاضـلة، و الانسان الـذى ينشد. و كان لزاما، ان تكون بين تعاليمهم تعاليم دسـتورية و اقتصادية و اجتماعية. فالامام على، و الأئمة من عقبه، بناة دول، و حماة مجتمعات، ازدهرت فيها الأسـرة و صـلح بها الرجل و المرأة، و اسـتغنى الناس فيها بكدهم وكدحهم. [صفحه ۳۰۳]

فى الدولة و قواعدها

لم يكد أميرالمؤمنين (عليه‌السـلام) يتلقى البيعة حتى اطلق كلماته كالصواعق رجوما للمنحرفين، و كالبوارق المتألقة بآمال المصلحين، فى منهاجه السياسى و الاجتماعى و الاقتصادى الجامع.

المساواة اساس الدولة

لقـد خطب فى اليوم التـالى لمبايعته فقال: «أما بعـد ألا لا يقولن رجال منكم غـدا قـد غمرتهم الـدنيا فاتخـذوا العقار و فجروا الأنهار و ركبوا الخيول الفارهة و اتخذوا الوصائف الرقيقة و صار ذلك عليهم عارا و شـنارا، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه و أصرتهم الى حقوقهم التى يعلمون، فينقمون ذلـك و يسـتنكرون و يقولون حرمنا ابن أبى‌طالب حقوقنا». فلما كان الغـد غـدا الناس لقبض حقوقهم. فأمر كاتبه عبيدالله بن أبى‌رافع أن يبدأ بالمهاجرين. و أعطى كل من حضـر منهم ثلاثة دنانير، ثم ثنى بالأنصار، ثم سائر الناس كلهم... سوى بينهم الأـحمر فيهم و الأـسود. فقـال له سـهل بن حنيف: هـذا غلاـمى أعتقته بالأمس. قال: نعطيه كما نعطيك ثلاثـة دنانير. و قد تخلـف عن هـذه القسـمة طلحـة و الزبير و سـعد بن أبى‌وقـاص و عبـدالله بن عمر و سـعيد بن العـاص و مروان بن الحكم. و قـال على (عليه‌السلام): «ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان و كل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال، فإن الحق قديم لا يبطله شىء، و الله لو تزوج به النسـاء و ملـك به الإمـاء لرددته. فـإن فى العـدل سـعة. و من ضاق عليه الحق فالجور عليه أضـيق». و لما جاءته امرأتان فسـوى بينهمـا، قـالت إحـداهما: إنى امرأة مـن العرب، و هـذه أعجميـة! فقـال: «إنى لاـ أرى لبنى اسـماعيل فى هـذا الغنى فضـلا على بنى‌اسـحق». و غضب البعض مما يصـنع أميرالمؤمنين (عليه‌السلام). و كتب عمرو بن العاص الى [صفحه ۳۰۴] معاوية يقول: «ما كنت صانعا فاصنع...». و دعى البعض فى السر الى رفض على لمساواته بينهم و بين الأعاجم. و لما بلغه ذلـك صعد المنبر متقلدا سيفه و قال: «... ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله و طاعة الرسول... قال الله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائـل لتعـارفوا. إن أكرمكـم عنـد الله أتقـاكم». ثـم صـاح بـأعلى صـوته: «أطيعـوا الله و أطيعـوا الرسـول فـإن تـوليتم فـإن الله لاـ يحب الكافرين»... فى هـذه الأيام الأولى، وضع منهاجه الدسـتورى: المساواة فى الحقوق، و العدل بين الناس. و منهاجه الاقتصادى: المساواة فى العطاء بين فئات الشعب. و منهاجه الاجتماعى: ليس فى الاسلام شريف و مشروف، و لا أحمر و أسود، و لا عربى و أعجمى و انما أكرم الناس أتقاهم. و كان عـدله (عليه‌السـلام) مع الـذين حاربوه أو كفروه أو قتلوه دروسا فى الفقه: روى الغزالى فى المستصـفى أن قضاته اسـتشاروه فى شـهادة الخوارج بالبصرة فأمر بقبولها، كما كانت تقبل قبل خروجهم عليه، لأنهم إنما حاربوا على تأويل. و فى رد شهادتهم تعصب و إثارة خلاف... حتى قاتله عبـدالرحمن بن ملجم نهى عن المثلـة به. و بالمساواة التى هى خصـيصة الإسـلام الأولى، بعـد التوحيـد، هرع أبنـاء البلاـد - من غير العرب - الى اعتناق الاسـلام. ثم اختار كثير منهم الانضـمام تحت لواء الشيعة. و لما سادت الـدعوة لأهل البيت (عليهم‌السـلام) فى خراسان أقبلت جيوشـها تقيم دولة الدين على انقاض بنى‌أمية و بنى‌مروان. و كانت الدعوة الى «الرضـا» من «أهل‌البيت» و المساواة بين «الموالى و العرب»، شـعار الدولـة التى أقامها أبومسـلم الخراسانى و التى [صـفحه ۳۰۵] سرقها بنوالعباس من بنى على (عليه‌السلام)، كما أوضحنا قبل. [۱۱۵] . [صفحه ۳۰۶] و لقد و هم الذين نسبوا أسباب التشيع فى خراسان الى مـا زعموه من تشـابه تتـابع الخلافـة النبويـة و الدينيـة فى بيت الرسول (صـلى الله عليه و آله و سـلم)، و توارث الملـك عنـد الفرس فى

الدولة الكسروية، و حكم كسرى «بالحق الآلهى». فلقد ترك الفرس دين كسرى بتمامه الى الإسلام و قواعده. إنما كانت تفرقة الولاة و الحكام بين العجم و بين العرب سببا لتصبح المساواة صيحة التجمع منهم على أميرالمؤمنين على و بنيه (عليهم‌السلام). و كان أهل‌البيت مضطهدين، تهوى اليهم الأفئدة. و كانوا شجعانا يستشهدون. فاجتمع على ايجاب الانضمام اليهم الدين و العقل و المصلحة. و هى دوافع كافية للجهاد ضد بنى‌أمية. [صفحه ۳۰۷] أما زعم الزاعمين ان إصهار الحسين (عليه‌السلام) الى الفرس فى أم‌زين‌العابدين كان سببا لتشيعهم، فينقضه ان ابنى عمرو و أبى‌بكر اصهرا اليهم فى اختين لها، و مع ذلك لم يتعصب الفرس لأبويهما. لا مراء، كان طلب المساواة هو الباعث على التشيع لعلى (عليه‌السلام)، من قوم سلبت حقوقهم فى المساواة... و هم فى قمة المجتمع العلمى و الدينى يحملون مسؤوليات الدين الجديد مع العرب. و الدول العظيمة، و الحروب الدامية، و تغيير التاريخ، لا يحدثها الغضب من أجل النسب. و انما تحدثها المبادئ الخالدة و البطولات الرائعة و ابتغاء مستقبل أفضل. و تفسير التاريخ على أساس النسب تفسير أوربى يدفع المستشرقين اليه سوابق «الزواج السياسى» بين ملوكهم و «حروب الوراثة» بين دولهم.

العدل، و نزاهة الحكم

فى حياة على (عليه‌السلام) و مبادئه، و خطبه و قضائه، عن هذين، مالا نظير له فى أى عصر، و المقام يضيق عن الاستقصاء. فحسبنا ان نقف قليلا-عند فقرات من عهده لمالك بن الحارث (الأشتر النخعى)، فهذا عهد مقطوع القرين فى شكله و موضوعه، فى التراث العالمى و الاسلامى، و بخاصة فى السياسة الاسلامية، و الحكم الصالح، سواء فى صياغته أو محتوياته. و هذا العهد يضع اسم على (عليه‌السلام) فى ذروة المؤسسين للدول (واضعى الدساتير) حيث يتكلم عما يسمى فى الدساتير العصرية بالمقومات الأساسية، و واجبات الولاة نحو الأمة، و طريقة قيامهم بحقوق الجماعة، بالتفصيل اللازم. و التنبيه على ملء الفراغ، فيما سكت عنه، بالرجوع الى اصل الشريعة: القرآن و السنة. و لقد تتابعت على هذا العهد شروح الأئمة من بعد. فرأينا لزين‌العابدين فى رسالة الحقوق تفصيلات جديدة يقتضيها الزمان، و شهدنا الامام جعفر الصادق يضيف التطبيق ، و التفصيل الدقيق، لما تضمنته رسالة زين‌العابدين و عهد على (عليهماالسلام) -[صفحه ۳۰۸] فيجعل من تنفيذهما و شروحه لهما، عهدا جديدا للمسلمين و للشيعة، تبلغ به مجتمعاتهم أو دولهم مبالغها كلما التزموهما أو قاربوا الالتزام بهما. يبدأ «عهد على» بتحديد مهمة الوالى (حين ولاه مصر، جباية خراجها و جهاد عدوها و إصلاح أهلها و عمارة بلادها) فهو قد جمع له ولاية الخراج و ولاية الحكم و قال: «و اعلم ان الرعية طبقات. لا يصلح بعضها إلا ببعض. و لا غنى ببعضها عن بعض؛ فمنها جنود الله، و منها كتاب العامة و الخاصة، و منها قضاة العدل. [۱۱۶] و منها عمال الانصاف و الرفق. و منها أهل الجزية و الخراج من أهل الذمة و مسلمة الناس. و منها التجار و أهل الصناعات. و منها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة و المسكنة. و كلا قد سمى الله سهمه. و وضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه (صلى الله عليه و آله و سلم) عهدا منه عندنا محفوظا. فالجنود بإذن الله حصون الرعية؛ و زين الولاة؛ و عزالدين؛ و سبل الأمن؛ و ليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج... ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة و العمال و الكتاب، لما يحكمون من المعاقد و يجمعون من المنافع و يؤتمنون عليه من خواص الأمور و عوامها. و لا قوام لهم جميعا إلا بالتجار و ذوى الصناعات... ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة و المسكنة الذين يحق رفدهم و معونتهم. و فى الله لكل سعة. و على الوالى حق بقدر ما يصلحه»... أما ولاية الإدارة عامة، و العمال و الكتاب خاصة، فيقول عنها: «فول من جنودك أنصحهم فى نفسك لله و رسوله و لإمامك. و أطهرهم جيبا و أفضلهم حلما، ثم الصق بذوى المروءات. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما... و لا تحقرن لطفا تتعاهدهم به و ان قل... و ليكن آثر جندك عندك من واساهم [صفحه ۳۰۹] فى معونته... و ان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد بظهور مودة الرعية...». و أما عن العدالة، و قوامها القضاء، فيبدأ المشترع العظيم - فى التعبير الأوربى - الكلام فيها عن القانون الواجب التطبيق فيقول: «و أردد الى الله و رسوله ما يضلعك من الخطوب و يشتبه عليك من الأمور. فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم «يا

أيها الـذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله و الرسول» - فالرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه، و الرد الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة». و يقرن القانون الإلهى بالقاضى كما يتطلبه الاسلام، فيقول: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور، و لا تمحكه الخصوم، و لا يتمادى فى الزلة، و لا يحصر عن الفيء الى الحق اذا عرفه، و لا تشرف نفسه على طمع، و لا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه؛ أوقفهم فى الشبهات، و آخذهم بالحجج، و أقلهم تبرما بمراجعة الخصم، و أصبرهم على تكشيف الأمور، و أصرمهم عند اتضاح الحكم... ممن لا يزهيه اطراء و لا يستميله إغراء. و أولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه و أفسح له فى البذل ما يزيح علته و تقل حاجته الى الناس. و أعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فى غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك». و لئن كانت رسالة عمر الى أبي‌موسى الأشعرى قد جمعت جمل الأحكام فى كلمات مختصرة، لا يجد محق عنها معدلا، ان عهد على (عليه‌السلام) للأشتر كان فى زمان مختلف، فجاء جامعا، بل مضيفا - فى الموضوع الذى وردت فيه رسالة عمر - أمورا شتى يحتاجها زمان على و كل زمان بعده. و ورود القانون، و الدعوى، و اختيار القاضى، و سلوكه، و طريقة القضاء، و استقلال القضاء، فى فقرتين بين فقرات ذلك العهد، مظهر من مظاهر شموله و اتساع نطاقه، و أسباب خلوده. أما الإدارة العامة - عمال الوالى - ففيهم يقول أميرالمؤمنين (عليه‌السلام): [صفحه ۳۱۰] «انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختيارا و لا تولهم محاباة و أثرة... و توخ منهم أهل التجربة و الحياء من أهل البيوتات الصالحة و القدم فى الإسلام، فإنهم أكرم أخلاقا و أصح أعراضا ... ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، و غنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، و حجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك... ثم تفقد أعمالهم...». و أما الكتاب ففيهم قوله: «ثم انظر فى حال كتابك، فول على أمورك خيرهم و اخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك و أسرارك، بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق، ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ... ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك و استقامتك و حسن الظن منك... و لكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم فى العامة أثرا...». ثم يقول عن الضعفة: «و تعهد أهل اليتم و ذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة، له و لا ينصب للمسألة نفسه... و اجعل لذوى الحاجات منك مجلسا عاما... فلا تكونن منفرا و لا مضيعا. فإن فى الناس من به العلة و له الحاجة. و قد سألت رسول صلى الله عليه و آله و سلم حين وجهنى إلى اليمن كيف أصلى بهم، فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم و كن بالمؤمنين رحيما».

الشورى و العناية بالعامة

فى بداية العهد إلى الأشتر أمران؛ الأول: خاص بالأشتر، و الثانى: خاص بالعامة و الخاصة. و الأمران عصريان فى كل عصر، و مطلوبان فى كل مكان، و من كل الحكام: أما الأول، ففيه قوله له: «إن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، و يقولون فيك ما كنت تقول فيهم. و إنما يستدل على الصالحين بما يجرى بهم على ألسنة عباده... فاملك هواك، و شح بنفسك عما لا يحل لك... و أشعر [صفحه ۳۱۱] قلبك الرحمة للرعية و المحبة لهم و اللطف بهم. و لا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك فى الدين و إما نظير لك فى الخلق... يفرط منهم الزلل و تعرض لهم العلل، و يؤتى على أيديهم فى العمد و الخطأ. فأعطهم من عفوك و صفحك مثل الذى تحب و ترضى أن يعطيك الله...». [۱۱۷] . و قوله: «و إذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك... فطن الله يذل كل جبار و يهين كل مختال. أنصف الله و أنصف الناس من نفسك و من خاصة أهلك و ممن لك فيه هوى. و ليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله و تعجيل نقمته من إقامة على ظلم...». و يقول عن الشورى: «و لا تدخلن فى مشورتك من يعدل بك عن الفضل و يعدك الفقر. و لا جبانا يضعفك عن الأمور و لا حريصا يزين لك الشر، بالجور، فإن البخل و الجبن غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله... و الصق بأهل الورع و الصدق... ثم رضهم على أن لا يطروك... و لا تنقص سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة...». و أما الثانى، ففيه قوله: «وليكن أحب الأمور

إليک أوسطها فی الحق. و أعمها فی العدل و أجمعهالرضی الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضی الخاصة. و إن سخط الخاصة يغتفر مع رضی العامة. و ليس أحد من الرعية أثقل علی الوالی مؤنة فی الرخاء، و أقل معونة فی البلاء، و أكره للإنصاف، و أسأل بالإلحاف، و أقل شكرا عند الإعطاء، و أبطأ عذرا عند المنع، و أخف صبرا عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة. و إنما عماد الدين و جماع المسلمين، و العدة للأعداء، العامة من الأمة. فليكن صغوک لهم و ميلک معهم». بأبی أنت و أمی يا أميرالمؤمنين! إن رسول الله (صلی الله عليه و آله و سلم)يقول: «اطلعت فی الجنة [صفحه ۳۱۲] فوجدت أكثر أهلها الفقراء» و أنت فی طليعة أهل الجنة. تحب أكثر أهلها عددا فی الحياة الدنيا؛ و من أجل ذلک تكرم العامة، و هم كثرة الأمة، و تؤثر منها الفقراء. و لقد كنت دائما قدوة. و أردت الخاصة علی أن تكون قدوة، و حذرتها من مطامعها و مزالقها. ولو حذرت، للزمت الجادة، و صلح أمر هذه الأمة. إن من يضع دستورا فی العصر الحديث خليق بأن يرتوی من عهدک و يروی الأمة من ينابيعک، فی تطبيع الشريعة، و سيادة القانون، و استقلال القضاء، و أمانة الولاة، و نزاهة الإدارة، و احترام العامة، و إلزام الخاصة أن تكون قدوة فی الأمة. يقول ابن‌المقفع فی شأن الخاصة بعد مائة عام، فی كتابه لأبی جعفر: «و قد علمنا علما لا يخالطه الشک أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها. و لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها... و حاجة الخواص إلی الإمام الذی يصلحهم الله به كحاجة العامة إلی خواصهم و أعظم من ذلک». و يتصدی الإمام زين‌العابدين فی «رسالة الحقوق» بالشرح الشامل، و التفصيل الطويل، لسلوک الجماعات و الأفراد و ما يجب لها شرحا و تفصيلا تقتضيهما حالة الناس و ظروف الزمان فی النصف الثانی من القرن، عصر كربلاء و الحرة و ضرب الكعبة و الدولة الهرقلية و تغير الناس. و استقصاء السجاد فيها للأحكام مظهر لتحمله مسؤولية تعليم المسلمين أمور دينهم و شؤون دنياهم؛ فهی تبدأ بحقوق الله عزوجل... و أكبرها ما أوجبه الله تعالی من حقه. فجعل للجوارح حقوقا و لأفعالها حقوقا: «ثم تخرج الحقوق منک إلی غيرک من ذوی الحقوق الواجبة عليک، و أوجبها عليک حق أئمتک ثم حقوق رعيتک ثم حقوق رحمک. فهذه حقوق يتشعب منها حقوق. فحقوق أئمتک ثلاثة... و حقوق رعيتک ثلاثة... و حقوق رحمک كثيرة متصلة... [صفحه ۳۱۳] فأوجبها عليک حق أمک ثم حق أبيک... ثم حق مولاک المنعم عليک ثم...». [۱۱۸] . و تطرقت رسالة الحقوق للعلاقات الحكومية و القضائية و الاجتماعية التی تنظم الجماعة الإسلامية، فنظمت آدابها و التزاماتها و الخليقة و القانونية بالتفصيل. و ربما أجزأ فی تقريب منهاجها إلی الألباب مثل ننقله منها عن معاملة السلاطين حيث يقول: «و أما حق سائسک بالسلطان فأن تعلم أنک جعلت له فتنة. و أنه مبتلی فيک بما جعله الله له عليک من السلطان. فعليک أن تخلص له فی النصيحة. و لا ـ تماحكه و قد بسطت يده عليک. فتكون سبب هلاک نفسک و هلاكه... و تلطف لعطائه مايكفه عنک دون أن يضر بدينه. و تستعين عليه فی ذلک بالله فلا ـ تعانده... فإنک إن فعلت ذلک عققته و عققت نفسک و عرضتها للمكروه».

الحكام

تابع الإمام الصادق عمل آبائه فی التنبيه علی قواعد الحكم الصالح و منها حقوق [صفحه ۳۱۴] العامة - و هی جسم الجماعة - بنصوص دستورية يوجزها، لتحفظ عنه و تنقل منه... يقول: «أفضل الملوک من أعطی ثلاث خصال: الرحمة و الجود و البذل». و يقول: «ليس للملوک أن يفرطوا فی ثلاثة: حفظ الثغور و تفقد المظالم و اختيار الصالحين لأعمالهم». و ما هی إلا أركان الدولة الثلاثة: الجيش و القضاء و الإدارة. أو مبادئ الحكم الثلاثة: المنعة فی الخارج بالجيش. و العزة فی الداخل بالعدل. و الحكم الصالح بالإدارة الحسنة. و الرسول يقول: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» و هو مقال موجه للعامة و الخاصة فی أمة خصيصتها الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر. و أول المسؤولين عنهما الولاة و العلماء و القادرون. و الصادق يقول لكل هؤلاء «خير الناس أكثرهم خدمة للناس»، يقول للحكام: «كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان» و يقول: «المستبد برأيه موقوف علی مداحض الزلل» (العثرات). و هی مقولة تنطق بها سجلات الطغيان، حيثما كان، و فی جميع الحقب. فالزلة الواحدة تزعزع قوام الطاغية أو المتعصب أو

المتحكم. فهو كـالواقف على قـدم واحـدة. و تعاليم الصادق فى العـدل و الرفق بالرعيـة مقولات دسـتورية فى الأمـة. يقول: «ما أوسـع العـدل و إن قـل» و يقول: «أمـا إن المظلوم يأخـذ من دين الظالم أكثر مما يأخـذ الظالم من مال المظلوم». و يقول لوالى المنصور على الأهواز إذ استنصـحه: «... فـاعلم أن خلاصـك و نجاتـك فى حقن الـدماء و كف الأذى عن أولياء الله و الرفق بالرعيـة. و الثانى حسـن المعاشـرة مع لين فى غير ضـعف. و شـدة فى غير عنف... و إيـاك و السعاة و أهل النمائم... و لا تستصـغرن من حلو و فضل طعام فى بطون خاليـة ... إيـاك يا عبـدالله أن تخيف مؤمنا». تلك دروس جـده صـلى الله عليه و آله و سـلم؛ و هو القائل: «سـبعة يظلهم الله يوم القيامـة؛ إمام عادل...» فبدأ بالعدل. [صـفحه ۳۱۵] بل يقول عليه الصـلاة و السـلام: «عدل السـلطان يوما يعدل عبادة سـبعين سنة...». و الدنيا قدم تدوم، و الدولة قد تقوم، مع العدل و الكفر. لكنها لا تبقى مع الظلم، و إن كان الظلم واقعا على غير مسـلم. و الله تعالى يقول فى محكم كتابه: «كونوا قوامين لله شـهداء بالقسط. و لا يجرمنكم شـنآن قوم على ألا تعـدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى». [۱۱۹] . يقول الإمام الصادق: «من نكد العيش السـلطان الجائر و الجار السوء و المرأة البذيئة». فالسلطان الجائر أذى دائم، و منكر مستمر، تضيق الدنيا به، و إن رحبت، كما يضيق المكان – على رحبه – بالجار السوء، و تضيق الحياة – و إن طالت أو اتسعت – مع المرأة الطويلة اللسان. و الإمام يبدأ بالسـلطان الجائر لأن أذاه يفسد الدنيا و إن صلحت، و الأسرة و إن هنؤت. و إذا عم العدل احتمل الناس همومهم حيث هم. و من فساد السـلطان أن يتولى سـدته المتكبرون؛ و المتعالون فى دخيلتهم منحطون. يقول الصادق: «ما من أحد يتيه إلا من ذلة وجدها فى نفسه». و من ذلـك ينحى عن الرياسـات من يجرون أزرهم خيلاء، فهؤلاء لا يتنفعون بتجربـة من أنفسـهم، و إلا لما تكبروا على النـاس، أو من غيرهم، و إلا لمـا غرهم الغرور. يقول: «لا يطمع القليل التجربـة المعجب برأيه فى الرياسـة». و يقول: «من طلب الرياسـة هلـك». فـإذا ولى الحـاكم فليخش الله فى النـاس، و ليعلم أن فيهم ضـعفا، و أنه مطـالب بـالعفو و الصـفح الجميل. يقول الإمام: «أولى النـاس بـالعفو أقـدرهم على العقوبـة. و أنقص النـاس عقلا من ظلم من دونه، و لم يصـفح عمن اعتـذر إليه». [صـفحه ۳۱۶] و الناس مطالبون بأن يمحضوا النصـح بإخلاص. و ليس الإخلاص مجرد النية الحسـنة أو البدار بالكلام، و إنما هو الفكر الجاد، و تقليب الأمور على وجوهها، و الاستماع إلى المخالفين. فالإمام يقول: «لا تكن أول مشـير. و إياك و الرأى الفطير». و كثيرا ما تأذى الناصح بنصحه، و ركبت المنصوح شياطين غلوائه. و قد يستفيد الظنة المتنصح. و ينبه الإمام الأمة على ألا تشترى الراحة بالرياء إذ «المؤمن يدارى و لا يمـارى» كمـا يقول. و ينبه الناس – و منهم الحكام – على أن يسارعوا إلى الخيرات بإصـلاح عيوبهم، و إعلانها دون تأثم أو تحرج. و الناس يمدون أيديهم إلى من يصارحم بمصاعبه، فيشـركونه فى متاعبه. يقول «أنفع الأشـياء للمرء سبقه الناس إلى عيب نفسه و أشدها مؤنة إخفاء الفاقة...». و كما يقول: «من لم يتفقد النقص فى نفسه دام نقصه. و من دام نقصه فالموت خير له». و لعل أنفع الناس للمرء، من يهدى إليه عيوبه، بأن ينبه عليها.

المجتمع الجعفرى

الإمام مبلغ عن النبى صـلى الله عليه و آله و سـلم علمه. و هذا العلم أجناس و أنواع، نشـير فى هذا المقام إلى بعض منها فى السـياسة و الاجتمـاع، و الاقتصاد، و هو حسب أى مجتمع ليقيم دولـة راسـخة الأركان، و أمـة تعمل كخليـة النحل، لا مجرد جمعيـة للإصـلاح أو جماعـة متطلعـة للتقـدم، كالجمعيـات و الجماعـات التى تزخر بهـا المجتمعات فى العصور الحديثـة، بقصـد إصـلاح جزئى أو الـدعوة لمبادئ معينـة. و كثير من المبادئ التى تحدثنا عنها قبل، و التى سـنتحدث عنها بعد، شذرات من دروس، متداولة عن الإمام، لو حاولنا جمعهـا كنـا كمن يجمع مصابيـح السـماء. و قـد يكفى فى هـذا المقـام ذكر بعض توجيهات الإمام «لشـيعتنا» كما يقول. أو «للجعفرى» الجـدير بالانتسـات للإمـام، كمـا يسـمى تابعيه. و إذ كانت هـذه التوجيهات إشارات إلى مؤهلات الانتساب إليه، فهى تقطع بأنه كان [صفحه ۳۱۷] يعـد «دعاة» يـدعون لمجتمع يـدين بمبادئه. و هـذه المبادئ، مضافـة إلى الفقه المـدنى و الجزائى و نظريـة الإمامة، كافية لإقامـة مـذهب متكامل تقوم على قواعـده «دولـة» تكفل الجزاء و الثواب. فالقاعـدة القانونيـة، مع العقيـدة الدينيـة و النظريات الخلقيـة،

کالماء الـذی یسـقی البـذور الصالحة التی تنتظر الزمن لتشق الأرض و تظهر، فی حمایة الدولة. و لقد کلل الله بالنجاح سـعیه. و ظهرت دول و مجتمعات ازدهرت فی العالم، مع اصطناع التغییرات التی تستدعیها حاجات السلطان و الزمان و المکان، أو الدعایة للدولة، کما کـان الشـأن فی الـدول و المجتمعات الاسـماعیلیة کالفاطمیین المنتسبین إلی اسـماعیل بن الإمام جعفر (علیهالسـلام). و أحـدثت هـذه المبادئ آثارا باهرة فی المجتمعات الشـیعیة، فی أمم إسـلامیة أو غیر إسـلامیة، أنمت التمسک الدینی بفضائل الإسـلام، و أمکنت من الـدفاع عنه بقوة و إیمـان، و أبـدعت عبقریتهـا الاقتصادیـة التی طالمـا حضت علیهـا تعالیم الإمام. فالتعالیم الصادرة عن الإمام الصادق لیست مجرد أصول فقهیـة أو فروع علمیـة کمـا هو دأب الأئمـة من أهل السـنة. بل هی تتعـدی ذلک المجال إلی کل مجال للناس فیه نشاط سیاسـی أو اجتماعی أو اقتصادی... و من أجل ذلک العموم فی رسالة الإمام و مقامه فی الإسلام، کان شعور أبیحنفیة و مالک و سـفیان الثوری و عمرو بن عبیـد و نظرائهم أو المقاربین لهم أنهم فی مجلسه تلامـذة. و اعتبار الأمـة أنهم هنالک کذلک و ان کانوا أئمة. و من نفاذ البصـیرة، و عظمة الطریقة، و جلال السـمت، و اتساع العلم، کان اعتراف خصوم المسـلمین أنفسهم بأنه - بین الحجیج جمیعا - الفرد العلم. أما المبادئ الفقهیة و مبادئ العقیدة و السیاسة فقد تکلمنا عنها. و تبقی کلمات، کالإشارات، عن المبادئ الخلقیة و الاجتماعیـة الـتی انتخبنـا بعضـها، لتـدل علی اتجاه بهـا نحو تکوین مجتمع قوی و إعـداد الـدعاة له... [صـفحه ۳۱۸] أوصـی الإمام المفضـل بن عمر بخصـال یبلغهن من وراءه من «شـیعة أهـلالبیت». «أن تؤدی الأمانـة إلی من ائتمنک. و أن ترضـی لأخیک ما ترضاه لنفسـک. و اعلم أن للأمور أواخر فاحـذر العواقب. و أن للأـمور بغتـات فکن منهـا علی حـذر. و إیـاک و مرتقی جبل سـهل إذا کان المنحدر وعرا». و أوصاهم: «صلوا عشائرکم. و اشهدوا جنائزهم. و عودوا مرضاکم. و أدوا حقوقهم. فإن الرجل منکم إذا ورع فی دینه و صـدق الحـدیث و أدی الأمانـة و حسن خلقه مع الناس قیل (هـذا جعفری) و یسـرنی ذلک. و إذا کان غیر ذلک دخل علی بلاؤه و عاره. و قیل هذا أدب (جعفر)! فو الله إن الرجل کان یکون فی القبیلة من (شیعة علی) فیکون زینها. آداهم للأمانة. و أقضاهم للحقوق. و أصـدقهم. یحمـل إلیه وصایاهم و ودائعهم. تسأل العشـیرة عنه و یقال: (من مثل فلان؟)». و أوصاهم: «أوصـیکم بتقوی الله و اجتناب معاصـیه. و أداء الأمانـة لمن ائتمنکم. و حسن الصـحبة لمن صـحبتموه. و أن تکونوا لنـا دعـاة صـامتین». فهو بهـذا یربط إحسان العمل بالانتساب لأهل البیت و یضع القواعـد المثلی للمجتمع. دخل علیه المفضل بن قیس ذات یوم یسأله الدعاء، و کما قال: «فشـکوت إلیه بعض حـالی و سألته الـدعاء فقـال: یـا جاریـة هـاتی الکیس... فقال: «هـذا کیس فیه أربعمائـة دینار فاسـتعن بها». قلت: ما أردت هـذا الکیس، و لکن أردت الـدعاء لی. قـال: «و لاـ أدع الـدعاء لـک. و لکن لا تخبر الناس بکل ما أنت فیه فتهون علیهم». هکـذا تتابع منه العطاء غیر المطلوب، و الـدعاء المطلوب، و النصـح الواجب. فهو معلم فی المقـام الأول. أعطی فأغنی. ثم نصـح، لیقبل النصـح منه. و الأعمـال أعلی صوتـا مـن الأـقوال. و هـو یزیـد العلاقـة بین أصـحابه وثاقـة: [صـفحه ۳۱۹] قـال یومـا لبعض أصـحابه: مـا بـال أخیک یشـکوک؟ قال: یشـکونی إذ استقصـیت علیه حقی. فقال مغضـبا: «کأنک إذا استقصـیت حقک لم تسئ؟ أرأیت ما حکی الله عن قوم یخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن یجور علیهم؟ و لکن خافوا الاسـتقصاء. سـماه الله سوء الحساب. فمن استقصـی فقـد أساء». أرأیت - إلی مـدی ما یسـتنبط الإمام من النص؟ و إلی مقـدار ما یـدخل فی نفوس أمته من الإحساس الرقیق بمتاعب بعضـهم، کالجسم تتداعی أعضاؤه بإدراک مرهف و تکافل کامل؟ ذلک ادب جـده صـلی الله علیه و علی آله. و الإمام یعلمهم أن تکون لهم الید العلیا بالابتداء بالعطـاء. و فی السؤال رهق. و الصـلة تفقـد رونقهـا، و ربمـا قیمتها، إن لم تکن فیها مبادرة: دخل علیه رجل من خراسان؛ قال: لقـد قل ذات یـدی و لاـ أقـدر علی التـوجه إلی أهلی إلاـ أن تعینونی... فنظر الإمـام للجالسـین، و قـال: أمـا تسـمعون مـا یقول أخوکم؟... إنما المعروف ابتداء. فأما ما أعطیت بعد ما سأل فإنما هو مکافأة لما بذل من ماء وجهه... و قد قال رسول الله (صـلی الله علیه و آله و سلم): «و الـذی فلق الحبـة وبرأ النسـمة و بعثنی بـالحق نبیـا لمـا یتجشم أحـدکم من مسـألته إیـاک أعظم مما ناله من معروفک...» فجمعوا له خمسـمائة درهم. و بهذا اشترک الجمیع فی أداء الواجب. و هو القائل «أغنی الغنی ألا تکون للحرص أسیرا». و التنبیه علی الإرهاق فی الاسـتقصاء. و علی انعـدام فضل المسؤول علی السائل، خصیصـتان إسـلامیتان ترفعان قـدر الجماعـة - بما فیهما من مؤالفة و تکافل. و

التعبيرات العاليـة عنهما تعبيرات إمام. قال مصادف: «كنت عنـد أبي عبـدالله فدخل رجل فسأله الإمام: كيف خلفت إخوانك؟ فأحسـن الثنـاء عليهم. فسأله: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟ قال الرجل: قليلـة: قال الإمام: كيف مساعـدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال قليلـة. قال الإمام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم (شيعتنا)»؟ [صفحه ۳۲۰]

الجهاد

اشارة

يقول أبوالـدرداء: «من رأى أن الغـدوة إلى العلم ليست بجهـاد فقـد نقص في عقله و دينه» و الصادق لا يكتفي بالتعليم بل يحض على الجهاد بالنفس و المال و يقول للمسـلمين: «الجهاد واجب مع إمام عادل. و من قتل دون ماله فهو شـهيد». و يرى الانحياز إلى الظالمين تمكينـا لهم. و الجهـاد مع العادلين تثبيتا للاسـلام. سأل يوما عبـدالملك بن عمرو: «لم لا تخرج إلى هـذه الـديار التي يخرج إليها أهل بلادك؟ – أي تجاهـد مع الولاة – قال عبـدالملك: أنتظر أمركم و الاقتـداء بكم. قال الإمام: اي و الله لو كان خيرا ما سـبقونا إليه. قال عبـدالملك: إن الزيديـة يقولون: ليس بيننـا و بين جعفر خلاف إلا أنه لا يرى الجهاد. قال الإمام: «أنا لا أرى الجهاد...؟ بلى و الله. إني أراه. لكنني أكره أن أدع حلمي إلى جهلهم». و لقـد كان عظيما جهاد جـده الحسـين في جيوش معاوية، بل جهاد الحسـين ضد معاوية نفسه، إذ يخاطبه بقوله: «ثم سلطته (زيادا) على العراقيين يقطع أيدي المسـلمين و أرجلهم و يصـلبهم على جذوع النخل... فكتبت إليه أن اقتـل كـل من كـان على دين علي، فقتلهم و مثـل بهم بـأمرك...». أمر كربلاء فملحمـة في الإسـلام. فـإذا كان الجهاد للـدفاع عن الإسـلام إذا ما تهدده العدو، أو حين يغزو أرض المسـلمين عدو، فذلك فرض عين على كل فرد، ولو كان تحت إمرة أمير جائر. سئل الإمام الرضا عن الرجل يرابط تجاه العدو... كيف يصنع؟ قال: يقاتل عن بيضة الإسلام لا عن هؤلاء (يقصد الحكام الظلمة). و المرابطة في الثغور إن كانت للاسـتطلاع فلها مـدة. و هي مستحبة. و إذا كانت لملاقاة العـدو فهي واجبـة. و الرجل المسـلم كفء لرجلين عند اللقـاء يقـول الامـام الصـادق: «مـن فر مـن رجلين فقـد فر و من فر من ثلاثـة فلم يفر». و الجهـاد لغير الـدفاع... أي لمجرد الغزو، فرض كفائي، قال الصادق: «جاء رجل إلى [صفحه ۳۲۱] رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: إني راغب في الجهاد نشيط. فقال له (صلى الله عليه و آله و سلم) «فجاهد في سبيل الله» قال الرجل: إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي و يكرهان خروجي. قال النبي: «أقم مع والـديك. و الـذي نفسـي بيـده لأنسـك بهما يوما و ليلـة خير من جهاد سـنة». و الامام بهـذا يعلم الناس إيثار الوالـدين بالرعايـة. فهما النواة التي تزدوج لتصـنع الأسـرة. و هي بـدورها نواة الأمـة. و التمكين لهذه تكوين لتلك. أما إذا احتيج للرجل لكفاءة خاصة فيه فالجهاد فرض عين عليه. و الصادق يعلم المسـلمين قوانين الإسـلام في الحروب فيقول: «إذا أخذت أسيرا فعجز عن المشي و لم يكن معك محمل فأرسـله و لا تقتله» و يعلن أن «إطعام الأسـير حق على من أسره. و إن كان يراد من الغد قتله. فإنه ينبغي أن يطعم و يسـقى و يرفق به، كـافرا كـان أو غيره». و يعلم المسـلمين «أن رسول الله كـان إذا بعث سـرية دعـا أميرها فأجلسه إلى جنبه و أجلس أصحابه بين يديه ثم قال: سيروا باسم الله و على سبيل الله... و لا تغدروا. و لا تغلوا. و لا تمثلوا. و لا تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا إليها. و لاـ تقتلوا شـيخا فانيـا. و لاـ صبيـا. و لاـ امرأة». و ينهى الصـادق عن قتـل الرسـل، أو قتـل الرهـائن، أو اسـتعمال السم، حتى في حرب المشركين. فإذا كانت حرب فلتكن حربا نظيفة، أي إسلامية. و لنتذكر في هذا المقام قول «علي» و هو يبعث الجند للقتال: «لا تقاتلوهم حتى يبـدأوكم. فإنكم بحمـدالله على حجـة. و ترككم إياهم حتى يبـدأوكم حجة أخرى عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مـدبرا و لاـ تجهزوا على جريـح. و لا تهيجوا النساء بأذى... إن كنا لنؤمر بالكف عنهن و هن مشـركات...». و قول الصادق «نهى رسول الله (صـلى الله عليه و آله و سـلم) أن يلقى السم في جهـاد المشـركين... و عن قتـل النسـاء و الولـدان في دار الحرب. و عن الأعمى. و الشيخ الفاني... و ما بيت عدوا قط في ليل...». [صفحه ۳۲۲] و قول الصادق لإحسان معاملة أهل الذمة «إن رسول الله (صلى الله عليه و

آله و سلم) قبل الجزية من أهل الذمة على ألا يأكلوا الربا و لا لحم الخنزير، و لا ينكحوا الأخوات و بنات الأخ و بنات الأخت. فمن فعل ذلك منهم فقد برئت منه ذمة الله و ذمة رسوله». فعلى المسلمين ألا يتعرضوا لأهل الذمة بسوء. بل إن عليهم أن يدافعوا عنهم، ماداموا لا ينشرون الدعوة ضد الإسلام، و لا يتظاهرون بارتكاب المنكرات، و لا يؤون إليهم أعداء الإسلام. و كل من له كتاب كاليهودى و النصرانى، أو شبه كتاب، كالمجوس، فهو ذمى، إذا قبل شروط الذمة و التزم بها. فإذا لم يلتزم فحكمه حكم الحربى.

فى المجتمع و دعائمه

الأسرة

إذا رتبت تعاليم الإمام تصدر تعاليمه للناس قوله «أصل الرجل دينه و تقواه. الناس فى آدم مستوون» و هذه المساواة الفطرية تسبقها البنوة لآدم، ثم يبلغها أغراضها حدب القوى على الضعيف، و العالم على الجاهل، و الذى أتيحت له الفرصة على من لم تتح له. و لما سأل الإمام رجلا: من سيد هذه القبيلة فأجاب: أنا. قال الإمام: لو كنت سيدهم ما قلت أنا. و لما فصل المكرمات المطلوبة من الناس قال: «المكارم عشر: صدق الناس، و صدق اللسان، و أداء الأمانة، وصلة الرحم، و قرى الضيف، و إطعام السائل، و المكافأة على الصنائع، و التذمم للجار، و التذمم للصاحب. و رأسهن الحياء». فهو يبدأ بالصدق الأمانة. ثم يتبعها صلة الرحم و لها عنده أعلى مقام. فبها قيام الأسرة – و هى نواة المجتمع الإسلامى – بتنظيمها القانونى الذى لا نظير له فى، أمم غير أمة الإسلام. [صفحه ۳۲۳] يقول: «خمسة لا يعطوا شيئا من الزكاة. الأب و الأم و الوالد و الزوجة و المملوك. لأنهم عياله و لازمون له» فالانفاق على هؤلاء فرض. و الصدقات مع وجوبها و تعميمها و الحث عليها، لا تستحق للناس إلا أن يكتفى ذوو الأرحام. يقول الإمام: «لا صدقة و ذو رحم محتاج». ولو ظن واصل الرحم أنه يضع المعروف فى غير موضعه – و للمعروف دائما موضع – فالإمام يقول له: «لا تقطع رحمك و إن قطعك». وقع كلام بينه و بين عبدالله بن الحسن (و ربما كان ذلك من جراء يوم الأبواء، و سلف القول فيه) و كان عبدالله اكبر أهل البيت سنا، فأغلظ عبدالله القول. فلم يرد الصادق. ثم افترقا ثم تلاقيا على باب المسجد. فابتدره الصادق يقول «كيف أمسيت يا أبامحمد»؟ (فهو أبومحمد المهدى – النفس الزكية – و إبراهيم و الباقين، من بنى عبدالله بن الحسن). و قال عبدالله كالمغضب: بخير. قال الصادق: يا أبامحمد. أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟ ثم تلا قوله «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل و يخشون ربهم و يخافون سوء الحساب» فقال عبدالله: فلا ترانى بعدها قاطعا رحما. يقول الصادق: إن رجلا أتى النبى فقال: يا رسول الله إنى لى أهلا قد كنت أصلهم و هم يؤذوننى و قد أردت رفضهم. فقال له رسول الله: «إن الله يرفضكم جميعا» قال الرجل: كيف أصنع؟ قال: «تعطى من حرمك و تصل من قطعك و تعفو عمن ظلمك. فإذا فعلت ذلك كان الله عزوجل لك عليهم ظهيرا». و كان الإمام يصلى عن ولده فى كل ليلة ركعتين، و عن والده فى كل يوم ركعتين... يقول فى صدد الصلاة عن الميت: إنه ليكون فى ضيق فيوسع عليه ذلك الضيق، ثم يؤتى فيقال له خفف الله عنك ذلك الضيق لصلاة فلان أخيك عنك. و ربما أجمل منهاج الصادق فى القول و العمل للناس عامة، كلمات له يتناقلها الناس فى كل مكان: «خير من الصدق قائله، و خير من الخير فاعله». [صفحه ۳۲۴] فهنا فضائل كثيرة مجتمعة. هى الخير، و صنعه، و إمكان القتداء بصانعه، و إعلان لرأى الإمام بأن الإيمان عقيدة و عمل، و أن العمل الصالح يحول الفكر المجرد، إلى فعل نافع أو أمر واقع؛ و العمل هو الوسيلة المنجحة إذا جرى مجرى الأصول. و الصادق يروى عن على (عليهماالسلام): «سمعت رسول الله يقول: عليكم بسنتى، فعمل قليل فى سنة خير من كثير فى بدعة». و الإمام يرى أن «رأس الحزم التواضع» و أن التواضع هو «الرضى بأن تجلس من المجلس بدون شرفك و أن تسلم على من لقيت. و أن تترك المراء و إن كنت محقا». و يقول: «من أكرمك فأكرمه و من لم يكرمك فأكرم نفسك عنه». و يضيف إلى ذلك: «إنك لن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشره عليهم من فضلك». و هذا الفضل بعض المعروف. أما عن تمام المعروف فيقول: «المعروف لا يتم إلا بثلاثة: تعجيله، و تصغيره و ستره». يقول: «العافية نعمة يعجز عنها الشكر» بل يقول: «المعروف زكاة النعم». و الله تعالى يقول «و إن تعدوا نعمة الله لا

تحصوها». فما أكثر ما يستحق الناس من المعروف عند المسلم الصادق. و السخاء سمو، ولو من الجاهل. يقول (عليه‌السلام): جاهل سخى أفضل من ناسك بخيل. فلنتصور مجتمعا يسود فيه السخاء... و يعم العطاء، و يتواتر المعروف، ليتعاون الناس فى دنياهم... و تستوثق القربى فيهم، فتزداد لحمة الأسرة وثاقة، ثم تلتزم الجماعة و الأفراد بالمكارم العشرة التى نص عليها الإمام! إنه المجتمع الإسلامى!. لنقرأ وصية الإمام لعبدالله بن جندب لنلمس مواقع الجمال و الكمال فى هذا المجتمع. «لا تكن بطرا فى الغنى و لا جزعا فى الفقر. و لا تكن فظا غليظا يكره الناس قربك. و لا تكن واهنا يجفوك من عرفك. و لا تشار من فوقك. و لا تسخر ممن دونك. و لا تنازع الأمر أهله. يا ابن‌جندب: لا تتصدقن على أعين الناس يزكوك. فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك. و لكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك. فإن الذى تتصدق له سرا يجزيك علانية. فقد علم ما تريد». [صفحه ۳۲۵]

الأخوة

كان طبيعيا أن تمتد هذه المبادئ السياسية و الاجتماعية، الموجهة للأفراد، إلى بيئتهم، و أن يكون المقام العظيم للأصحاب و الصحبة... و هى القرابة التى يختارها المرء لنفسه و لا تفرض عليه من أسلافه. و الصحبة أداة منجحة للتكافل و التكامل. و بها تجتمع «الخلية الأولى» للجماعة الهادفة. و لعل فى اهتمام الإمام بالصحبة و الأخوة دليلا على اتجاه نحو إيجاد مجتمع أو جماعات تتآخى فى التشيع. و بمثل هذه الجماعات قامت الدول الشيعية على نظم مشهورة فى الدعوة لها، خافية أو معلنة، و بخاصة نظم الدعوة الاسماعيلية. و كما حفلت مجالس الإمام و مقولاته بوصف (الجعفرى) و بعبارة (شيعتنا)، حفلت بتوكيد أسباب التعاون بين الاخوان. هو أولا يجعل المودة بينهم من الدين فيقول: «من حب الرجل دينه حبه إخوانه» ثم ينتقل من الوضع الدينى إلى الاجتماعى فيقول: «و طن نفسك على حسن الصحبة لمن صحبت. و حسن خلقك و كف لسانك و اكظم غيظك. أما يستحى الرجل منكم أن يعرف جاره حقه و لا يعرف حق جاره. ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره». و قديما قيل لأبى الأسود الدؤلى تلميذ «على»: «بعت دارك»؟ قال «بعت جارى» و قيل: «الرفيق قبل الطريق». و الإمام الصادق يقول: «أيسر حق من حقوق الإخوان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك و أن تكره لأخيك ما تكره لنفسك و أن تتجنب سخطه و تتبع مرضاته و تطيع أمره و تعينه بنفسك و مالك و لسانك و يدك و رجلك. و أن تكون عينه و دليله و مرآته. و لا تشبع و يجوع. و لا تروى و يظمأ. و لا تلبس و يعرى. و أن تبر قسمه. و تجيب دعوته. و تعود مريضه. و تشهد جنازته. فإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها و لا تلجئه إلى أن يسألكها». فكل وجه من الوجوه المشار إليها أداة تراحم... تمكن للأخوة الإسلامية. و كل [صفحه ۳۲۶] تفريط، مهما قل أمره، أو ضاق زمنه، تنقص من الأخوة الإسلامية. فإذا أطال المسلم قطيعة أخيه، فهى إحدى الكبر. فالمجتمع المتقاطع، هو كالمجتمع بين أعداء... أو كالجزر المتنازحة فى اليم، حدود كل منها مصالحها. يقول النبى عليه الصلاة و السلام: «هجرة الرجل أخاه سنة كسفك دمه». و ما أدق نصح الإمام فى معاشرة الناس: «لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق. المؤمن يدارى و لا يمارى. مجاملة الناس ثلث العقل». و هو ينهى عن الظنة. فالظنين متهم. يقول: «ضع أمر أخيك على أحسنه. و لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءا و أنت تجد لها فى الخير محملا». أما من فرط حيث تجب اليقظة فلا يلو من إلا نفسه - يقول الإمام: «من كتم سره كانت الخيرة بيده» و يقول: «لا تثقن بأخيك كل الثقة فإن سرعة الاسترسال لاتقال» و يقول: «صدرك أوسع لسرك» و «سرك من دمك فلا تجره فى غير أوداجك». و يقول: «من خان لك خانك. و من ظلم لك سيظلمك. و من نم إليك سينم عليك». و لما سئل عن الرجل العدل قال: «من غض طرفه عن المحارم و لسانه عن المآثم و كفه عن المظالم». و الإخوان - عند الإمام - هم المواسون، فهم بين ثلاثة: «مواس بنفسه و آخر مواس بماله و هما الصادقان فى الإخاء، و آخر يأخذ منك البلغة و يريدك لبعض اللذة فلا تعده من أهل الثقة». و الإمام يأمر بالرفق بالناس. فينبه الذين يتطاولون ليتطامنوا. فيقول: «من الجور قول الراكب للراجل: (الطريق)» فهو الراكب، و بيده الزمام، و الطريق للناس كافة. و كفى الراجلين أنهم يمشون. و كفاه أنه فوق ظهر. يقول الإمام عليه‌السلام «لا تسم الرجل صديقا، سمة معرفة، حتى تختبره بثلاثة: تغضبه فتنظر غضبه أيخرجه عن الحق إلى

الباطل. و عند الدينار و الدرهم. و حتى تسافر معه». و يقول: «ثلاثة لا تعرف إلا فى مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، و لا [صفحه ۳۲۷] الشجاع إلا عند الحرب. و لا الأخ إلا عند الحاجة» و من التبذل تنقص الكرامة. يقول: «لا تمار فيذهب بهاؤك. و لا تمزح فيجترأ عليك. و لا جهل أضر من العجب». و الغضب عند الإمام مفتاح كل شر، بما فيه من ذبذبة للذات و زعزعة للتوازن، فعنده أن «من ظهر غضبه ظهر كيده»، بل إن «من لم يملك غضبه لم يملك عقله» فى حين أن «المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق و إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل». و يهتف الإمام بالشيعة: «يا شيعة محمد. ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، و يحسن صحبة من صاحبه، و مرافقة من رافقه، و مخالفة من خالفه». و أى أدب للنفس و العقل كمثل ذلك الذى يعبر عنه الإمام بإحسان المخالفة! - و ما هو إلا الحلم و الأناة، قرظهما رسول الله للمنذر إذأتاه، و فى وفد عبدالقيس، فقال له «فيك خلتان يحبهما الله عزوجل: الحلم و الأناة». و فى عبارات تأخذ شكل ثلاثيات، قليلة العدد جليلة الفحوى، يجمع الإمام آلاف الرذائل المدمرة فى ستة أصحاب خرق. هم كالجيوب المخروقة للمجتمع لا تبقى و لا تذر: و هم المرائى و الكسلان و المسرف و المنافق و الحاسد و الظالم، تشتعل بنقائصهم نيران الرذالات جمعاء، و إذ يتكاثرون فى كل مكان، بالعدوى و التناتج، و يستهين الناس بخطرهم على أنفس الأفراد و مقومات الجماعة و قوة الدولة... مع أن أخطارهم السلبية تتوازن فى ضررها مع أعظم الإيجابيات فتفقد الأمم تماسكها. و جمعها فى صعيد واحد، و إجمالها فى كلمات، آية على نفاذ البصيرة و إحسان البيان. يقول الإمام: للمرائى ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده. و ينشط إذا كان الناس عنده. و يحب أن يحمد بما لم يفعل. و للكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتى يفرط. و يفرط حتى يضيع. و يضيع حتى يأثم. و للمسرف ثلاث علامات: يشترى ما ليس له. و يأكل ما ليس له. و يلبس ما ليس له. [صفحه ۳۲۸] و للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب. و إذا وعد أخلف. و إذا اؤتمن خان. و للحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب. و يتملق إذا شهد. و يشمت بالمصيبة. و للظالم ثلاث علامات: يعصى من فوقه. و يعتدى على من دونه. و يظاهر الظالمين. و لكل واحدة من هذه العلامات شعب يبلغ العلم بها أكثر من ألف باب.

المرأة

فى فقه الإمام عناية بالغة بالنساء فى الزواج و الطلاق و الميراث... و هى دعائم الأسرة و قوائم المجتمع. و قد عرضنا لبعضه... قبل. لكن اهتمامه الاجتماعى بالأسرة أو بالمرأة لايقف عند الحكم الفقهى و إنما يتعداه إلى الترغيب و التهذيب بالنصح الدؤوب. فمرآة المجتمع العظيم الأسرة السعيدة، و زينتها و حليتها المرأة الصالحة. و هى نصف الناس، و أم‌الجميع. يقول الإمام : «اتقوا الله فى الضعيفين: اليتيم و النساء». و يقول: «البنات حسنات و البنون نعم. الحسنات يثاب عليها. و النعم مسئول عنها». و إذا كان البنات حسنات يلقى بهن المرء بارئه، فيزدنه درجات، فالإمام يجعل للأمهات درجة فى طاعة أوامرهن، فيأمر بالمبادرة بطاعة الأم، إذا دعا الأبوان. و يلقى على الأم فى دارها واجب استثمار الزمن فى خدمة الأسرة و الأمة. و يفرض على المجتمع واجب إحصان أفراده بالتيسير فى المهور. و على المرأة واجب التعاون فى إنجاح الزوجية بالوفاء بحق الزوج. و يجمع بين حسن التبعل و بين حسن الجوار. فيقول: «الشؤم فى المرأة كثرة صداقها و عقوق زوجها - و فى الدار ضيق ساحتها و شر جيرانها». يقول عليه الصلاة و السلام: «علموا أبناءكم السباحة و الرماية و نعم لهو المرأة فى بيتها المغزل». فهن مطالبات ألا يفتحن الأبواب للشيطان بالفراغ... مطالبات بأن يعملن ما يجمل بهن. و المرأة التى تمسك المغزل بيد، و تهز مهد الطفل بيد، تضم بين ذراعيها أسرة [صفحه ۳۲۹] سعيدة. و لقد كان النساء آخر ما أوصى به صلى الله عليه و آله و سلم. يقول الإمام: «صلاح حال التعايش على مكيال ثلثاه فطنة و ثلثه تغافل». و هذه الأثلاث تتردد فى مضامين ثلاثيات شتى. تجتمع و تفترق. لكنها كلها أركان لسعادة المجتمع الكبير الذى هو الأمة، و الصغير الذى هو الأسرة. و قد سلف علينا فى ثلاثية سابقة كيف قرن نكد الزوجية، بالنكد فى الجيرة و السلطان الجائر. و هنا يستلفت الأنظار إلى ما يجب من إحسان العشرة، بالسلوك الرفيع و الإنفاق اللازم، و احترام الذات حيث يقول: «إن المرء يحتاج فى منزله و عياله إلى ثلاث خلال يتكلفها، و

إن لم يكن فى طبعه ذلك: معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، و غيرة بتحصن». ثم يقول ليبين أثر المرأة فى سلام الأسرة: «ثلاث من ابتلى بهن كان طائح العقل: نعمة مولية، و زوجة فاسدة، و فجيعة نجيب». فهو يضع فسادها فى منزلة بين المنزلتين؛ النعمة الضائعة، و الفجيعة الحالة. فى حين يقدمها عند صلاح حالها على فلذة الكبد و الصديق الصافى إذ يقول: «الأنس فى ثلاثة: الزوجة الموافقة، و الولد البار، و الصديق الصافى». و الرجل رأس الأسرة، لا يلقى مقاده أو مقادها إلى الزوجة، و إلا غرقت السفينة. يقول الإمام: «ثلاثة من استعملها فسد دينه و دنياه: من ساء ظنه، و أمكن من سمعه، و أعطى قياده حليلته». و فى هذه الثلاثية تجتمع سلبيات خلقية ثلاثة فى دنيا الرجل. فتحل الأشباح محل الأشياء، و الأصداء محل الأصوات، و النساء محل الرجال. و ليس هذا عالم المسلمين. و فى ثلاثية أخرى نرى تصنيفا من نوع خاص: «النساء ثلاثة: واحدة لك. و واحدة عليك ولك. و واحدة عليك. أما التى لك فهى العذراء. و التى لك و عليك فهى الثيب. أما التى عليك فهى المتبع التى لها ولد من غيرك». و إنما ينبه الإمام الرجال ليزداد برهم بمن يمكن أن تكون لهم أو عليهم، كى يتكلفوا لها خصالا نص عليها: معاشرة جميلة وسعة بتقدير و غيرة بتحصن. [صفحه ۳۳۰]

العلم

أينما ذهبت فى سيرة الإمام فثم وجه العلم، و التعويل على العلماء، و التمسك بالخلق العلمى و أساليبه: يقول لعنوان البصرى: «اسأل العلماء ما جهلت و إياك أن تسالهم تعنتا و تجربة. و إياك أن تعمل برأيك شيئا. و خذ بالاحتياط فى جميع ما تجد إليه سبيلا. و اهرب من الدنيا هربك من الأسد...». و يقول لحمران بن أعين: «العمل الدائم القليل، على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير، على غير يقين». و هذان القولان لعنوان و حمران نصيحتان نابعتان من منهج الإمام فى الفقه و أصوله. فهو يلتزم الأشياء الثابتة و النصوص الواضحة. لأنها نقطة الارتكاز. و ينصح بعدم المجازفة فى طريق غير مؤكدة، يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيده سرعة السير إلا بعدا». و من المنهج حسن التلقى و حسن الأداء فهو لا يحب المحال و العنت كما قال لعنوان: «الجهل نقص فى الدين و الخلق و معاملة الناس»، أو كما قال: «الجهل فى ثلاث: الكيد، و شدة المراء، و الجهل بالله». و يقول: «ثلاثة يستدل بهن على إصابة الرأى: حسن اللقاء و حسن الاستماع و حسن الجواب». أما البلاغة فهى «ليست بحدة اللسان و لا بكثرة الهذيان و لكنها إصابة المعنى و قصد الحجة». و قديما قيل: البلاغة الإيجاز. و قيل: من البلاغة حسن الاستماع. و الصادق ينبه العلماء و الأدباء و كل صاحب موهبة، على أن «من أدب الأديب دفن أدبه». إنما الطريق القاصدة طريق التقوى و الاجتهاد و التأمل. يقول: «كثرة النظر فى العلم [صفحه ۳۳۱] تفتح العقل، و كثرة النظر بالحكمة تلقح العقل». و يقول: «من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، و المعارضة قبل أن يفهم، و الحكم بما لا يعلم». و يقول: «الرجال ثلاثة عاقل و أحمق و فاجر: العاقل إن كلم أجاب. و إن نطق أصاب. و إن سمع وعى. و الأحمق إن تكلم عجل، و إن حدث ذهل، و إن حمل على القبيح فعل. و الفاجر إن ائتمنته خانك و إن حدثته شانك». و من إجلاله وظيفة المعلم يقول: «أربعة ينبغى لكل شريف ألا يأنف منها. أو لها خدمته لمن تعلم منه...». و «العلم جنة... و العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. و الله ولى من عرفه. العاقل غفور و الجاهل ختور... و من خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم. و من هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه». و «أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا». و «الخشية طريق العلم. و العلم شعاع المعرفة و قلب الإيمان. و من حرم الخشية لا يكون عالما».

الدعاء

منهج أهل‌البيت فى إصلاح الدنيا هو المعرفة. و أولها معرفة الخالق جل شأنه بالعقل، و تثبيت الفهم بالخشوع و التقوى. فليس فى غيرهما قناعة أو جدوى. يقول عليه الصلاة و السلام: «أعوذ بالله من علم لا ينفع و قلب لا يخشع و نفس لا تشبع». و فى ذات يوم ذهب قوم يقولون للإمام الصادق: ندعو. فلا يستجاب لنا! فأجاب «لأنكم تدعون من لا تعرفونه» فمعرفة الله مطهرة للحياء. وصلة و ثقى بين

الرجاء و الرضى و بين الدعاء و الاستجابة. و الدعاء تزكية للنفس و سبيل لها إلى خالقها - بإخلاص تام - فهو ترياق من نفس الإنسان، و معراج إلى رضاء السماء بالالتجاء الكامل إلى الله، و الانفصال فى وقت الدعاء و حواليه عن الرذيلة. فإذا تعددت أوقاته، تكرر الانفصال مما يشين. وازداد [صفحه ۳۳۲] العبد قربا، و أوقات قرب، من خالقه سبحانه. بالتكرار، و إخلاص النية. - و من أجل ذلك يبرز الدعاء فى منهج الشيعة و مؤلفاتهم كالصحيفة السجادية - نسبة إلى السجاد زين‌العابدين و فيها عشرات الأدعية. و البعض يسميها مزامير أهل‌البيت - و مصباح التهجد و مختصر المصباح و هما من مؤلفات الطوسى. و من ضروب التربية العصرية الإيحاء إلى الذات... و فى الدعاء إيحاء ورجاء، و توجه إلى الله، وسعى لمرضاته. و للأئمة دعوات مأثورة، تحويها صحف مشهورة، و لها مناسبات معلومة، و أوقات تمارس فيها... فى الأصباح و الأمسية و الأيام و الليالى و الشهور... كأدعية ليلة الجمعة، أو رجب أو شعبان أو رمضان. و للصادق أدعية تتردد فى كتب الصوفية. فيها الإيحاء العميق بالفضائل إلى نفس من يدعو، فى موقف يعلم أن الله حاضره. و أنه المرجو سبحانه. فهى أداة إصلاح نفسانى منقطع النظير، فوق أنها نداء، يتعالى نحو السماء، فى التماس المغفرة. يقول (الشعبى) شيخ المحدثين من أهل السنة: «عجبت ممن يقنط و معه الممحاة». قيل و ما الممحاة؟ قال: الاستغفار. و لقد كان الصادق يدعو الله فى كل أوقاته؛ و منها لقاءاته مع أبى‌جعفر حيث كان يدعو الله قبل أن يدخل عليه. فيثبت الله جنانه و يحيل بطش الجبابرة إلى ما يشبه طنين الذباب. و من المأثور عنه قوله: «إن الدعاء يرد القضاء. و إن المؤمن ليذنب فيذهب بذنبه الرزق». [صفحه ۳۳۳]

المنهج الاقتصادى

اشاره

«ليس خيركم من ترك آخرته لدنياه و لا دنياه لآخرته. خيركم من أخذ من هذه لهذه». (حديث شريف) [صفحه ۳۳۵] ليس المنهج السياسى أو الاجتماعى - و منهما الاقتصادى - إلا متابعة للمنهج العلمى من الواقعية و إعمال العقل و العمل للتقدم، وفق حاجات الزمن و اختلاف الأقاليم... على أساس المساواة بين الناس، و عمارة الدنيا بالعدل و إحسان القيام على مرافقها. و المنهجان - سواء العلمى أو السياسى الاجتماعى - ينبعان من القرآن و تطبيقات السنة. و هما وجهان لعملة واحدة هى القيم الإسلامية. فكل ما أبعد من هذه القيم لا يكون إسلاميا و إن انتظم مسلمين. فالمسلمون لا يصلحون إلا أن يلتزموا قيم دينهم. و قد أصلها الإمام على، و تابعه فيها الأئمة من بنيه. و من القيم الاجتماعية السليمة تنشأ القيم الاقتصادية البناءة. و لذلك تتجلى الوحدة الموضوعية بين الدين و السياسة و الاقتصاد و الوحدة الفنية بين علمى المالية و الاقتصاد و بينهما و بين فن الإدارة، فى عهد أميرالمؤمنين على بن أبى‌طالب للأشتر النخعى. و سنرى بعض المقولات فيه تكاد تكتب فى النصف الثانى من القرن العشرين للميلاد بأيدى المصلحين الاقتصاديين العالميين. فهى عصرية أبدا لأنها إسلامية خالصة. يقول: «و تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه و صلاحهم صلاحا لمن سواهم. و لا صلاح لمن سواهم إلا بهم. لأن الناس عيال على الخراج و أهله... و ليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى جباية الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. و من طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد و أهلك العباد، و لم يستقم أمره إلا قليلا... و لا يثقلن عليك شيء خففت به المؤنة عليهم فإنهم ذخر يعود عليك فى عمارة [صفحه ۳۳۶] بلدك و تزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم و تبجحك باستفاضة العدل فيهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم». أما عن «نشاط الأفراد» فى التجارة و الصناعة و الزراعة و الخدمات، و البيع و الشراء. و عن حرية التجارة و الانتقال و العمل كأداة للإنتاج، ففيها التعبير العلمى الرفيع عن التاجر و العامل، إذ يسميهما «المضطرب بماله» و «المترفق ببدنه». و فيها التأييد التيسير و الإشراف و المتابعة من السلطة و التعاون بين الراعى و الرعية حيث يقول: «ثم استوص بالتجار و ذوى الصناعات و أوص بهم خيرا؛ المقيم منهم، و المضطرب بماله، و المترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، و أسباب المرافق، و جلابها من المباعد و المطارح... فإنهم سلم

لا ـ تخاف بائقته. و تفقد أمورهم بحضرتك و فى حواشى بلادك. و اعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقا فاحشا... وشحا قبيحا و احتكارا للمنافع. فامنع من الاحتكار...». أما الطبقة الأخرى، و هى التى تمثل اليد السفلى، لعجزها، و لأنها تأخذ من اليد العليا لاقتدارها، فأوامره فى صددها قاطعة. يقول: «ثم الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم و المساكين و المحتاجين و أهل البؤس و الزمنى. فإن فى هذه الطبقة قانعا و معترا... و اجعل لهم قسما من بيت مالك...». و لقد سلف القول عن المنهج السياسى لدى أميرالمؤمنين... و هو المساواة التامة بين المسلمين فى العطاء و حقوق بيت المال و ترك الأرضين فى أيدى أصحابها بعد الفتح... و غير ذلك مما يكشف لنا منهاجه الاقتصادى بتمامه. و فيما أو ضحناه إشارة إلى مالم نعرض له بتوضيح. و النظريات تكشفها كليات. و الكليات و الجزئيات و التطبيقات ينتظمها جميعا أصل ثابت من قول الرسول: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته و لا آخرته لدنياه. و لكن خيركم من أخذ من هذه لهذه». [صفحه ۳۳۷]

العمل

العمل عند الشيعة قوة الإنتاج الكبرى. و من أجل ذلك كان العمل للمعاش فرضا على المؤمن ليحيا فى هذه الدنيا، و لا يجوع فيها و لا يعرى، أو تجرفه القوى، أو يحرفه الفراغ و اللهو، أو تفسده طراوة الدعة – و أول ما ينبغى له البدء بتقوية النفس و تبرئتها من الشح و الطمع، و حثها على طلب الحلال. يقول الإمام (عليه‌السلام): «مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب العطشان منه ازداد عطشا» و «أربعة تذهب ضياعا؛ الأكل بعد الشبع و السراج فى القمر، و الزرع فى السبخة، و الصنيعة عند غير أهلها». أما المؤمن فهو «من طاب مكسبه، و حسنت خليقته، و وضحت سريرته، و أنفق الفضل من ماله، و أمسك الفضل من كلامه، و كفى الناس شره، و أنصف الناس من نفسه. و هو حسن المعونة، خفيف المؤنة، جيد التدبير لمعاشه، و لا ـ يلسع من جحر مرتين». ثم يضع الإمام الضوابط للسعى فى الحياة و تحصيل المعايش فيقول: «ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع، و دون طلب الحريص الراضى بدنياه، المطمئن إليها. أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف. و ترفع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف. و تكسب ما لابد منه للمؤمنين». و هو إذ يوصى بالإجمال فى الطلب، ينادى بالحكمة فى الإنفاق. فيقول «إن السرف يورث الفقر، و إن القصد يورث الغنى». و تدبير المعاش أساسى ليجتمع للمرء مال يكفى نفسه، و يفضل منه على غيره، و يؤدى به واجبه فى الدين و الدنيا. و من أجل ذلك كان الصادق يعمل بيده، و يتجر، و ينفق أمواله على الناس، و هو الإمام القدوة، ليوجه أنظار شيعته للعمل فى الحياة الدنيا، كى يقدروا على أعباء الحياة و أداء الزكاة وصلة الرحم و الإنفاق على المحتاجين. و لا يمكن المرء من كل ذلك إلا رزق يحصله من دأبه. يقول الإمام عليه‌السلام: «من لم يكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلا؛ من لم يكن له عقل يزينه أو جدة تعينه أو عشيرة تقصده». [صفحه ۳۳۸] و الصحابة العظماء كانوا يعملون ليعيشوا. و ما أكثر ما عمل «على عليه‌السلام» ليعيش. و هو تراث أهل‌البيت الذين لا يضيعون الزمان سدى. يقول الإمام عليه‌السلام: «الأيام ثلاثة: يوم مضى لا ـ يدرك. و يوم الناس فيه فينبغى أن يغتنموه. و غد فى أيديهم أمله» و ما الاغتنام إلا بالعمل الصالح للنفس و للناس. أما من قعد يلتمس عطاء الآخرين فيده هى السفلى... و مثله مثل القاعد عن العبادة... أو كالذى ينتظر الذهب و الفضة تساقطان من السماء. يقول عن القاعدين: «الداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر». و الشيعة فى كل مجتمعاتهم يدأبون كدأب آبائهم أو أشد، و يتقلبون فى البلاد بتجاراتهم، كهيئة ما كانوا يتقلبون فى الأيام الاولى، مع الزام صاحب المال المسؤولية عن طريقة كسبه او ابواب إنفاقه... يقول يحيى بن معاذ «مصيبتان لم يسمع بمثلهما فى الأولين و الآخرين للعبد فى ماله عند موته: يؤخذ منه كله. و يسأل عنه كله». و هم إلى جوار إيجابهم العمل يوجبون الاستقلال فيه، و عدالة توزيع الرزق منه، فلا يجوزون الشركة المطلقة بين اثنين فى كل نشاطهما... و شرط الشركة وجود رأس المال. و هم يسمون الشركة بدونه «شركة أبدان» و لا يصححونها؛ لأن كل إنسان مستقل بجهده، و منافع جهده له. فإذا أخذ من الآخر اخذ ما لا يستحق – و فى هذا حض على الاستقلال الشخصى، و السعى الخاص، حتى لا يكون أحد كلا على غيره. و كمثلهم الشافعى لا يجوز هذه الشركة. فلكل ما سعى. و هم أعداء للتواكل. جاء أميرالمؤمنين عليا

عليه‌السلام العلاء الحارثى فقال: يا أميرالمؤمنين أشكو إليك أخى عاصما. لبس العباءة و تخلص من الدنيا. قال: على به. فلما جاء قال: «يا عـدو نفسه. لقـد استهام بک الخبيث (الشيطان). أما رحمت أهلك و ولـدك. أترى الله أحل لك الطيبات و هو يكره أن تأخذها. أنت أهون على الله من ذلك». قال: يا أميرالمؤمنين؛ هـذا أنت فى خشونـة ملبسك و جشوبـة مأكلك! قال: «ويحك إنى لست كأنت. إن الله قد فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسـهم بضـعفة الناس». [صفحه ٣٣٩] و لكم كان رقيقا صاحب هـذا الملبس الخشن إذا عامل الضـعفاء... ولو كانوا غير ناس، أو كانوا من الأعـداء: كان يوصـى من فى يـده إبل الصدقة ألا يحول بين ناقة و فصـيلها، و أن لا يبالغ فى حلبها خشـية أن يضر ذلك بوليدها، و أن لا يركب ناقة و يدع غيرها، بل يسوى فى الركوب بينها و بين صاحباتها. و لما حال بينه و بين الماء جند معاوية، حاربهم عليه فأجلاهم عنه. ثم سقاهم منه! اسوة بجنده!

المضطرب بماله و المترفق بيده. أو: التجارة و الصناعة

إذا كانت الحضارة الغربية لم تفطن إلى أن العمل أداة الإنتاج الأولى إلا فى العصور الأخيرة، فلقد طالما أعلنت ذلك السـماء. و العمل التجـارى أو اليـدوى ميراث الأنبياء. و من عمل الصـحابة تعلم الناس جلال قـدر المضـطرب بماله أو المترفق بيـده، أو ببـدنه، كما يعبر أميرالمؤمنين (عليه‌السـلام). و الصادق عليه‌السـلام يمسك المسحاة و يعمل فى بستان له، و حبات العرق تنساب كالبلور المذاب، على الجبين المزهر! فيهيب به تـابع له: جعلت فـداك. أعطنى المسـحاة أكفك. فيجيبه: «إنى أحب أن يتأذى الرجل بحر الشـمس فى طلب المعيشـة». و كان عندئـذ يلبس قميصا و يفتح الماء بالمسـحاة و يقول: «إنى لأعمل فى بعض ضـياعى ولى ما يكفينى ليعلم الله عزوجل أنى أطلب الرزق الحلال». و كان النبى عليه الصـلاة و السـلام يتناوب ركوب راحلته و يقول لزميليه فى السـفر (على و أبى‌لبابة) حينما أرادا أن يسـتمر راكبـا فى نوبتهمـا: «ما أنتما بأقوى على المشـى منى. و ما أنا بأغنى عن الأجر منكما» و كان ينزل عن بغلته ليركب من يأخـذ بزمامها معه. و يقول لمن يريـد حمل شـىء بـدلا منه: «صاحب الشـىء أولى بحمله». أما أميرالمؤمنين على (عليه‌السـلام) فيحمل لأهله التمر و البلـح فى ثوبه و يقول: لاـ ينقص الكامل من كماله ماجر من نفع إلى عياله ويروى «على» أن الزهراء أجرت الرحى حتى أثرت الرحى بيدها. و قمت البيت [صـفحه ٣٤٠] حتى اغبرت ثيابها. و أو قـدت القدر حتى اسودت ثيابها، و أصابها من ذلك ضـر. و يقول عطاء: إن كانت فاطمـة لتعجن حتى أن قصـتها لتصـيب الجفنـة. و أى عظمة فى الدنيا كعظمة اليد العليا، و هى تعمل لبناية الدنيا فتعطى. لقد قبل رسول الله اليد التى تحمل المسـحاة يوم أقبل من تبوك. فلقيه سـعد الأنصارى فنظر إلى يد سـعد و قال: «ما هذا الذى أكتب يـديك»؟ فقال: يا رسول الله أضـرب بالمر و المسـحاة فأنفقه على عيالى، فقبل رسول الله يده و قال: «هذه يد لا تمسـها النار». و لما أعطى الرسول اليد العاملة أمانا من النار، جعل العمل عبادة، و إن ورد النص على العمل البدنى، فما هى إلا إشارة لكل عمل. و هو عليه الصـلاة و السـلام القائل «لأن يأخـذ أحـدكم حبله فيأتى الجبل فيجىء بحزمـة حطب على ظهره فيبيعها، و يستغنى، خير له من أن يسأل النـاس؛ أعطوه أو منعوه». و هو عليه الصـلاة و السـلام – و على آله – ينبه على قيمـة الوقت و الاـلتزام بالواجب، و البـدء بالعمل النافع فيقول: «إن قامت الساعـة و فى يـد أحدكم فسيلة فليغرسـها. و إن اسـتطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسـها فليغرسـها». و أى جلال كجلاـل رسول الله و هو يعمـل بيـده. من أجل تحرير شـيخ من أشـياخ الشيعة العظماء. ليحفظ الشـيعة لأنفسـهم و للـدنيا معهم، ذلك الدرس العظيم: أن العمل و الحرية صنوان. و أن كلا منهما وسيلة للآخر. أرسل النبى صلى الله عليه و آله و سلم على بن أبى‌طالب إلى خليسة مولاة سـلمان الفارسـى، و كانت قد اشترته بثلثمائه درهم من أعراب حملوه إلى يثرب. و مكث معها سـتة عشـر شهرا حتى قدم النبى يثرب، فسـميت المدينة، فأتاه سلمان فأرسل النبى عليا إلى خليسة، بعد إذ أسلمت، لتعتق سلمان. قالت: قل للنبى إن شئت أعتقته، و إن شـئت فهو لك. قال صـلى الله عليه و آله و سـلم: «أعتقيه أنت» فأعتقته. فغرس لها رسول الله ثلثمائة فسـيلة. [صفحه ٣٤١] و كان عليه الصـلاة و السلام يقول: «سلمان منا أهل‌البيت». [١٢٠] . مع أن الإمـام الصادق يرى إنفاق المال فى البر تجارة مربحـة فيقول: «إنى لأـملق أحيانا فأتاجر مع الله بالصدقـة فيربحنى و أتسع» أى أنه يوجب الإنفاق فى حالى اليسـر و الإملاق، و يرى علاجا للفقر أن يتعامل

مع الله بعطائه للفقراء، فهو فی الوقت ذاته یشجع الناس علی العمل. و المجتمع الشیعی مجتمع العاملین لا ـ یتسع للمتسولین؛ و الإمام الصادق – من جراء ذلک – یؤثر عطاء الذین لا یسألون الناس علی الذین یسألون. ولو قام أهل الإسلام بواجب الإنفاق لما افتقر مسلم واحد. فالعمل بکل أموال الأمهٔ [صفحه ۳۴۲] یجعل الحبهٔ الواحدهٔ مائهٔ حبهٔ؛ ذلک تقدیر العزیز الحکیم فی تشریعه. و الصدقهٔ تربی أو علی الأقل لا ـ تنقص. یقول علیه الصلاهٔ و السلام: «ما نقصت صدقهٔ من مال» بل یقول: «إنما ترزقون بضعفائکم». و العمل فی الصناعهٔ و التجارهٔ مدرسهٔ الدنیا، و وسیلهٔ لعمارتها بالکسب الحلال، و أداء حق المال؛ و هو محل إکبار المسلمین أجمعین... یتراءی فی کثیر من أسماء جلهٔ الفقهاء. [۱۲۱] . و الصادق هو القائل: «الشاخص فی طلب الحلال کالمجاهد فی سبیل الله» و القائل: «إنی لأری الرجل فیعجبنی فأقول: أله حرفهٔ؟ فإن قالوا (لا) سقط من عینی». و یقول الإمام الباقر: «الصدقهٔ لا تحل لمحترف و لا لذی مرهٔ سوی». فالمحترف غنی بحرفته، و ذو القوهٔ غنی باقتداره علی العمل. و الرسول علیه الصلاهٔ و السلام یقول: «ملعون من ألقی کله علی الناس». سأل إبراهیم بن أدهم (۱۶۲) تلمیذه شقیق البلخی (۱۹۵)؛ و هما الزاهدان الشهیران: ما بدء أمرک الذی أبلغک هذا؟ قال شقیق: مررت ببعض الفلوات فرأیت طائرا مکسور الجناحین فی فلاهٔ من الأرض، فقلت أنظر من أین یرزق هذا. فقعدت بحذائه، فإذا بطیر أقبل و فی منقاره جرادهٔ، فوضعها فی منقار الطیر مکسور الجناحین. فقلت فی نفسی: إن الذی قیض هذا لهذا قادر أن یرزقنی حیث کنت. فترکت التکسب و اشتغلت بالعبادهٔ. [صفحه ۳۴۳] قال إبراهیم: و لم لا تکون أنت الطیر الصحیح الذی أطعم الطیر العلیل حتی تکون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبی صلی الله علیه و آله و سلم أن «الید العلیا خیر من الید السفلی». و خرج الإمام الصادق یسعی للرزق فی یوم صائف شدید الحر، فقالوا: یابن رسول الله هذه حالک عند الله عزوجل، و قرابتک من رسول الله، و أنت تجهد نفسک فی هذا الیوم! فقال لمن استنکر ذلک: «خرجت فی طلب الرزق لأستغنی عن مثلک». و لما أخبروه یوما عن رجل یقول: لأقعدن و لأصلین و لأعبدن الله قال: «هذا أحد الذین لا یستجاب لهم». و لا بأس أن یجد العامل فی عمله بعض مشقهٔ. فما هی إلا زیادهٔ فی الفضیلهٔ فیه أو الهناءهٔ به. جاءه من یرجوه لیدعو الله ألا یجعل رزقه علی أیدی العباد، فأجابه: «أبی الله علیک ذلک. آلی الله الا ـ أن یجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولکن ادع الله أن یجعل رزقک علی أیدی خیار خلقه. فإنه من السعادهٔ. و لا یجعله علی أیدی شرار خلقه. فإنه من الشقاوهٔ». و الصادق بهذا التنبیه، یلفت النظر إلی أن التعامل یقتضی وجود طرفین، و السعید من صلح طرفه الآخر. و هو فوق ذلک، یکمل نقصا لدی کثیر من الصالحین الذین یفوتهم أن خوض الغمرات للرزق، مع النجاهٔ من ارتکاب الإثم فی تحصیله، درجهٔ أعلی فی الفضل – بل هو یبصرهم بالمکروه الذی یلقاه الناس، إذ یبتغون غضارهٔ العیش أو نضارهٔ الحیاهٔ. یقول: «لیس من أحد و إن ساعدته الدنیا بمستخلص غضارهٔ عیش إلا من خلال مکروه». و الغضارهٔ نضارهٔ و وضاءهٔ و صلاح بال... لا یمکن أن تکون بمعدی عن المکاره، و منها الإیجابی الذی یستوجب النضال، و منها سلبی، یتراءی فیما یفقده المرء من ذات نفسه بإضعاف قدرته علی التحمل، أو منعها من العلم، أو مصیر ذاته إلی الترهل. و منها [صفحه ۳۴۴] ما یتقاضاه الناس من أعراض الناضرین إذ یمسون أغراضا لسهام الکلام. و إنما ینضر الله عبد سمع مقال الرسول و وعاه أسلوبا فی الحیاهٔ، و ما هو إلا الجد و أداء الواجب، و الاقتصاد فی مظاهر الرفاه؛ و هو أقوم و أسلم. و ینضر الإمام وجه العمل ذاته لیزید العامل قوهٔ، و یزید الأداء أناقهٔ، و صلات المتعاملین وثاقهٔ، حیث یقول: «کل ذی صناعهٔ مضطر إلی ثلاث خصال یجتلب بها الکسب: أن یکون حاذقا بعمله؛ مؤدیا للأمانهٔ؛ مستمیلا لمن استعمله». و لما ختم الخصال الثلاث بالاستمالهٔ، کان یوجه من استعمل غیره أو استعمله غیره؛ لیدخل قلب عمیله فی حسابه. فهذا درس إسلامی اجتماعی فی المحبهٔ، مثلما أنه درس اقتصادی فی إحسان الصناعهٔ و وثاقهٔ العلاقهٔ و لباقهٔ الأخذ و لیاقهٔ العطاء. و الحیاهٔ کلها أخذ و عطاء.

التجارهٔ

روی المعلی بن خنیس تابع الإمام: [۱۲۲] رآنی أبو عبدالله، و قد تأخرت عن السوق فقال: اغد إلی عزک. قال معاذ: قلت لأبی عبدالله

هممت أن أدع السوق قال: «إذن يسقط رأيك و لا يستعان بك على شيء». و قال لمن ترك التجارة: «لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل. اسع على عيالك. و إياك أن يكونوا هم السعاة عليكم». و سأل عن تلميذ له: ما حبسه عن الحج؟ فقيل: قل شيئه. فاستوى جالسا – و كان [صفحه ۳۴۵] متكئا – و قال: «لا تدعوا التجارة فتهونوا». و كسب المال من حله و إنفاقه فی محله واجبان على المسلم. و التجارة ممارسة و تعامل، أی مران على الشؤون العامة و الخاصة. و التاجر أعلى عينا بالأمور، و أقدر على مديد العون الآخرين – و فی الاضطراب فی الأسواق إثراء للجماعة، و تخطيط مشترك للمعايش، و هو قبل ذلك امتحان مستمر للنزاهة و البعد عن المحرمات. و عناية الشيعة بتوضيح الحلال و الحرام فی التجارة ظاهرة فی نصوص الفقه. فالمحرم مما يكتسب به، أنواع: ۱ – الأعيان النجسة كالخمر. ۲ – الآلات المحرمة... كآلات القمار. ۳ – ما يقصد به المساعدة على المحرم كبيع السلاح لأعداء الدين. ۴ – ما لا ينتفع به كالمسوخ. ۵ – الأعمال المحرمة كالغناء عدا المغنية لزف العرايس، إذا لم تغن بالباطل و يدخل عليها الرجال، و النوح بالباطل، أما بالحق فجائز، و هجاء المؤمنين، و تعليم السحر و الكهانة. ۶ – الأجرة على القدر الواجب من تغسيل الأموات. و لا بأس بالرزق من بيت المال، و كذا على الأذان. أما جوائز الظالم فمحرمة إن علمت بعينها، و الولاية من العادل جائزة... و ربما وجبت. و الولاية من الجائر محرمة، إلا مع الخوف، – فلو تيقن التخلص من المأثم و الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر استحبت. و كما يعمل الإمام بيده ليتعلم الناس، يتجر بماله ليعلمهم دروسا فی التجارة – بالتطبيق العملی الذی تشهده الملايين فتتعلم. و هو أجدى عليها من أن تعطى ملايين تنفقها و لا تتعلم. دعا يوما مولاه مصادف، فأعطاه ألف دينار و قال له: تجهز حتى تخرج إلى مصر فإن [صفحه ۳۴۶] عيالی قد كثروا. فتجهز بمتاع، و خرج مع التجار حتى إذا دنوا من مصر، استقبلتهم عير خارجة منها، فسألوهم عن المتاع الذی يحملونه ما حاله فی مصر، و ما متاع العامة؟ فعلموا منهم أن ليس بمصر منه شیء. فتحالفوا على ألا ينقصوا من ربح دينار دينار... و وسع عليهم فی الربح. ثم فصلت العير عن مصر إلى المدينة بالكسب العميم. و دخل مصادف على مولاه و معه كيسان فی كل منهما ألف دينار. و قال: جعلت فداك. هذا رأس المال و هذا الربح. قال الصادق: سبحان الله تحلفون بالله على قوم ألا تبيعوا أو يربح الدينار دينارا! ثم أخذ واحدا من الكيسين فقال: هذا رأس مالی و لا حاجة لنا فی الربح. ثم قال: «يا مصادف. مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال». هكذا بورك لمصر فی متاع الإمام. لكن الإمام يقبض درهما من أموال مصر... أن قد أساء البيع الوكلاء.. مذ كانوا محتكرين. و لا «يحتكر إلا خاطئ». و هذا أول الدروس. و هی كثيرة؛ منها: أن زيادة الجهد واجبة عند كثرة العيال. و أن ترك ما فيه شبهة هو الحق، و أن النظر إلى الأمة كلها واجب؛ و هو أوجب على العلماء و الرعاة. كان إذا جاع الناس صنع صنيع آبائه، فأخذ جرابا فيه الخبز و اللحم و الدراهم على عاتقه، فذهب إلى ذوی الحاجات من أهل المدينة فقسمها فيهم و هم لا يعرفونه. حتى إذا مات افتقدوه فعلموا أنه «الإمام الصادق عليه‌السلام». و ما جاع قادر إلا ذكر البطون الخاوية. و فی سعة أرزاق الحمقى عبرة للعقلاء. يقول الإمام: «إن الله تعالى وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء و يعلموا أن الدنيا لا ينال ما فيها بعمل و لا حيلة». و «كم من طالب للدنيا لم يدركها. و مدرك لها قد فارقها. فلا يشغلنك طلبها عن عملك. و التمسها من معطيها و مالكها. فكم من حريص على الدنيا قد صرعت... ما الدنيا؟ هل الدنيا إلا اكل أكلته أو ثوب لبسته أو مركب ركبته؟». و لا تعاب القلة، و إنما تعاب الرذيلة. و منها التظاهر و الإعلان الكاذب. و الصدق صفة المتعاملين مع الله. و القليل مع الصدق كثير. و من ثمة بركات الله فی النفس [صفحه ۳۴۷] و العقل و المال، للصادقين. و الصادق، يعد بهذا كله فی كلمته الجامعة «من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله منه أكثر مما أراد». يقول لمن ساعد – بغير أجر – فی عمل لم يجد صاحبه ما لا ليكری من يساعده فيه «أما أنك إن تساعد أخاك أحب إلی من طواف أسبوع فی البيت». و ترى من ذلك بروز «العمل الصالح» فی أبواب العبادة، و تقديمه بين النوافل. و الصادق يخصص بعض ماله للإصلاح أيا كان وجهه. تشاجر رجلان على ميراث فمر بهما المفضل بن عمر – صاحب الإمام – فدعاهما إلى منزله، فأصلح بينهما بأربعمائة دينار من جيبه، حتى إذا استوثق كل منهم من صاحبه، قال المفضل: إنها ليست من مالی، إن الإمام أمرنی إذا رأيت اثنين من أصحابنا يتنازعان أن أصلح بينهما من ماله.

المال

هذه القوة الكبرى للإنتاج و هى العمل، تعاونها قوة أخرى هى المال، شريطة أن يستعمل. فإذا لم يستعمل تنقصته الزكاة عاما بعد عام حتى تقضى عليه. و من أجل ذلك صار مباحا الاتجار فى مال اليتيم لحسابه حتى لا يأكله الزمن - و إنما يستعمل المال فى التجارة و فى الصناعة و الزراعة و سائر الوجوه. فلا يكنز و لا يؤخذ عليه ربا، بل يتواصل المسلمون فيه بالمعروف. سئل الصادق: لم حرم الله الربا؟ و أجاب: «لئلا يتمانع الناس المعروف». و المعروف مطلوب فى العلاقات العادية و المالية و بين جميع المتعاملين، فى القروض و نظرة الميسرة أو المشاركة فى مخاطر الاتجار أو الاستصناع و المزارعة و الخدمات، وسواها، لتجرى الأرزاق لهم، من الله، على أيديهم. و أول الواجبات فى المال أن يكون أداة تعمير للدنيا باستثماره، و للأنفس بمشاركة المحتاجين إليه، سواء للعمل به أو للعيش منه، و ألا يكون وسيلة للاستعلاء، و إنما [صفحه ۳۴۸] وسيلة للتواصل... يتأدى بها المسلم إلى العمل الصالح. و من الأوليات فى هذه الواجبات الاقتصاد و الترفق: يقول الإمام (عليه‌السلام): «أيما أهل‌بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم فى الرزق. و الرفق فى تقدير المعيشة خير من السعة فى المال». و الرفق لا يعجز عن شيء. و التبذير لا يبقى معه شيء. و فى القليل كفاية من القناعة. و الكثير لا يغنى مع السرف... و فى المعنى ذاته يقول الصادق: «ضمنت لمن اقتصد الا يفتقر» و إنما يفتقر من يتجاوز الحدود، و يبعثر قواه، و يخسر أشياءه. و بالرفق فى الأمور تجرى الحياة بين الناس على نسق مقبول. يقول الإمام عليه‌السلام: «من كان رفيقا فى أمره نال ما يريده من الناس». و الله تعالى يحب الرفق فى الأمر كله.

العبادة و انفاق المال

يكاد أكثر ما جمع من تعاليم الإمام فى الأبواب الاجتماعية و الاقتصادية، يتجه بفحواه شطر هذا الوجه من وجوه العبادة. و الله تعالى يصف المتقين فى محكم كتابه، فى أول صفحاته ، بأنهم «الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون». و كل نعمة رزق. يقول الرسول الاكرم (صلى الله عليه و آله و سلم): «نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس. الصحة و الفراغ». فهاتان نعمتان يسأل عنهما الإنسان. و الإمام (عليه‌السلام) يقول: «المعروف زكاة النعم». فالمعروف زكاة واجبة لمجرد الفراغ من التبعات و السلامة من المرض. و من التطبيق الإسلامى للإنفاق و وجوهه المادية و المعنوية يظهر أنه العبادة الإسلامية الشاملة لكل الناس، و لكل شيء ولكل ساعة فى الحياة يتاح فيها مديد [صفحه ۳۴۹] بالمودة للغير، باعطاء أو قبول العطاء، و الإقراض أو الاقتراض، و دفع الأذى، أو مجرد المعونة، بالفعل أو القول، أو العمل المادى، أو بمجرد الكف عن الأذى، و ما إلى ذلك من أبواب التعاون بين أفراد المجتمع... سواء بالمال أو بالسعى أو بالجاه أو بمجرد الاهتمام. و اهتمام المسلم بما أهم المسلم هو الذى يهب المقرور دفئا، و المكروب برءا، و المنكوب طمأنينة. يقول صاحب الشريعة: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». و لما حصرت الشريعة الفرائض رحمة من الله بعباده المكلفين، أطلقت المندوبات، لتتيح لهم أن يتطوعوا بالعمل الصالح كيفما قدروا و حيثما وفقوا - و بخاصة فى إنفاق المال - ثم أكثرت الحض عليه، ثم جعلته ممكنا للجميع، و فى وجوه النشاط الإنسانى جميعها. يقول الإمام للصادق (عليه‌السلام): «ليعن بعضكم بعضا فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول: «إن معونة المسلم خير و أعظم أجرا من صيام شهر و اعتكافه شهرا فى المسجد الحرام» و إياكم و إعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يقول «ليس لمسلم أن يعسر مسلما. و من أنظر مسلما أظله الله يوم القيامة بظله حيث لا ظل إلا ظله...». و ذات يوم قال رجل: إن بينى و بين رجل منازعة فى أمر و إنى أريد أن أتركه فيقال لى إن تركك ذلة. فقال الإمام: «إن الذليل هو الظالم». فهو لا يرى الترك عيبا، إنما العيب بالظلم، أيا كان مصدره، التارك أو المتروك له. و دخل عليه عمار الساباطى فقال له: يا عمار إنك رب مال كثير فتؤدى ما افترض عليك الله من الزكاة؟ قال: نعم. قال: فتخرج الحق المعلوم من مالك؟ قال: نعم. قال: فتصل قرابتك؟ قال: نعم. قال: فتصل إخوانك. قال: نعم.

قـال: «يـا عمار إن المال يفنى. و البـدن يبلى. و العمل يبقى. و الـديان حى لا يموت. يا عمار. ما قـدمت فلم يسـبقك. و ما أخرت فلن يلحقك». [صفحه ۳۵۰] و الأيادى قروض، و الإمام يعـد بالرد المضاعف ، و يعلن فضل من أعطى، و يؤثر عليه فضل الآخذ. و العرف لا يـذهب بين الله و الناس. قال له تلميـذ: إنى لا أتغدى أو أتعشـى إلا و معى اثنان أو ثلاثة، أو أكثر. فأرضاه الإمام بالجزاء الموعود، و أعلن له أن فضـلهم يفوق فضـله. قال: «فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم. إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير». [۱۲۳] . و الإمام يحض على دوام التواصل، إذ يجعل النعمة التى يخولها المعطى للآخذ نعمة تتكرر إذ تشـكر، لتتكرر. يقول «اشـكر من أنعم عليك. و أنعم على من شـكرك. فإنه لا إزالـة لها إذا شـكرت و لا إقالـة لها إذا كفرت». و البخل قبض القادر يده عن العطاء و نفسه عن الأمل. فـذلك داء البخلاء. و الإمام الـذى يوجب السـخاء عنـد إقبال الـدنيا و حين يفيض الخير، يوجب الرجاء و الصبر عنـد إدبارها. فالـدنيا تـدور. يقول (عليهالسـلام): «عجبت لمن يبخل بالدنيا و هى مقبلة عليه أو يبخل بها و هى مدبرة عنه. فلا الإنفاق مع الإقبال يضـره. و لا الإمسـاك مع الإدبـار ينفعه». ففيم يقف البخلاء دورة المال أو نعمـة الرجاء! و الصادق يروى عن جـده أميرالمؤمنين (عليهماالسـلام): «قيـل يـا نبى الله. أفى المـال حق سوى الزكـاة! قال: نعم؛ بر الرحم إذا أدبرت، وصـلة الجار المسـلم. فما أقر بى شـبعان و جاره المسـلم جائع. ثم قال: مازال جبريل يوصـينى بالجار حتى ظننت أنه سـيورثه». و فى كل مشاركة فضل. يقول صـفوان بن يحيى - من أصحاب الإمام الكاظم (عليهالسـلام) - جاءنى عبدالله بن سـنان، قال: هل عندك شـىء؟ قلت: نعم، فبعثت ابنى يشترى لحما بدرهم، فقال: أين أرسـلت ابنك، فأخبرته، فقال: رده. عندك زيت؟ قلت: نعم. قال: هات [صفحه ۳۵۱] فإنى سمعت أبا عبدالله «الصادق» يقول: «هلك امرؤ احتقر لأخيه مـا يحضـره. و هلك امرؤ احتقر لأخيه ما قـدمه إليه». و الجود بالموجود جود. و فى التكليف رهق. و فى كل إرهاق أذى. و السمح لا يؤذى، و لا يحس الأذى فيما هو طبيعى. و من السماحة فى الأخذ و العطاء ينتشر التواصل، بأى شىء و فى كل شىء. فالإمـام (عليهالسـلام) لا ـ يتكلف لأحـد، و يعلن فضـل الطـاعم على صاحب الطعام. قال هشام بن سالم: دخلنا على أبى عبـدالله و نحن جماعة، فتغدينا و تغدى معنا، و كنت أحدث القوم سـنا، فكنت أقصر و اتآكل، فقال لى: «كل. أما علمت أنه تعرف مودة الرجل لأخيه بأكله طعامه». يقول الإمام لأضـيافه: «أشدهم حبا لنا أكثرهم أكلا عندنا». و كانت «عين زياد» ضـيعة له فجعلها له و للناس... يأمر وكيله بـأن يثلم فى كل حيطان الضـيعة ثلما ليـدخل الناس فيأكلوا، و يأمر كل يوم بعشـر ثبنات يقعـد على كل واحـدة منها عشـرة يطعمون... كلما قام عشـرة جاء عشـرة... يلقى لكل منهم بعض الرطب. أما الذين لا يجيئون من جيران الضيعة فلكل منهم مد يرسل إليه، حتى إذا جاء أوان قطع الثمار أعطى الوكلاء العمال أجورهم عنه، و أمر الإمام بالباقى فحمل إلى المدينة ففرق فى أهلها، كل حسب اسـتحقاقه. يقول ابن أبىطيفور: رأيت عنـد أبى عبـدالله ضـيفا، فقام يوما فى بعض حوائجه فنهاه و قام بنفسه إلى هـذه الحاجة و قال: «نهى رسول الله عن استخدام الضيف».

اداء حقوق الآخرين فى المال

و إذا واسـى الصـادق أعطى فـأغنى: سـأله فقير فأعطاه ألف درهم، فلما مضـى الرجل أمر خادمه ليرجعه. قال الخادم: يا سـيدى سـئلت فأعطيت. فماذا بعد العطاء؟ قال: قال رسول الله (صـلى الله عليه و آله و سـلم): «خير الصدقة ما أبقت غنى»، و قال للرجل: «إنالم نغنك، فخذ هذا الخاتم فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم». [صفحه ۳۵۲] و لا مرية فى أنه لم يغن الرجل ليأكل، و إنما أغناه بالمال ليعمل. فالعطاء ليس طعاما يعطى، و إنما هو فرصـة عمل بالتعبير الاقتصادى المعاصـر... أى تمكين من اداة إنتاج تحفظ إنسانية الإنسان و تزيد ثراء الجماعـة. و العطـاء وفـاء بحقوق، و ليس مجرد أريحيـة. فأميرالمؤمنين على (عليهالسـلام) هو القائل «إن الله فرض على الأغنياء فى أمـوالهم مـا يكفى الفقراء فـإن جـاعوا أو عروا فبظلم الأغنيـاء» و القائـل: «الفقر هو الموت الأ ـكبر». و سـئل البـاقر عن الزكـاة تجب فى مواضع لا يتمكن السائل من أدائها فيها فأجاب: «اعزلها فإن اتجرت بها فأنت لها ضامن. و لها الربـح». و يقول الصادق: «إن الله عزوجل فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسـعهم - ولو علم أن ذلك لا يسـعهم لزادهم. إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزوجل... و لكن أتوا

من منعهم حقهم. ولو أن النـاس أدوا حقوقهم كانوا عايشـين بخير». و بنص عنه: «إن الله تبارك و تعالى شـرك بين الفقراء الأغنياء فى الأموال. فليس لهم أن يصـرفوا إلى غير شركائهم». و على أساس هذه النصوص يتساءل الفقهاء: هل الفقير شريك فى ملك العين (فى خصوص الزكاة)، أو أن له (مجرد حق) فيها. فالبعض على أنه شـريك بمقدار حصته، و البعض على أنه صاحب حق فيها؛ و هو مقدار نصـيبه. و صاحب النصـيب من لا يملك مؤنهٔ سنهٔ له و لعياله. و الأغنياء من يملكون ذلك المقدار. يقول الإمام الصادق: «تحرم الزكاهٔ على من يملك قوت سـنهٔ». و لا يـدع الإمام الناس – فقراء أو أغنياء – دون تنبيههم على أصل الـداء، و هو الطمع. فيعالنهم بمقولـهٔ من مقولاته التى تتناقلها الأجيال: «إن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك». و لحقوق الفقراء على الأغنياء عنـد الشـيعهٔ مصدر آخر زاخر، فوق مصدر الزكاهٔ، و هو خمس المكاسب. و الله تعالى يقول: «واعلموا أن ما غنمتم من شـيء فأن لله [صفحه ۳۵۳] خمسه و للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن‌السبيل». و الشـيعهٔ تفسـر الآيهٔ تفسـيرا يسع أكثر مال يكتسب، إذ يدخل فيه خمس أربـاح التجـارات و الصـناعات و الإجـارات و العمل و الوظائف و الهديـهٔ و الوصـيهٔ و أرباح مالك المنجم و المـدخرات من الكسـب الحرام إذا اختلط بالحلال و لم يتميز، فإن تميز أخرج كله، و اللؤلؤ المستخرج و المواريث التى لم يؤد عنها الخمس... و ذلك بعد أن يسـتنزل المكلف مؤنـهٔ الحفـظ و مؤنـهٔ الـذين يعولهم و مركبه و مسـكنه و نفقـات أضـيافه لمـدهٔ سـنهٔ كاملـهٔ، و مـازاد عن ذلك ففيه الخمس. كتب رجل إلى الإمام الباقر: أخبرنى عن الخمس أهو على جميع ما يستفيده الرجل من قليل أو كثير... و كيف ذلك؟ فكتب الإمـام بخطه: «الخمس بعـد المؤنـهٔ». و لا ـ يحمـل الخمس إلى غير بلـده إلا ـ مع عـدم وجود المسـتحق فيه. و يجوز أن تخص به طائفهٔ واحدهٔ. و الأحوط قسـمته. و الفقهاء يقررون أن للإمام نصف الخمس و أن نصفه الباقى ليتامى آل النبى و مساكينهم و فقرائهم و أبناء السبيـل منهم. و الآـن – حيث الإمـام غائب – فالأقوال كثيرهٔ فى توزيع حق الإمام. و ربما جاز من تعـددها اختيار الإنفاق على المصالح التى تحفظ للأمهٔ دينها و شريعتها. و الرسول عليه الصلاهٔ و السلام يكلف المسلمين أن يقصدوا بالبر الفقراء، و أن يتطهروا بين الفقراء، و يتقوا الله تقوى الفقراء. يقول (صلى الله عليه و آله و سلم): «من اراد الله فليطلبه عند الفقراء».

كنز المال

أميرالمؤمنين على (عليه‌السـلام) هو الـذى ذكر عمر بخثور نفس رسول الله حتى وزع مالا كان عنده (صـلى الله عليه و آله و سـلم)... و أعلن ساعهٔ اسـتخلافه أن الدولهٔ ليس لها فى المال إلا أن تقسمه فى المسلمين متساويين – فرقى المنبر يقو للمسلمين عن نفسه: «... إلا و إنه ليس لى دونكم إلا مفاتيح أموالكم معى. و ليس لى أن آخذ درهما دونكم». [صفحه ۳۵۴] جيء ذات مساء بمال افاءه الله على المسـلمين، فأشار إليه و قال: اقسـموه. قالوا: أمسـينا فأجرجه إلى غد. قال: تقبلون لى أن أعيش إلى غد؟ قالوا ما بأيدينا ذلك. قال: فلا تؤخروه. فقسـموه من فورهم. و لمـا بعث أبوموسـى إلى عمر من العراق ألف ألف درهم فرقهـا ففضـلت فضـلهٔ فـاختلفوا أين يضـعها، خطب عمر الناس قائلا: أيها الناس قد فضـلت لكم فضـلهٔ بعد حقوق الناس، فقال صعصعهٔ – و هو بعد غلام شاب، أسلم فى حياهٔ النبى و لم يره – و قـال: «يـا أميرالمؤمنين إنمـا يتشـاور النـاس فيمـا لم ينزل فيه قرآن. و أمـا مـا نزل به قرآن فضـعه مواضـعه التى وضـعه الله عزوجل فيها». فقال عمر: «صدقت. أنت منى و أنا منك». فقسمه بين المسلمين. و صعصعهٔ – كما أسلفنا – بطل «يوم الجمل» إلى جوار أميرالمؤمنين على (عليه‌السـلام). استشهد أخواه و هما يحملان الرايهٔ، ثم حملها صعصعهٔ و انتصر. و أبوذر أب من آباء الشيعهٔ العظماء، و سـيرته درس تحتفى به مجالسـهم و أمـالى كبرائهم... ينبه النـاس من قـديم على خطر الفقر و اقترانه بالكفر، و تعريضـهما العقيـدهٔ و الوطنيهٔ و وحدهٔ الجماعهٔ للدمار؛ فيقول: «إذا ذهب الفقر إلى بلد، قال الكفر خذنى معك». و لقد حرم كنز المال بحبسه عن المسـلمين فى بيوت الأـموال، أو حرمـانهم منه و تعريضـهم للافتقـار، فـأوجب على الدولـهٔ توزيع المال فى أصـحاب الحق فيه من الرعيـهٔ، و حرم النعيم على من يعيش بين الجيـاع. فـإذا كان اخوهٔ المسـلم فى عيشـهٔ راضـيهٔ فالنعيم يباح. و لما أرسل إليه عثمان مائتى دينار مع رسول يقول: هـذه من مـال عثمـان، و هو يقول لـك إنهـا من صـلب مـاله مـا خالطهـا حرام. قال أبوذر: هل أعطى أحـدا من المسـلمين مثلما

أعطاني؟ قال: كلا. قال: قال: اذهب أنت و الدراهم. إنما أنا رجل من المسلمين يسعني ما يسعهم، و لست في حاجة إلى المال. قال الرسول: اصلحك الله إني لا ـ أرى في بيتك قليلا ـ و لا ـ كثيرا. فرفع أبوذر الوسادة، و أراه قرصين من خبز الشعير و قال: بل عندي [صفحه ۳۵۵] هذان و إني لغني بهما و ثقتي بالله. و مر أبوذر بمعاوية و هو يبني قصر الخضراء فصاح به: «من أين لك هذا؟ إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة، و إن كنت بنيتها من مالك فهي الإسراف». فشكاه معاوية إلى عثمان. و ظاهر من هذا النهج، النحو الاقتصادي الذي ينحوه الشيعة من تداول المال و عدم كنزه عن الأمة ولو كان في يد الدولة، و وجوب تقسيمه في المسلمين أو العمل به لهم، و الاستكثار من طرحه في التداول [۱۲۴] . [صفحه ۳۵۶]

التعاون

العنصر الثالث في الاقتصاد - كما هو ظاهر من تعاليم الإمام في فصول هذا الباب - هو التعاون. و ليس كمثله «منظم داخلي» أو «محرك ذاتي» للنشاط الفردي أو القومي. و لقد مر بنا أنه واجب «قانوني» يخرج من الإيمان من بات شبعان و جاره جائع. كما أسلفنا القواعد الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي شرعها الإسلام و شرحها الإمام، ليخلف للأمة منهاجه الذي اعتزت به الأمة فبلغت شأوها العالي بالمنهج العلمي، العصري أبدا، و المنهج الاجتماعي الذي جعلها كالبنيان المرصوص، و المنهج الاقتصادي الذي يستعمل العلم و العمل و المال في تعاون مأمور به، أي في تكافل كامل. و لئن مرت بها فترات مظلمة، إن مردها إلى الخروج على قواعد المنهج. و إنما عصمتها في الرجوع إلى الأمر الأول. [صفحه ۳۵۷]

الخاتمه (إلى الرفيق الأعلى)

اشاره

«الحمد لله لم يخرجني من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه». (الإمام جعفر الصادق عليه‌السلام) [صفحه ۳۵۹] كان الإمام في لقاءاته الأخيرة مع الخليفة (أبي‌جعفر المنصور) يقول له: «لا تعجل، لقد بلغت الرابعة و الستين و فيها مات أبي و جدي». فلقد كان يحس باقتراب يومه، و يلتمس من ذلك قوة عند اللقاء... تؤيده في الصدام معه و الثبات في وجهه ، و الدفاع عن حقوق الله و الناس عنده، و تذكيره بالآخرة. و هو إلى ذلك يهيئ الدولة، و الناس، لما بعد موته. و الناس الذين يتساءلون متى نصر الله، يولون وجوههم شطر الإمام عليه‌السلام، مذ قطع المنصور أسباب الأمل في الأمان و الاطمئنان، بالنكال يصبه على من عارضه، و خص أهل‌البيت بكفل زاخر من عذابه. فما الكثيرون عنه إليهم. و لم يكن باقيا من مشيختهم إلا ـ الإمام الصادق... تهوى إليه الأفئدة من بعيد و قريب، و يتزاحم عليه التلامذة من أشياخ العلماء. و مضت الأيام، و الناس بين البأساء و النعماء، و الفزع و الرجاء... و الإمام في دروسه و مجالسه يرسي مبادئه للأجيال القادمة، و يهدي بالقول و العمل، و بمجرد أن به حياة. و جاء ذلك اليوم الذي قال فيه، و هو رخي البال: «الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه». و هو إفصاح عن اكتمال المذهب الشيعي في تعاليمه، و نظام الدولة الشيعية، إن أمكن أن تظهر، و المجتمع الشيعي في كل حال. و إن شئت قلت مقاله (المجتمع الجعفري)، أو مقال الفقهاء: مجتمع «الشيعة الإمامية». و جاءت ساعة الموت... و هو في تمام صحوه، و أهل‌البيت حافون من حوله: قالت زوجه «حميدة» أم الإمام موسى الكاظم، و كانت من البربر، لرجل من اصحابه: [صفحه ۳۶۰] لو رأيت أبا عبدالله عند الموت، لرأيت عجبا: فتح عينيه ثم قال: «إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة». أما رواية الإمام موسى الكاظم فنصها: لما حضرت أبي‌الوفاة قال لي «يا بني لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة». فهذا إمام تنتهي إمامته، يعهد لإمام تبدأ أيامه... فينبهه و الناس... على حقهم في شفاعة أهل‌البيت، و واجبهم لينالوها، بإقامة عمود الدين. و تضيف مولاته «سالمة» ساعة الموت حسنات فتقول: «اغمي عليه. فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي

(بن علی بن الحسین) سبعین دینارا، و أعطوا فلانا کذا، و فلانا کذا. قلت: أتعطی رجلا حمل علیک بالشفرة یرید أن یقتلک؟ قال: أتریدون ألا أکون من الذین قال عنهم الله عزوجل «و الذین یصلون ما أمر الله به أن یوصل و یخشون ربهم و یخافون سوء الحساب»؟ نعم، یا سالمة. إن الله خلق الجنة و طیب ریحها، و لا یجد ریحها عاق و لا قاطع رحم. أجل؛ کان الإمام قطعة من صمیم الإسلام. جده علیه الصلاة و السلام «خلقه القرآن»، أما هو فخلقه «سنة جده». وجده یعلن سنته حیث یقول: «أفضل الصدقة علی ذی الرحم الکاشح». و یقول إن أول الواجبات فی المال بعد الزکاة: «بر الرحم إذا أدبرت». فالإمام فی ساعة الموت یوصی لمن یلیه، و یذکر الشفاعة... و الصلاة... و صلة الرحم... و هو یریح رائحة الجنة. صعدت روح الإمام إلی الرفیق الأعلی فی شوال ۱۴۸، لتترک المنصور فی الفزع الأکبر. فلقد غابت عن الدنیا أسباب سلام یثق بها، ولاح فی السماء نجم جدید... بإمام جدید... لیس له به عهد. و المنصور لیس الرجل الذی ینتظر حتی ینکشف له أمر فیه غرر، بل هو یبتدر الخطر. قال أبوأیوب الجوزی: بعث إلی أبوجعفر المنصور فی جوف اللیل، فدخلت علیه [صفحه ۳۶۱] و هو جالس علی الکرسی و بین یدیه شمعة، و فی یده کتاب. فلما سلمت علیه رمی الکتاب إلی، و هو یبکی، و قال: «هذا ابن‌سلیمان (والی المدینة) یخبرنا أن جعفر بن محمد قد مات. فإنا لله و إنا إلیه راجعون». قالها ثلاثا، ثم قال: و أین مثل جعفر؟ ثم قال: اکتب. فکتبت صدر الکتاب، ثم قال: «اکتب إن کان قد أوصی إلی رجل بعینه فقدمه و اضرب عنقه». هکذا یأمر بقتل من یجهله، و یحرمه حق المحاکمة، لمجرد أن من فحوی الوصیة لرجل بعینه أنها رسالة للأمة تعلن الإمام الجدید! لکن الله کف بطش المنصور. فرجع الجواب إلیه أن الإمام أوصی إلی خمسة هم: أبوجعفر المنصور و ابن‌سلیمان، و عبدالله و موسی و حمیدة. و الأخیرون ولدا الإمام و زوجه. فلیس هنا وصی بعینه. و الأولان أبوجعفر ذاته، و والیه. و لیس إلی قتل هؤلاء من سبیل! و ما کانت وصیة «الصادق» للمنصور و والیه إلا توصیة لهما بالأمة، و تذکیرا لهما بأنهما ملاقیا الله مثله. و المنصور أجدر خلق الله بأن یذکره الناس بالموت، و أن یذکروه عند الموت، إن محبین له و إن مبغضین. و لما قرن الإمام أباجعفر بابنیه و زوجه، کان یذکره أن یخاف الله فیهم و فی ذوی رحمه. کان المنصور یسابق الموت إلی من تتم الوصیة إلیه وحده. ففوتت علیه وصیة الإمام بغیا، لم یمنعه من مقارفته تساقط دمعه، أو أن یسترجع الله مرات ثلاث، و کأنه یجعل الدمع مدادا لأمر یهتبل الفرصة لإصداره، لیقطع رأس إمام جدید من أهل‌البیت یطاف بها فی المدائن. و أنسته شیاطین الفزع و الطمع أن یذکر ما علمه الصادق من صلة الرحم، و ازداد نسیانا یوم لا أحد ینسی! و جری المهدی و الرشید فی أثر المنصور یهتدون به، و یدسون الجواسیس لیعرفوا [صفحه ۳۶۲] من یجتمع إلیه الناس بعد موت الإمام. سأل سائل موسی الکاظم، فقال (علیه‌السلام): «إذا هدأت الرجل و انقطعت الطریق فأقبل» و سأله آخر فقال له: «سل تخبر. و لا تذع. فإن أذعت فإنه الذبح». بل کان هشام بن سالم ینبه زملاءه الشیعة حتی لا یقعوا فی حبائل المنصور. و ظاهر من ذلک أن المجالس العظیمة. التی کانت تنعقد فی حیاة الإمام الصادق، قد ولی زمانها. ولی الإمامة موسی الکاظم بعد أبیه فتتابع فی حیاته عهد الهادی ثم عهد الرشید. و اقتصر - کما سیقتصر الأئمة من بعده - علی العلم و إمامة الدین، دون أن یمدوا عینا أو فکرا إلی الخلافة الدنیویة. و مع هذا حبس الرشید الإمام الکاظم حتی سنة ۱۸۳. ثم أمر فأدخل الناس السجن لیروه میتا... لیس به آثار قتل. و الشیعة یقولون: مات مسموما. و خلف الکاظم فی الإمامة ابنه علی الرضا. حتی إذا صار المأمون خلیفة ولاه عهده... علی رغمه، سنة ۲۰۱، و أمر ابنه و بنی‌العباس بمبایعته... فصنعوا، و زوجه من بنته «أم‌حبیب» فی سنة ۲۰۲. کما زوج ابنه محمدا الجواد بنته «أم‌الفضل». إلا أن علیا الرضا مات سنة ۲۰۳ فجأة! مسموما... فی أکلة عنب - کما یقولون - فی أثناء عودته فی رکب المأمون من مرو إلی بغداد! و فی رحلة العودة هذه، و فی رکب المأمون ذاته، قتل وزیره الذی دبر له کل أمره (الفضل بن سهل)، و کان شدید التشیع. و توجه محمد الجواد بزوجته إلی المدینة - بعیدا من بغداد. فلما ولی المعتصم أشخصه إلیها. فقدمها للیلتین بقیتا من المحرم سنة ۲۲۰. و فی نهایة السنة مات. و الناس تقول فی موته ماقالوه عن موت أبیه وجده و ما سیقولونه فی موت ابنه علی الهادی. بعد أن صار إمام استقدمه الخلیفة إلی العسکر فی «سر من رأی» حیث قصر الخلافة. فلما مات الهادی سنة ۲۵۴، قام بالإمامة ابنه الحسن الخالص (العسکری) حتی سنة ۲۶۰... عام وفاته، لیخلفه ابنه محمد آخر الأئمة الأثنی عشر... الذی اختفی عن الانظار، و الناس ینتظرون

ظهوره... و هو عند الشيعة الإمامية [صفحه ۳۶۳] «المهدى المنتظر». [۱۲۵] . بهذا التاريخ يختم الأئمة الاثنا عشر حقبة من الزمن علموا فيها المسلمين العلم الذى آل إليهم عن آبائهم - عن طريق الإمام الصادق عليه‌السلام - بعيدين عن السلطة، مدركين جلال ما يقدمون للأمة، من تراث جدهم (صلى الله عليه و آله و سلم)... يعضون عليه بالنواجذ، و يطهرونه من الزيف، و يتبرأون ممن غلوا فيهم. [۱۲۶] . أقامت الأمم الإسلامية الدول تترى... فى القارات الثلاث فى العالم المعروف، [صفحه ۳۶۴] منتسبة إلى أهل‌البيت من أبناء الحسين أو أبناء عمومتهم، و مجتمعات مزدهرة، و حضارات يضرب بها الأمثال... فى العراق، و اليمن، و خراسان، و إيران و أفغانستان، و باكستان، و الهند، و لبنان، و سورية، و الكويت، و البحرين، و شرق أفريقية، و كثير سواها. ففى المغرب أقام الدولة الإدريسية إدريس بن إدريس بن عبدالله (أخى الشهداء الثلاثة محمد و إبراهيم و يحيى أبناء عبدالله بن الحسن) و كان قد فر إلى المغرب الأقصى عن طريق مصر سنة ۱۷۲ هاربا من بطش الرشيد. و قد بعث إليه الرشيد من سمه. و فى المشرق قامت دولة أخرى على يد الحسن بن زيد بن... الحسن (۲۷۰ - ۲۵۰) و أعقبه فيها أخوه؛ و هما فقيهان زيديان. و قامت الدولة الساسانية بخراسان؛ عاصمتها بخارى. و أقام أئمة الشيعة الاسماعيلية دولة كبرى فى أفريقية و آسيا (الدولة الفاطمية). ثم قامت الدولة الإمامية الكبرى فى إيران حيث بقيت العقيدة الإمامية و الفقه الإمامى عقيدة و شريعة حتى اليوم. و سيطرت الدولة البويهية (۴۴۷ - ۳۲۴) على الخلافة العباسية بتمامها، و وضعت مراسم التشيع و أعياده... فجعلت يوم كربلاء مأتما قوميا، و يوم الغدير عيدا إسلاميا. و أمر معز الدولة بن بويه، فكتب على المساجد فى بغداد: «لعن الله معاوية ابن أبى‌سفيان، و لعن من غصب فدكا، و من منع أن يدفن الحسن فى قبر جده عليه‌السلام، و من نفى أباذر الغفارى. و من أخرج العباس من الشورى» فحكه الناس. فاكتفى بأن أمر أن يكتب على المساجد: «لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم» و أمر ألا يذكر فى اللعن إلا معاوية. و تحول بنو بويه عن زيديتهم، و سلكوا مسلكا إماميا. و ولوا الشريف أباأحمد نقابة الطالبيين و إمارة الحج، بل ولوا ابنه الشريف الرضى النيابة عن الخلافة العباسية. و مع ذلك كان بين حين و آخر، يشعر بالسخط، فيجرى على لسانه الشعر الذى يمجد [صفحه ۳۶۵] الخلافة الاسماعيلية: ألإلى المجد إن ذل غلام فى غمده المشرفى ألبس الذل فى ديار الأعادى و بمصر الخليفة العلوى! فهذا زعيم إمامى يفاخر بخليفة اسماعيلى. و هو فى الوقت ذاته قد ولى نيابة الخليفة السنى.

عدالة السماء

و الدول - كالكائنات الحية و كالأفراد و المجتمعات - تشتق قانونها من أسباب وجودها، و تلتزمه فتبقى و تسلم، أو تخرج عليه فتفقد سببا أو أكثر من أسباب تقدمها و نمائها، و ربما فقدت سبب بقائها. و كلما أصابها السقم رجعت إلى سبب وجودها تلتمس السلامة. لقد نشأت الدولة الإسلامية و المجتمع الإسلامى على قواعد الإسلام فى السنة الأولى للهجرة، فأخضعت دول العالم المعروف فى بضعة عشر عاما، من حياة النبى و أصحابه، و أقامت المجتمع الأفضل الذى صنع على يد الرسول و على عينه... و كلما أبعد المسلمون من هذا الفضل، قل الشبه فى الصورة عنه فى الأصل. و كلما فكروا فى العودة إلى الأمر الأول ولوا وجوههم شطره. و ما هو إلا عمل النبى و آله و صحبه. فكل عمل أو بحث لإقامة الدولة المثلى لمجتمع مسلم، يتجه بالطبيعة إلى أيام النبوة، و العمل بالقرآن و السنة. و آل النبى هم أقرب الرجال إلى الصميم من ذلك و إلى قلوب الأمة. و هم أرفع شعار يمكن تحريك الجموع به... فهم أهل النبى و القرآن و السنة جميعا؛ لا بالعرف وحده، و إنما بسيرتهم التى ليس لها فى التاريخ نظير. و الإمام الصادق (عليه‌السلام) يتوهج كالنجم الثاقب فى هذه السماء. فهو مدرسة العلم مع الزهادة فى السلطة. و هو إمام فقه فى الدين و العلم... و صاحب مناهج للدنيا، و معلم [صفحه ۳۶۶] للإصلاح و التشريع و السياسة و الاقتصاد؛ و هى الوسائل المحركة للتقدم فى جميع الأمم. فلا عجب أن كانت دعوات الإصلاح، و دعاءات الرجاء، فى كل العصور، تتلمس فى علمه المدون، و سيرته التى يمجدها المسلمون، ذكريات فضائل تمشى على الأرض، و تطبيقات مفلحة، لتعاليم كفيلة بإقامة حكم صالح يرد الحكام إلى الدين، و يعيد الدين غضا فى أنفس الناس كما كان فى

أفئدة السلف الصالح. و يتراءى مصداق هذه الحقيقة «للقانون الطبيعي» للإسلام، أو للطبيعة الدينية للمجتمع المسلم، فى قيام الدولة العباسية بدعوى «تصحيح التاريخ» و بشعار «الدعوة إلى الرضا من آل محمد». فلما أجهضت هذه الدولة مبادئها بخعت نفسها. فصارت ملكا عضوضا خيراته للملوك. فلم يك معدى عن إعادة التصحيح بالعودة إلى رسالة النبى و تعاليمه و آله. و إنما انحرفت الدولة الإسلامية فى تجاربها التى أقامتها الدول الأموية و المروانية و العباسية لغصبها حقوق أهل‌البيت، و نصبها العداء لهم، فى موجة انصراف الحكام، عن مصالح الأمة و شريعتها، إلى شهواتهم. فتصحيح التاريخ يبدأ بإقرار حق على و أبناء النبى و العمل بالشريعة. و التاريخ خاضع لقانون الطبيعة أو قانون الحركة (لكل فعل رد فعل... مساوله فى المقدار، و مضاد له فى الاتجاه). و الحقائق الكبرى فى التاريخ، كالظواهر العظمى فى الطبيعة، لا تخفى. و الذى يخفى الحرارة أو البرودة لا يبغته الغليان أو التجمد، أو رعدة الحمى أو رعشة البرد. و الذى يخفى الضغط الجوى لا يأخذه الأنفجار أخذ الفجاءة. «و عمر بن عبدالعزيز» «و المأمون» هما الانفجاران المحتومان فى دولتى بنى‌مروان و بنى‌العباس، لأنهما الممثلان الصادقان للضمير الإسلامى، فى الدولة أو الجماعة أو الأفراد، أو فى العلم أو الحكم أو العدل أو الجهاد، على رأس المائة الأولى و رأس المائة الثانية. [صفحه ۳۶۷] أما عمر فنما فى أكناف بيت طالما حاول طمس فضائل على. فلما شب عن الطوق أصبح يعلن للناس إسرار أبيه له أن الناس لو عرفوا فضائل على لانصرفوا إليه عن دولتهم، حتى إذا ولى إمرة المدينة أبطل سب على على المنابر. و كان عمر يرزح تحت الرقابة الشديدة من الخليفة الوليد، و السباق المجنون من الحجاج لظلم بنى‌على، مع استرضاء بنى‌مروان للحجاج، حتى ليعزل الوليد عمر بن عبدالعزيز (رضى الله عنه)، لإرضاء الحجاج بن يوسف الثقفى!! فلما ولى عمر الخلافة، أقسم أن يتخذها طريقا إلى الجنة... فرد لأهل‌البيت مظالمهم، و أعاد لهم «فدكا». و بعث إليهم عشرة آلاف دينار ليعوضهم عما سلبهم سابقوه. و كانت الشهور الثلاثون - مدة خلافته - تلقى على كاهل رجل هزل الورع جسده، أعباء الدين و الدنيا... يدرك أن أيامه معدودات، و يتهمه أهله بأنه يوشك أن يخرج الخلافة منهم إلى بنى‌على. [۱۲۷] . بل أعلن عمر أنه لو استطاع لعهد بالخلافة لمن كان مثله، فقال: «لو كان لى من الأمر شيء لاستخلفت أعيمش بنى تيم القاسم بن محمد بن أبى‌بكر». و هو العليم أن محمدا ترعرع فى حجر «على» قبل أن يستخلف، و أنه حارب معه معاوية. فلما ولاه مصر، باء بدمه رجال معاوية. فهو عدو بنى‌أمية من كل وجه. و أن «القاسم» همزة الوصل بين أبى‌بكر و بين «أهل‌البيت»... بنته أمفروة تحت جناح الباقر، و ابنهما «جعفر الصادق» فى عنفوان صباه، أمل تتجه الأبصار تلقاءه. و أما «المأمون» فعبقرى العلم، سواء العلم الدينى، من أصول و فقه و دين و حديث، أو العلم العام، و فيه التاريخ و الفلسفة و العلوم التطبيقية و الرياضية و الفلكية حيث له فى [صفحه ۳۶۸] جوار قصره مرصد يرصد فيه النجوم. و هو بطل حروب و «رجل دولة» كبير؛ لا يعرف التاريخ - من عهد اليونان و الرومان حتى الآن - ملكا بلغ مبالغه فى كل أولئك مجتمعا... و هو يقف فى القمة من الدولة العباسية... فمن بعده بدأ الانحدار. و كانت الأعوام السبعون التى انصرفت من عمرها و انحرفت فى إبانها تشير إلى الحاجة إلى عقل عبقرى فيه إنصاف؛ ليحدث عودا على بدء. فأعلن تشيعه... بل عهد من بعده لإمام الشيعة فى عصره... بل زوجه و ابنه من بنتين له. [۱۲۸] . و لقد كان حقيقا أن يبلغ غرضه لو لا أن الإمام «عليا الرضا» مات فجأة... كمثل ما كان السياسيون فى العهد العباسى يموتون فجأة! ولو لا أن المأمون رأى أن يأمن فى سربه انتقاضات أهله... بعد إذ حاربوه بجيوشهم لمدة عامين، من جراء تشيعه، لكان قد ولى عهده، بعد على الرضا، زوج بنته الأخرى، الإمام التاسع محمدا الجواد. و كانت خلافة المأمون تمثل حكما يحاول أن يستقر على «أساس دينى». و هذا ظاهر فى عهده لعلى الرضا... و على «أساس علمى»، و هذا ظاهر فى عمله لإلزام الناس برأى المعتزلة... و على «سند سياسى»، ليقدر على مقاومة تيارات تتناوشه من شتى الجهات - سياسية كالوافدة من الفرس و الروم، أو عائلية كنزاعات أهله، أو فكرية كالقضايا التى آلت إلى المسلمين من مواريث اليهودية و المسيحية. يحمل ألوية الجدال فيها المعتزلة... و المأمون من كبرائهم. و لما فقد الذين جاءوا بعده قدرتهم على التوازن بين الزوابع، آلت الدولة إلى الترك. و تتابع تقسيمها أقاليم و دولا. و لم يعد للدين فى الدول الجديدة الكلمة العليا. بل أصبحت للمعايش و الأرزاق و مداراة الحكام. و بهذا دب التدهور فى الأفراد، [صفحه ۳۶۹] و المجتمعات و الدولة، و أفسدت الدولة الفرد و أفسد الفرد - بدوره - الدولة.

و من تصحيح التاريخ للأشياء، كانت أول دولة استقلت عن بنى‌العباس فى القرن الثانى دولة إدريس بن إدريس بن عبدالله فى المغرب، فدولة الحسن بن زيد فى المشرق. و تتابعت الدول فى القرن الثالث بخراسان، و مصر، و أفريقيا، و فى اليمن، حيث ملك القاسم بن إبراهيم (۲۸۶ - ۲۴۶)، و إليه تنسب الزيدية القاسمية. ثم الهادى بن القاسم، و إليه ينسب الهادوية. و بقيت دولة الشيعة باليمين حتى إعلان الجمهورية سنة ۱۹۶۲ للميلاد. و فى القرن الرابع قامت دولة بنى‌بويه ۱۰۵۵ - ۹۴۵ - ۴۴۷ - ۳۲۴ و هى شيعة زيدية فى العراق و فارس حيث عاصمتهم شيراز. و قام الحمدانيون فى العراق و الشام ۳۵۸ - ۳۱۷. و هم شيعة إمامية يذكر الإسلام لهم الدفاع عنه ضد غزوات الإمبراطورية الرومانية من بيزنطة. و تدين لهم الأمة العربية بأحسن أشعار أبى‌الطيب المتنبى، و بشعر أبى‌فراس الحمدانى، و فلسفة الفارابى فيلسوف المسلمين - المعلم الأول عند العرب - أو المعلم الثانى فى العالم، حيث أرسطو هو المعلم الأول. و فى القرن الخامس، كان بنو حمود بالأندلس (۴۴۷ - ۴۰۷)، و هم من أبناء الأدارسة - و فى القرن السادس، كان ابن‌تومرت (... بن عبدالرحمن... بن محمد بن الحسن بن على) مؤسس دولة الموحدين، و كانت خطبة الجمعة عندهم تشتمل على الصلاة عليه باعتباره (الإمام المرحوم المهدى المعلوم)، و إن كانت دولته و دولة الأدارسة أو بنى‌حمود، أو الدولة الفاطمية، تحكم شعوبا سنية. و لا شك أن كبرى الدول التى أقامها الشيعة كانت الدولة الفاطمية (الاسماعيلية). [صفحه ۳۷۰]

الاسماعيلية

[و يلقبون - فى مراجع أهل السنة - القابا أخرى؛ أهمها «الباطنية».] قامت الدولة الفاطمية (نسبة إلى فاطمة الزهراء) فى المغرب ثم مصر منتسبة إلى «اسماعيل» ابن‌الإمام جعفر الصادق، و كانت قد مات فى حياة الصادق (عليه‌السلام). و الاسماعيلية ينفون ذلك. و منهم من يقول إن أباه ادعى موته اتقاء لأذى أبى‌جعفر المنصور له. و فى أواخر القرن، كان عبدالله بن ميمون القداح (۱۹۸) من أتباع الخطابية، ينشر دعوة لنفسه بالبلاد. فأجابه حمدان بن الأشعث - قرمط - ثم مات القداح، فخلفه أبناؤه و دعوا لأنفسهم باعتبار أنهم من ولد عقيل. ثم هرب أحفاده إلى المغرب فى أفريقية. و بجهدهم أو جهد (منصور اليمن - ابن‌حوشب - ۲۶۶) فى بلاد المغرب ظهر عبيدالله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية سنة ۲۹۸ لتبقى دولة عظمى حتى سنة ۵۶۷. فتحت جيوشها فسطاط مصر فى ۱۷ شعبان سنة ۳۵۸ (۹۶۹ - ۷ - ۷) . و فى ليلة الفتح وضع جوهر الصقلى قائد الجيش حجر الأساس لمدينة القاهرة. و تم بناؤها فى رمضان سنة ۳۷۱. افتتح الأزهر للصلاة فى الشهر ذاته و هو يوافق يونيو - يوليو سنة ۹۷۲. و فى صفر سنة ۳۶۵ عقد القاضى ابوعلى الحسن بن النعمان أول حلقاته فى الجامع الأزهر، فكان أول مدرس فيه - فدرس للناس مختصر أبيه فى فقه آل البيت (عليهم‌السلام). و فى سنة ۳۶۶ عين أبوعلى بن النعمان قاضيا للقضاة. فعرفت مصر هذه الوظيفة لأول مرة. هكذا نشأ الأزهر معهدا شيعيا. ثم صار جامعة لكل علوم الإسلام. و هكذا نشرت الدولة الفاطمية ألوية الإسلام و علوم الشيعة فى مصر و الشام و الحجاز و وسط آسيا، و أقامت مدينه القاهرة، و أنشأت الجامع الأزهر، و خطب لها فى مكة و المدينة على المنابر. [صفحه ۳۷۱] و فى سنة ۴۵۰ خطب لها الخطباء على منابر بغداد مدة عام تقريبا. [۱۲۹] . و عليها خرجت طائفة الدروز التى ألهت «الحاكم بأمر الله» فقاتلهم المصريون فهربوا إلى الشام سنة ۴۰۸. أما «الحاكم بأمر الله» فقد شاركت فى قتله أخته «ست الملك» لاضطهاده رعيته و فساد آرائه - كما قيل. و كانت أمها جارية رومية قبطية من سرارى الخليفة العزيز بالله. و كان التسامح الدينى من تقاليد هذه الدولة حتى صار حديث التاريخ. و لقد عين العزيز بالله أرسانيوس، و أريسطيس، «خالى ست الملك» بطريقين للأسكندرية و لبيت المقدس. فقوى نفوذ النصارى فى الدولة. و كان وزيره يعقوب بن كلس يهوديا اسلم. و هو الذى نظم التدريس فى الأزهر. [۱۳۰] . أما الاسماعيلية فى المشرق، فعلا نجمهم على يد الحسن بن الصباح. و قد أمضى [صفحه ۳۷۲] سنوات بمصر اتصل فى إبانها بالخليفة المستنصر، فدعا له بعد إذ عاد إلى إقليم فارس. ثم دعا من بعده لابنه نزار. و فى سنة ۱۴۸۳ استولى على قلعة آلموت. ثم اشتد ساعده باصفهان. و سيطر الحسن بن الصباح بأساليب السياسة العادية و غير العادية على أقاليم كبيرة فى فارس. فقتل أتباعه الوزير نظام الملك (۴۸۵ - ۴۰۸) - منشئ المدرسة النظامية فى

بغداد [۱۳۱] – و فی سنة ۵۰۰ قتلوا الوزیر فخرالدین کما قتلوا من فقهائها الشافعیة المشهورین: أباالمظفر الخجندی سنة ۴۹۶، و تلمیذه أباجعفر المشاط سنة ۴۹۸، و أباالمحاسن ابن‌إسماعیل الرویانی سنة ۵۰۲. و کان یقول: «لو احترقت کتب الشافعی لأملیتها». و لا مراء فی أن الخلاف بین الاسماعیلیة و بین المدرسة النظامیة راجع إلی الخصومة الشدیدة التی تتبدی فی الصحیفة ۶۷ من کتاب «سیاسة نامه» الذی یدین بوجوده «لنظام الملک»، و فیها وجوب الطعن فی «الروافض» و وصفهم بأنهم مارقون عن الدین. و لما صار الحسن بن الصباح داعی الدعاة للنزاریة الفاطمیة، أبی أن یدعی الإمامة، حتی توفی سنة ۵۱۸. فخلفه آخرون؛ انتسب واحد منهم إلی نسل «نزار» الفاطمی... [۱۳۲] . [صفحه ۳۷۳] و فی سنة ۶۵۴ استولی هولاکو علی معاقلهم فقصدوا إلی الشام و الهند. و فی الشام حالفوا الرهبان الصلیبیین فترة، و خالفوا صلاح‌الدین فترة، و دخل أتباعهم خیمته فی عسکره و طعنوه بخناجرهم. و منهم الفدائیون الذین قتلوا أمیر طرابلس الصلیبی (الکونت ریمون). و یمتاز الاسماعیلیة بالتنظیم و الدعایة السریین. و أنهم یطورون أمورهم. و من التطور، و مراعاة مقتضی الحال، وجد التباین فی تعالیمهم من وقت لآخر، لکن الأصل الأصیل عندهم هو أن الإمام المعصوم من نسل محمد بن اسماعیل بن جعفر الصادق. و عندهم أن من قام بالطهارة و الصلاة و الزکاة و الصوم و الحج و الجهاد و الولایة، لکنه عصی الإمام، فطاعته غیر مقبولة. [۱۳۳] . و هم یذهبون إلی أن لکل ظاهر «باطنا»، و أن تأویل الباطن من عند الله، اختص به علی بن أبی‌طالب. و من ذلک یقولون بمشارکة علی للنبی. و یستدلون بقصة موسی مع الرجل الصالح، فی «سورة الکهف». و یفسرون القرآن بطریقة خاصة. و یقولون إن نور [صفحه ۳۷۴] الله حل بالإمام. و من تعالیمهم ما تأثر بفلسفات الأقدمین. و للشیعة الاسماعیلیة فی العصور الحدیثة مواقف مشهورة فی الدفاع عن الإسلام و نشره. کانت الدولة الفاطمیة أکبر دول العالم، قوة عسکریة و فکریة، فی العصور الوسطی. تتمثل فیها وحده المسلمین و سماحة الدین. [۱۳۴] . و فیها أثبتت وحدة القاعدة القانونیة فی الأمة، بل وحدة الدین فی المذاهب، اقتدارها علی أن تجمع المسلمین فی دولة واحدة، هی أعظم الدول حضارة فی القارات المعروفة فی ذلک الزمان، عاصمتها مصر – القاهرة، و جامعتها الأزهر. سعد فیها المسلمون و المسیحیون و الیهود و الذمیون، حتی غزاها من الداخل انقسام شعوبها، و قیام إمارات شتی، وسفه الوزراء، و ضعف الخلفاء. [صفحه ۳۷۵] و أغری غزو شعوبها أنفسهم فی داخلها، بانقسامهم و تفککهم، الصلیبین، لیقوموا بالغزو الخارجی. و صدهم المسلمون مرات، حتی إذا ادلهم الخطب، استعانت الدولة الشیعیة فی مصر بالدولة السنیة فی دمشق و علی رأسها السلطان نورالدین محمود (۵۶۹) استاذ صلاح الدین (۵۸۹) لیثبت أهل مصر و الشام أن الإسلام واحد و إن اختلفت المذاهب. و لما وحد صلاح الدین إمارات المسلمین فی بضع سنین من الموصل إلی حلب و دمشق و القاهرة، استقام له المحور القوی، فنهد للقاء الصلیبیین. و نصره الله فی حطین. و هذا درس فی الوحدة مطلوب إلی المسلمین أن یتدارسوه. و المجتمع الإسلامی یمتاز علی المجتمعات المعاصرة بأنه مجتمع دینی الاساس بأطوار تاریخه و طبیعته، و بأن تعالیم القرآن و السنة هی غذاؤه الیومی، و هواؤه النقی، الذی یتنفسه المسلمون: العائلة فیه محکومة بقوانین دینیة و تقالید إسلامیة، فی الزواج و الطلاق و الأبوة و البنوة و النفقة و الحضانة و سائر علاقات الأسرة. و الفرد فیه واقف بین یدی الله علی مدار ساعات النهار و زلفا من اللیل. و المجتمع کله مفروض علیه – فرض وجوب – و الفرد مفروض علیه – فرض کفایة – أن یأمر بالمعروف و ینهی عن المنکر... أی یتکافل فی دفع کل خروج علی الدین. بهذا صار الحفاظ علی الإسلام و قیمه مسؤولیة قانونیة و عامة، و أصبح التمییز بین الحلال و الحرام حجر الأساس فی المجتمع، و فی علاقات الأفراد و الأسرة. و أمسی لزاما علی کل دولة إسلامیة أن تتأخی أواخی الدین، و هی تنظر إلی المصالح المادیة و السیاسیة، لها، و الناس. و لقد بقی الأمر کذلک طوال القرون العشرة التی کانت فیها الدول الإسلامیة مستقلة، تتعلم علومها الحضارة الغربیة، حتی إذا اضمحلت، ران الظلام السیاسی و الرکود الاقتصادی علی القلوب. فانتقلت شمس الحضارة من الشرق إلی الغرب فی [صفحه ۳۷۶] أوربا، و بدأت العصور الحدیثة و حضارتها الأوربیة فی الظهور، منذ ختام القرن الخامس عشر للمیلاد. و لم یکن مصادفة، و إنما کان لزاما للتحلل و التقاطع و التخاذل، أن یبدأ طرد العرب – فی ذلک القرن – من اسبانیا، و أن تکون محاولات طردهم معاصرة للثورات الدینیة فی المسیحیة، و للإرهاب الدینی فی دولها، و أن یکون نصیب المسلمین من هذا الإرهاب فوق ما

يتصور البشر، من العذاب و التقتيل و التحريق و التنصير، بل قتل من يتنصر بدعوى عدم الإخلاص فى التنصر!! و فى ظلمات الجهالة و التخلف بهرت المقهورين حضارة أوربا، فلم تبق لهم ذاتهم، و لم يصيروا أوربيين، و عجزوا عن صد الغزو الأوربى، فى حين قدر آباؤهم على دفع الغزو الصليبى لأنهم كانوا أقرب إلى القيم الإسلامية. و تلاحق التدهور حتى بداية النهضة الحديثة للمسلمين... حتى إذا أخذت الشعوب الإسلامية بأسباب العلم، نظرت إلى داخلها تلتمس القوة من ذاتها. فاستشعرت حقائق القوة فى طاقاتها. و عادت تلتمس الأسباب فى صميم حضارتها، و فى تمسكها بعقيدتها، التى اشتقت منها منهجها العلمى؛ و هو الذى صار «المنهج العلمى العالمى» الذى نقلته عنها أوربا منذ القرون الوسطى. [۱۳۵] . و التاريخ معلم كبير. و أول علومه؛ أن كثيرا من صفحاته تتكرر، و أنه خطاب مستمر، مفتوح السجل لكل ذى بصر. و يعلمنا التاريخ أن الوحدة هى التى تصنع النصر - سواء أكانت وحدة شاملة، كمثل ما كان الأمر فى الصدر الأول، أم كانت وحدة للحرب، كما صنع الخليفة الفاطمى «الشيعى»، و سلطان دمشق «السنى»، لرد غائلة الصليبيين، أم وحدة القوى كما صنع صلاح الدين ليعيد بيت المقدس للمسلمين.... [صفحه ۳۷۷] كل أولئك صيحات عالية بأن الإسلام واحد، كلما جد خطر. و أن الاعتصام به مصدر الظفر. و لما اتحد العرب، و تجمع المسلمون، بعد العاشر من رمضان سنة ۱۳۹۳ حنى العالم هاماته لهم. و يعلمنا التاريخ أن أمتنا بلغت شأوها كلما استمسكت بعقيدتها و التزمت تعاليمها، و أن التقصير فى جانب الدين كالخرق الواسع، لا يبقى على شىء مهما يجمع الناس. و المصلحون الاجتماعيون و السياسيون، الذين تعمى أبصارهم عن هذه الحقيقة، يضربون فى حديد بارد. إنه تعالى يقول: «و يريكم آياته. فأى آيات الله تنكرون. أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم». و العمل بالقيم الإسلامية داع إلى سن القانون الاسلامى الموحد لتجرى أمور المسلمين، و معاملاتهم كافة، و عقوباتهم إذا انحرفوا عن الجادة، على نسق واحد، يسموبهم فى معاملاتهم كل يوم، و يمنع الجريمة، و ينتشل الهلكى من أعماق السجون. و يصون المعنى التعبدى فى كل حكم فقهى، و الجانب الإنسانى، فى كل حكم جنائى. و لا جرم إن تقنين الفقه الإسلامى و العمل به هو الإسهام الأعظم منا فى الحضارة المعاصرة، و بأعظم ما نملك من القيم، و نحن قادرون على ذلك باستعمال مصادرنا العلمية. و أين من شرع الله قوانين البشر! و الخطر اليوم يملأ الأفق: لقد تطرقت إلى الأرض العربية و الإسلامية الدعوات الإلحادية و المادية المدمرة للقوى الذاتية للأمة، يؤيدها امتياز القوة، و المال المبذول بسخاء، و التكنولوجيا التى تخطف البصر، و رفع الاستعمار الفكرى و السياسى و الاقتصادى أعلامه عالية! [صفحه ۳۷۸] و ما التبشير الدينى، الأوربى و الأمريكى فى بلدان المسلمين إلا وجه واحد من وجوهه. أما الغزو الداخلى للاسلام - من داخل مجتمعات المسلمين - فشر مكانا و أنفذ أثرا. و الأوربيون - من كل معسكر - يسلطون علينا أسبابه. إن التاريخ يعلمنا أن وجود إسرائيل فى الأرض التى كان الصليبيون يحتلونها - بالذات - ليس مصادفة؛ بل هو فكر غربى قديم... أقام بالفعل، و بالقوة، دولة صليبية، - هنا - فى هذا المكان. و إنما يكرر الفكر الأوربى نفسه، بعد سبعة قرون، بغرس دولة «يهودية»، بدلا من دولة «صليبية»، فى القلب، من جسم العرب. و إسرائيل دولة «دينية» مد الغرب إلينا بها مخالبه. و الدفاع ضد دولة دينية يهودية يقتضى الالتجاء إلى القيم الدينية، و إن لم يستلزم إقامة دولة دينية. و لقد طالما استعملت أوربا الأسلحة الدينية ضد المسلمين. [۱۳۶] . إن الحضارة الأوربية - من شرق و غرب - تحسب حساب «قوة عربية إسلامية» فى مفترق الطرق إلى العالم، و فى ملتقى المصالح للدول العظمى، و أنها قوة بشرية هائلة. يزخر ارضها بأسباب القوة، و تنصع صحاريها بالمعادن، فتضىء فى صور الأقمار الصناعية الدائرة حول الأرض ليل نهار. و الحضارة الأوربية تحسب حسابا آخر لاجتماع المسلمين على «المبادئ» التى [صفحه ۳۷۹] سادوا بها كلما اجتمعوا. و الحضارة الأوربية، أو الأمريكية، و إن كانت ذات منهاج وثنى، راسخة الجذور فى الفكر الدينى. [۱۳۷] لقد كانت «الحرب الصليبية» صيحة التجمع لشعوب أوربا المشتتة فى العصور الوسطى، و كانت معاهدة «و ستفاليا» راسمة حدود دولها الحالية من (۱۶۴۸)... و هى نصفان: نصف «دينى» لإرضاء البروتستانت - و نصف سياسى «لمنع الحروب الدينية» - بعد منح حرية العقيدة. و هذه المجتمعات و الدول فى أوروبا و أمريكا، آخذة الآن فى العودة إلى الدين، و إلى التكتل تحت أسماء أو صور مختلفة، كالحلف أو المعاهدة أو المنظمة أو المؤتمر؛ و منها السياسى و الاقتصادى و

العلمی و الاجتماعی. فما أحرانا أن نتحد علی تسامح الإسلام و قیمه العالیهٔ... لنبقی و نقوی. ألا و «إن هذا الأمر لا یصلح آخره إلا بما صلح به أوله».

تعریف مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبهٔ/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامهٔ فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّهٔ" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیهٔ الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذهٔ هذه المدینهٔ، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرهٔ الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحهٔ صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَهْ ۱۳۴۰ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۳۸۰ الهجریّهٔ القمریّهٔ)، مؤسَّسهً و طریقهً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّهٔ" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَهْ ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریّهٔ القمریّهٔ) تحتَ عنایهٔ سماحهٔ آیهٔ الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَهِٔ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّهٔ و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّهٔ، ثقافیّهٔ و علمیّهٔ...

الأهداف: الدّفاع عن ساحهٔ الشیعهٔ و تبسیط ثَقافهٔ الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّهٔ، تخلیف المطالب النّافعهٔ – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلهٔ أو الرّدیئهٔ – فی المحامیل (=الهواتف المنقولهٔ) و الحواسیب (=الأجهزهٔ الکمبیوتریّهٔ)، تمهید أرضیّهٍ واسعهٍ جامعهٍ ثَقافیّهٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاب، توسعهٔ ثقافهٔ القراءهٔ و إغناء أوقات فراغهٔ هُواهٔ برامِج العلوم الإسلامیّهٔ، إنالهٔ المنابع اللازمهٔ لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرهٔ فی الجامعهٔ، و...

- مِنها العَدالهٔ الاجتماعیّهٔ: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزهٔ الحدیثهٔ متصاعدهً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافهِٔ الاسلامیّهٔ و الإیرانیّهٔ – فی أنحاء العالَم – مِن جهۀٍ اُخرَی.

- من الأنشطهٔ الواسعهٔ للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبهٔ، نشرهٔ شهریّهٔ، مع إقامهٔ مسابقات القِراءهٔ

ب) إنتاجُ مئات أجهزهٍ تحقیقیّهٔ و مکتبیهٔ، قابلهٔ للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیّهِٔ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکهٔ و... الأماکن الدینیّهٔ، السیاحیّهٔ و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّهٔ" www.Ghaemiyeh.com و عدّهٔ مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّهٔ، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّهٔ

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابهٔ الأسئلهٔ الشرعیّهٔ، الاخلاقیّهٔ و الاعتقادیّهٔ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرهٔ SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّهٔ و اعتباریّهٔ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّهٔ، الجوامع، الأماکن الدینیّهٔ کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامهٔ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسهٔ" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسهٔ

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.